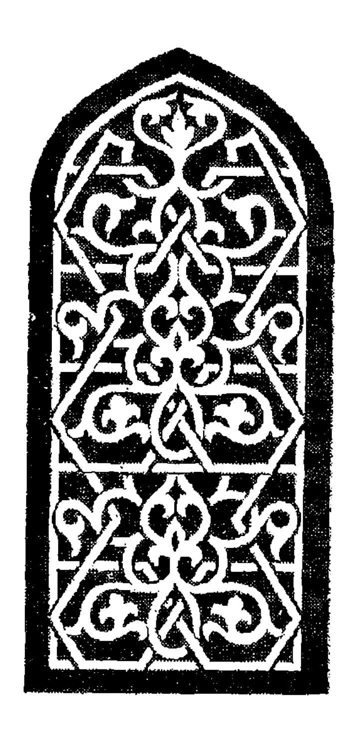
جمهورية مصر العربية
المجلس الأعلى
للشئون الإسلامية



وأولياؤها الصالحون

الجزء الثاني



الدكتورة سعاد ماهر محمد

يشرف على إصدارها
محمد توفيق عويضة


مساجد مصر
وأولياؤها الصالحون

الإخراج والإشراف الفنى :
عبد السلام الشريف

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين
والصلاة والسلام على سيدنا
محمد صلى الله عليه وسلم
وعلى آله وصحبه أجمعين

ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيىء لنا من أمرنا رشدا وامنحنا العون حتى يصبح الجزء الثانى من هذا الكتاب أثراً يوضح آثار الأبرار . وعملا صالحاً يبارك به ذكر الصالحين الأخيار الذين يسَّر الله لهم فأقاموا هذه المساجد يذكر فيها اسم الله [illegible] عبادة ودراسة وتقرباً وتنويراً ، فلهم من الله حسن الجزاء ومنّا أطيب الثناء .

مقدمة

العمارة كما سبق القول هى السجل الذى يستقى منه تاريخ الأقدمين بما فيه من تقدم وازدهار ، أو تدهور وتخلف ، ومن ثم ومن ثم فقد سجلت لنا العمارة الإسلامية وخاصة الدينية منها تاريخ الدول المتعاقبة وأعطتنا صورة صادقة عن منشئها . ذلك أن العقيدة الإسلامية التى تغلغلت فى نفوس معتنقيها لسماحتها وملاءمتها لطبيعة النفس البشرية ولحرصها على الاسعاد فى الدارين ، ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بعمارة المساجد التى يعمرها من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله .

ويعمرها الزاهدون ، والمتصوفون ، والذاكرون الله كثيراً ، والعارفين بالله . ويعمرها حلقات الدرس من فقه وحديث ومنطق وكلام ، ومجالس الأدب من نحو وبلاغة ونقد ، وندوات الاجتماع التى تتعرض لسائر العلوم . ويعمرها العلماء والفقهاء ، والأئمة والأدباء ويقوى بها الضعيف ، والغريب ويأنس إليها ابن السبيل والمسكين ، ويرفع صوته فيها الآمر بالمعروف والناهى عن المنكر والداعى إلى الخير .

فالمساجد دين وخلق وهدى ونور ، وصومعة الناسك ومدرسة الدارس ، وديناً وقوة ودرك للعزة فى الأولى والفوز العظيم فى الآخرة .

ولقد تناولت فى الجزء الأول من كتابى الذى أسميه « مساجد مصر وأولياؤها الصالحون» الذين تنشرح بذكرهم الصدور ، وتعمر القلوب ، وتتوثب الهمم ، لما فيها من عظة حافذة، وعبرة بالغة ولما لهم علينا من حق يشرفنا أداؤه ويسعدنا قضاؤه . قلت تناولت فى الجزء الأول عمارة المسجد منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وتدرجت فى تسلسل زمنى حتى وصلت إلى نهاية العصر الفاطمى .

وها أنذا أتقدم بالجزء الثانى الذى تناولت فيه عمارة العصر الأيوبى . وقد نهجت فيه نفس المنهج الذى اتبعته فى الجزء الأول فقد جمعت فى دراستى لعمائر العصر الأيوبى بين ترجمة المنشىء أو صاحب الضريح والتاريخ السياسى للفترة التى أنشىء فيها الأثر . كما

تناولت فى كثير من الأحيان دراسة تاريخ البلد أو الحى الذى يوجد فيه الأثر . واتبعت هذه الدراسة بوصف معمارى للأثر منذ نشأته والإصلاحات والترميمات التى أجريت له خلال العصور . وإتماما للفائدة فقد زودت الكتاب بمجموعة من الرسوم التخطيطية وبعدد كبير من اللوحات الملونة والبيضاء والسوداء بلغ عددها (٢١٠) .

وعنيت عناية خاصة بعمل مجموعة من ثبت الفهارس وخصصت بعضها لوصف اللوحات والأشكال وصفاً تفصيلياً دقيقاً ، وأخرى لأسماء الأعلام ، وثالثة لأسماء الأماكن والبقاع ، ورابعة للمراجع العربية والأجنبية هذا بالإضافة إلى فهرس الموضوعات .

وبعـــد ،

فإننى أجد لزاماً على وأنا أضع الجزء الثانى من كتابى «مساجد مصر وأولياؤها الصالحون» بين يدى القارئ أن أسجل كلمة شكر وعرفان بالفضل والجميل لمن أبت عليه نخوته الدينية وإيمانه العميق بالله تعالى وببيوته إلا أن يتم فضله فى إبراز الجزء الثانى وبنفس المظهر المشرف الذى ظهر فيه الجزء الأول رغم الظروف القاسية التى يعانيها الكتاب المطبوع فى مصر الآن ، ألا وهو السيد الفاضل الأستاذ توفيق عويضة سكرتير المجلس الأعلى للشئون الإسلامية . كذلك أدين بالشكر والتقدير إلى المرحوم الأستاذ إبراهيم ناصف مدير إدارة المراجعة بمجلس الأمة ، سابقا .

كما لايفوتنى أن أقدم شكرى لكل من عاوننى فى طبع هذا الكتاب وأخص بالذكر منهم الأستاذ فؤاد هيبة .

والله نسأل أن يهدينا سواء السبيل .

الجيزة فى ١٠ رمضان ١٣٩٣ ــ ٦ أكتوبر سنة ١٩٧٣

سعاد ماهر محمد

مميزات العمارة فى العصر الأيوبى

لقد كان الأيوبيون محوراً هاماً ودعامة أساسية ، وقلعة حصينة من القلاع التى صدت الحروب الصليبية ، ووقفتها ثم دحرتها، ومهدت للظفر العربى والنصر الإسلامى .

لقد اشتهر العصر الأيوبى بأنه عصر الحروب الصليبية ، فقد فتح الأيوبيون عيونهم والصليبيون فى أرجاء الوطن العربى الكبير وأغمض آخر ملوكهم وسلاطينهم الصالح نجم الدين أيوب عينيه وهو يحاربهم فى دمياط وانتصر عليهم فى المنصورة (سنة٦٤٨ هـ سنة ١٢٥٠م) . وهكذا نستطيع القول بأن الدولة الأيوبية كانت دولة عسكرية عنيت فى المقام الأول بالعمارة الحربية والاستحكامات العسكرية . كما أقامت الأضرحة لأولياء الله الصالحين اللذين ساعدوها على نشر الوعى الدينى فى الوطن العربى عامة ومصر خاصة والحث على الاستشهاد فى سبيل العقيدة والوطن . كذلك اهتمت ببناء المدارس التى ساعدت على نشر مذهبها السنى بدلا من مذهب الفواطم الشيعى .

ولعل من أهم الأعمال المعمارية التى تمت فى عصر الدولة الأيوبية التى لم تدم أكثر من تسعة وسبعين عاماً (٥٦٧هـ/١١٧١م حتى ٦٤٨هـ/١٢٥٠م) قلعة الجبل العظيمة التى بدأها صلاح الدين الأيوبى وتمت فى عهد أخيه الملك العادل . وقد ظهر فى بناء القلعة تطورات معمارية ، كانت حصيلة عوامل عدة لعل أهمها التجارب والخبرة الحربية التى اكتسبها الأيوبيون من حروبهم مع الصليبيين . كما استفادوا من الاستحكامات الحربية التى أقامها من قبلهم الفواطم ، مثل أسوار مدينة القاهرة والقلاع والحصون فى سوريا وأعلى الفرات .

ومن أبرز تلك التطورات المعمارية كثرة استعمال المداخل المنكسرة [Bententrace] التى استعملها من قبل بدر الجمالى فى أبواب أسوار مدينة القاهرة وإنما على قلة . كما تطور بناء فتحات رمى السهام Arrow-slit فبعد أن كانت مرتفعة فى سور القاهرة يصعد إليها

المحارب بمجموعة من الدرجات ، أصبحت فى قلعة صلاح الدين فى مستوى أرضية البرج أو السور وداخله فى حنية كثيرة العمق بحيث تسمح للمحارب الوصول إليها بسرعة كما تهيء له الحنية مكاناً مناسباً للوقوف فيه حتى يتمكن من تصويب الهدف بدقة .

ومن العمائر التى انتشرت فى العصر الأيوبى الأضرحة التى اتخذت شكلاً معيناً وهو مربع مغطى بقبة . على أن إقامة الأضرحة ليست حدثاً فى العصر الأيوبى ، فقد أقامت الدولة الفاطمية الكثير من الأضرحة التى قصرتها على آل البيت وكبار رجال الدولة من الشيعة . وقد عرفت أضرحة العصر الفاطمى باسم المشاهد أسوة بما أطلق على أضرحة الأئمة من العلويين .

وقد يكون من المفيد أن نذكر هنا شيئاً عن السبب الذى من أجله أطلق الشيعة كلمة مشهد على أضرحة الأئمة من العلويين وخاصة مشهد الإمام على والإمام الحسين رضوان الله عليهما . المشهد لغة هو مجمع الناس ومحفلهم ، وكل مكان يشهده الخلق ويحتشدون به فهو مشهد . ولما كان مرقد الإمام على بالنجف يجتمع الناس فيه ويحضرون إليه من أقصى البلاد وأدناها ليتبرك بزيارته أهل الشيعة والسنة على السواء ، غقد عرف بالمشهد حتى كاد أن يختص به . ولهذا يقال فى النسبة إليه مشهدى ، وجاء فى مجمع البحرين ، المشهدان يقصد بهما مرقد الإمام على بالنجف ومرقد الإمام الحسين بكربلاء . وقد شاع استعمال كلمة المشهد فى العراق قديماً وحديثاً لمرقد الأئمة فقد جاء فى القصيدة التى قالها أبو اسحق الصابى الذى يمدح عضد الدولة البويهى عند زيارته الحرم العلوى فى النجف مايلى :

توجهت نحو (المشهد) العلم الفرد على اليمين والتوفيق والطائر السعد

تزور أمـــير المؤمـــنين فيـاله ويا لك من مجـــد منيخ على مجـد

فلما جاءت الدولة الأيوبية رأت أن تحول الأنظار عن أضرحة الشيعة وذلك ببناء أضرحة لأئمة السنة . فأقامت أم السلطان الملك الكامل قبة الإمام الشافعى سنة ٦٠٨هـ وأجرت عليها المـاء من بركة الحبش ومنذ ذلك الوقت أقبل الناس على بناء مقابر موتاهم بجوار الإمام الشافعى وعرفت تلك المنطقة بالقرافة الصغرى .

وقد تميزت عمارة المشاهد والأضرحة بأسلوب معمارى خاص قوامه مربع تعلوه قبة . أما منطقة الانتقال من المربع إلى الدائرة فقد تطورت فى مصر منذ بداية العصر الفاطمى .

على أن العالم الإسلامى قد عرف إقامة الأضرحة المغطاة بقباب قبل مصر بقرن ونصف من الزمان تقريباً .

فمن المعروف أن أول ضريح مغطى فى الإسلام هو قبة الصليبية بمدينة سامراء بالعراق الذى أقامته أم الخليفة المنتصر وهى يونانية الأصل (سنة ٢٤٨ هـ/سنة ٨٦٢م) . وقد دفن فيه إلى جوار الخليفة المنتصر الخليفة المعتز ثم المهتدى . ويتكون الضريح من غرفة مربعة من الداخل ومثمنة من الخارج ويحيط بها ممر مغطى بقبو نصف دائرى . أما الغرفة المتوسطة فتغطيها قبة تقوم على مثلثات (brackets) فى أركان المربع . ويقوم على المربع رقبة مثمنة ثم يأتى بعد ذلك دائرة القبة . وقد وجد مثل هذا الأسلوب المعمارى فى تحويل المربع إلى مثمن يسهل معه إقامة القبة عليه ، منذ القرن السادس الميلادى فى كنيسة القديس جرجس بعذرا بسوريا . وفى فارس بنى ضريح اسماعيل السامانى (سنة ٢٩٥ هـ/سنة ٩٠٧م) فى بخارى على شكل مكعب وفى كل ركن من أركان المكعب بنى مقرنص كبير ثم بنيت فوق ذلك القبة مباشرة دون استعمال رقبة .

ولعل أقدم ضريح بنيت عليه قبة فى مصر هو أضرحة (السبع بنات) التى ترجع (سنة ٤٠٠ـ١٠١٠م) ويتكون كل ضريح من ثلاث طبقات ، الطابق الأول وهو على شكل مكعب فتح فى كل ضلع من أضلاعه المربعة عقد . وعلى الطابق الأول تأتى رقبة القبة التى تقوم على المقرنصات التى أقيمت فى أركان المربع وبذلك حولت المربع إلى مثمن . ومن ثم فقد جاءت الرقبة مثمنة ويتخللها أربع نوافذ . ما الطابق الثالث فتشغله القبة . ومن هذه الأضرحة أخذت مصر الأسلوب المعمارى للمشاهد والأضرحة التى أقيمت منذ العصر الفاطمى وحتى نهاية العصر المملوكى . وقوام هذا الأسلوب هو غرفة مربعة تأتى فوقها منطقة الانتقال التى تبدأ من مقرنص واحد ، كما هو الحال فى (السبع بنات) ثم تأخذ المقرنصات فى التطور من حيث صغر الحجم ومن حيث زيادة عدد صفوف المقرنصات التى تشغل ركن المربع ، وهى المنطقة التى تعرف بمنطقة الانتقال فى عمارة القباب . وتتطور صفوف المقرنصات من صف واحد فى السبع بنات إلى ثلاثة عشر صفاً فى قبة الغورى وفى قبة بيبرس الخياط .

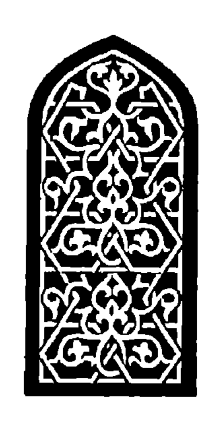
أما عن تطور المقرنصات فى العصر الأيوبى فقد ظهر فى ضريح الخلفاء العباسيين

سنة ١٢٤٢ ، الذى تطور عن ضريح الجعفرى المكون من مقرنص واحد فى ركن المربع وعلى جانبيه مقرنصان صغيران ويعلو المقرنصات الثلاثة مقرنص رابع يتقدمهم قليلا . أما ضريح الخلفاء العباسيين فتتكون مرحلة الانتقال من صفين من المقرنصات ويحتوى كل صف على ثلاثة مقرنصات أما ضريح السلطان الصالح نجم الدين أيوب فتحتوى منطقة الانتقال على ثلاثة صفوف من المقرنصات ويتكون كل صف من ثلاثة مقرنصات ، وقد بنى هذا الضريح سنة ٦٤٨ هـ/ سنة ١٢٥٠ م آخر مبانى العصر الأيوبى .

أما النظام المعمارى للمدارس ذات الأوانين ، فإن أول من أدخلها فى مصر هو صلاح الدين الأيوبى . فقد ظهرت المدارس ذات الأوانين فى مصر فى العصر الأيوبى ، وإن كان نظام الأيوانين المتقابلين قد عرفته مصر فى بيوتها من قبل ، وهو النظام الذى عرف فى العمارة باسم «المقعد» . ولم تظهر فى مصر مدارس ذات أواوين متعامدة فى العصر الأيوبى على الرغم من أن المدرسة الصالحية كانت تحتوى على أربعة أيوانات ولكنها ليست متعامدة .

ومن مميزات العمارة الأيوبية أن مادة الحجارة حلت تدريجياً محل الآجر الذى شاع استعماله فى العصر الفاطمى . وقد استمر استخدام مادة الجص فى الزخارف المعمارية وإن كان الأسلوب الزخرفى تطور تطوراً كبيراً فى العصر الأيوبى . فقدأصبحت الزخارف النباتية قريبة من الطبيعة إلى حد كبير ومليئة بالحياة والحركة . وكثر استعمال الزجاج المعشق فى الجص المتعدد الألوان وخاصة اللون الأخضر والأصفر . كما طليت الزخارف الجصية باللون الأسود والذهبى .

ومن المواد التى استخدمت بكثرة فى عمارة العصر الأيوبى الرخام الذى كسيت به معظم حنيات المحاريب . وقد ظهر فى زخارف القرن السابع الهجرى تأثيرات أندلسية ظاهرة وخاصة فى الزخارف الجصية فى ضريح الإمام الشافعى ، وفى مئذنة الإمام الحسين رضوان الله عليهما التى ترجع إلى العصر الأيوبى . أما عن المآذن فى العصر الأيوبى فلا يكاد يبقى منها غير مئذنتين ، وتتكون كل منهما من قاعدة مربعة يعلوها بدن مزخرف بحنيات فى كل ضلع وينتهى البدن بشكل مبخرة .



جامع السادات ومسجد أمير الجيش

بمدينة بلبيس
بمحافظة الشرقية

من الراجح أن يكون هذا المسجد من المساجد الأُولى التى أنشئت فى مصر عند فتح العرب لها ، إذ يجمع المؤرخون من عرب ومستشرقين على أن الجيش الإسلامى بقيادة عمرو ابن العاص بعد أن استولى على مدينة الفرما ، سار من (السنجة) التى حول الفرما إلى أرض تليها يغطيها رمل قد خالطه الصدف الأبيض حتى بلغ مدينة (مجدول) القديمة التى تقع إلى الجنوب الغربى من الفرما ، ومن (مجدول) سار الجيش إلى موضع يقع على قناة السويس مكانه الآن (القنطرة) . وقد لزم العرب جانب الصحراء ، ولعلهم قصدوا إلى مدينة الصالحية ، مخالفين فى ذلك أكثر من عداهم من فاتحى مصر ، فإن قمبيز مثلا سلك طريقا آخر ، إذ اتجه من الفرما غربا إلى (سنهور) و (تانيس) ثم تل بسطه (الزقازيق الحالية) ولكن فى وقت غزو العرب كانت مياه بحيرة المنزلة قد طغت على ما حولها فأصبحت الطريق من هناك صعبة المسلك ، وكان جيش عمرو كله من الفرسان ، ولم يكن عندهم شئ من وسائل بناء القناطر على الترع والأنهار . ثم سار عمرو من الصالحية أو (القصاصين) إلى الجنوب فاجتاز تلال وادى الطميلات ، فلما خرج من الوادى لم يبق دونه إلا سير هين حتى يبلغ بلبيس .

وفى بلبيس بدأ الجيش الرومانى المقاومة فالتحم مع الجيش الإسلامى وقد دارت الدائرة على الرومان فهزمت جيوشهم وتمزقت شر ممزق .

ويضيف ابن عبد الحكم « غير أن العرب لبثوا مدة شهر عند بلبيس حدث فى أثنا

قتل كثير وقتل من سادات قريش والعرب عدد ليس بالقليل ، ويقال إن الروم خسروا ألف قتيل وثلاثة آلاف أسير » . ويضيف الطبرى وابن الأثير على ذلك فيقولان : « إن القبائل العربية التى استقرت فى بلبيس ولم تتابع سير الجيش الإسلامى إلى حصن بابليون (بمصر القديمة) أقامت فى المكان الذى استشهد فيه سادات قريش والعرب مسجدا أسمته جامع السادات » .

وبلبيس مدينة قديمة تقع بين عين شمس و (تل بسطه) فى الصحراء الشرقية . ويصفها اليعقوبى والمقدسى فيقولان : بلبيس مدينة مليحة وهى قصبة الحوف الشرقى ، وبها والى الحرب وبها جامع السادات ومدارس وأسواق وفنادق وبساتين- وبها نخل كثير ويمر بها نهر من النيل أيام زيادته وهى مسورة » . ويضيف المقريزى : « إن بلبيس سميت فى التوراة أرض جاشان » .

وكانت بلبيس قاعدة الحوف الشرقى (محافظة الشرقية) فى أوائل العصر الإسلامى ثم قاعدة الأعمال الشرقية من العصر الفاطمى حتى نهاية العصر المملوكى ، ثم قاعدة ولاية الشرقية فى القرن التاسع عشر الميلادى حين نقل ديوان المديرية إلى مدينة الزقازيق وبذلك أصبحت بلبيس قاعدة لقسم بلبيس .

أما عن سادة قريش الذين استشهدوا فى بلبيس أثناء فتح عمرو بن العاص لمصر فقد حصرت أسماء الصحابة من المهاجرين والأنصار الذين وفدوا مع عمرو بن العاص لفتح مصر وقاتلوا فى جيشه فوجدتهم يقربون من مائة وعشرين صحابيا من مختلف القبائل والأجناس . وبالبحث فى تراجمهم وجدت أن جماعة منهم قد استشهدت فى فتح مصر نذكر منهم الصحابى (برتاد بن الأسود بن عبد شمس القضاعى) قال ابن يونس أن له صحبة وشهد فتح مصر وقتل يوم فتح الإسكندرية أو فى معارك بلبيس . ويذكر ابن حجر فى الإصابة أن ثمامة الردمانى شهد مع مولاه خارجه بن عراك فتح مصر واستشهد في بلبيس . كذلك ذكر جعثم الخير بن خليبة بن ساجى ابن موهب الصدفى ضمن الصحابة الذين شهدوا فتح مصر واستشهدوا فيه . وجاء فى ترجمته ، أنه بايع تحت الشجرة وكساه الرسول صلى الله عليه وسلم قميصه ونعليه وأعطاه من شعره . ويقول ابن الربيع إن أبا فاطمة الأشعرى صحابى شهد فتح مصر واستشهد فى بلبيس . ومن المرجح أن تكون القبائل العربية التى تخلفت

فى بلبيس ولم تذهب مع باقى الجيش لفتح حصن بابليون قد أقامت على هؤلاء وغيرهم ممن استشهدوا فى المعارك مسجدا أطلقوا عليه اسم جامع السادات تكريما لصحابة رسول الله رضوان الله عليهم أجمعين .

وجاء فى التجريد « أنه كان على مقدمة عمرو بن العاص يوم فتح مصر (شريك بن سمى العطيفى المرادى) وأنه مات فى بلبيس ، فمن المرجح أن يكون الضريح المعروف فى بلبيس باسم (أمير الجيش) هو ضريح (شريك) على أنه كان أمير الجيش وقائده فى تلك المنطقة .

* * *

أما عن تاريخ إقليم الشرقية فإنه عرف باسمه الحالى فى عهد الدولة الفاطمية ، وكان قبل ذلك مقسما إلى عدة كور صغيرة كل كورة قائمة بذاتها ، ثم ضم بعضها إلى بعض وسميت بالشرقية لوقوعها فى الجهة الشرقية من الوجه البحرى .

ولما جاء عمرو بن العاص لفتح مصر سار على رأس جيش مكون من أربعة آلاف مقاتل حتى هبط رفحا فالعريش ، التى استولى عليها بسهولة على الرغم من أنها كانت مدينة ذات حصون . ويقول بتلر إن الروم خسروا ألف قتيل وثلاثة آلاف أسير فى معارك بلبيس حين نشوب الحرب كما قتل من المسلمين عددا ليس بالقليل . وقيل إن ابنة المقوقس كانت فى بلبيس حين اشتدت المعارك فأرسلها عمرو إلى أبيها معززة مكرمة ، فكسب بذلك محبة المصريين . وبعد أن أمضى العرب فى بلبيس قرابة شهر هبطوا منها إلى أم دنين لاستكمال الفتح حتى تم لهم ما أرادوا وأصبحت مصر قطرا إسلاميا كان ولا يزال دره فى تاج الدول الإسلامية .

وقد سلك عمرو بجيشه بعد استيلائه على الفرما طريق بلدة القنطرة ملتزما بذلك جانب الصحراء ، وحدث فى أثناء الفتح العربى أن كانت مياه بحيرة المنزلة قد طغت على ما حولها فأصبح الطريق من هناك صعب المسالك ، وكان جيش عمرو جله من الفرسان ولم تكن لديهم وسائل بناء القناطر على الترع والأنهار ، فسار من القصاصين جنوبا واجتاز تلال وادى الطميلات فى موضع قريب من التل الكبير حتى بلغ بلدة بلبيس .

وجاء مصر فى العهد الأموى مروان الثانى آخر خلفاء بنى أمية بعد هزيمته أمام خصومه العباسيين فى واقعة الزاب الكبرى المشهورة ، وقد أقام فى طريقه فترة فى بعض قرى الشرقية ، ومنها أرسل قوات للاستيلاء على مصر الوسطى والإسكندرية ، ولكن دهمته جيوش العباسيين بقيادة صالح بن على فى بلدة بوصير بإقليم الفيوم حيث لقى حتفه . وقد أرشد عنه أعراب الشرقية اللذين كان قد انتشر فى ربوعهم المذهب الشيعى . ولم تقف ثورات أعراب الشرقية بزوال الدولة الأموية بل كانت أكثر التهابا فى عهد العباسيين ، فعلى أثر وفاة الرشيد ونشوب الخلاف بين ولديه الأمين والمأمون عاد أعراب الشرقية إلى ثورتهم القديمة ، لأن الأمين كان قد تحبب إليهم بأن عهد ببعض الوظائف الكبرى إلى رؤسائهم فضمن بذلك ولاءهم حتى ثاروا فى وجه والى مصر من قبل المأمون وتغلبوا عليه وقتلوه . ولما استتب الأمر للمأمون عين عبد الله بن طاهر واليا على مصر فاستطاع بحزمه وسداد رأيه أن يقف ثورات المصريين عامة ، ويعيد الهدوء إلى ربوع القطر بأجمعه .

[illegible] في [illegible] لثالث الهجرى انقطع ما بين مصر ودولة بنى العباس من أسباب وا[illegible] ما كان [illegible] بمركز الخلافة ببغداد من عرى الروابط وتربع على عرش مصر إذ ذاك أحمد بن طولون الذى أنشأ له فى مصر دولة دانت لها الشام وبعض أقطار أخرى وخشى بأسها الخليفة العباسى .

وفى نهاية الدولة الفاطمية ، عمت الفوضى والاضطراب ربوع البلاد أثر النزاع بين الوزيرين [illegible] ريين شاور وضرغام وامتد النزاع إلى خارج حدود مصر إذ عوّل كل منهما – إمعانا [illegible] الكيد لخصمه – [illegible] أن يستعين بجيوش غير مصرية للانتقام والفتك من [illegible] افسه ، فطلب ضرغام من الصليبيين الحضور إلى مصر ليضمنوا له الوزارة دون غريمه ساور الذى استعان بدوره بسلطان حلب (نور الدين) لنفس الأمر ، فما كان من نور الدين إلا أن أرسل إليه جيشا بقيادة أسد الدين شيركوه و[illegible]ح الدين الأيوبى فالتقى بجيوش ضرغام من المصريين عند بلبيس ، حي[illegible] شيركوه وهبط بعد ذلك إلى الفسطاط ولم [illegible]ن قتل ضرغام وفاز شاور غير أنه تنكر لحلفائه وناصريه ، ومد يده إلى الصليبيين [illegible] أعوانا له ضد شي[illegible] [illegible]قدم ملك [illegible] [illegible]تدس إلى بلبيس وضيق الخناق

على جيش نور الدين ولم يرفع الحصار عن المدينة إلا بعد أن جاءته الأنباء بأن نور الدين استولى على أملاك الصليبيين فى الشام عند ذلك أسرع (أماريك) ملك الفرنجة فى العودة .

زعم كثير من المستشرقين أن العروبة فى وادى النيل بشطريه لا يتجاوز تاريخها عصر الفتوح الإسلامية الأولى ، ولو درس هؤلاء الهجرات الآتية من طريق سيناء إلى مصر الفرعونية دراسة عابرة لكفاهم ذلك فى دحض هذا الزعم ، على أنه من الثابت والمتفق عليه اليوم ، أن موجات الساميين قد انبعثت منذ فجر التاريخ من جزيرة العرب إلى البلاد التى تدخل اليوم فى نطاق الوطن العربى الأكبر ، بل إلى بلاد أخرى غيرها ، وكل ما فى الأمر أن الذى أطلق على هذه الشعوب كلمة (الساميين) هو عالم نمساوى فى القرن الثامن عشر ، اقتداء بما ورد فى بعض أسفار التوراة من أن هذه الشعوب تنتمى إلى سام بن نوح عليه السلام .

ومن بين هذه الشعوب ، العرب المقيمين فى جزيرتهم ، وجزيرة العرب ، هى المهد الأول للساميين أنفسهم ، فلامعنى لأن نفرق فى الاصطلاح بين العرب المقيمين فى الجزيرة ، وبين العرب النازحين منها . وغاية ما نفهمه من هذا الاصطلاح أن الساميين عرب سموا كذلك نسبة إلى جدهم الأول ، أما لفظ العرب ، فهو فى الأصل نسبة إلى (العربة) أى الصحراء ، أو مكان يقع فى الشمال الغربى من جزيرة العرب كان يسمى بهذا الاسم .

وفى مدة فتح عمرو بن العاص لمصر لم تكن قناة السويس موجودة ، وكان النيل يغمر البلاد مدة الفيضان ، فإذا انحسرت مياهه وتركت مستنقعات وأراض مغطاة بالكلإ والحشائش صالحة لرعى الأغنام فى معظم أراضى الشرقية ، وبخاصة الشمالية منها والمجاورة للصحراء ، مما شجع القبائل العربية بعد الفتح على الرحيل إليها لقربها منهم فأخذوا يتنقلون فيها ولم يجدوا فارقا بينها وبين صحارى بلادهم . وقد استوطن كثير من العرب بعد الفتح الجهات الشرقية من مصر ، واستمروا بها حتى أواخر الدولة العباسية حيث سادت الفوضى بالبلاد العربية وحل القحط بمصر . فرحل بعض القبائل من الشرقية ومن مصر كلها متجهين ناحية الغرب وبخاصة إلى طرابلس . ولما عاد الأمن والرخاء إلى مصر فى عهد الفاطميين عاد بعض هذه القبائل إلى مصر ، ومن ذلك العهد سمى العرب الذين لم يرحلوا إلى الغرب ، عرب الشرق ، بينما عرف من عاد منها إلى مصر ، عرب المغرب .

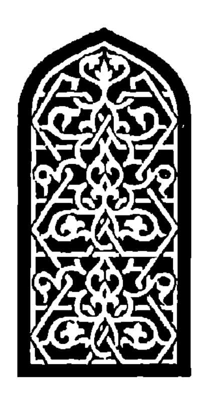
وصف المسجد

ومن المرجح أن يكون المسجد الأول الذى أقيم تخليدا لذكرى سادات جيش المسلمين اللين شهدوا فتح مصر ، بسيطا وبدائيا على غرار مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة المنورة ، الذى بنى بالطوب اللبن وأقيم فيه جهة القبلة صفان من جذوع النخل بدلا من الأعمدة سقف فوقها بالسعف والطمى . أو أن يكون قد بنى على نهج مسجدى البصرة الذى أنشئ سنة ١٦ هـ ومسجد الكوفة الذى بنى سنة ١٨هـ وهما عبارة عن مساحة بسيطة من الأرض لا تعدو ٥×٣٠ ذراعا اختط حولها خندقا حتى يعزلها عن الأراضى المحيطة بها ويضمن لها الطهارة المطلوبة . وعلى ذلك يكون مسجد السادات ببلبيس أول مسجد أقيم فى مصر الإسلامية ، وأنه أسبق من حيث التاريخ من مسجدى الرحمة فى الاسكندرية وعمرو بالفسطاط . وبطبيعة الحال توالت يد التجديد والتعمير للمسجد خلال العصور ، وآخر هذه العمائر ترجع إلى العصر العثمانى فقد أعاد بناءه الأمير مصطفى الكاشف سنة ١٠٠٢هـ.

ويتكون المسجد من مستطيل يحتوى على ثلاثة صفوف من الأعمدة الرخامية تقسم المسجد إلى أربعة أروقة موازية لحائط القبلة . وتيجان الأعمدة مختلفة الأشكال والطراز مما يدل على قدمها وعلى أنها أخذت من أماكن متعددة ، وتحمل الأعمدة عقودا مدببة فيما عدا العقود المتوسطة التى على محور القبلة فهى نصف دائرية وأكبر اتساعا من باقى العقود . ويقابل كل عقد فى جدار القبلة نافذة ذات ثلاث فتحات على شكل القنديلية ، كما يوجد فى الجدار الشرقى مقابل كل رواق نافذة مماثلة . أما باقى المسجد فمتهدم ولم يبق منه إلا المئذنة التى ثبت على بابها لوح من الرخام طوله ٥٧×٥٥سم نقش عليه النص التالى : « أنشأ هذا المنار المبارك الجناب العالى الأمير مصطفى الكاشف بالشرقية فى شعبان المكرم من شهور سنة ١٠٠٢ هـ » .

أما ضريح أمير الجيش والذى أرجح أن يكون الصحابى (شريك بن سمى العطيفى) فيتكون من مربع فى أركانه حنية كبيرة بداخلها حنية ثانية وفوق الحنيات الأربعة

القائمة فى أركان المربع ترتفع رقبة مثمنة بها أربع نوافذ . وفوق الرقبة تقوم القبة . وفى الضلع الشرقى للضريح أقيم مسجد بسيط يتكون من مستطيل به صفان من الأعمدة تقسمه إلى ثلاثة أروقة موازية للقبلة وبوسط المسجد فتحة مربعة لها رقبة بها نوافذ صغيرة للاضاءة والتهوية . وللمسجد باب فى كل ضلع من أضلاعه عدا حائط القبلة . ويرجع مبنى الضريح القائم حاليا إلى العصر العثمانى ، أما المسجد فمبانيه حديثة .



جامع محمد بن أبي بكر الصديق أو محمد الصغير

بشارع باب الوداع
بمصر القديمة

هو محمد بن أبى بكر الصديق رضى الله عنهما يكنى بأبى القاسم . أمه السيدة أسماء بنت عميس الخثعمية تزوج بها جعفر بن أبى طالب ثم مات عنها فتزوجها أبو بكر الصديق رضى الله عنه فمات عنها فتزوجها على بن أبى طالب رضى الله عنهم أجمعين . ولد محمد ابن أبى بكر الصديق فى حجة الوداع ، ولذلك فقد اختلف الناس فى كونه صحابيا ، فمنهم من عده فى الصحابة لأنه ولد فى حجة الوداع ومنهم من لم يعده فى الصحابة ، قال أبو زرعة الرازى قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مائة ألف وأربعة عشر ألفا من الصحابة ممن روى عنه .

وكان محمد بن أبى بكر الصديق كثير العبادة ناسكا كنى بأبى القاسم نسبة إلى ولده القاسم الذى كان عالم المدينة فى وقته وأحد فقهائها السبعة . وكان محمد بن أبى بكر عند على بن أبى طالب مكرما معظما فولاه ولاية مصر ، فأحبه أهلها لما رأوا من سياسته ورياضة أخلاقه .

وكان محمد بن أبى بكر قد تزوج السيدة عاتكة[1] بنت زيد بن عمر بن نفيل العدوى القرشى بعد الزبير بن العوام ودخلت معه مصر وماتت بها ، وهى مدفونة بمشهد السيدة رقية بنت الامام على الرضا بشارع الخليفة . وقد ذكرت بعض المراجع الأخرى[2] ، أن عاتكة بنت زيد كانت زوج ابن آخر لأبى بكر الصديق هو عبد الله ابن أبى بكر

(*) المسجد مسجل أثر رقم (٥٢٩) .
(١) السخاوى : تحفة الأحباب ص ١٢١ .
(٢) العقاد : عبقرية الصديق ص ١٩٩ .

الذى كان يأتيه بأخبار قريش حين هاجر مع النبى إلى المدينة ، وقد جرح بالطائف بجرحه بعد انتقاضه ، ومعنى ذلك أنه مات قبل مولد أخيه محمد .

ويسرد العقاد قصة زواج عبد الله بعاتكة فيقول : وكانت عاتكة من أشهر نساء عصرها بالجمال والعقل والفطنة ففتن بها عبد الله وشغل بها عن مصالحه وشئونه ، فنصح له والده بطلاقها ، فطلقها ، فما زال حتى ندم وألح به الندم على فراقها ، وقال من شعره فيها :

أعاتك لا أنساك ماذر شـــارق ... وما لاح نجم فى السماء محلق

أعاتك قلبى كل يـــوم وليلـــة ... لديك بما تخفى النفوس معلق

لهـــا خلق جزل ورأى ومنصب ... وخلق سوى فى الحياة ومصـــدق

ولم أر مثلى طلق اليوم مثلهـــا ... ولامثلها فى غير شئ تطلق

فلما سمع ذلك أبوه رحمه وأمره بمراجعتها فراجعها ، ولا أدرى هل تزوجها بعد وفاة عبد الله عنها الزبير بن العوام ، فلما قضى تزوجها محمد بن أبى بكر ، أم هى عاتكة غيرها. أم هناك خطأ ؟ ولكن الذى نستطيع أن نؤكده أنه يوجد بمشهد السيدة رقية بشارع الخليفة ضريح للسيدة عاتكة بنت زيد بن عمر .

وكان محمد بن أبى بكر من الموالين للإمام على بن أبى طالب فى الصراع الذى وقع بينه وبين معاوية أثر مقتل الخليفة عثمان بن عفان ، فلما احتدم النزاع بينهما ولى على بن أبى طالب محمد بن أبى بكر إمرة مصر . ولكى نتعرف الظروف التى أحاطت بولاية محمد ابن أبى بكر لمصر والتى أدت فى النهاية إلى قتله يجب أن نبدأ بحادثة مقتل عثمان .

لمـــا قتل الخليفة عثمان بن عفان فى ذى الحجة سنة خمس وثلاثين ، وكان قد خرج من مصر ستمائة رجل إلى قتله ، قام وشيعة عثمان بمصر وعقدوا لمعاوية بن خديج عليهم وبايعوه على الطلب بدم عثمان فسار بهم إلى الصعيد ، فبعث إليه والى مصر من قبل على محمد بن أبى حذيفة بن عتبة بجيش فانهزم ، ثم سار معاوية بن خديج إلى برقة ورجع ، فبعث إليه ابن أبى حذيفة بجيش آخر فاقتتلوا (بخربتا) .

لمـــا علم بذلك معاوية بن أبى سفيان ، جاء مسرعا إلى مصر ولكن ابن أبى حذيفة منعه أن يدخلها وأبى أن يسلمه قتلة عثمان ، فقال معاوية لايكون بيننا وبينكم حرب ، فخرج

إليه ابن أبي حذيفة وعبد الرحمن بن عديس وكنانة بن بشر وأبو شمر بن أبرهة وغيرهم من قتلة عثمان . فلما بلغوا فلسطين سجنهم بها معاوية ، ولكنهم استطاعوا الفرار من السجن غير أبي شمر ، وتبعهم صاحب فلسطين فقتلهم ولما بلغ على بن أبي طالب رضى الله عنه قتل ابن أبي حذيفة بعث قيس بن سعد بن عبادة الأنصارى على مصر ، فاستمال الخارجة (بخربتا) ودفع إليهم أعطياتهم ووفدوا عليه فأحسن إليهم ومصر يومئذ من جيش على ابن أبي طالب ، إلا أهل (خربتا) الخارجين منها .

وقد رأى معاوية بن أبي سفيان ببعد نظره وسعة حيلته ودهائه أنه سيغلب على أمره فى مصر إن لم يخرج قيس منها ، فاجتهد هو وعمرو بن العاص فى إخراج قيس من مصر ، ولكنه امتنع عليهما بالدهاء والمكايدة ، فاحتال معاوية على إخراجه بمكيدة . فقد قال لأهل الشام لاتسبو قيسا فإنه شيعة لنا ألا ترون مايفعل بإخوانكم (بخربتا) يجرى عليهم أعطياتهم ويؤمن بربهم ويحسن إليهم . فسمع جواسيس على بالعراق بذلك فأبلغوا محمد ابن أبي بكر فأنهاه هو إلى على ، فإتهم قيسا ، وبدأ صحت مكيدة معاوية .

فكتب على إلى قيس يأمره بقتال أهل (خربتا) وهم عشرة آلاف ، فأبى قيس وكتب إلى على يخبره بأنهم وجوه أهل مصر وأشرافهم ، وأنهم قد رضوا منه بأن يؤمن سربهم وأجرى عليهم أرزاقهم وقال ، قد علمت أن هواهم مع معاوية فلست بكائدهم بأمر أهون على وعليك من الذى أفعل بهم ، وهو أسود العرب . ولكن الإمام عليا رفض هذه السياسة من قيس وأبى عليه إلا قتالهم ولكنه امتنع وكتب إلى على إن كنت تتهمنى فاعزلنى .

عند ذلك وجد معاوية أن سياسة الكذب والخداع بدأت تأتى أكلها ، فكتب إلى بعض بنى أمية بالمدينة أن جزى الله قيسا خيرا قد كف عن إخواننا الذين قاتلوا فى دم عثمان ، وزيادة فى المكر والدهاء قال لهم ، اكتموا ذلك لئلا يعزله على أن بلغه ذلك . فلما بلغ عليًا لتعزلنه أنه تبدل ، فلم يزالوا به حتى كتب إلى قيس قائلا له إنى قد احتجت إليك فأقدم ، فلما قرأ الكتاب قال هذا من مكر معاوية ولولا كذبه لمكرت به مكرا يدخل عليه بيته .

ثم ولى على بدله على مصر الأشتر بن مالك ، فلما قدم القلزم (السويس) شرب مشربة عسل ، فمات فى الحال ، ولما أخبر على بذلك قال لليدين وللفم وقال عمرو بن العاص لله جنود من العسل ، ثم ولى على محمد بن أبي بكر رضى الله عنه على مصر وجمع له صلاتها وخراجها فدخلها فى نصف رمضان سنة سبع وثلاثين .

وبرغم عزل على لقيس بن سعد بن عبادة دون ما إساءة أو سبب ، إلا أن قيسا لم يبخل على محمد بن أبى بكر بالنصيحة ، فقد بادره قائلا عندما لقيه : لايمنعنى عزله إياى من نصحى لك ، ولقد عزلنى عن غير وهن ، ولا عجز فاحفظ ما أوصيك به يدم صلاح حالك . دع معاوية بن حديج ومسلمة بن مخلد ويسر بن أرطأة ومن ضوى إليهم ، لا تكفهم عن رأيهم ، فإن أتوك فاقبلهم وأن تخلفوا عنك فلا تطلبهم ، وألن جناحك لهذا الحى من مصر وقرب عليهم مكانك وارفع عنهم حجابك . وانظر هذا الحى من مدلج فدعهم وما غلبوا عليه يكفوا عنك شأنهم ، وانزل الناس منازلهم فإن استطعت أن تعود المرضى وتشهد الجنائز فافعل ، فإن هذا لا ينقصك ، إنك والله ما عملت لتظهر الخيلاء ، وتحب الرياسة والله موفقك .

وبدل أن يأخذ محمد بن أبى بكر برأى قيس أو يعمل ببعض نصائحه ، عمل بعكس ما أوصاه به تماما ، إذ بعث إلى ابن خديجة والخارجة معه يدعوهم إلى بيعته فلم يجيبوه ، فبعث إلى دور الخارجة فهدمها ونهب أموالهم وسجن ذراريهم ، فنصبوا له الحرب . فلما أحس بأنه لا قوة له بهم أمسك عنهم ثم صالحهم على أن يسيرهم إلى معاوية وأن ينصب لهم جسرا يجوزون عليه ولا يدخلون الفسطاط . ففعلوا ولحقوا بمعاوية . فلما أجمع على ومعاوية على الحكمين أغفل على أن يشترط على معاوية أن لا يقاتل أهل مصر ، فلما انصرف على إلى العراق بعث معاوية عمرو بن العاص فى جيوش الشام إلى مصر فاقتتلوا قتالا شديدا ، انهزم فيه أهل مصر ودخل عمرو الفسطاط وتغيب محمد بن أبى بكر ، فأقبل معاوية بن حديج فى رهط ممن كان يعينه على من كان يمشى فى قتل عثمان وطلب محمد ابن أبى بكر . وهنا تقول الرواية ، إنه قد دلتهم عليه امرأة فقال احفظونى فى أبى بكر ، فقال له ابن حديج ، قتلت ثمانين رجلا من قومى فى عثمان واتركك وأنت صاحبه فقتله وجعله فى جيفة حمار وأحرقه بالنار ، ودفن فى موضع الجامع المعروف باسمه .

وكانت ولاية محمد بن أبى بكر رضى الله عنهما على مصر خمسة أشهر وقتل لأربع عشرة ليلة خلت من شهر صفر سنة ثمان وثلاثين . وهناك أكثر من مكان يقال إن به رأس محمد بن أبى بكر ، ففى حارة الباطلية بالأزهر عند جامع سودون القصروى المعروف بجامع المدعى ضريح فى خلوة يعرف بضريح محمد بن أبى بكر الصديق رضى الله عنهما ، وعليه تابوت مرقوم فى كسوته اسمه وله خادم ونافذة على الطريق ويزوره كل من مر عليه بقراءة الفاتحة والدعاء عنده .

وصف الجامع

يقع هذا المسجد فى مصر القديمة بشارع باب الودائع قريبا من الباب عن يسرة السالك نحو الشرق إلى باب الوداع وبجوار قبر متهدم يعرف بالكردى . ويعرف الجامع باسم محمد الصغير . كما كان يعرف باسم زمام ، وذلك أنه بعد مضى مدة من قتله أتى زمام مولى محمد بن أبى بكر إلى الموضع الذى دفن فيه وحفر فلم يجد سوى الرأس فأخذه ومضى به إلى المسجد المعروف بمسجد زمام فدفنه فيه وبنى عليه المسجد . ويقال إن الرأس مدفون فى القبلة وبه سمى مسجد زمام . وقيل لما شق بعض أساس الدار التى كانت لمحمد ابن أبى بكر ، وجد رمة رأس قد ذهب فكه الأسفل فشاع فى الناس أنه رأس محمد ابن أبى بكر وتبادر الناس ونزلوا الجدار وموضعه قبلة المسجد القديم . كما حفر محراب مسجد زمام وطلب الرأس منه فلم يوجد وحفرت أيضا الزاوية الشرقية من هذا المسجد والمحراب القديم المجاور له والزاوية الغربية من المسجد فلم يجدوا شيئا .

على أنه مهما قيل فى وجود رأس محمد بن أبى بكر فى المحراب أو فى جدار بيته فإنه من الثابت أن مشهده موجودة مكان المسجد المعروف باسمه بمصر القديمة الآن فقد جاء فى الكواكب السيارة[1] : أن أكثر قبور أهل مصر فيها الاختلاف ولم يكن بمصر أصبح من قبر مسلمة بن مخلد ومشهد محمد بن أبى بكر الصديق ومشهد زيد بن زين العابدين ومشهد عفان . كذلك الأسعد النسابة فى تاريخه مشاهد الرؤوس وذكر من بينها مشهد رأس محمد ابن أبى بكر .

وقد أعيد بناء المسجد فى القرن التاسع الهجرى سنة ٨٣٠ هـ (١٤٢٦ م) فى عهد السلطان الأشرف[2] برسباى على يدى المقر تاج الدين الشوبكى الشامى والى القاهرة وأقيمت فيه صلاة الجمعة وباقى الأوقات وعمل فيه السماعات ، وهو مكان مشهور بإجابة الدعاء عند أهل مصر .

---

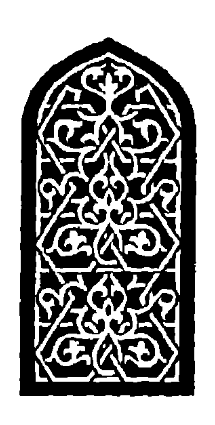
(١) ابن الزيات ص ١٠٣ .

(٢) على مبارك : الخطط التوفيقية ج ٥ ص ١٠٢ .

ثم جدد فى العصر العثمانى سنة ١٢٨٧ هـ على يدى سعادة محمد باشا أمير كما هو ثابت من اللوحة التى تعلو المدخل الرئيسى .

ويعتبر المسجد من الجوامع المعلقة إذ يصعد إليه بمجموعة من الدرجات ، ويقع المدخل الرئيسى فى الجهة الشمالية المواجهة لحائط القبلة ويتكون من عقد كبير مرتفع ذى ثلاثة فصوص ملئ تجويفه بمجموعة من الدلايات المنحوتة فى الحجر . والمسجد من الداخل مغطى كله وفى الركن الشمالى الغربى منه توجد غرفة الضريح ، التى ترجع عمارتها إلى العصر المملوكى ، وهى عبارة عن مربع تحيط به أربعة عقود وكانت تعلوها قبة سقطت هى والجزء العلوى من المئذنة أثر زلزال أطاح بهما ، والسقف مغطى الآن بألواح خشبية .

وتعلو المئذنة مدخل المسجد وتتكون من ثلاث دورات الأولى مربعة والثانية مثمنة وبكل وجهة من أوجهه المثمن تجويف مخلق فى جانبيه عمودان وبه فتحة واحدة يتقدمها شرفة للمؤذن . ويفصل بين الدورة الثانية والثالثة شرفة خشبية أما الدورة الثالثة فهى مجددة وترجع إلى العصر العثمانى وهى تشبه المسلة أو طرف القلم الرصاص .



ضريح أبى الدرداء

بشارع أبى الدرداء بالاسكندرية

هو الصحابى الجليل عويمر بن عبد الله ، على الراجح ، وكنيته (أبوالدرداء) واسم زوجته أم الدرداء ، فقد كانت لهما ابنة جميلة سمياها (درداء) فعرفا بها ، ويكفى هذا الصحابى شرفا أن نزلت فيه بعض آيات القرآن الكريم وسأل النبى صلى الله عليه وسلم المولى العلى القدير أن يشد أزر الإسلام والمسلمين بإسلام أبى الدرداء ، فقد كان رضى الله عنه أمة فى رجل . روى عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أن الله وعدنى إسلام أبى الدرداء ، قال فأسلم . وروى أن رجلا قال لأبى الدرداء « يامعشر القراء ، مابالكم أجبن منا ، وأبخل إذا سئلتم ، وأعظم لقما إذا أكلتم » . وكان الرجل سفيها فى قوله ، ولكن أبا الدرداء وقد تخلق بخلق الإسلام ، كان حليما فأعرض ظنه . وبلغت هذه الحادثة عمر ابن الخطاب فقال الرجل السفيه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، فحاول الرجل أن يعتذر بأنه كان يمزح ولايعنى مايقول ، وقال « إنا كنا نخوض ونلعب » فنزلت على النبى صلوات الله عليه هذه الآية الكريمة « ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب »[1] .

كان أبو الدرداء فى جاهليته يعمل فى التجارة ، فلما أسلم تركها وتفرغ لنشر الدعوة والعبادة وفى ذلك يقول أبو الدرداء : كنت تاجرا قبل البعث ، فلما جاء الإسلام جمعت التجارة والعبادة ، فلم يجتمعا ، فتركت التجارة ولزمت[2] العبادة » . كما قال « والذى نفس أبى الدرداء بيده ما أحب أن يكون لى اليوم حانوتا على باب المسجد ، لا تخطئنى فيه الصلاة

---

(١) سورة التوبة آية (٦٥) .

(٢) النجوم الزاهرة ج ١ ص ٧٦ .

أربح فيه كل يوم أربعين دينارا ، وأتصدق بها فى سبيل الله » فقيل له « يا آبا الدرداء وما تكره من ذلك قال « شدة الحساب » .

وكان الرسول صلوات الله عليه قد آخى بينه وبين سلمان الفارسي ومنذ تمت هذه المؤاخاة والرجلان تربط بينهما روابط الود الوثيقة ، فقد روى أن سلمان ذهب يوما ليعود أخاه أبا الدرداء ، فوجد أم الدرداء كثيبة مهملة ، قالت : أن أخاك أبا الدرداء يقوم الليل ويصوم النهار ، وليس له فى شئ من الدنيا حاجة « ثم جاء أبوالدرداء ورحب بضيفه وأخيه سلمان ، ثم بات عنده سلمان ، فلما كان الليل أراد أبو الدرداء أن يقوم للصلاة والعبادة فمنعه سلمان ، وقال : أن لربك ، عزوجل ، عليك حقا ولأهلك عليك حقا ولجسدك عليك حقا ، أعط كل ذى حق حقه وأفطر ، وقم ونم وأئت أهلك » .

ويقول ابن الأثير فى وصف أبى الدرداء : كان أبو الدرداء أقنى[1] أشهل[2] ، يخضب بالصفرة ، عليه قلنسوة وعمامة قد طرحها بين كتفيه .

تزوج أبو الدرداء مرتين ، وكانت زوجته الأولى صحابية اسمها (خيرة) وكانت الثانية تابعية واسمها (هجيمة) . ولما توفيت الأولى تزوج الثانية . وقد أنجبت له زوجته الثانية (هجيمة) ابنة جميلة سمياها الدرداء فكنى باسمها أبوها ، أبو الدرداء وأم الدرداء ، ثم رزقا بعد ذلك بابن أصغر منها سمياه بلالا .

وتجمع المراجع على وصف أم الدرداء بالفقه والعقل والفهم والزهد والحسن والجمال ، وقد روت الحديث عن زوجها وعن أبى هريرة ، وكانت وفية لزوجها فى الحياة وبعد الممات ، روى أنها قالت : اللهم ان أبا الدرداء خطبنى فتزوجنى فى الدنيا ، اللهم فأنا أخطبه إليك أن تزوجنيه فى الجنة . « فقال لها أبو الدرداء : فإن أردت ذلك فكنت أنا الأول ، فلا تتزوجى بعدى » .

وقد وفت أم الدرداء بالوعد الذى قطعته على نفسها فلم تتزوج بعد وفاته رغم صغر

---

(١) القنا فى الأنف : طوله ورقة أرنبيته مع حدب فى وسطه

(٢) الشهلة : حمرة فى سواد العين .

(٣) أعلام الإسكندرية ص ٣٠ .

(٤) أبو نعيم : الحلية ص ١٦٣ .

سنها وحسنها وجمالهـا الفائق وفى ذلك يقول أبو نعيم : فمات أبو الدرداء وكان لهـا جمال وحسن ، فخطبها معاوية بن أبى سفيان ، فقالت : لا والله ، لا أتزوج زوجا فى الدنيا حتى أتزوج أبا الدرداء إن شاء الله فى الجنة » .

ولقد ظل أبو الدرداء طيل حياته يعيش حياة الزهد والتقشف التى ارتضاها لنفسه منذ إسلامه ، فبرغم المراكز الكبرى التى وليها وإقبال الدنيا عليه فقد ظل كما هو لم يتغير أو يتبدل . ومما يؤثر عنه فى هذا المجال ، أن يزيد بن معاوية خطب إليه ابنته الدرداء ، ولكنه رفض وخطبها إليه بعده رجل من عامة الناس فقبل خطبته . ولمـا شاع هذا الخبر بين الناس وصاروا يتناقلونه فيا بينهم ، اضطر أبو الدرداء أن يفصح عن الأسباب التى دفعته إلى رفض يزيد وقبول الخاطب الفقير ، فقال : إنى نظرت للدرداء ، ماظنكم بالدرداء إذا قامت على رأسها الخصيان ، ونظرت فى بيوت يلتمع فيها ، أين دينها منها يومئذ » .

ولم يقصر أبو الدرداء دعوته إلى الزهد والتقشف والبعد عن بهرج الدنيا وزخرفها على أهله الأقربين ، بل أرسلها للجميع ، إلى أهل دمشق الذين أحبهم وأحب مدينتهم ، فمن أقواله المـأثورة لأهل دمشق : يا معشر أهل دمشق ، ألا تستحون ، تجمعون مالا تـأكلون، وتبنون مالا تسكنون ، وتأملون مالا تبتغون ، فقد كان القرون من قبلكم يجمعون فيوعون ، ويأملون فيطيلون ، ويبنون فيوثقون ، فأصبح جمعهم بورا وأملهم غرورا وبيوتهم قبورا ، هذه عاد قد ملأت مابين عدن إلى عمان أموالا وأولادا ، فمن يشترى منى تركة أهل عاد بدرهمين » .

وكان أبو الدرداء يحث على السعى والعمل ويضعه فى مرتبة العبادة ، فقد كان يقول رضى الله عنه ، تفكر ساعة خير من قيام أربعين ليلة » . كما يقول « مثقال ذرة من برمع تقوى ويقين أفضل وأعظم وأرجح من أمثال الجبال من عبادة المقربين[1] » .

---

(١) الشعرانى : الطبقات ج ١ ص ٢٤

جاء فى أسد الغابة أن أبا الدرداء تأخر إسلامه ، فلم يشهد بدرا وشهد أحدا وما بعدها من المشاهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقيل ، إنه لم يشهد أحدا وأول مشاهده الخندق. ويعلق على ذلك الشيال[1] فيقول : ولعل السبب الذى دفع أبا الدرداء إلى التمهل فى اعتناق الإسلام أنه كان يدرس أصول الدين الجديد ، ويفكر فى تعاليمه ليسلم عن إيمان واقتناع ، خاصة وأنه خزرجيا احدى القبيلتين الكبيرتين اللتين كانت لهما الزعامة والسيطرة فى المدينة .

ويؤيد ما ذهب إليه الشيال فى تعليقه ، ما اتصف به أبو الدرداء من الفضل والعلم والتفقه فى الدين وإلمامه بدقائقه وخشيته لله وإيثاره للحق والعدل فقد روى أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : عويمر حكيم أمتى . « وقال ابن عمر : حدثونا عن العاقلين » فقيل : « من العاقلان » قال « معاذ وأبو الدرداء » . ولما حضرت سعد ابن معاذ الوفاة أوصى أصحابه بقوله « التمسوا العلم عند أربعة ؛ أبى الدرداء ، وسلمان ، وابن مسعود ، وعبد الله بن سلام » .

وكانت هذه الصفات التى اتصف بها أبو الدرداء ، سببا فى اختيار عمر بن الخطاب له قاضيا على المدينة فى خلافته ، فقد قال عنه مالك عن يحيى بن سعيد : «كان أبو الدرداء إذا قضى بين اثنين ثم أدبرا عنه نظر إليهما فقال : ارجعا إلىّ أعيدا علىّ قضيتكما» . كما روى عنه أنه قال : « ليس الخير أن يكثر مالك وولدك ولكن الخير أن يعظم حلمك ويكثر علمك ، وأن تبارى الناس فى عبادة الله عز وجل ، فإن أحسنت حمدت الله تعالى ، وأن أسأت استغفرت الله عز وجل » .

وإلى جانب ذلك كله فقد كان أبو الدرداء واحدا من خمسة من الأنصار الذين توافروا على جمع القرآن ، قال ابن سعد[2] فى طبقاته « جمع القرآن فى زمان الرسول صلى الله عليه وسلم خمسة من الأنصار : معاذ بن جبل وعبادة بن الصامت أبى بن كعب وأبو أيوب وأبو الدرداء » .

كذلك شارك أبو الدرداء مشاركة فعّالة فى الفتوح الإسلامية لنشر الدعوة المحمدية

---

(١) أعلام الإسكندرية ص ٢١ .

(٢) ابن سعد : الطبقات الكبيرة ص ٢٥٦ (حرف العين) .

فقد أرسله الخليفة عمر بن الخطاب فى أواخر السنة الخامسة عشرة أو أوائل السادسة عشرة للهجرة مع جماعة من المتفقهين فى الدين ليعلموا الناس القرآن ، وبقى بدمشق يعلم الناس ويفقههم فى الدين والقرآن حتى سنة ١٧ هـ .

ولما خرج عمرو بن العاص لفتح مصر سنة ٢٠ هـ كان أبو الدرداء من كبار القواد والصحابة الذين شاركوا فى هذا الفتح . والمتتبع لأحداث فتح مصر يتبين له لما تم للعرب الاستيلاء على حصن بابليون . وكان من بين القواد الذين ذهبوا مع عمرو لفتح الاسكندرية قائدنا أبو الدرداء فقد جاء فى كتاب (فتوح مصر) لابن عبد الحكم ، أن عمرو ابن العاص لما فتح الاسكندرية أقبل هو وعبادة بن الصامت حتى علوا الكوم الذى فيه مسجد عمرو بن العاص (حدائق الشلالات الآن) فقال معاوية بن حديج « ننزل ، فنزل عمرو بن العاص القصر الذى صار لعبد الله بن سعد بن أبى سرج . ونزل أبو ذر الغفارى منزلا كان غربى المصلى الذى عند مسجد عمرو مما يلى البحر وقد انهدم ، ونزل معاوية ابن حديج فوق التل ، وضرب عبادة بن الصامت خباء فلم يزل فيه حتى خرج من الاسكندرية ويقال أن أبا الدرداء كان معه والله أعلم » .

وبعد أن تم لعمرو بن العاص فتح الاسكندرية رجع إلى الفسطاط سنة ٢١ هـ وكان معه أبو الدرداء فقد ورد اسمه بين أسماء الصحابة الذين وقفوا على إقامة قبلة الجامع العتيق بالفسطاط ، وفى ذلك يقول المقريزى[1] « ووقف على إقامة قبلة المسجد الجامع ثمانون رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيهم الزبير بن العوام والمقداد وعبادة ابن الصامت وأبو الدرداء وفضالة بن عبيد وعقبة بن عامر رضى الله عنهم .

على أن أبا الدرداء لم يبق طويلا بمصر . فقد عيّنه معاوية سنة ٢٣ هـ قاضيا لدمشق بأمر الخليفة عثمان بن عفان . ولم يقتصر عمل أبى الدرداء فى دمشق على القضاء فحسب بل شارك كذلك فى الأعمال الحربية ، فقد جاء فى حوادث[2] سنة ٢٨ هـ ، أعد معاوية بن أبى سفيان حملة لفتح جزيرة قبرص ، وخرج معه فى هذه الحملة عدد كبير من الصحابة

(١) الخطط ج ٢ ص ٢٤٦ .

(٢) النجوم الزاهرة ج ١ ص ٩٥ .

منهم أيوب الأنصارى ، وأبو الدرداء وأبو ذر الغفارى وعبادة بن الصامت ، وكان النصر فيها للمسلمين .

ويحدثنا جبير بن نفير عن إنسانية أبي الدرداء إزاء آلام أسرى أهل قبرص فيقول : « لما فتحت قبرص فرق بين أهلها ، فبكى بعضهم إلى بعض ورأيت أبا الدرداء يبكى فقلت : يا أبا الدرداء مايبكيك فى يوم أعزالله فيه الإسلام وأهله ، فقال : ويحك يا جبير، ما أهون الخلق على الله إذا هم تركوا أمره ، بينا هى أمة قاهرة ظاهرة لهم الملك ، تركوا أمر الله فصاروا إلى ما ترى » .

وكان أبو الدرداء حليما متسامحا ، روى أيوب عن أبي قلابة أن أبا الدرداء مر على رجل قد أصاب ذنبا ، وكانوا يسبونه ، فقال ، أرأيتم لو وجدتموه فى قليب ألم تكونوا مستخرجيه قالوا : بلى ، قال فلا تسبوا أخاكم واحمدوا الله الذى عافاكم ، قالوا : أفلا نبغضه ؟ قال : إنما أبغض عمله ، فإذا تركه فهو أخى .

وجاء فى ترجمة أبي الدرداء لابن الأثير أن أبا الدرداء قيل توفى سنة ثلاث أو اثنتين وثلاثين بدمشق . ويضيف ابن الأثير فيقول : وقيل توفى بعد صفين سنة ثمان أو تسع وثلاثين ، وهو الأصح والأشهر والأكثر

وروى صالح المرى ، عن جعفر بن زيد العبد ، أن أبا الدرداء لما نزل به الموت بكى فقالت له أم الدرداء : وأنت تبكى يا صاحب رسول الله ؟ قال : نعم ، ومالى لا أبكى ولا أدرى علام أهجم من ذنوبى . وقال شميط بن عجلان ، لما نزل بأبي الدرداء الموت جزع جزعا شديدا ، فقالت له أم الدرداء ، ألم تك تخبرنا أنك تحب الموت ؟ قال : بلى وعزة ربى ، ولكن نفسى لما استيقنت الموت كرهته ، ثم بكى وقال : هذه آخر ساعاتى من الدنيا لقنونى « لا إله إلا الله » فلم يزل يرددها حتى مات . وقيل دعا ابنه بلالا فقال : ويحك يا بلال ، اعمل للساعة ، اعمل لمثل مصرع أبيك ، واذكر به مصرعك وساعتك ، فكان قد ، ثم قبض.

وجاء فى ترجمة ابن[1] الأثير : « أن أبا الدرداء توفى قبل عثمان بسنتين ، وقيل توفى سنة ثلاث أو اثنتين وثلاثين بدمشق . كما قيل توفى بعد صفين سنة ثمان أو تسع وثلاثين » . ويضيف ابن الأثير فيقول : والأصح والأشهر والأكثر عند أهل العلم أنه توفى فى خلافة عثمان ، ولو بقى لكان ذكر بعد قتل عثمان ، ما فى الاعتزال ، وما فى مباشرة القتال ، ولم يسمع له بذكر فيهما البتة ، والله أعلم .

وهكذا نرى أن سيدنا أبا الدرداء قد أقام فترة طويلة من حياته بدمشق وأنه مات ودفن بها . ويؤكد ذلك بالإضافة إلى الروايات السابقة ماقاله أبو[2] سهر : لا أعلم أحدا نزل دمشق من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم غير أبى الدرداء وبلال مؤذن الرسول وواثلة بن الأسقع ومعاوية ، ولو نزلهـا أحد سواهم لمـا سقط علينا » .

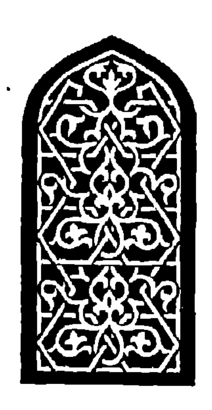
نخلص مما تقدم أن أبا الدرداء قد عاش بدمشق فترة طويلة ، منذ وفد عليها معلما فى الخامسة عشر أو السادسة عشرة للهجرة ، وبقى بها حتى وفاته لم يغادرها إلا مرتين للمشاركة فى الغزو والفتح ، حين خرج لفتح مصر سنة ٢٠ هـ ، وحين خرج إلى قبرص سنة ٢٨ هـ .

* * *

---

(١) أسد الغابة فى معرفة الصحابة ص ٣١٩ .

(٢) الاستيعاب ج ٣ ص ١٢٢٨ .



جامع مسلمة بن مخلد

بشارع مسلمة بن مخلد
بمصر القديمة

هو مسلمة بن مُخلَّد بن صامت الصحابى الأنصارى الخزرجى ، ويقول ابن تغرى[1] بردى (مسلمة بفتح الميم وسكون السين المهملة ، ومخلد بضم الميم وتشديد اللام) . يقول على بن سعيد الرازى حدثنا موسى بن على قال : سمعت مسلمة بن مخلد يقول : ولدت حين قدم النبى صلى الله عليه وسلم المدينة وتوفى وأنا ابن عشر سنين . وقيل لما قدم النبى صلى الله عليه وسلم المدينة كان مسلمة ابن مخلد ابن أربع[2] .

ويترجم له الذهبى فى تاريخه فيقول : مسلمة بن مُخَلَّد له صحبة ورواية ، حدّث عنه شيبان بن ابن أمية وعلى بن رباح ومجاهد وغيرهم . ويقول ابن عبد الحكم فى تاريخه فتوح[3] مصر وأخبارها ، مسلمة بن مخلد الأنصارى لهم عنه حديث واحد ليس لهم عنه غيره ، وهو حديث موسى بن على بن أبيه أنه سمعه وهو يقول على المنبر : توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا ابن عشر سنين ، لم يرو عنه أهل مصر غيره . وأهل البصرة لهم عنه حديث واحد وهو حديث أبى هلال الراسبى قال حدثنا جبلة بن عطية عن مسلمة بن مخلد : أنه رأى معاوية يأكل ، فقال لعمرو بن العاص أن ابن عمك لَمِخْضَد ، ثم قال : « أما إنى أقول هذا وقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم علمه الكتاب ومكن له فى البلاد وقه العذاب » .

---

(١) النجوم الزاهرة ج ١ ص ١٣٣ .
(٢) ابن الزيات : ترتيب الزيارة ج ١٩ .
(٣) فتوح مصر وأخبارها ص ٢٧٦ .

وكان مسلمة بن مخلّد ورعا تقيا يطيل فى عبادته حتى أصبح مضرب الأمثال ، إذ يقول المقريزى[1] عن مجاهد : صليت خلف مسلمة بن مخلد فقرأ سورة البقرة ، فما ترك ألفا ولا واوا ، وقال ابن هليعة عن الحرث بن يزيد كان مسلمة يصلى بنا فيقوم فى الظهر فربما قرأ الرجل البقرة ، وجاء فى كتاب ترتيب الزيارة لابن الزيات ، عن مجاهد قال : كنت أرانى أحفظ الناس للقرآن حتى صليت خلف مسلمة الصبح فقرأ سورة البقرة فما أخطأ فيها .

وحكى الواقدى أن مسلمة كان إذا قرأ فى المحراب يسمع سقوط دموعه على الأرض .

قال الامام أحمد بن حنبل رضى الله عنه أن مسلمة بن مخلّد شهد فتح مصر وسكنها ثم ولاه معاوية بن أبى سفيان مصر بعد عزل عقبة بن عامر الجهنى وذلك فى سنة سبع وأربعين للهجرة . وقد جمع له معاوية الصلاة ، أى الامامة والخطابة وكذا الخراج، أى النواحى المالية ، كما أضاف إليه بلاد المغرب . وفى ولايته على مصر هجمت على مصر أساطيل الدولة البيزنطية ونزلت جنودها فى البرلس وذلك فى سنة ثلاث وخمسين فاستشهد فى الموقعة التى دارت بين الطرفين ورد أن مولى عمرو بن العاص .

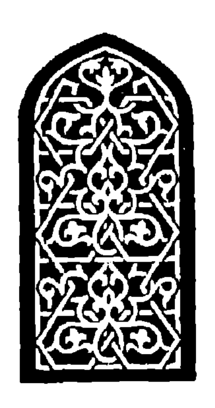
أما عن مشاركة مسلمة بن مخلد فى فتح مصر فيقول البلاذرى[2] وكذا السيوطى والمقريزى أن الامدادات التى أرسلها الخليفة عمر بن الخطاب لعمرو بن العاص لاتمام فتح مصر كان على رأسها كل من عبادة بن الصامت والمقداد بن الأسود ومسلمة بن مخلد كان على ألف رجل وأن الزبير بن العوام مثلهم وذلك فى الوقت الذى كان العرب يحاصرون فيه فتح حصن بابليون .

وإذا تتبعنا سيرة فتح مصر نجد أن مسلمة بن مخلد كان من بين قواد المسلمين الذين تزعمهم الزبير بن العوام . وتسلقوا أسوار حصن بابليون واستطاعوا دخول الحصن وفتح أبوابه لجيوش المسلمين وبذلك كتب لهم النصر وفتحت على أيديهم مصر ، وفى ذلك يقول البلاذرى : فلما أبطأ الفتح ، قيل أن الزبير وهب الله نفسه وأقبل مع عبادة ابن

---

(١) الخطط والآثار ج ٢ ص ٨٤ .

(٢) فتوح البلدان ، حسن المحاضرة ، الخطط .



جامع الشيخ عبد الله بن الحارث

آخر صحابى دفن بمصر

بصفط تراب بمركز المحلة الكبرى

هو عبد الله بن الحارث بن جزء الزبيدى ، أورده أبو بكر بن أبي على فى الصحابة [1]، وروى عن حيوة بن شريح عن عقبة بن مسلم ، عن عبد الله بن جزء الزبيدى قال :أكلنا مع النبي صلى الله عليه وسلم ، شواء ونحن فى المسجد ، ثم أقيمت الصلاة ، فلم ترد على مسحنا أيدينا بالحصى[2] .

ويرجع نسب هذا الصحابى الجليل إلى عبد الله بن يكرب بن عمر بن عثم بن عمر ابن عريج بن عمرو بن زبير بضم أوله واسمه منية الأكبر من بنى مذ ج قبيلة باليمن ومن بنيه عمرو بن معد يكرب الزبيرى ، ومحميه بن جزء الزبيدى ، والحارث بن جزء الزبيدى والد شيخنا صاحب الترجمة .

وتجمع المراجع التاريخية على أن الشيخ عبد الله بن الحارث لم يكن يعرف قبل إسلامه باسمه هذا وفى ذلك يحدثنا الطبرى[3]فيقول : كان اسم الصحابى الجليل عبدالله بن الحارث فى بادئ الأمر العاصى فسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله . ويسرد ابن عبد الحكم تفاصيل الرواية فيقول : حدثنا عبد الله بن صالح ويحيى بن معد يكرب قال : حدثنا الليث بن سعد عن يزيد بن أبي حبيب عن عبد الله بن الحارث بن جزء الزبيدى أنه قال : توفى رجل ممن قدم على النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

---

(١) ابن الأثير : أسد الغابة فى معرفة الصحابة (حرف العين ص ٢٧٦٠) .

(٢) الإمام أحمد فى مسنده ج ٤ ص ١٩٠ .

(٣) تاريخ الطبرى .

وهو عند القبر : ما اسمك ؟ فقال العاصى ، فقال لا عمر . ما اسمك ، فقال العاصى ، قال العاصى بن العاصى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم العاصى ؟ اثم عند الله ، انزلوا قال فوارينا صاحبنا ثم خرجنا من القبر وقد بودلت أسماؤنا . ومن ثم فقد تبدل اسمه من العاصى إلى عبدالله ، وعرف به منذ ذلك الوقت ، وكان يكنى بأبى تراب تشبها بالإمام على بن أبى طالب .

ويقول أبو نعيم عن عقبة بن مسلم بن عبد الله بن الحارث ، أن عبد الله بن الحارث أسلم قديما وعده فى الحلية وفى أصحاب الصفة . وأصحاب الصفة هؤلاء هم جماعة من فقراء المسلمين من العجزة وكبار السن والمهاجرين من المسلمين الذين لا يجدون قوت يومهم ، فكانوا ينقطعون فى مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة للعبادة . أما تسميتهم باسم أهل الصفة فذلك يرجع إلى أن النبى صلوات الله عليه كان يطلب من هذه الفئة الفقيرة أن يصطفوا صفا خاصا بهم عند الصلاة ، وكان موقعهم بالنسبة للحرم النبوى فى الجهة المقابلة لحائط القبلة ، فقد كانوا يصطفون بمحاذاة الضلع الجنوبى عندما كان المحراب فى الضلع الشمالى ، وكانت القبلة جهة المسجد الأقصى . فلما تحولت القبلة إلى بيت الله الحرام بمكة وأصبح المحراب فى الضلع الجنوبى من المسجد النبوى ، أصبح موضع أهل الصفة بمحاذاة الضلع الشمالى .

أما عن الحكمة التى من أجلها طلب الرسول من أهل الصفة أن يصطفوا فى صف خاص بهم هو أن يراهم جمهور المصلين فيحسنوا عليهم دون أن يريقوا ماء وجههم بالطلب أو السؤال. وكان النبى صلوات الله عليه يطلب كل مساء من أغنياء الصحابة أن يأخذ كل واحد منهم جماعة من أهل الصفة يستضيفونهم فى العشاء . وكان النبى يبدأ بنفسه .

والذى نرجحه من انتساب عبد الله بن الحارث إلى أهل الصفة ، أنه كان فقيرا معدما ، وبما أنه لم يكن من المسنين ولا من العجزة بدليل اشتراكه مع عمرو بن العاص فى فتح مصر ، كما سيأتى ذكره ، فلا بد أن يكون من فقراء المهاجرين ولعل هجرته كانت من اليمن رأسا .

وقد ذكر ابن الزيات عبد الله بن الحارث فيمن دخل مصر من الصحابة ودفن بها فقال :

وإن كان هناك رأى ضعيف أورده ابن الزيات جاء فيه ، وقيل أن عبد الله بن الحارث ابن جزء الزبيدى دفن فى القبر الذى على باب تربة عقبة بن عامر الجهنى وهو القبر المشار إليه بادريس الخولانى ويضيف ابن الزيات[1] فيقول ، وفى هذا القبر اختلاف كبير فيزار بحسن النية .

كان عبد الله بن الحارث معدودا بين علماء الصحابة وكبارهم . وكان قليل الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقد نقل السيوطى فى حسن المحاضرة نقلا عن محمد ابن الربيع لأهل مصر عنه عشرين حديثا لم نجد له غير عشرة منها .

١ ـ من حديث الليث بن سعد عن يزيد بن أبى حبيب أنه سمع عبد الله بن الحارث ابن جزء الزبيدى يقول « إنه أول من سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لا يبولن احدكم مستقبل القبلة » .

٢ ـ ومنها حديث الليث عن عقبة بن مسلم عبد الله بن الحارث بن جزء يقول أن رسول الله صلى الله عليه وسلم » قال ، « ويل للاعقاب من النار » .

٣ ـ ومنها حديث بن ربيعة عن سليمان بن زيادة عن عبدالله بن الحارث قال « أكلنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم شواء فى المسجد ثم اقيمت الصلاة فمسحنا ايدينا فى الحصباء ثم قمنا نصلى ولم يتوضأ » .

٤ ـ ومنها حديث نافع بن يزيد بن لهيعة عن عبد الله بن المغيرة عن ابن جزء قال : « ما رأيت احداً أكثر تبسما من رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

٥ ـ ومنها حديث بن لهيعة عن دراج ابى السماح انه سمع عبد الله بن الحارث بن جزء يقول : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم » أن فى النار لحيات أمثال اعناق البخت تلسع احداهن اللسعة فيجد حموتها أربعين سنة » .

٦ ـ ومنها حديث بن لهيعة عن عبد الرحمن بن المغيرة عن ابى سلمة بن عبد الرحمن

---

(١) الكواكب السيارة ص ٢٤٢ .

عن عبد الله بن جزء قال « نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يستنجي أحد بعظم أو رثة » .

٧ — ومنها حديث عبيد بن ثمامة المراوى قال قدم علينا عب بن الحارث بن جزء الزبيدى من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مصر فسمعته يحدث فى مسجد مصر فقيل له ما تقول فيما مسته النار ؟ قال : وما مسته النار قيل له اللحم المطبوخ أو المنضوج قال (لقد رأيتنى سابع سبعة أو سادس ستة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى دار رجل فمر بلال فناداه بالصلاة فخرج ، فمررنا برجل وبرمته على النار فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أطابت برمتك قال نعم بأبى أنت وأمى فتناول منها بضعا فلم يزل يمسكها حتى أحرم بالصلاة وأنا أنظر إليه .

٨ — قال جعفر الغرياتى : حدثنا عبد الله بن يوسف قال حدثنا بن ربيعة عن عبد الله ابن يزيد المصرى عن مسلم بن يزيد الصدفى عن « عبد الله بن الحارث بن جزء الزبيدى « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل المسجد فصعد المنبر فلما صعد أول درجة قال آمين : ثم صعد الثانية فقال آمين ثم صعد الثالثة فقال : آمين فلما نزل قيل له رأيناك صنعت شيئا ما كنت تصنعه فقال جبريل : تبدى لى فى أول درجة فقال : يامحمد من أدرك أحد والديه فلم يدخلاه الجنة فأبعده الله ثم أبعده قال فقلت آمين . ثم قال فى الثانية من أدرك شهر رمضان فلم يغفر له أبعده الله ثم أبعده فقلت آمين ثم قال : فى الثالثة من ذكرت عنده فلم يصل عليك فأبعده الله ثم أبعده فقلت آمين » .

* * *

وإلى جانب تفقهه فى علم الحديث ، كان من العلماء الثقات فى علم الانساب ، قال الذهبي فى طبقات القراء « وله خبرة بانساب قريش » وقال السيرافى : « كان أعلم الناس بأنساب قريش » كذلك توافر ابن هرمز على دراسة القرآن وقراءته ، فكان من الثقات المثبتين يلجأ إليه الناس للقراءة عليه ، ويعهدون إليه فى كتابة المصاحف لاطمئنانهم إلى حفظه وقراءته وعلمه ومعرفته ولهذا تكاد تجمع المراجع التاريخية واصحاب السير على وصفه بالمقرئ المحدث .

ولم تقتصر دراسة ابن هرمز على العلوم الدينية والشريعة الإسلامية فحسب ، بل كان عالما مبتكرا ، إذ أنه أول من وضع علوم اللغة العربية والنحو ، وإن كانت بعض المراجع والروايات تنسب هذا إلى أبى الاسود الدؤلى ، وبعضها ينسبه إلى ابن هرمز ، والبعض الآخر ينسبه اليهما معاً . فقد روى ابن أبى لهيعة عن أبى النضر فقال : كان ابن هرمز الأعرج أول من وضع العربية . ويقول القفطى[1] : قال أهل العلم ، إنه (أى ابن هرمز) أول من وضع علم العربية ، والسبب فى هذا القول أنه أخذ عن أبى الأسود الدؤلى ، وهو أول من أظهره وتكلم فيه بالمدينة وكان من أعلم الناس بالنحو . وقال ابن قاضى شهبة[2] : وهو أول من وضع النحو فى قول » .

ويحدثنا الزبيدى[3] عن الاسباب التى دعت إلى ابتكار علم النحو فى القرن الأول للهجرة وعن العلماء الذين يرجع إليهم الفضل فى وضع علم النحو فيقول : ولم تزل العرب تنطق على سجيتها فى صدر إسلامها وماضى جاهليتها حتى أظهر الله الإسلام على سائر الاديان ، فدخل الناس فيه أفواجا ، وأقبلوا إليها إرسالا ، واستبان منها فى الاعراب الذى هو حليها والموضح لمعانيها فتفطن لذلك من نافر بطباعه سوء أفهام الناطقين من دخلاء الأمم بغير المتعارف من كلام العرب . فعظم الاشفاق من فشو ذلك وغلبته ، حتى دعاهم الحذر من ذهاب لغتهم وفساد كلامهم ، إلى أن سببوا الأسباب فى تقييدها لمن ضاعت عليه وتثقيفها لمن زاغت عنه . فكان أول من أصل ذلك واعمل فكره فيه أبو الأسود ظالم بن عمرو الدؤلى ، ونصر بن عاصم وعبد الرحمن بن هرمز ، فوضعوا النحو أبوابا وأصلوا له أصولا ، فذكروا عوامل الرفع والنصب والخفض والجزم ، ووضعوا باب الفاعل والمفعول والتعجب والمضاف .

---

(١) القفطى : انباه الرواة ج ١ ص ١٧٢ ، ١٧٣ .

(٢) ابن القاضى شهبه : الطبقات الشافعية ، مخطوطة بدار الكتب بالقاهرة (نقلا عن أعلام الإسكندرية ص ٢٦) (نشر محمد أبو الفضل إبراهيم) .

(٣) الزبيدى : طبقات النحويين واللغويين ص ٢ (نشر محمد أبو الفضل ابراهيم) .

ويضيف الزبيدى على ما تقدم فيقول : وكان لأبى الاسود فى ذلك فضل السبق وشرف التقدم بحسب ما بسط من القول ومد من القياس ، وفتق من المعانى ، واوضح من الدلائل وبين من العلل » .

وكان عبد الرحمن بن هرمز الاستاذ الأول للامام مالك ، فقد روى[1] مالك عن نفسه فقال كان لى أخ فى سن ابن شهاب ، فألقى أبى يوما علينا مسألة ، فأصاب اخى وأخطأت فقال لى أبى : الهتك الحمام عن طلب العلم ، فغضبت وانقطعت إلى ابن هرمز سبع سنين (وفى رواية ثمانى سنين) لم أخلطه بغيره ، وكنت أجعل فى كمى تمرا أناوله صبيانه وأقول لهم : وإن سألكم أحد عن الشيخ فقولوا مشغول » .

وكان ابن هرمز مع علمه ودرايته جم التواضع لا يستنكف أن ينقده تلاميذه ؛ فقد جاء فى المدارك ، كان مالك ذا عقل وبصيرة ، ينقد ما يستمع إليه نقد العارف الخبير ، ولهذا كان ابن هرمز يؤثره هو وصاحبه عبد العزيز بن أبى سلمة على غيرهما من تلاميذه ، لانهما ينبهانه إلى الخطأ ، حتى قيل له : نسألك فلا تجيبنا . ويسألك مالك وعبد العزيز فتجيبهما ؟ فيقول : « دخل فى بدنى ضعف ، ولا آمن أن يكون قد دخل على فى عقلى مثل ذلك ، وأنتم إذا سألتمونى عن شئ اجبتكم قبلتموه . ومالك وعبد العزيز ينظران فيه ، فإن كان صوابا قبلاه وإن كان غيره تركاه » .

وقد أمضى ابن هرمز عمره كله بالمدينة ؛ لم يغادرها قبل رحيله إلى الإسكندرية إلا مرة واحدة زار فيها بلاد الشام فقد ذكر ابن عساكر[2] فى ترجمة ابن هرمز : ووفد على يزيد بن عبد الملك » ويعلق جمال الدين الشيال على ذلك فيقول : ونستطيع أن نحدد وقت هذه الزيارة بأنها كانت بين سنتى (١٠١ ، ١٠٥ هـ) ففى السنة الأولى ولى يزيد الخلافة ، وفى الثانية توفى .

أما عن رحلته إلى الإسكندرية واستقراره بها حتى وفاته فيذكرها البلاذرى[3] ويقول : وحدثنى محمد بن سعد عن الواقدى ، أن ابن هرمز الاعرج القارئ كان يقول : خير سواحلكم رباطا الإسكندرية » فخرج إليها من المدينة مرابطا فمات بها فى سنة ١١٧ هـ » . وفى ذلك

---

(١) محمد أبو زهرة : الإمام مالك ص ٢٧ .

(٢) ابن عساكر : تاريخ دمشق المجلد الأول ص ٢١٩ (نشر صلاح المنجد دمشق سنة ١٩٥١) .

(٣) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٣٠ .

وصف الجامع

يقع مسجد سيدى عبد الرحمن بن هرمز فى شارع رأس التين ، حيث يوجد ضريح هذا التابعى الجليل . ولم يشر إلى هذا المسجد أحد من المؤرخين الا على مبارك حيث أنه بنى فى التاسع عشر . فقد جاء فى كتاب اعلام الإسكندرية للدكتور الشيال القصة التالية : أن فضيلة الاستاذ الشيخ بشير الشندى ، المدير السابق لمكتبة بلدية الاسكندرية روى لى أن الشيخ محمد البنا ، أحد علماء الاسكندرية فى القرن الماضى (القرن التاسع عشر) كان يجتاز شارع رأس التين الحالى ، دائما فى طريقه إلى سراى رأس التين لزيارة الخديو اسماعيل ، وقد رأى ليلة فيما يرى النائم أن صاحب ضريح يقع فى هذا الشارع يعاتبه ويقول له : كيف تمر بقبرى ولا تحيينى ؟ فسأله الشيخ « ومن أنت ؟ فقال : أنا عبدالرحمن ابن هرمز » . ويستطرد الشيخ بشير الشندى فى سرد القصة فيقول : وقص الشيخ البنا هذه الرؤيا على نفر من أصدقائه ، وكان من بينهم رجل فاضل من أثرياء المدينة هو الشيخ درويش أبو سن ، فتطوع لبناء هذا المسجد ليضم الضريح ومن ثم نسب المسجد والضريح إلى سيدى عبد الرحمن بن هرمز ، ثم أوصى أن يدفن هو إلى جواره بعد وفاته[1] .

يصف على مبارك[2] مسجد الحاج درويش أبى سن ، فيقول : مسجد أبى سن أصل أرضه مقبرة بها ضريح الشيخ عبد الرحمن بن هرمز وكان عليه مقصورة من خشب ، فلما بنى ما حوله ودخل فى تنظيم المدينة بنى ذلك المسجد ، وجعل داخله ضريح الشيخ المذكور ، والذى بناه المرحوم درويش أبو سن وهو مسجد تام المرافق حسن المنظر ، مقام الشعائر ، ويصرف عليه من الوقف » .

---

(١) يشكك الدكتور جمال الدين الشيال فى أن يكون الشيخ ابن هرمز قد دفن فى هذه الجهة قائلا بأنها كانت فى القرن الثانى الهجرة مغمورة بالمياه ونحن لا نوافقه تماماً حيث أن غرب مدينة الإسكندرية كان قد استعمل منذ أوائل العصر الإسلامى مقابر للمسلمين ، ومهما يكن من أمر القبر ، فإنه من الثابت أن الشيخ عبد الرحمن ابن هرمز قد مات ودفن بالإسكندرية وفى أى جهة وجد قبره بها فسوف تذهب له التحية والدعاء .

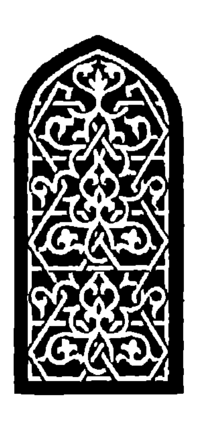
(٢) الخطط التوفيقية ج ٧ ص ٧٠ .

والمسجد الموجود الآن يعتبر من المساجد المعلقة إذ يصعد إليه ببضعة درجات ويتكون المسجد من مساحة مستطيلة مغطاة السقف يقسمها ثلاثة صفوف من الاعمدة إلى أربعة أروقة . ويتكون كل صف من عمودين يعلوها عقود مدببة . ويتوسط الجامع (منور) صغير مربع ، وفوق الرواق الرابع صندرة متسعة للسيدات .

ويعلو المحراب لوحة حجرة نقش عليها النص التالى : « ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، بنى هذا صاحب الخيرات حاج درويش أبى سن سنة ١٢٦٥ هـ » .

وإلى يسار المحراب فى الركن الجنوبى حجرة بها ضريح الشيخ عبد الرحمن بن هرمز تعلوه مقصورة خشبية ، وإلى جانبه ضريح رخامى بسيط دفن به بانى المسجد الحاج درويش أبى سن .

ويعلو المدخل الرئيسى للجامع الذى يقع فى الضلع الشمالى الغربى للجامع المئذنة ، وهى تتكون من ثلاث دروات الأولى والثانية اسطوانية وينتهى بشرفة يقف فيها المؤذن ، أما الدورة الثالثة فهى عبارة عن عمود اسطوانى مرتفع . وهذا الطراز من المآذن انتشر فى معظم مساجد شمال الدلتا فى العصر العثمانى .



زاوية السادات المالكية
بقرافة السيدة نفيسة

تنسب هذه الزاوية إلى جماعة من علماء وفقهاء المذهب المالكى من المصريين الأوائل كما تضم تلميذ وصاحب الإمام مالك . لذلك فقد رأينا قبل أن نتناول ترجمة هؤلاء العلماء بالبحث والدراسة أن نذكر بإيجاز شيئا عن حياة الإمام مالك رضوان الله عليهم أجمعين .

هو الإمام مالك بن أنس بن مالك بن أبى عامر الاصبحى اليمنى ، وأمه شريك الازدية فأبوه وأمه عربيان يمنيان . أما عن حياة الإمام مالك فيلخصها محمد أبو زهرة[1] فى قوله : وإن استطعنا أن نرسم صورة عن حياة مالك ، فإنا نجدها حياة رتيبة لا تعقد فيها ولا مغايرة ، عاش فى المدينة اشطر عمره كلها ، لم يغادرها الا حاجا ، ولم يعرف أنه انتجع غيرها من البلدان ، أو قصد إلى المدائن دارسا متتبعا ، ولم يعرف بحبه للسفر والارتحال كتلميذه الشافعي ، أو كقرينه أبى حنيفة النعمان رضى الله عنهم، بل كان مكتفيا بجوار الرسول صلوات الله وسلامه عليه .

على أن إقامة مالك بالمدينة أفادت مذهبه فوائد عدة ، فقد عرف الناس وأحوالهم من أفواج الحجيج فى موسم الحج ، وغير موسم الحج زائرين قبر الرسول متنسمين نسيم الوحى فى مهبط الوحى . وقد وجد مالك فى اختلاف مشاربهم أو تباين أجناسهم وتضارب منازعهم مادة للدراسة الفقهية تجئ إليه تسعى من غير عناء ، ومن غير أن يركب متن السفر والانتقال .

---

(١) محمد أبو زهرة : مالك حياته وعصره ، آراؤه وفقهه ص ٤ (مطبعة الأنجلو سنة ١٩٤٦) .

أما الفائدة الثانية فإن بقاءه بالمدينة زاد مذهبه خصبا ونشره من غير داعية يدعو إليه ذلك أن طلاب العلم كانوا يجدون فى ملازمة درس مالك مجاورة للرسول صلوات الله وسلامه عليه ، فأقبلوا عليه أيما اقبال ولازموه أتم ملازمة ، ثم فارقوه فكانوا رسله إلى تلك البلاد النائية ، فانتشر بذلك مذهبه فى حياته ، فكان فى مصر وبلاد المغرب ومالك ما يزال باقيا على قيد الحياة .

اختلف العلماء فى السنة التى ولد فيها مالك رضى الله عنه ولكن الأرجح أنه ولد سنة ٩٣ هـ وذلك فى عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك ، وتفتحت مدارك مالك فى حكم عمر بن عبد العزيز وكان على جانب عظيم من التقوى والزهد والقوة والحزم ، فحكم العالم الإسلامى حكما سلفيا أشبه بحكم عمر بن الخطاب . وأعجب مالك بعمر أشد الاعجاب ، وكان يراه صورة عالية للحاكم العادل ويتتبع سيرته ، حتى لينسب إليه أنه روى بعضها وحفظها ، وروى عنه بعض تلاميذه ما حفظه .

وجاء بعد عمر بن عبد العزيز من خلفاء الأمويين من سلك غير سبيله وسار غير سيرته فاستحكمت الشهوات وحكمت الاهواء . رأى ذلك مالك ورأى خروج الخوارج وانتقاض العلويين وما نجم من ذلك من مضار لحقت بالأمة ، كما تلقى من شيوخه الذين عاينوا الماضى وشاهدوه . وسمع منهم أخبار واقعة الحرة ، وكيف أستبيحت المدينة وحرم الرسول صلوات الله وسلامه عليه كما علم منهم ما كان بين عبد الله بن الزبير وعبد الملك بن مروان من وقائع استبيح فيها بيت الله الحرام فرميت الكعبة بالمناجيق ، ولذلك لم يكن مالك يرى فى الخروج على الحكام وإن كانوا ظالمين الا ما يسوق إلى الفتن وإباحة الدماء ، فيكون القاعد خيرا من القائم والقائم خيرا من السائر كما روى عن أبى موسى الأشعرى[1] .

لقد نشأ مالك فى بيت اشتغل بعلم الأثر والحديث واستطلاع أخبار الصحابة وفتاويهم فجده مالك بن أبى عامر كان من كبار التابعين وعلمائهم روى عن عمر بن الخطاب وعثمان ابن عفان وطلحة بن عبيد الله وعائشة أم المؤمنين . وقد اتجه إلى العلم قبل مالك من

---

(١) محمد أبو زهرة ص ٤٨ .

أخوته ، أخوه النضر ، لقد كان ملازما للعلماء يتلقى عليهم ويأخذ عنهم حتى أن مالكا لما لازمهم كان يعرف بأخى النضر لشهرة أخيه دونه ، فلما ذاع أمره بين شيوخه ، صار أشهر من أخيه وصار يذكر النضر بأنه أخو مالك رضى الله عنهما .

لقد حفظ مالك القرآن فى صدر حياته ثم اتجه بعد ذلك إلى حفظ الحديث ، وبعد أن أتقن هذا وذاك طلب من أمه أن تسمح له أن يذهب فيكتب العلم ، فالبسته أحسن الثياب وعممته ثم قالت : أذهب فاكتب الآن « كما كانت تقول » اذهب إلى ربيعة (الرأى) فتعلم من علمه قبل أدبه[1] » . وكان حريصا منذ صباه على استحفاظ ما يكتب حتى إنه بعد سماع الدرس وكتابته كان يتبع ظلال الاشجار يستعيد ما تلقى ، ولقد رأته أخته كذلك، فأخبرت أباها ، فقال لها : يا بنية إنه يحفظ أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم .

ويذكر مالك[2] العلماء الذين لازمهم فى شبابه ليأخذ العلم عنهم ، فيقول « كان لى أخ فى سن ابن شهاب ، فالقى أبى يوما علينا مسالة ، فأصاب أخى وأخطات ، فقال لى أبى ألهتك الحمام عن طلب العلم ، فغضبت وانقطعت إلى ابن هرمز سبع سنين لم أخلطه بغيره وكنت أجعل فى كمى تمرا وأناوله صبيانه ، وأقول لهم إن سألكم أحد عن الشيخ فقولوا مشغول . وقال ابن هرمز يوما لجاريته من بالباب فلم تر الا مالكا ، فرجعت فقالت ما ثم الا ذاك الأشقر ، فقال أدعيه فذلك عالم الناس ، وكان مالك قد اتخذ تبانا (ثياب قطن) محشوا للجلوس على باب ابن هرمز يتقى به برد حجر هناك ، وقيل بل من برد صخر المسجد وفيه كان مجلس ابن هرمز[3] .

وبعد أن اكتملت دراسة مالك للآثار والفتيا ، اتخذ له مجاسا فى المسجد النبوى للدرس والافتاء ، وبديهى أن من يجلس مجلس التابعين وتابعيهم الذين كانوا يقصدون من مشارق الأرض ومغاربها لابد أن يكون على حظ كبير من العلم . وفى ذلك يقول مالك :

---

(۱) السيوطى تزين الممالك ص ٤ .
(۲) القاضى عياض : ترتيب المدارك ص ١١٥ ، ابن فرحون : الديباج المذهب ص ٢٠ .
(۳) ابن عبد البر : الانتقاء ص ١٦

ليس كل من أحب أن يجلس فى المسجد للحديث والفتيا جلس حتى يشاور فيه أهل الصلاح والفضل ، والجهة من المسجد ، فإن رأوه لذلك أهلا جلس ، وما جلست حتى شهد لى سبعون شيخا من أهل العلم إنى موضع لذلك[1] » .

وفى هذا المقام يذكر ابن فرحون[2] : قال الواقدى كان مالك يأتى المجلس ويشهد الصلوات والجمعة والجنائز ويعود المرضى ويقضى الحقوق ويجلس فى المجلس فيجتمع إليه أصحابه . ثم ترك الجلوس فى المسجد فكان يصلى وينصرف إلى مجلسه ، وترك حضور الجنائز فكان يأتى أصحابها فيعزيهم ، ثم ترك ذلك كله ، فلم يكن يشهد الصلوات فى المسجد ولا الجمعة ولا يأتى أحدا يعزيه ، واحتمل الناس له ذلك حتى مات عليه ، وكان ربما قيل له فى ذلك ، فيقول : ليس كل الناس يقدر أن يتكلم بعذره[3] » .

أما عن كسب الإمام رزقه فيقول العلماء إن أباه كان يصنع النبال وكان أخوه النضر يتجر فى البز وكان مالك يبيع معه ويتجر فيه ، ولا مانع من الجمع بين التجارة وطلب العلم . ولم يكن مالك من المتزهدين فى أموال الخلفاء ، وإن كان يتعفف عن الأخذ ممن دونهم ، فقد سئل عن الأخذ من السلاطين فقال « اما الخلفاء فلا شك ، يعنى أنه لا بأس به ، وأما من دونهم فإن فيه شيئا » . ولقد كان بعض الناس يستكثر قبوله الهدايا ، أو يستكثر بعض هذه الهدايا ، حتى أنه ليروى أن الرشيد أجازه بثلاثة آلاف دينار ، فقال له يا أبا عبدالله ثلاثة آلاف تأخذها من أمير المؤمنين فقال : لو كان إمام عدل فأنصف أهل المروءة لم أر به بأسا .

ويقول القاضى عياض أن الإمام مالك كان فى أول أمره فى عسرة شديدة ، حتى أنه كانت تبكى أبنته من الجوع أحيانا ، يروى فى هذا « انه وعظ أبا جعفر المنصور فى اقتفاء الرعية فقال له : أليس إذا بكت ابنتك من الجوع نأمر بحجر الرحى ، فيحرك لئلا يسمع الجيران ، فقال مالك والله ما علم بهذا أحد إلا الله ، فقال له فعلمت هذا ، ولا أعلم أحوال رعيتى . ويظهر أن عسر مالك كان سببه انقطاعه لطلب العلم وإهماله مورد رزقه ، فقد قال

---

(١) المدارك ص ١٢٧ .

(٢) الديباج المذهب فى معرفة أعيان المذهب .

(٣) المدارك ص ١٠٩ .

ابن القاسم أفضى بمالك طلب العلم إلى نقض سقف بيته فباع خشبه ، ثم مالت عليه الدنيا بعد ذلك .

ويعلق القاضى عياض عن اختلاف الاخبار عن الإمام مالك فى العسر واليسر فيقول : إن اختلاف أحواله فى دنياه ، إنما كانت لاختلاف الاوقات وتنقل الاحوال ، إذ حال المرء فى بدايته بخلاف حاله فى نهايته ، فقد عاش رحمه الله نحو تسعين سنة كان فيها إماما يروى ويفتى ويسمع قوله نحو سبعين سنة تنتقل حاله كل حين زيادة فى الجلالة ويتقدم فى كل يوم فى الفضل والزعامة ، حتى مات ، وقد انفرد منذ سنين وحاز رياسة الدنيا والدين دون منازع ، فلاتعارض فيما يروى عليك من الاخبار فى اختلاف حاله والله الموفق ، ويختم محمد أبو زهرة هذا الموضوع بقوله : وفى الجملة لاقى مالك رحمه الله ضيق الرزق وتقتيره ، وبسطة العيش وتيسيره ، وهو فى الحالين يحمد الله على ما أسبغه من نعم .

أما عن مذهب الإمام مالك وكيف دُوِّنَ ، فإن لهذا المذهب كتابين يعدان أصليين يرجع إليهما ، وهما جامعان لفقهه جمعا تاما فى الجملة ، وهذان الكتابان هما الموطأ ، والمدونة الكبرى . أما الموطأ فقد جمع فيه الإمام مالك الصحاح من الأحاديث والأخبار والآثار وفتاوى الصحابة والتابعين ، وذكر الرأى الذى يرتئيه إذا كان لرأيه فيما يسوقه مجال واعتبار ، وهو كتاب كما تجمع المراجع التاريخية والفقهية ثابت النسبة إلى مالك . أما المدونة فهى وإن لم يكتبها مالك كما كتب الموطأ بل كتبت من بعده فقد دون فيها تلاميذه وأصحابه آراء مالك بالنص ومايصح أن يكون استنباطا من فتاويه فهى بهذا الاعتبار صورة للمذهب المالكى ، كما رواه وكما فهمه أصحاب مالك الذين ساروا على منهاجه وكان لهم فى آرائه فضل اجتهاد[1] .

يعد بعض القدامى من كتاب تاريخ الفقه الامام مالك رضى الله عنه فقيه أثر لا فقيه رأى ، بمعنى أنه كان يقتفى أثر الرسول صلى الله عليه وسلم بما قضى به فى جميع الأحوال ، ولذلك فإنه اعتبر عمل أهل المدينة مصدرا فقهيا يعتمد عليه فى فتاويه ، وكان يقول عمل من قبلنا سند لنا . وفريق آخر من علماء الفقه ومنهم المحدثون[2] يعتبرونه فقيه

---

(١) محمد أبو زهرة ص ٧ .

(٢) أمين الخولى ، محمد أبو زهرة وغيرهما .

رأى كما هو فقيه أثر ، فقد عده ابن قتيبة بين فقهاء الرأى وأعتبره مرجعا فى المدينة بعد ربيعة الرأى ، وقول الامام ابن حنبل ، عمن يريد أن ينظر فى الرأى ، أن ينظر فى رأى مالك ، وفى هذا المعنى قال ابن رشد ، الذى عد مالكا أمير المؤمنين فى الرأى . القياس .

أما عن المذهب المالكى فى مصر فقد ظهر فى حياة الإمام مالك رضى الله عنه فقد ذكر ابن فرحون[1] أن أول من أدخل علم مالك بمصر هو عثمان بن الحكم الجذامى المتوفى سنة ١٦٣ هـ ، ونقل الحافظ بن حجر عن ابن وهب ، أن أول من قدم مصر بمسائل مالك عثمان بن الحكم وعبد الرحمن . وهكذا نرى أن مصر بعد الحجاز كانت أول البلاد التى انتشر بها مذهب مالك . وكثر تلاميذه بها ، حتى صدر العلم المالكى عنهم من بعده ، فابن القاسم وأشهب وابن وهب وأصبغ وغيرهم من المصريين كانوا حملة العلم المالكى وناشريه .

وحسبك أن تعلم أن المدونة التى تعد الكتاب الثانى لمسائل مالك وفتاويه صدرت عن ابن القاسم بمصر أخذها عنه أولا أسد بن الفرات ثم أخذها منقحة مراجعة من بعده سحنون .



---

(١) الديباج المذهب .

وصف الزاوية

هذه الزاوية بالقرافة الصغرى خارج بوابة السيدة نفيسة رضى الله عنها وخارج مجرى مياه فم الخليج الموصل إلى القلعة عن يمين الذاهب إلى ضريح الإمام الشافعى رضى الله عنه وهى زاوية صغيرة تابعة لوزارة الأوقاف كما أنها مسجلة بمصلحة الآثار تحت رقم (٥٦٠) ويعلو عند مدخلها الرئيسى لوح من الرخام نقشت عليه هذه الأبيات :

لذ بالأماجد من سادوا بعلمهـم	المالكين وأهل الفضـل والفطن
وأحلل بساحتهم تؤت المفـاز بهم	من كل ما يرتجى من غير ما منن
آثارهم حسنت والان جددهـا	علامة العصر زاهى المنظر الحسن
إن قـال واصفها فيا يـؤرخـه	يا حسنها قلت انشأها أبو الحسن

أنشئت هذه الزاوية فى نهاية القرن الثانى الهجرى حيث كانت مجتمع تلاميذ مالك وأصحابه وناشرى علمه ومذهبه بمصر ، فلما انقضى أجلهم دفنا بها . ثم جددها الشيخ يحيى الشاوى وأعاد بناءها بعد ذلك سنة ١١٨١ هـ . الشيخ أبو الحسن الدادسى وهو المشار إليه فى الأبيات السابقة[١] .

ويقول على مبارك[٢] ، وللزاوية ثلاثة أبواب متداخلة وأرضها مفروشة بالحجر وبها محراب وفى وسطها عمود من البناء غليظ حامل لسقفها ولها منارة قصيرة ولها مرتب جراية كل يوم من وقف الست زليخا بمقتضى وقفية مكتوبة بالتركى . ويذكر بعض أسماء من دفن بهذه الزاوية ، وفيها قبور جماعة من أكابر المالكية منهم الإمام أبو القاسم والإمام أشهب والإمام أصبغ .

---

(١) تحفة الأحباب ص ١٦٣ (هامش) .
(٢) الخطط التوفيقية ج ٦ ص ٢٩ .

وقد جمع حسن قاسم[1] ترجمة خمسة عشر فقيها من علماء المالكية ممن دفنوا فى هذه الزاوية رأينا أن ننقلها هنا اتماما للفائدة .

قبر الإمام عبد الرحمن بن القاسم بن خالد بن جنادة العتقى منسوب إلى العتقاء الذين كانوا فى بادئ الأمر بالطائف ، فلما بلغ النبي صلى الله عليه وسلم خبرهم بعث فى طلبهم وأتى بهم أسرى ثم أمر بعتقهم . وكان عبد الرحمن مولى لأحدهم وهو زبيد بن الحارث العتقى فنسب إليه روى عن ابن عيينة والليث بن سعد وابن الماجشون وغيرهم وخرج عنه البخارى فى الصحيح . توفى ليلة الجمعة بسبع مضين من صفر سنة ١٩١ هـ . ومولده سنة ١٣٣ فى قول ، وقبره على يمين المنبر .

قبر الإمام أصبغ بن الفرج بن سعيد بن نافع – جده نافع المذكور من عتقاء عبد العزيز بن مروان بن الحكم . روى عنه البخارى وابن وضاح والرازى وغيرهم وله تواليف منها كتاب فى الأصول وكتاب فى آداب القضاء توفى . يوم الأحد لاربع مضين من شوال سنة ٢٢٥ عن سن عالية وقبره بازاء قبر ابن القاسم .

قبر عبد الصمد وموسى ابنى الامام عبد الرحمن بن القاسم كان الأول من علماء القراءات ، والثانى من علماء الحديث توفى عبد الصمد سنة ٢٣١ وتوفى موسى سنة ٢٤٨ ودفن كلاهما بقبر أبيه .

قبر الإمام أشهب بن عبد العزيز بن داود بن إبراهيم القسى شيخ مالكية مصر فى عصره توفى يوم السبت لثمان مضين من شعبان سنة ٢٠٤ بعد الإمام الشافعى بأيام ، ومولده سنة ١٤٠ وقبره على يمين الداخل بازاء الحائط القبلى .

قبر أبى الرجاء محمد بن الإمام أشهب يروى عن أبيه وغيره توفى سنة ٢٤٧ ودفن بقبر والده قبر يحيى بن محمد بن الامام مالك بن أنس توفى فى ذى القعدة سنة ٢١٨ وقبره إلى جانب قبر ابن القاسم .

---

(١) تحفة الأحباب للسخاوى ص ١٦٣ (هامش) .

قبر محمد بن أحمد بن محمد بن مرزوق الخطيب التلمسانى الشهير بالجد شارح الشفا للقاضى عياض وبردة البوصيرى ، ولد بتلمسان سنة ٧١٠ وهاجر فى نهاية أمره إلى القاهرة فتولى بها قضاء المالكية بمرسوم من السلطان الملك الأشرف زين الدين شعبان وعين مدرسا بالمدرسة الشيخونية (بسويقة منعم) والمدرسة الصرغتمشية بالصليبية ، توفى فى ربيع الأول سنة ٧٨١ وقبره بازاء قبر الامام يحيى بن محمد بن مالك مسامت للحائط .

قبر شيخ الإسلام يحيى بن عبد الله بن محمد الشاوى الجزائرى ولد بمليانة ونشأ بالجزائر ثم هاجر إلى الاستانة ومنها إلى القاهرة فدرس بالأزهر وأخذ عنه جمع من علمائه ولازموا حضور درسه وتولى مشيخة المالكية مضافة إلى مشيخة الرواق ثم صدر أمر السلطان محمد الرابع بسعاية الوزير عمر باشا بتعيينه شيخا بالأزهر أثر وفاة الشيخ شعبان الفيومى الشافعى شيخ الأزهر المتوفى سنة ١٠٧٥ وفى مدة ولايته حبس كثيرا من ماله على رواق المغاربة وجدد مشهد السادة المالكية وكان يغشاه كثيرا ويدرس به أحيانا فى يوم الجمعة وله تواليف فى الفقه والنحو . توفى فى ربيع الأول سنة ١٠٩٦ بالسفينة التى كانت أقلعته من السويس إلى مكة لعزمه على الإقامة بها وكتب ولده عيسى إلى الوزير عثمان باشا يستصدر منه أمرا بنقل رفاته من الطور إلى مصر فأذن له فنقلها ودفنها بهذه الزاوية . وفى سنة ١٠٩٧ توفى ولده عيسى المذكور ودفن معه فى قبر واحد وهو القبر الذى على يسار الداخل آخر القبور الخمسة إلى جهة المحراب ومعهما فى القبر الشيخ محمد الزرواوى المالكى .

قبر أبى الحسن على بن محمد (رفعا) الدادسى الموقت : أصله من بلاد دادس بالمغرب الأقصى وهاجر منها إلى القاهرة فى سنة ١١٧٩هـ . ودخل الأزهر والتحق برواق المغاربة فعين شيخا له ، وله على الرواق المذكور أوقاف حبسها عليه من ماله وتنحصر فى نصفه أعيان منها ما هو ببولاق والأزهر كحوانيت ومنازل وخلافه وقد شمل وقفه هذه الزاوية . وجددها فى سنة ١١٨١هـ . وبنى له بها قبرا إلى جانب قبر الشاوى وبعد وفاته دفن به ، والزاوية على حالتها الآن من آثار تجديده المذكور عدا دورة المياه وما ألحقته بها مؤخرا وزارة الأوقاف حينما أضيفت إليها ولأبى الحسن المذكور منظومة فى العروض . وقد كان أبو الحسن هذا موضع عنايتنا فى هذا البحث فانه مع ذلك الأثر الذى لا زال يبدو للعيان

حافظا له ذلك الجميل ، لم يذكر فى أى مصدر ما من المصادر المصرية ولو قصرنا بحثنا عليها دون تحويل وجهتنا إلى المصادر المغربية (كطلعة المشترى للناصرى وغيره) لما رتق هذا الفتق لله إذ هدانا لهذا التحقيق .

قبر السيد محمد بدر الدين العيادى أحد تجار القاهرة وسراتها المغاربة كان له صلات ومبرات على هذه الزاوية وأوقف عليها أوقافا وتوفى فى ٢٥ صفر سنة ١٣٢٣ ودفن معه فى قبره ولده السيد على العيادى توفى فى ١٥ جمادى الثانية سنة ١٣٤٢ وقبرهما أحد القبور الخمسة التى على يسار الداخل من الزاوية .

قبر الشيخ سليم البشرى شيخ الجامع الأزهر وشيخ المالكية تولى مشيخة الأزهر بعد الشيخ عبد الرحمن القطب النواوى فى سنة ١٣١٧ وتولى مشيخة المالكية بعد وفاة الشيخ محمد عليش فى سنة ١٣٠٥ توفى يوم الجمعة ٤ ذى الحجة سنة ١٣٣٥ ومولده بمحلة بشر من أعمال البحيرة سنة ١٢٤٨ ودفن بالزاوية فى قبر اشتراه بها قبيل وفاته وهو الأول من القبور الخمسة .

قبر الشيخ حمزة بن الشيخ عبدالرحمن المالكى بن الشيخ محمد عليش مفتى المالكية مكتوب على الحائط المسامت لقبره فى لوحة هذه الأبيات :

هذا حفيد إمام أهل زمانه	سيدى عليش منهل البركات
قد حل فى دار الكرامة والرضا	وبها ارتقى فى أرفع الدرجات
وللحور والولدان دارت بهجة	لقدوم نسل مصحح الحسنات
ومن الرحيق سقاه مولاه الذى	يولى الجميل بأبهج الكاسات
قد كان آخر قوله آخر توبة	مع آية الكرسى بكل ثبات
فأتاه رضوان يقول مؤرخا	

توفى رحمة الله عليه فى ١٣٠٦

قبر السيد الشريف بدر الدين حسن بن محمد بن عبد الله الحسينى المشهور بالعريان توفى فى ذى الحجة عام ٧١٤ .

ترجمة الحافظ بن حجر فى الدرر الكامنة وقبره إلى يمين المحراب ومعه ولده محمد كان كأبيه فى العلم والمعرفة وانتفع به أناس كثيرون منهم الشيخ أبو القاسم التلمسانى دفين طهطا وجد شرفائها .

قبر موسى بن طلحة التكرورى وهو من القبور غير الظاهرة بهذه الزاوية لاندثارها . قبر أبى بكر المضفر المعروف بالرباطى توفى سنة ٦٨٠ ويلى قبره من الجهة القبلية قبر الشيخ أبى الحسن على التمار شيخ المشهد الحسينى فى القرن التاسع الهجرى .

وخلف قبر الإمام أشهب قبر محمد بن إبراهيم بن على الواسطى وهذه القبور الثلاثة درس ما كان عليها من البناء .

وثمة قبور أخرى لجماعة ممن وسموا بميسم التقديس والبركة كالشيخ يحيى بن عبد الله التلاثى ، والشيخ أبى زيان بن يوسف الصدفى ، والشيخ عبد الله القرشى ، ونفيسة إبنة الامام عبد السلام بن سحنون التنوخى قاضى أفريقيا المتوفى بالقيروان سنة ٤٢٩ ، وبعض من يمت بصلة القرابة إلى الامام عبد الملك عبد العزيز بن الماجشون القرشى مفتى المدينة المتوفى سنة ٢١٢ .

وبإزاء الجدار البحرى الشرقى للزاوية من خارجها قبر العابدة ميمونة زوجة أبى الفيض ثوبان بن إبراهيم ذى النون المصرى المدفون بالنقعة الكبرى بجهة الفتح بأخريات القرافة شرقى قبر إمام الصوفية أبى على الروذبارى : قال ابن الناسخ فى مصباح الدياجى – قال ذو النون المصرى وصف له جارية بالمقطم يقال لها ميمونة العابدة فانطلقت إلى زيارتها فلقينى بعض العباد فقال إنها مجنونة فأردت الرجوع فقلت وما على أن أراها فعدت فلما أتيتها قالت ياذا النون لم لاجئت مع خاطرك الأول ولم تتردد ثم أنشدت شعرا :

ما لامنى فيك أحبابى وعزالى	إلا لفضلتهم عن عظم أحوالى
ولو صغون إلى قولى وأقوالى	لكنت معهم على ما بى ببلبالى
إن الغرام هو الكأس الذى وصفوا	لكن لغفلتهم لم يعرفوا حالى

يا ذا النون إن لله أحبابا عرفهم به فعرفوه ، وأطلق ألسنتهم بذكره فنزهوه لو أحجب عنهم طرفة عين تقطعوا من ألم البين .

وقد دفن فى هذه الزاوية من العلماء المتأخرين الشيخ الغزالى شيخ رواق المغاربة وهو الذى مات مقتولا طعنا بسكين من بعض المغاربة فى صلاة الجمعة فى الأزهر .

***

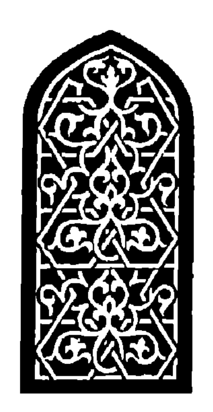
أما عن وصف الزاوية من الناحية المعمارية ، فهى تتكون من مستطيل كثير الامتداد إذ يبلغ طوله (٦٠) متر وعرضه (١٢) مترا يحيط بها سور مرتفع مبنى من الحجر المنحوت وتعلوه شرفات جميلة . وفى الضلع الغربى يوجد المدخل الرئيسى للزاوية ويتكون من عقد كبير مرتفع ينتهى سمته بعقد آخر صغير يكون شكلا زخرفيا جميلا . ويلى هذا العقد داخل عنه بمقدار ٧٥ سم وعلى جانبيه مكسلتان . ويؤدى هذا الباب إلى فناء الزاوية .

ويبلغ مساحة الفناء نصف مساحة الزاوية تقريبا . إذ يبلغ طوله (٣٠,٥) مترا فى (١٠,٥) عرضا . ونصف الفناء مكشوف والآخر مغطى حيث يشغل جانبيه أحواض ودورات للمياه خاصة بالوضاء . وفى الجانب الجنوبى من الفناء يوجد سلم خشبى يؤدى إلى غرف تشبه خلاوى الصوفية ومن المرجح أنها أضيفت فى القرن (١٩) م .

ويتأتى بعد الفناء مكان الصلاة وهو يتكون كذلك من مستطيل يبلغ مساحته (١٢×٢٧) مترا يقسمه عقدان مدببان إلى قسمين يمتدان من الشرق إلى الغرب . ويبلغ عرض القسم الجنوبى سبعة أمتار والقسم الشمالى خمسة أمتار . والقسم الجنوبى الذى يوجد به محراب الزاوية ومنبرها مقسوم إلى مربعين ، الأول منهما ويقع فى الجزء الجنوبى الشرقى من الزاوية ويبلغ طوله سبعة أمتار وتعلوه قبة تقوم على عقدين مدببين وجدارين وفى أركان مربع القبة توجد مقرنصات كبيرة . والمربع الثانى من القسم تعلوه (شخشيخة) بكل ضلع منها ثلاث نوافذ .

أما القسم الشمالى من الزاوية فيتخلله عقود مدببة فيغطى جزء منه أقباء متقاطعة والجزء الباقى مغطى بقبو مدبب .

وتقوم المئذنة على الواجهة الغربية للزاوية . وتتكون من بدن مثمن يعلو الواجهة زخرف كل وجه من المثمن بشكل عقد ذى زاوية مصمت . وينتهى الدورة الأولى المثمنة بشرفة خشبية ، أما الدورة الثانية من المئذنة فاسطوانية وتنتهى على شكل مسلة أو رأس القلم الرصاص مما يرجح نسبتها إلى التجديد الذى حدث للزاوية فى العصر العثمانى سنة ١١٨١ هـ .



جامع ساعى البحر

بشارع ساعى البحر
بمصر القديمة

صاحب جامع ساعى البحر هو محمد بن الحسين بن حمزة بن عبد الله الأعرج بن الحسين الأصغر بن على زين العابدين بن الإمام الحسين بن الإمام على بن أبي طالب رضوان الله عليهم أجمعين .

وقد اختلف المؤرخون فى تاريخ مجيئه إلى مصر وفى تاريخ وفاته فقد ذكرت بعض[1] المراجع أن محمد بن الحسين بن حمزة دخل مصر فى القرن الثالث الهجرى فى عهد أحمد ابن طولون وأنه توفى سنة ٢٦٢ هـ. بينما يقول البعض الآخر[2] ، أنه توفى فى سنة ثلاثين وثلثمائة وأنه قد انفرد من أولاد الشريف الميمون بن حمزة بالدفن بمصر القديمة ، أما باقى أولاد الشريف فقد دفنوا فى أماكن متفرقة من القرافة الكبرى . وهناك فريق ثالث يؤكد دفنه فى مسجده بمصر القديمة إذ يقول : وهو مدفون بهذا المكان (أى مصر القديمة) تحقيقا[3] ومعه فى قبره شقيقه جعفر .

أما عن السبب فى تسميته باسم ساعى البحر فيذكر السخاوى وينقل عنه على مبارك[4] : أن محمد بن الحسين بن حمزة عرف بأبى الشفقة وذلك أنه لما كان فى بعض السنين قد توقف النيل عن الفيضان فشق عليه وعلى أهل مصر خشية الجدب والقحط الذى كثيرا ما تعرضت له مصر من انعدام الفيضان أو انخفاض منسوبه ، والذى من أجله ألف المقريزى

---

(١) العمدة ص ٢٨٤ ، بحر أنساب الأزوقانى .

(٢) السخاوى : تحفة الأحباب ص ١٥٢ .

(٣) حسن قاسم : هامش تحفة الأحباب ص ١٥٢ .

(٤) الخطط التوفيقية ج ٥ ص ١٤ .

عمدة مؤرخي مصر الإسلامية كتابه (إغاثة الأمة بكشف الغمة) . فصار الشيخ محمد ـ وكان ورعا تقيا عرف بين الناس بالصلاح والإيمان ـ يسعى إلى شاطئ النيل ويبكى ويدعو الله أن يفرج الكرب ويكشف الغمة ويغيث الأمة بفيضان النيل .

ويستطرد السخاوى فى سرد قصته فيقول : وأخذ الشيخ محمد يسأل ويتقصى من أهل العلم ومن له معرفة بالتاريخ عن الكتاب الذى أرسله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه مع رسوله حاطب بن أبى بلتعة بن أسد إلى المقوقس إلى أن دل عليه فأخذه وبيته إلى جانبه وهو فى أمر عظيم فرأى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فى المنام وهو يقول له يا أبا الشفقة قم وألق الكتاب فى النيل . فقام وألقى الكتاب فى الماء فكانت أخصب سنة على أهل مصر فلما مات دفن قريبا من البحر فاشتهر عند أهل مصر بساعى البحر[1] .

أما موضوع الخطاب الذى كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب قد أرسله إلى مقوقس مصر فيحدثنا عنه المقريزى[2] فيقول : قال ابن عبد الحكم[3] ، ولما فتح عمرو بن العاص مصر أتى أهلها إلى عمرو حين دخل بؤونة (من أشهر القبط) فقالوا أيها الأمير إن لنيلنا هذا سنة لايجرى إلا بها فقال لهم وماذا كم فقالوا إنه إذا كان لثنتى عشرة ليلة تخلو من هذ الشهر ، عمدنا إلى جارية بكر من أبويها فأرضينا أبويها وجعلنا عليها من الحلى والثياب أفضل ما يكون ، ثم ألقيناها فى النيل فقال لهم عمرو أن هذا لا يكون فى الإسلام وإن الإسلام يهدم ما كان قبله .

ولكن أهل مصر انتظروا ، فأقاموا بؤنة وأبيب ومسرى (من أشهر القبط) والنيل لا يجرى قليلا ولا كثيرا حتى هموا بالجلاء ، فلما رأى عمرو ذلك كتب إلى الخليفة عمر بن الخطاب بالمدينة المنورة بذلك ، فكتب إليه عمر أن قد أصبت إن الإسلام يهدم ما كان قبله وقد بعثت إليك ببطاقة فألقها فى داخل النيل إذا أتاك كتابى هذا .

فلما قدم الكتاب إلى عمرو فتح البطاقة فإذا فيها « من عبد الله أمير المؤمنين إلى نيل مصر ، أما بعد ، فإن كنت تجرى من قبلك ، فلا تجر وإن كان الله الواحد القهار هو الذى يجريك فنسأل الله الواحد القهار أن يجريك » . فألقى عمرو البطاقة فى النيل قبل يوم

---

(١) تحفة الأحباب ص ١٥٣ .

(٢) الخطط ج ١ ص ٥٧ .

(٣) فتوح مصر والمغرب ص ٣٤ .

الصليب بيوم ، وقد تهيأ أهل مصر للجلاء والخروج منها لأنه لايقوم بمصلحتهم فيها إلاالنيل. وأصبحوا يوم الصليب وقد أجراه الله تعالى ستة عشر ذراعا فى ليلة وقطع تلك السنة السوء عن أهل مصر .

ويقول يزيد بن أبى حبيب أن موسى عليه السلام دعا على آل فرعون فحبس عنهم النيل حتى أرادوا الجلاء ، فطلبوا إلى موسى أن يدعو الله ، فدعا موسى عليه السلام ربه أن يفيض ماء النيل ، رجاء أن يؤمنوا ، فأصبحوا وقد أجراه الله فى تلك السنة ستة عشر ذراعا فاستجاب الله سبحانه وتعالى لعمر بن الخطاب ، كما استجاب لنبيه موسى عليه السلام .

ولا يفوتنى أن أنبه هنا إلى أن هذه القصة التى أوردها ابن عبد الحكم والتى نقلها عنه المقريزى فى خططه ، والتى ما زلنا حتى القرن العشرين نرددها ، لا يؤيدها أى مرجع آخر ممن سبقوه وعاصروا العصر المسيحى ، أو ممن عاصروا ابن عبد الحكم نفسه أو ممن جاءوا فى أعقابه أو من المحدثين ، من علماء الآثار . هذا من جهة ومن جهة أخرى فإنه بعيد عقلا وعقيدة أن الدين المسيحى ، وهو دين عيسى عليه السلام دين التسامح والسلام ، يبيح لأقباط مصر تقديم ضحايا بشرية للنهر ، خصوصا إذا لوحظ أنه فى عصر الوثنية المصرية القديمة أبطلت الضحايا البشرية واستبدلت بها الذبائح مثل (الثور والأوز) أما الذى نستطيع أن نؤكده ، فهو أن مصر كانت تحتفل فى جميع عهودها بعيد السنة الزراعية فى أول شهر توت ، إذ يبلغ فيضان النيل ذروته من الارتفاع ، فيتخذ السكان على اختلاف أديانهم هذا اليوم عيدا قوميا يستقبلونه فرحين جذلين لأنهم يرون فيه بشيرا بالرخاء .

نعود إلى شيخنا محمد المعروف بساعى البحر فنقول إن حسن قاسم ، نفى القصة التى ذكرها السخاوى عن وضع الشيخ محمد الكتاب الذى أرسله عمر بن الخطاب فى النيل تيمنا وبركة حتى يفيض النيل ويقول : أن الشيخ محمد بن الحسن بن حمزة عرف بساعى البحر لوجود قبره على مقربة منه ، وأما القصة التى ذكرها السخاوى فى تسميته بأبى الشفقة فهى أسطورة لا يعول عليها ، والصحيح أن هذا اللقب لأبيه (أبو الشفق) .

ومهما يكن من أمر الاختلاف فى تفسير الأسباب التى من أجلها عرف شيخنا باسم ساعى البحر فإن الذى يعنينا هنا بالدرجة الأولى ، هو أن أحدا لم ينكر وجود قبره بمسجده بمصر القديمة على الضفة الشرقية لنهر النيل قبالة جزيرة الروضة .

وصف الجامع

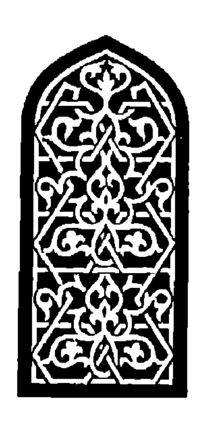
جامع ساعى البحر يقع فى شارع ساعى البحر بمصر القديمة ، وهو عبارة عن مسجد صغير يتكون من مستطيل به أربعة صفوف من الأعمدة الرخامية القديمة يعلوها سقف مسطح . وفى الجانب الشرقى منه توجد القبلة وفى الركن الجنوبى منه يوجد ضريح الشيخ محمد ساعى البحر وأخيه جعفر .

والمدخل الرئيسى للمسجد يقع فى الواجهة الجنوبية التى يعلوها مئذنة المسجد . ويبدو من طراز المئذنة التى تشبه المسلة أن الجامع قد جدد وأعيد بناؤه فى العصر العثمانى .

ويصف على[1] مبارك المسجد فيقول : هو بمصر العتيقة على وجهه مكتب وله منارة قصيرة وبوسطه ضريح يقال له الشيخ محمد ساعى البحر . وللجامع أوقاف بجواره إيرادها شهريا ثلثمائة قرش ، وشعائره مقامة منها بنظر الشيخ محمد أبى عوض ويعمل به حضرة كل ليلة ثلاثاء ومولد كل سنة فى شهر شعبان .

---

(١) الخطط التوفيقية ج ٥ ص ١٤ .



مشهد سيدى معاذ

بحارة سيدى معاذ
بالدراسة بحى الأزهر

هو الشريف معاذ بن داود بن محمد بن عمر بن داود بن محمد بن سليمان بن داود بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه . أمضى معظم طفولته وشبابه فى العصر الطولونى ، فقد قيل إنه وفد إلى مصر مع الشريف يحيى الشيهى ، الذى أرسل أحمد بن طولون فى استدعائه من الحجاز ، وقيل إنه جاء إلى مصر مع والده الشريف داود الذى وفد إلى مصر مع السيدة نفيسة ابنة الإمام حسن الأنور بن زيد الأبلج بن الإمام الحسن السبط من الإمام على بن أبى طالب فى أواخر القرن الثانى للهجرة . وقد توفى الشريف معاذ بن داود سنة ٢٩٥ فى ولاية الأمير عيسى النوشرى ، الذى أرسله الخليفة المكتفى بالله العباسى بعد مقتل شيبان بن أحمد بن طولون . وقد كان الشريف معاذ بن داود موضع الاعتزاز والتكريم من عيسى النوشرى الذى كانت ولايته على مصر خمس سنين وشهرين ونصف . وكان عيسى هذا أميرا جليلا شجاعا مقداما عارفا بالأمور طالت أيامه بالسعادة ، ولى إمرة دمشق من قبل المنتصر والمستعين وولى شرطة بغداد أيام الخليفة المكتفى ، ثم ولى أصفهان والجبال بإيران إلى أن ولاه المكتفى إمرة مصر[١] .

ومن المعروف أن خلفاء ووزراء الدولة الفاطمية كانوا قد أقاموا المشاهد والأضرحة لأهل البيت وخاصة أبناء الإمامين الحسن والحسين ، ولما كان الشريف معاذ قد توفى قبل مجئ الدولة الفاطمية ومن المرجح أن يكون قد دفن فى حى الخليفة فى قرافة السيدة

---

(١) النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٤٤ — ١٥٦ .

نفيسة أو فى القرافة الصغرى إلى جوار الإمام الشافعى ، فإن أبا الغضنفر أسد الفائزى وزير الخليفة الفائز قد نقل رفات الشريف معاذ إلى منطقة البرقية[1] (الدراسة الآن) بالقرب من القصر الفاطمى الشرقى الكبير . وحارة البرقية (أى حى البرقية) كما جاءت فى المقريزى[2] . هذه الحارة عرفت باسم طائفة من طوائف العسكر التى أتت مع القائد جوهر الصقلى لفتح مصر ويقول ابن عبد الظاهر : ولما نزل بالقاهرة (يعنى المعز لدين الله الفاطمى) اختطت كل طائفة خطة عرفت بها ، قال واختطت جماعة من أهل برقة الحارة المعروفة بالبرقية .

ويحدثنا السخاوى عن مشهد معاذ عند ذكره مزارات باب القراطين ودرب المحروق (كلها بحى الدراسة الآن) فيقول : وآخر مزارات هذه الجهة مشهد السيد معاذ بالعطفة المعروفة به بآخر الدراسة على يمين السالك قاصد المشهد الحسينى ، وهو السيد الشريف معاذ بن داود ابن محمد بن عمر بن داود بن محمد بن سليمان بن داود بن الحسن المثنى بن الحسن السبط ابن الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه توفى سنة ٢٩٥ هـ . وهذا المشهد معدود من الآثار الفاطمية الباقية إلى اليوم ، وينسب إنشاؤه إلى الوزير ابن الغضنفر الأسدى ، بناه سنة ٥٥٢ هـ فى خلافة الفائز[3] .

ويتكلم على مبارك[4] عند حديثه عن عطفة حوش الكتان بالدراسة ، عن مشهد سيدى معاذ ، فيقول : وبه أيضا جامع السيد معاذ وهو فى الجهة البحرية لرأس شارع السكة الجديدة الواصل إلى تلول البرقية وبالقرب من آخر حارة الدراسة التى كان يتوصل إليه منها ثم سد بابها لارتفاع تراب التلول عليه ، ثم يضيف على مبارك فى الحديث عن جامع السيد معاذ فيقول أصله مدرسة بنيت على مشهد السيد الشريف معاذ بن داود بن محمد بن عمر بن الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم توفى فى ربيع الأول سنة خمس وتسعين ومائتين . وضريحه الآن داخل قبة بها قبر الشيخ محمد المزين وقبر ابنته نفيسة ، وبدائر القبة شبابيك من الزجاج الملون مكتوب فيها بالزجاج آيات قرآنية وأحاديث نبوية

---

(١) الخطط التوفيقية ج ٤ ص ١٢٠ .

(٢) الخطط والآثار ج ٢ ص ١٢ .

(٣) تحفة الأحباب ص ٧٠ .

(٤) الخطط التوفيقية ج ٢ ص ٨٣ .

ومكتوب فى شباك منها بنيت هذه القبة سنة ست وستين وثمانمائة وعلى باب القبة لوح رخام فيه كتابة كوفية .

ويستطرد على مبارك فى حديثه عن مشهد السيد معاذ ليكمل تاريخه حتى العصر الحديث فيقول : وشعائره معطلة إلى اليوم (أى القرن ١٩ م) لأنه كان قد شرع فى عمارته على بيك الميهى بعدما تحصّل على أمر عن وزارة الأوقاف بوقف مائة فدان على عمارته ولوازمه . وهنا يتكلم على مبارك عن نفسه فيقول : فأخذ الديوان (أى ديوان الأوقاف) فى عمارته مدة نظارتنا على الأوقاف ، ثم بعد انفصالنا عن النظارة وبعد موت على بيك الميهى ، توقفت العمارة فلم تتم إلى الآن .

ويتوجه على مبارك باللوم على نظارة الأوقاف فى وقته ، ولعل وزارة الأوقاف الحالية تستمع إليه إذ يقول : أقول ومن الواجب اتمامه ولو من ريع العشرة آلاف فدان المجعولة للمنصرف على المساجد التى لا ريع لها فإن بقاء مسجد هذا الشريف على هذه الصفة لا يصح خصوصا بعد صرف ما صرف عليه .

وبداخل المسجد توجد زاوية صغيرة تعرف بزاوية القزاز لأن بداخلها ضريح الشيخ محمد القزاز . شعائرها مقامة من أوقافها بنظر محمد عثمان الزيات . وقد أوقف السيد محمد المزين صاحب حانوت الحلاقة الكائن بشارع الأشرفية تجاه المدرسة الاشرفية ، كما يقول السخاوى[1] أوقافا فى حياته على رواق المغاربة بالأزهر ومؤذنى مساجد وزوايا القاهرة وخص مقرأة السيد معاذ صاحب المشهد الذى نحن بصدد الحديث عنه وتربته ، بالإضافة إلى الوقف العام بحانوت الحلاقة السالف الإشارة إليه . ولذلك فقد صُرح للسيد محمد المزين بالدفن داخل المسجد هو وابنته نفيسة كما جاء فى وصيته .

نلخص من السرد التاريخى السابق أن مشهد الشريف معاذ ، المكون من القبة والمئذنة الملحقة به قد بناه أول الأمر أبو الغضنفر أسد وزير الخليفة الفاطمى الفائز

---

(١) تحفة الأحباب ص ٧٠ .

(سنة ٥٥٢ هـ ١١٥٧م) كما هو ثابت على اللوح الرخامى الموجود فوق باب المشهد .
وفى عهد السلطان الظاهر خشقدم أحيط المشهد ببناء مسجد حوله وكذا أعيد أو رمم بناء القبة كما يدل على ذلك التاريخ الوارد على احدى النوافذ المحيطة بالقبة والتى جاء فيها : بنيت هذه القبة سنة ٨٦٦ هـ ، أو كما قرأها الدكتور عبد الرحمن فهمى سنة ٨٦٩هـ .

على أن علماء الآثار قد اختلفوا فى أمر تاريخ بناء القبة فالبعض اعتمد على التاريخ الوارد على إحدى نوافذ القبة وهو سنة ٨٦٦هـ واعتبرها قضية مسلم بها دون مناقشة . وفريق آخر تجاهل التاريخ المنقوش على النافذة وهو سنة ٨٦٦هـ تجاهلا تاما ولم يعره أى التفات واكتفى بدراسة الطراز المعمارى للقبة ، واعتمادا عليه أرجع المشهد إلى العصر الفاطمى إلى سنة ٥٥٢ هـ .

على أن الفاحص المدقق لابد وأن يقف موقفا وسطا بين الفريقين ، لأن الدّارس لطراز القبة المعمارى يجد ، دون شك ، أنها فاطمية الطراز وأنها ترجع إلى سنة ٥٥٢هـ ، كما أنه لايهمل التاريخ الوارد على النافذة وهو سنة ٨٦٦هـ وإنما يرجح أن يكون النص الذى نقش على النافذة وهو (بنيت هذه القبة سنة ٨٦٦هـ). إنما يراد به جددت هذه القبة سنة ٨٦٦ بدلا من بنيت ، وقد مر علينا كثيراً عبارة بنى بدلا من رمم أو جدد منقوشا على الآثار وهذا الترجيح يعتمد على النقاط الآتية :

أولا : أن القبة فاطمية الطراز ولا صلة لها البتة بطراز القباب المملوكية المتأخرة .

ثانيا : من غير المعقول أن يعاد بناء القبة كلها فى عصر المماليك الشراكسة ثم تحتفظ باللوحة التأسيسية الموجودة على باب المشهد والتى ثبت أن مؤسسها الأول هو أبو الغضنفر أسد الفائزى سنة ٥٥٢هـ وفيما يلى نصها(١) .

(١) بسم الله الرحمن الرحيم إنما يعمر مساجد الله

(٢) من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الز

(٣) كاة ولم يخش إلا الله . أمر بإنشاء هذا المشهد المبا

(1) Wiet (g) : Répertoire chronologique de l'Epigraphie Arabe II p. 220-21.

(٤) رك الأمير المعظم الهمام حصن الاسلام شرف .

(٥) الانام مقدم الجيوش عصام الدين سيف أمير المؤ

(٦) منين أبو الغضنفر أسد الفائزى الصالحى ابتغاء لمر

(٧) ضات الله وطلبا لما عنده من أجره وثوابه فى

(٨) سنة اثنين وخمسين وخمس مائة رحمة الله عليه .

ثالثا : من الثابت أن بعض أجزاء القبة قد جدد وخاصة الجص المعشق الذى ملئت به (٣٢) نافذة بالقبة ، والتى تحتوى على أشرطة من الكتابات النسخية لبعض آيات الذكر الحكيم أو الأحاديث النبوية ، ذلك أننا لم نجد هذا الأسلوب من الزخرفة فى العصر الفاطمى كما أن التاريخ الوارد على احداها يثبت ذلك وهو سنة ٨٦٦ هـ .

رابعا : جاء فى كتاب تحفة الأحباب[1] أن السلطان قايتباى أمر ببناء مسجد على المشهد وأن بعض آثاره ظاهرة لليوم وإن كان السخاوى قد أخطأ فى تعيين اسم السلطان إذ أن سنة ٨٦٦ هـ تقع فى حكم السلطان الظاهر خشقدم .

خامسا : وفى القرن التاسع عشر الميلادى شرع فى عمارة وتجديد المسجد المهدم ، أى الجزء الذى أقامه السلطان الظاهر خشقدم ، وليست قبة ، على بك الميهى ، كما يقول على مبارك[2] ، والذى ما يزال آثاره باقية حتى اليوم ويتوسط ضلعه الجنوبى الشرقى قبلة ظاهرة .

* * *

---

(١) السخاوى ص ٧٠ .

(٢) الخطط التوفيقية ج ٢ ص ٨٣ .

وصف المشهد

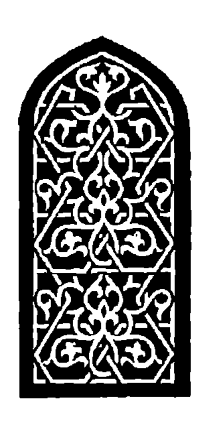
يتكون المشهد من شكل رباعى تقريبا تبلغ مساحته ٥ر٥ × ٦ أمتار مربعة وارتفاعه نحو أربعة امتار . ولما كان من الصعب إقامة قبة على مربع غير متساوى الاضلاع ، فقد استطاع المعمارى المسلم أن يتلافى هذه المشكلة بمهارة تدل على تمرسه فى بناء القباب . فقد ملأ منطقة الانتقال بصفين من المقرنصات فى أركان المربع وفتح فى المسافة المحصورة بين مقرنصات الأركان نافذة ذات ثلاث فتحات قندلية فى الضلع القصير ، وفتح نافذة ذات ست فتحات فى الضلع الطويل وبذلك استطاع أن يساوى بين الاضلاع . ثم أقام رقبة على منطقة الانتقال وفتح فيها أربع عشرة نافذة بالإضافة إلى فتحتين يكونان نهاية النوافذ ذات الست فتحات السابق الإشارة إليها ، فيصبح عدد فتحات الرقبة ست عشرة . وقد ملئت نوافذ الرقبة وكذا فتحات النوافذ ، التى يبلغ عددها جميعها (٣٢) فتحة بالجص المخرم والمعشق بالزجاج المتعدد الألوان . وتحتوى كل فتحة على أربعة أو ثمانية سطور من الخط الفسنحى كل مخرمه ، ومعشق بالزجاج الملون من القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف ، وإحدى هذه الفتحات تحتوى كتابتها على هذه العبارة[1] « بنيت هذه القبة سنة ٨٦٦ هـ ـ سنة ١٤٦٢ م » . وفوق الرقبة تقوم القبة المفصصة .

وبجانب القبة توجد مئذنة مبنية من الآجر وتتكون من بدن مربع يبلغ ضلعه ٥ر٢ متر وارتفاعه (١٢ر٧٦) مترا ينتهى بقاعدة مثمنة ترتكز على ميدة خشبية يعلوها طابق مثمن يبلغ قطره (٥٠ر٢) مترا . وبكل ضلع من أضلاع المثمن توجد فتحة مستطيلة . ويعلو هذا الطابق رقبة مثمنة ارتفاعها (٨٠ سم) بكل ضلع منها فتحة ذات ثلاثة فصوص . وفوق الرقبة تقوم قبة مفصصة ذات عقد ذى زاوية تشبه تماما قبة المشهد يبلغ ارتفاعها (٥٠ر١) مترا ، وبذلك يكون أرتفاع المئذنة من القاعدة حتى نهايتها (٥ر١٧) مترا .

---

(1) Patricolo (A.) : Comité de Conservation. C.R. 1915 - 1919 pp. (40 - 44).

اما عن تاريخ المئذنة فمن الواضح انها تشبه مئذنة الجيوشى التى بنيت سنة ٤٧٨ ه مع تطور بسيط هو أن الطابق الذى تعلوه القبة رباعى الشكل فى الجيوشى ومثمن وأكثر ارتفاعا فى سيدى معاذ . كما أن القبة ذات عقد منكسر ومفصصة وعلى ذلك يمكن أرجاع المئذنة إلى الفترة التى تمتد من تاريخ إقامة مئذنة الجيوشى إلى مئذنة الصالح طلائع أى من سنة ٤٧٨ ه إلى سنة ٦٤١ ه وبذلك يكون التاريخ الثابت على مدخل المشهد وهو سنة ٥٥٢ ه هو تاريخ إقامة المئذنة كذلك .



مسجد وضريح عفان

بسوق الغنم
بمصر القديمة

هوعفان بن سليان البغدادى المصرى المولد والنشأة والأصل . اشتهر بالبغدادى نسبة لرحلته إليها وما أتبع ذلك من أحداث هامة أثرت على مجرى حياته سيأتى ذكرها .

ولد عفان بن سليان فى القرن الثالث الهجرى فى عهد أحمد بن طولون ، وكان يعمل فى أول أمره خياطا بسيطا وكان يتردد كثيرا على جامع عمرو بالفسطاط وجامع أحمد ابن طولون بالقطائع حتى حفظ القرآن وتفقه فى أمور دينه على يدى علماء عصره اللذين كان يحضر دروسهم ووعظهم فى المساجد العامة[1]. وكان لرقة حاله لا يؤجر حانوتا يمارس فيه حرفة الخياطة ولكنه اتخذ من داره التى يقيم بها فى مصر القديمة ، والتى تقع الآن بسوق الغنم ، والتى كان يحدها شمالا زقاق القناديل[2]، وشرقا سوق الوبر وإلى الغرب منها تقع دار الأنماط ، حانوتا للخياطة .

وقد ازدهرت حرفة الخياطة فى مصر بازدهار وانتعاش الحالة الاقتصادية والتجارية فى مصر فى عهد أحمد بن طولون حتى بلغت الذروة فى عهد ابنه خمارويه الذى تولى ملك مصر سنة ٢٧١ هـ بعد وفاة والده . ويكفى للتدليل على مدى ما بلغته ثروة مصر فى ذلك الوقت أن نذكر شيئا من شوار قطر الندى التى زفت إلى الخليفة المعتضد العباسى والتى شارك فى صنع بعض منها شيخنا عفان بن سليان .

قال القضاعى ، وعقد المعتضد النكاح على قطر الندى فحملها أبوها أبو الجيش خمارويه

---

(١) النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٦٢ .

(٢) المقريزى ، ابن تغرى بردى .

إلى المعتضد مع أبي عبد الله الجصاص وحمل معها من الجهاز ما لم ير مثله ولا يسمع به . ولما دخل إلى خمارويه ابن الجصاص يودعه قال له خمارويه : هل بقى بينى وبينك حساب ؟ قال لا فقال خمارويه ، أنظر حسابك ، فقال كسر بقى من الجهاز ، فقال خمارويه احضروه ، فاخرج ابن الجصاص ربع طومار (نوع من الورق) فيه ثبت ذكر نفقة الجهاز فإذا فيه أربعمائة ألف دينار ، فوهبها له خمارويه .

ويعلق على هذه الوقعة ابن تغرى بردى فيقول ، يفهم منها كثرة ثروة مصر ، حتى قبل أنه كسر بقى من الجهاز وهو أربعمائة ألف دينار . لو لم يذكره بها خمارويه لما ذكرها ابن الجصاص لضآلتها بالنسبة لثروة مصر .

وكان من جملة جهاز قطر الندى كما جاء فى المراجع التاريخية دكة أربع قطع من ذهب عليها قبة من ذهب مشبك فى كل عين من التشبيك قرط معلق فيه حبة من جوهر لا يعرف لها قيمة ، ومائة هاون من الذهب ، وقال الذهبي ، ألف هاون من ذهب .

وقد شارك الشيخ عفان بن سليمان الخياط فى صناعة بعض الملابس التى أخلتها قطر الندى معها فى شوارها إلى بغداد مثل صناعة التكك ، فقد قال محمد بن على الماذرائى ، كاتب خمارويه فنظرت فى الطومار فإذا فيه ألف تكة ، الثمن عنها عشرة آلاف دينار ، ثم يعلق على ذلك ابن تغرى بردى فيقول ، وهذا يدل على عمارة مصر فى ذلك الزمان ، لما طلب فيها الف تكة من أثمان عشرة دنانير قدر عليها فى أيسر وقت وبأهون سعى ، ولو طلب اليوم (أى فى القرن التاسع الهجرى) خمسون لم يقدر عليها . كذلك يعلق المقريزى المعاصر لابن تغرى بردى . فيقول : ولا يعرف اليوم فى أسواق القاهرة تكة بعشرة دنانير إذا طلبت توجد فى الحال ولا بعد شهر ، الا أن يعتنى بعملها فتعمل .

مما تقدم نتبين حالة الثراء التى كانت عليها مصر فى ذلك الوقت ، وقدرة الناس الشرائية على اقتناء الغالى والنفيس من المنتجات والمصنوعات ، على إننا إذا رجعنا إلى شيخنا عفان صاحب الترجمة نجده – برغم إقبال الناس على اقتناء ما ينتجه من التكك والملابس – ما يزال خياطا مجهولا محدود الدخل لا يكاد يجد غير قوت يومه ، ولكنه مع ذلك قانع

راض عن نفسه كل الرضا حامد شاكر ربه . ثم نسمع أنه سافر إلى بغداد مصاحبا ركب قطر الندى ويبقى هناك فترة ثم عاد إلى مصر وأصبح من كبار الأغنياء حتى إن الناس أضافت له اسما ولقبا جديدا هو عفان بن سليمان البغدادى .

ويحدثنا الشيخ عفان عن سبب ثرائه فيقول ، إنه رأى فى المنام هاتفا يقول له امض إلى بغداد تستغن ، ثلاث ليال متوالية فمضى إلى بغداد ودخل بها وجلس على دكان أقام بها شهرا يخيط به ، فزاد به الوجد من المنام الذى رآه بمصر وتغير حاله على معلمه ، فقال له المعلم : أخبرنى مابك ؟ قال له سافرت لأجل منام ولم أجده ، فقال له وما هو ؟ فقص له المنام فقال له المعلم هذه أضغاث أحلام ، أنا لى سنين كثيرة يقول لى هاتف امض إلى مصر تستغن ، فقال له كيف صوره ما قال لك ؟ فقال قال لى : امض إلى الدار الفلانية فإذا هى دار عفان ، فترك شيخنا معلمه فى بغداد وعاد إلى مصر ، فحفر الموضع الذى سماه له المعلم فبان فيه مال عظيم فعمل منه الخير والصدقات .

ومهما يكن من أمر هذه القصة أو القصص الأخرى التى تواتر ذكرها فى كتب التراجم والتاريخ فإن الذى يعنينا من أمر الشيخ عفان هو أعماله وتصرفاته بعد أن أصبح غنيا ثريا ، نذكر بعضا منها على سبيل الموعظة والقدوة الحسنة . .

يقول عنه القاضى ابن رستم : كان عفان تاجرا كثير المال ، لم يخلف قط عقارا للدريته ، وإنما جعلها صدقة لله سبحانه وتعالى وكان لايبيت فى كل ليلة حتى يطعم أهل خمسمائة بيت ، وفى كل موسم للحج يلتى الحجاج من العقبة بطعام من مصر ، وفى رواية ثانية للسخاوى يقول : اشترى له أحمد بن سهل ألف جمل من بر (القمح) فبلغ ثمنها إلى ثلاثة أمثال ، فخرج وجلس على باب داره ، وقال لأحمد بن سهل ، اجمع لى من يشترى هذا البر ، فجمع له الناس فلما قدموا له ثمنها قال : والله لقد ادخرتها عند الله سبحانه وتعالى ففرقها على الأرامل والفقراء .

ويحدثنا عن شيخنا عفان نبان بن محمد أبو الحسن الزاهد المشهور المعروف بالجمال ، أصله من واسط ونشأ ببغداد وسمع الحديث ، ثم انتقل إلى مصر وسكنها إلى أن مات

بها سنة ٣١٥ هـ ، وكان صاحب مقامات وكرامات وبزهده وعبادته يضرب المثل : فيقول : إن عفان كان له إمام يصلى به وكان هذا الإمام من الصالحين لا يخرج من مسجده ليلا ولا نهارا فجاءه فى بعض الأيام رجل وأودع عنده صندوقا فيه عشرة آلاف دينار ، وكان للإمام بنات فزوجهن جميعهن ، فلما كان فى بعض الأيام رأى زوجته تشترى شوارا بجملة من المال ، فقال لها الإمام من أين هذا الذى تشترين به هذا الشوار ؟ فقالت له من عند الله تعالى فسكت وتركها ومضى . فلما قضى صاحب الوديعة حجه جاء إليه وسلم عليه وطلب صندوقه فدخل للصندوق ، فلم يجد فيه شيئا فقال لزوجته ، أين الذى كان فى الصندوق ؟ فقلت له شورت به بناتك ، فقال لها شورت بوديعة الرجل ، ثم لطم رأسه وخرج إلى الرجل فقال أمهل علىّ إلى غد واعتذر بعذر ومضى من ساعته ، ودق الباب على عفان فخرج له غلام عفان ثم عاد إلى سيده وأخبره أن إمام المسجد قد وقف بالباب فتعجب عفان من ذلك وقال هذا شئ لم يكن قط ، فخرج إليه مسرعا وقال له ما الخبر ؟ فقص عليه قصته فقال له لا تخف وائتنى بالصندوق ، فجاءه بالصندوق فملأ فيه الأكياس كما كانت وربطها وأغلق الصندوق كما كان وأخذه ومضى به إلى بيته ، فما كان الصبح إلا وصاحب الوديعة أتى إليه وسلم عليه فسلم له الصندوق ، ففتحه فاختلف عليه رباطه وعلامته ، فقال ما هذه علامتى فتحت صندوقى ، فقال له يا أخى ما تعرف وزنه وعدده ؟ قال نعم لكن أخبرنى ما جرى فى الصندوق ، قال يا شيخ زن المال واستعده فإن نقص شيئا دفعته إليك قال ما آخذ المال إلا بعينه ، فقال سألتك بالله لا تفضح شيبتى وخذ عوض مالك فحلف له يمينا مؤكدة ما آخذ إلا مالى بعينه أو تخبرنى ما جرى على هذا المال فحدثه بما جرى فقام صاحب الصندوق وقبل رأسه وقال جزاك الله تعالى عنى خيرا ، صاحب هذا المال أخرجه لأهل القرآن أو لمن يشور به ضعيفا أو امرأة أو أرملة أو يكسو به عريانا وتركه ومضى . فقام إمام المسجد إلى الشيخ عفان وقص عليه القصة وأحضر له الصندوق ، وقال خذ مالك جزاك الله تعالى عنى خيرا ، فقال له عفان يا أخى أنا أخرجته لله تعالى فلا يرجع إلىّ فأخذه الإمام ومضى إلى بيته .

ومن الروايات التى يذكرها السخاوى[1] عن سبب غنى عفان ، أنه عندما كان يعمل

(١) تحفة الأحباب ص ١٤٦ .

خياطا اشترى عبدا زنجيا شابا ليخدمه فلما كان فى بعض الأيام أمره عفان أن يوقد التنور ليخبز فيه ، فسجر التنور وأوقده فشهقت النار فى التنور ، ففرح العبد وطرب لشهيق النار فمضى إلى ثياب عفان التى كان يتجمل بها فألقاها فى النار وعمامته وكل ما كان لعفان فلما رأى عفان ما صنعه العبد رزقه الله تعالى الحلم والصبر ، فأعتق العبد وزوده وأخرجه .

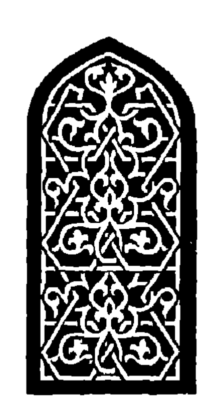
ويستطرد السخاوى فى سرد القصة فيقول : فسمع الناس ما فعل العبد مع عفان وما فعل عفان معه فى العتق فوقع لعفان فى قلوب الناس المحبة ، فجاء رجل من كبار تجار مصر إلى عفان وقال له عندى بضاعة تصلح للهند وقد اخترتك لتذهب بها واتفقا على نسبة معينة من الربح لعفان . فخرج عفان ومعه البضاعة إلى بحر القلزم (الأحمر) فسافر إلى عدن وأقام بها ما شاء الله ثم ركب البحر ودخل إلى بحر الهند وباع ما كان معه من البضائع وربح ثم رجع فعصفت به الرياح فألقت بالسفينة إلى ساحل أفريقيا الشرق إلى بلاد الزنوج.

إلى هنا والرواية معقولة مقبولة ولكن السخاوى يكمل القصة بما يشبه الأسطورة فيقول : فخافت التجار على أنفسهم وأموالهم ودخلوا إلى البر خوفا من الغرق ، فلما دخلوا استقبلهم الزنوج وجعلوا يأخذون رجلا رجلا يحملونه ويردونه إلى السفينة ليعرضوه على ملكهم والملك صامت لم يتكلم مع أحد منهم ، فلما أخذوا عفان أدخلوه على الملك فلما رآه قام إليه وقبّل يديه ورجليه ، ووقف بين يديه ففزع عفان من ذلك فقال له الملك ألست عفان الخياط بمصر ، الذى اشتريت غلاما زنجيا وأحرق ثيابك ولم تؤذه وأعتقته وزودته ؟ فقال عفان بلى أيها الملك ، فقال الملك ياعفان أنا هو ذلك العبد الذى أعتقتنى وقد أعطانى الله تعالى هذه النعمة ببركة إحسانك إلىّ وجميع هذه المملكة لك وأنا ملك على هؤلاء وأنت ملك علىّ . فحمد عفان الله تعالى على ذلك وقال له أيها الملك أنت لى كالولد وبلادك لا تصلح لى ولا لمثلى ، فأمر له بسفينة وحمل فيها من الأموال الشئ الكثير ووهبه السفينة وجميع ما فيها وبعث معه من عبيده من وصله إلى بلاد اليمن ثم رجع عفان من بلاد اليمن إلى مصر ومعه مال لا يحصى ، فكان رحمه الله لا يرد سائلا وعمل الدور والخانات والدكاكين والحمامات بالفسطاط والعسكر والقطائع وأوقف الكل لله عز وجل على الفقراء والمساكين .

وقد ذاع صيت الشيخ عفان بين العام والخاص والغنى والفقير ويسعى إلى مجلسه الملوك والأمراء وكبار رجال الدولة والعلماء والفقهاء وكان قاضى مصر الحسين بن صالح على ابن خيران الفقيه الشافعى يخلو به ويحدثه ويسأله عن الناس لكثرة ترددهم عليه فيرد عليهم الشيخ عفان قائلا : لا تسألنى إلا عن نفسى وتقصيرها وعجزها عن تأدية فرائض الله .

ولما توفى الشيخ عفان سنة ست وعشرين وثلثمائة دفن بداره حيث يوجد ضريحه الآن بسوق الغنم بمصر القديمة . ويقال إن الخليفة الحافظ لدين الله الفاطمى رأى فى المنام هاتفا يقول له يا عبد المجيد لم لا تزور قبر عفان بن سليمان ، فركب وزار قبره وأمر ببناء القبة القائمة حاليا ، كما أمر بصنع نافذة من النحاس يقف عندها الناس لقراءة الفاتحة له .

وفى عصر المماليك البحرية أراد السلطان بيبرس جاشنكير الذى تولى السلطنة بعد سلطنة الناصر محمد بن قلاوون الثانية ، أن يأخذ شباك ضريح الشيخ عفان فجاءه هاتف فى المنام ونهره وقال له لا تفعل ذلك فلصاحب هذا القبر جاه عند الله سبحانه وتعالى فلما استيقظ ، أعاد الشباك مكانه بعد أن كان قد خلع .



زاويـة الشيخ الطحاوى

بشارع الإمام الليث
بقرافة الإمام الشافعى

هو الإمام العالم الفقيه أبو جعفر محمد بن محمد بن سلامة بن عبد الملك الأزدى الطحاوى الفقيه الحنفى انتهت إليه رياسة أصحاب أبي حنيفة بمصر . ولد أبو جعفر سنة ثمان وثلاثين ومائتين بمدينة طحا فى ولاية عنبسة بن إسحاق على مصر . وكان عهد عنبسة عهد عدل وهدوء ، وسكينة ، فقد سكن عنبسة[1] العسكر على عادة الأمراء ، وبدأ ولايته بأمر العمال برد المظالم وخلص الحقوق وأنصف الناس غاية الانصاف ، وأظهر من الرفق والعدل بالرعية والإحسان إليهم مالم يسمع بمثله فى زمانه وكان ورعا تقيا . وفى ذلك يقول الذهبى : كان عنبسة يتوجه ماشيا إلى المسجد الجامع من مسكنه بدار الإمارة بالعسكر وكان ينادى فى شهر رمضان : السحور ، السحور .

وهكذا نرى أن أبا جعفر ولد وأمضى نعومة أظفاره فى عهد اتصف بالعدل والورع والتقوى وكان ذلك بمدينة طحا التى نسب إليها . وطحا من المدن المصرية القديمة ذكرها جوتييه[2] فى قاموسه فقال : أن اسمها المصرى (تيهر) (Tyhr) والقبطى (توهو) (Touho) ومنه اسمها العربى طحا . وقال اميلنو[3] إن اسمها اليونانى والرومانى هو (Theodosiopolis) ووردت فى كتب الجغرافيين[4] العرب ، طحا كورة بمصر بالصعيد فى غربى النيل ويضيف البعض فيقول من أعمال الاشمونين ، والبعض الآخر يقول من أعمال البهنساوية . ويصفها

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٢٩٤.

(٢) Goulhier Henri ; Les Nomes d'Egypte depuis Herodote Jusqu à la Conquête arab.

(٣) Amelineau. F; Geographie de l' Egypte à l' Epoque Copte.

(٤) ابن خرداذبة فى المسالك ؛ ياقوت فى معجم البلدان ؛ المقدسى فى أحسن التقاسيم ؛ ابن مماتى : قوانين الدواوين .

الإدريسى فيقول : وهى من مدن الصعيد مشهورة يعمل بها وفى طرزها (أى مصانع النسيج) ستور صوف وأكسية صوف منسوبة إليها .

ويذكر محمد[1] رمزى فى قاموسه أنه فى ربيع سنة ٩٣٣ هـ عرفت باسم طحا الأعمدة نسبة إلى المعبد ذى الأعمدة الذى كان قائما بهذه المدينة ، وجاءت فى أخبار الأول للاسحاقى : طحا ذات الأعمدة ويقال لها طحا العمودبين ، وطحا أم عمودين ، وفى تاريع (مساحة) سنة ١٢٣٠ وردت باسمها الحالى طحا الأعمدة . وتقع طحا الأعمدة الآن بمركز سمالوط بمحافظة المنيا .

ويصف أبو صالح الأرمينى مدينة طحا الأعمدة فى العصر الإسلامى فيقول : كان سكان طحا فى صدر الإسلام خمسة عشر ألف نفس كلهم نصارى ليس فيهم مسلم ولا يهودى ، وفى عصر الخليفة الأموى مروان بن عبد الحكم ، حدث أنه لما ذهب واليه لجمع الخراج طرده أهلها وعاملوه أسوأ معاملة ورفضوا أن يقيم عندهم حتى يستريح من عناء السفر . فلما رجع إلى مصر قص على الخليفة ، الذى كان بمصر فى ذلك الوقت للقضاء على الفتنة التى حدثت إبان دعوة ابن الزبير لنفسه بالمدينة وذلك سنة ٦٥ هـ ، فغضب غضبا شديدا وأحس أنهم متآمرون مع ابن الزبير وأرسل أحد أمرائه إليها فقتل ونفى كثيرا من أهلها فيما عدا أهل وقساوسة كنيسة (مارى منبه) التى كان أهلها عاهدوه على أن يدفعوا له نظير بقائهم ثلاثة آلاف دينار ، ثم دفعوا له منها ألفين وعجزوا عن الباقى فجعل ثلثها مسجدا مشرفا على السوق .

ويصف ابن حوقل طحا فى العصر الإسلامى فيقول ، كان فيها عدة أنوال لنسج الأقمشة الصوفية وهى الآن قرية واقعة على تلول البلد القديمة بها جامعان بمنارتين وزاوية . ويضيف على مبارك[2] ويصفها فى العصر العثمانى ، فيقول : وسوقها كل يوم اثنين وأطيانها نحو أربعة آلاف فدان وهى من أعمال المنية .

أما عن ترجمة شيخنا الطحاوى فيقول ابن خلكان[3] : كان أبو جعفر الطحاوى شافعى

---

(١) القاموس الجغرافى القسم الثانى الجزء الثالث ص ٢٣٤ .

(٢) الخطط التوفيقية جـ ١٣ ص ٣٠ .

(٣) وفيات الأعيان ، ج ٧ ص ٣٩ .

المذهب فى أول أمره يقرأ على شيخه اسماعيل بن يحيى بن اسماعيل بن عمر بن اسحق المزنى صاحب الإمام الشافعى ، فقال له يوما والله لا جاء منك شىء فغضب أبو جعفر من ذلك وانتقل إلى شيخ آخر هو أبو جعفر بن أبى عمران الحنفى واشتغل عليه ، فلما صنف مختصره قال رحم الله أبا ابراهيم يعنى المزنى ، لو كان حيا لكفر عن يمينه .

وجاء فى كتاب الإرشاد فى ترجمة المزنى ، أن الطحاوى كان ابن أخت المزنى وأن محمداً ابن أحمد الشروطى قال : قلت للطحاوى لم خالفت خالك واخترت مذهب أبى حنيفة ، قال كنت أرى خالى يديم النظر فى كتب أبى حنيفة فلذلك انتقلت إليه .

ويذكر القضاعى فى خططه أن الطحاوى أدرك المزنى وعامة طبقته وبرع فى علم الشروط وكان قد استكتبه أبو عبيد الله محمد بن عبده القاضى وكان صعلوكا فأغناه . وكان عبيدالله سمحا جوادا ثم عدله أبو عبيد الله على بن الحسين بن حرب القاضى عقيب القضية التى جرت لمنصور الفقيه مع أبى عبيد وذلك فى سنة ست وثلاثين ومائتين وكان الشهود يتعسفون عليه بالعدالة لئلا تجتمع له رياسة العلم وقبول الشهادة . وحدث فى ذلك الوقت أن جماعة من الشهود كانوا قد جاوروا بمكة فى هذه السنة ، فاغتنم أبو عبيد غيبتهم وعدل أبا جعفر المذكور بشهادة أبى القاسم المأمون وأبى بكر بن سقلاب .

وقد صنف الطحاوى الكثير من الكتب الفقهية المفيدة منها أحكام القرآن واختلاف العلماء ومعانى الآثار والشروط وله تاريخ كبير وغير ذلك . وللطحاوى دعوة مجابة ، وكان يقول من طهر قلبه من الحرام فتحت لدعوته أبواب السماء .

وكانت للشيخ الطحاوى الكثير من المساجلات ومواقف الوعظ والإرشاد مع حكام مصر وولاتها ، ومما يذكر فى هذا المقام ما حدث بينه وبين والى مصر الأمير أبى منصور تكين بن عبد الله الحربى الخرزى ، الذى وصفه صاحب[1] (البغية والاغتباط فيمن ولى الفسطاط) فقال : تكين هذا مولى الخليفة العباسى المعتضد بالله نشأ فى دولته حتى صار من جملة القواد ، ثم ولاه الخليفة المقتدر دمشق ومصر وأقره عليهما الخليفة القاهر . وكان تكين جبارا مهيبا ،

---

(١) النجوم الزاهرة ج ٣ ص ١٧٢ .

ولكنه كانت لديه فضيلة ، وحدث عن القاضى يوسف وغيره . ثم يضيف فيقول : ودام تكين على إمرة مصر مدة إلى أن بعث للخليفة سنة تسع وتسعين ومائتين هدايا وتحفا ، وفى جملة الهدايا ضلع إنسان طوله أربعة عشر شبرا فى عرض شبر ، زعموا أنه من قوم عاد وخمسمائة ألف دينار ، ذكر تكين أنه وجدها فى كنز بمصر .

أما عن قصة الطحاوى مع تكين هذا فيحدثنا عنها السخاوى [1] فيقول : إن أمير مصر أبا منصور تكين الجوزى الشهير بالجبار ، دخل عليه يوما فلما رآه داخله الرعب فأكرمه وأحسن إليه ثم قال له ياسيدى أريد أن أزوجك ابنتى : قال له الشيخ الطحاوى ، لا أفعل ذلك ، فقال له ألك حاجة لمال ؟ قال له لا ، قال له فهل أقطع لك أرضا ؟ قال له لا . قال له فاسألنى ماشئت فرد عليه الطحاوى وتسمع ، قال نعم ، قال : احفظ دينك لئلا ينفلت ، واعمل فى فكاك نفسك قبل الموت ، وإياك ومظالم العباد . ثم تركه ومضى فيقال إنه رجع عن ظلمه لأهل مصر .

ولما توفى الشيخ أبو جعفر الطحاوى ليلة الخميس مستهل ذى القعدة سنة إحدى وعشرين وثلثمائة دفن بالزاوية التى كان ينقطع فيها للعبادة وكانت فى الأصل تربة قديمة لبنى الأشعث وهم جماعة من التابعين منهم من شهد فتح مصر . وبقبلة هذه الزاوية تربة الشيخ الصالح أبى عبد الله الحسينى بن على بن الاشعث بن قيس الكندى البصرى له ترجمة واسعة توفى فى رمضان سنة ست وتسعين ومائتين ومعه فى التربة الفقيه أبو العباس يحيى ابن الحسين بن على بن الأشعث البصرى أحد شهود قاضى مصر أبى محمد عبد الله بن أحمد ابن زين يعرف باسم وصاحب الدار ، وذلك لأنه كان له دار ينزل فيها القضاة الواردون على مصر وغيرهم . ويقول القضاعى ، كان أهل هذه التربة من أكابر العلماء الأخيار والدعاء هناك مجاب مجرب .

---

(١) تحفة الأحباب ص ٢٠٠ .

وصف الزاويــــة

يقول على مبارك : هذه الزاوية بالقرب من الإمام الشافعى رضى الله عنه بناؤها من الحجر وبها ضريح الإمام الطحاوى عليه تابوت من الخشب تجاهه شاهد من الرخام مكتوب عليه العالم « بسم الله الرحمن الرحيم هذا ضريح سيدنا ومولانا العالم العلامة أبى جعفر الطحاوى أحمد بن محمد بن سلامة بن عبد الملك بن سليم بن سليمن رضى الله عنه ولد فى سنة تسع وعشرين ومائتين وتوفى فى ذى القعدة سنة إحدى وعشرين وثلثمائة » .

وقد أعيد بناء هذه الزاوية فى العصر العثمانى فى عهد والى مصر حمزة باشا وقد سجل هذا التجديد محفورا على الحجر على المدخل الرئيسى للزاوية وفيما يلى نصها : « بسم الله الرحمن الرحيم أدخلوها بسلام آمنين ، جدد هذا المكان المبارك ، وهو مقام العارف بالله تعالى أبى جعفر أحمد الطحاوى قدس الله سره ، حضرة والى مصر حمزة باشا يسر الله له من الخيرات ما شاء فى سنة ثمان وتسعين وألف » .

وكان بالزاوية مزولة رأسية ترجع إلى العصر العثمانى كذلك ومزملة لشرب الماء . وجاء فى قلائد[1] العقيان ، أن من خيرات مولانا الوزير حمزة باشا تعمير مقام الإمام الأوحد والولى الأمجد الشيخ أحمد الحنفى الشهير بالطحاوى بالقرافة ، من بناء وترتيب ما يقوم بشعائره ورتب قراء يقرأون على ضريحه وأجرى عليهم صدقات جارية له ثوابها .

وأورد على مبارك جزءا كبيرا من الوقفية التى أوقفها حمزة باشا على زاوية الطحاوى ومصادر وقفها جاء فيها : وفى وقفيته المؤرخة بسنة تسع وتسعين وألف ، أنه أرصد على هذه الزاوية والمقام والسبيل والحوض والساقية جهات :

أولا ــ منها ما إيراده من العثامنة المصرية (أى الخزينة المصرية التابعة للدولة العثمانية)

---

(١) السيوطى ص ١٢٧ .

فى السنة سبعة وخمسون ألفا وتسعمائة وستون عثمانيا (أى قرشا) مقيدة بدفتر الكشيدة بالديوان العالى يصرف منها اجرة جمال لحمل الماء من النيل إلى السبيل والزاوية كل يوم أربعون عثمانيا ، ولشيخ القراء بالمقام والزاوية يوميا عشرة عثامنة ، ولخدمة المقام كذلك ولخادم السبيل ستة عثامنة يوميا وللوقود اثنان ولثمن الزيت كذلك . ومعلوم الناظر ثلاثة وللبواب كذلك وللفراش اثنان ولخمسة عشر يقرأ كل واحد منهم جزأين من القرآن كل يوم ثلاثون عثمانيا ولعشرة يقرأ كل واحد جزأ واحدا فى المقام كل يوم عشرون عثمانيا وللخفير كل يوم عثمانيان ولمفرق الربعة عثمانى واحد .

ثانيا ــ وأرصد كذلك بدفتر الروزنامجة بالديوان العالى كل سنة خمسة آلاف وخمسمائة وثمانية وثلاثين عثمانيا منها للناظر الحسبى فى السنة خمسمائة وأربعون وللمباشر كذلك وثمن الحصر وقناديل ثمانمائة وثمن قلل وكيزان مائتان وخمسون ولسواق الساقية وخادم الحوض تسعمائة وعشرون وثمن تبن وبرسيم لثور الساقية سبعمائة وعشرين وللنجار والطوانس والقواديس مائتان وخمسون وما زاد يبقى تحت يد الناظر لصرف ما يلزم فى العمارة ونحوها .

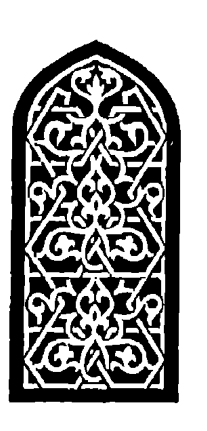
ثالثا : وكذلك أرصد بالانبار الشريف كل سنة من القمح سبعة وأربعين أردبا وستة علائق فول وجراية يفرق الناظر من ذلك على الفقراء بمعرفته ، ويصرف منها لعليق الثور وما بقى يبيعه ويصرف منه فى العمارة أن احتاج الحال لها .

وجاء فى الوقفية شرط خاص بالناظر ، فقد عين أولا شخصا بعينه ومن بعده لابنه ثم لمن يقرره الحاكم الحنفى وشرط أن يكون الناظر الحسبى باش جاويش من طائفة عزبان .

تتكون الزاوية الآن من الناحية المعمارية من مساحة مستطيلة يحيط بها سور مبنى من الحجر المنحوت تعلوه شرافات مسننة ومدخله الرئيسى يقع فى الركن الجنوبى الغربى . وينقسم المستطيل إلى قسمين مستطيلين كذلك القسم الأول فناء مكشوف به مجموعة من المقابر تعلو كل منها تركيبة حجرية مطعمها لعائلة بنى الأشعث السابق الإشارة إليهم . ويشغل الضلع الشمالى من هذا الفناء مكان مسقوف به مزملة لشرب الماء وخلفها غرف للحارس .

والقسم الثانى وهو مستطيل كذلك مغطى ويوجد به ضريح الشيخ الطحاوى . وينقسم هذا المستطيل إلى مربعين يفصل بينهما عقد دائرى . يشغل المربع الجنوبى منهما قبر الإمام الطحاوى وتعلوه قبة تقوم على أربعة مقرنصات كبيرة فى أركان المربع ويعلو كل مقرنص من جانبيه مثلثان . وتفصل هذه المثلثات التى يبلغ عددها ثمانية القبة عن مربع الضريح . وقد فتح فى القبة ثمانية نوافذ معقودة ، وزخرفت القبة من الخارج برسوم هندسية محفورة فى الحجر على شكل متعرج (Zigzag) غاية فى الدقة والإبداع .

أما المربع الثانى وهو الشمالى فيحتوى على محراب كبير مجوف يتقدمه عمودان مبنيان ، كما يوجد محراب صغير معلق فى الركن الشمالى الشرقى للمربع . ولا ندرى ما هى الحكمة من عمل هذا المحراب الصغير اللهم إلا إذا كان المراد منه هو الإشارة إلى وجود قبر لبنى الأشعث تحته . وسقف المربع مغطى بخشب حديث الصنع .



مسجد أبو على منصور الجوذرى

بشارع الجوذرى
بقسم الدرب الأحمر
بالقاهرة

ينتسب على الجوذرى إلى الأستاذ جوذر الصقلى الذى لعب دورا هاما فى تاريخ الدولة الفاطمية فى المغرب . فقد كانت له مكانة رفيعة لدى خلفاء الدولة الفاطمية بالمغرب قبل انتقال المعز لدين الله إلى مصر . لقد دخل جوذر فى خدمة الإمام المهدى بالله الفاطمى وهو غلام صغير وقد أظهر من الذكاء والإخلاص والوفاء مما قربه إلى قلب سيده . وقد رأى الإمام المهدى أن يهدى هذا الغلام إلى ولى عهده القائم بأمر الله .

وقد اشتدت وتوثقت الصلة بين العبد وسيده حتى إن القائم ـ وكان لا يزال ولى العهد ـ عندما خرج لغزو بلاد المغرب سنة ٣٠٠ هـ ، استخلف جوذرا على قصره وجميع من فيه من حرمه وأهله . ولما توفى المهدى بالله سنة ٣٢٢ هـ خص القائم بأمر الله عبده جوذرا دون سائر أهله وحاشيته ورجال الدعوة بمرتبة الاستيداع لولى عهده المنصور بن القائم ، فظل هذا السر سبع سنوات حتى أعلن القائم ولاية العهد على الملأ . وفى خلافة القائم أصبح جوذر صاحب بيت المال ووكل إليه الاشراف على خزائن الكساء ، كما كان سفيرا بين الخليفة وسائر الناس .

وكان جوذر محبا للخير كثير العطف على الشعب فأحبه الناس ، وكما ارتفعت منزلته بين الخلفاء وأصبح له نفوذ قوى فى هذه الدولة الناشئة فهابه الناس . ولما توفى الخليفة القائم لم يعلن أبنه المنصور بالله وفاة أبيه وإبقاء سرا لم يخبر به أحدا إلا جوذرا ، وذلك

(١) محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ١٤٣ .

لأنه كان مشغولا فى محاربة الخارجين عليه . وعندما خرج للحرب استخلف جوذرا على دار الملك وسائر البلاد وسلمه مفاتيح خزائن الأموال . ولما عاد منتصرا من الحرب وقضى على الفتن والثورات التى قامت فى شمال أفريقية ، والتى لولا ما أظهره المنصور من نشاط وشجاعة نادرة ودراية بأساليب الحرب لزالت معالم الدولة الفاطمية من كافة أرجاء البلاد . أقول لما عاد من حربه أعلن موت القائم . وقد كافأ المنصور عبده جوذرا على خدماته الجليلة التى قدمها له ولوالده من قبل . فأعتقه ولقبه (مولى أمير المؤمنين) . كما أمره أن لا يكنى فى رسائله أحدا ، ولا يقدم على اسمه اسما إلا الخليفة وولى عهده .

وكان للسياسة الحازمة التى اتبعها جوذر بعد الحرب التى أصابت مواردالدولة فأصابها العطل فأصبح بيت المال خلوا من الأصفر والأبيض ، أثرها الكبير فى سرعة إصلاح ما أفسدته الحروب فعمر البلاد وأعادها إلى ما كانت عليه من قبل ، كما أنشأ أسطولا كبيرا ، وأسس مدينة المنصورة على اسم سيده سنة ٣٢٧ هـ على مقربة من القيروان التى أصبحت حاضرة للدولة الفاطمية بدلا من المهدية . وإزاء هذه الخدمات الجليلة والمخلصة التى قام بها جوذر ، أمر الخليفة المنصور أن يرقم اسمه بالذهب على ملابس الخليفة وولى عهده ، كما قرر أن يثبت اسمه على الحصر والبسط ، كل ذلك إمعانا فى تشريفه .

وفى خلافة المعز لدين الله الفاطمى ابن المنصور كان جوذر كذلك سر مولاه إلى أن فتح جوهر الصقلى مصر وأراد المعز أن يسير إليها وكان ذلك سنة ٣٦١ هـ ، فأرجف الناس خيفة من أن يؤول أمر المغرب إلى جوذر . ولكن جوذر رأى ببعد نظره وحنكته ودريته السياسية أن المغرب لا يتسع له وللقائد زيرى بن مناد الصنهاجى الذى وكل إليه المعز ولاية المغرب ، لذلك نرى جوذرا يأبى أن يفارق أمامه فسار معه إلى مصر ولكنه توفى بالقرب من مدينة برقة فى مكان يعرف بمياسر[1] سنة ٣٦٢ هـ .

على أن أهمية جوذر الصقلى لم تقف عند حد الناحية التاريخية ، بل إن أهميته فى الناحية الأدبية تفوق كثيرا الناحية التاريخية ، ذلك أنه برغم كلف المصريين وعنايتهم بالتراجم والسير ، فقد وضعوا للشعب سيرا عن أبطال أحبهم المصريون وردد الشعب هذه

---

(١) محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ١٤٤ .

السير فى اجتماعاته وأفراحه ومغانيه ، مثل عنترة بن شداد وسيرة الهلالية إلا إننا لم نعثر فى العصر الفاطمى ، رغم ثرائه الأدبى وكثرة أفراحه واحتفالاته ، إلا على مخطوطين فى فن السيرة ، الأول سيرة الأستاذ جوذر ، موضوع ترجمتنا ، والثانى سيرة المؤيد فى الدين .

ولم تقف سيرة جوذر على أنها ترجمة أحد رجال الدولة الفاطمية الذين كان لهم أثر قوى فى هذه الدولة منذ نشأتها وإنما يوضح هذا الكتاب بعض نواح تاريخية هامة أغفلها المؤرخون القدماء أو مروا بها مرا سريعا ، إذ تحدثنا السيرة عن الثورات العنيفة التى نشأت بالمغرب عقب قيام الدولة الفاطمية ، وكادت تقوض أركان تلك الدولة ، كما تطلعنا على العلاقة بين الفاطميين وصقلية . وما كان يعانيه الفاطميون من رجال هذه الجزيرة ومن قرصان البحر ، كما بينت لنا سبب الجفاء الذى كان بين المنصور وبين بنى عمومته من أولاد المهدى ، وكيف طلب إلى جوذر أن يشتد فى تأديبهم ورصد حركاتهم .

وبالإضافة إلى ما تقدم فإن سيرة جوذر تعتبر من الوثائق الأدبية النادرة فقد جمع فيها مصنفها جميع التوقيعات التى خرجت من المنصور والمعز إلى جوذر ورسائله إليهما . وقد بلغ عدد هذه المكاتبات نحو المائة ، فالسيرة أشبه بديوان توقيعات للخلفاء الفاطميين ويعلق محمد كامل حسين على ذلك فيقول : ولا أكاد أعرف كتابا جمع توقيعات الفاطميين سوى سيرة جوذر ، وكتاب المجالس والمسايرات للقاضى النعمان الذى جمع فى مصنفه بعض توقيعات المعز إليه ، وكتاب السجلات المستنصرية الذى جمع فيه رسائل المستنصر إلى الصليحيين باليمن .

ويستطرد محمد كامل حسين فى وصف السيرة فيقول ، وأجد فى سيرة جوذر بعض قطع من شعر المنصور بالله ، وخطبة المنصور فى نعى الخليفة القائم وخطبة المعز فى رثاء الخليفة المنصور . وهكذا نستطيع القول إن سيرة جوذر جمعت فأوعت فقد جمعت إلى جانب السرد التاريخى الجانب الأدبى والاجتماعى والسياسى والاقتصادى للفترة التى عاشها جوذر الصقلى فى خدمة الدولة الفاطمية .

أما جامع هذه السيرة ومصنفها وكاتبها فهو موضوع حديثنا من صقلية ومنشئ جامع

الجوذرية أبو على منصور الجوذرى . وكان أبو على هذا فى أول أمره رجلا مغمورا ، لا نكاد نعرف عنه شيئا ، إلا عندما دخل فى خدمة الأستاذ جوذر كاتبا له سنة ٣٥٠ هـ وكان ذكيا منفتحا طموحا ، وسرعان ما اكتسب ثقة أستاذه واصبح موضع سره . وظل فى عمله هذا إلى أن توفى جوذر سنة ٣٦٢ هـ فاتصل بالخليفة المعز لدين الله ثم بابنه الخليفة العزيز . وفى عهد العزيز علا قدره وارتفعت مكانته ، إذ جعله العزيز فى رتبة رفيعة هى نفس المرتبة التى كان يشغلها جوذر . ويحدثنا عنه المقريزى[1] فى عصر الخليفة الحاكم بأمر الله فيقول : وزادت مكانة أبى على منصور الجوذرى العزيزى فى عهد الحاكم بأمر الله فأضيفت إليه مع الاحباس الحسبة وسوق الرقيق والسواحل وغير ذلك .

وقد صنف أبو على الجوذرى هذه المخطوطة فى عهد الخليفة العزيز بالله الفاطمى الذى تولى الخلافة سنة ٣٦٥ وتوفى سنة ٣٦٨ هـ ولكننا لا نستطيع أن نحدد السنة التى ألفت فيها . والسيرة ما تزال مخطوطة حتى الآن لم تنشر[2] .

---

(١) الخطط ج ٢ ص ٥ .

(٢) محمد كامل حسين : مجلة الكاتب المصرى (المجلد الثامن عدد ٣١ أبريل سنة ١٩٤٨) .

وصف الجامع

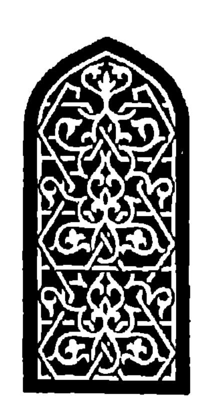
يقع المسجد بحى الجوذرية ، داخل أسوار القاهرة القديمة بالقرب من باب زويلة من جهة الغرب . ويعتبر حى الجوذرية من أقدم أحياء القاهرة الفاطمية ، إذ أنها ترجع إلى عهد الخليفة الحاكم بأمر الله وفى ذلك يقول المقريزى : حارة (حى) الجوذرية هذه عرفت بالطائفة الجوذرية أحد طوائف العسكر فى أيام الخليفة الحاكم ، على ما ذكره المسبحى . وقال ابن عبد الظاهر الجوذرية منسوبة إلى جماعة تعرف بالجوذرية اختطوها وكانوا أربعمائة منهم أبو على منصور الجوذرى ، الذى كان أيام العزيز وزادت مكانته فى الأيام الحاكمية . .

ويحدثنا المقريزى عن بعض الاحداث التى وقعت فى هذا الحى فيقول : كان يسكن هذه الحارة جماعة من اليهود ، وبلغ الخليفة الحاكم أنهم يجتمعون بها فى أوقات خلواتهم ويغنون .

وأمة قد ضلوا ودينهم معتل   قال لهم نبيهم نعم الادام الخل

ويسخرون من هذا القول ويتعرضون إلى ما لا ينبغى سماعه . فأتى إلى أبواب الحارة وسيرها عليهم ليلا وأحرقها . ويضيف المقريزى على ذلك بقول : فإلى هذا الوقت لا يبيت بها يهودى ولا يكسنها أبدا .

والمسجد الموجود حاليا حل محل الجامع الكبير الذى أنشأه أبو على منصور الجوذرى فى عهد الخليفة العزيز بالله سنة ٣٦٦ هـ والذى ما تزال لوحته التأسيسية باقية على المدخل الرئيسى للمسجد الحالى .



جامع راشدة ومسجد سيدى القبجى

بقرية دير الطين
بالفسطاط
"بمصر القديمة"

قال القضاعى ، « لما رجع عمرو بن العاص من الاسكندرية بعد فتحها ونزل موضع فسطاطة انضمت إليه القبائل بعضها إلى بعض وتنافسوا فى المواضع ، فولى عمرو على الخطط معاوية بن خديج وشريك بن سمى الغطيفى وعمرو بن قحزم الخولانى وحيوبل بن ناشرة المغافرى وكانوا هم اللذين أنزلوا الناس وفصلوا بين القبائل وذلك فى سنة إحدى وعشرين » . يفهم من هذا النص الذى أورده القضاعى أن عمرو بن العاص فاتح مصر ومؤسس أول عاصمة إسلامية بها ، لم يترك القبائل تختار منازلها فى أى مكان تشاء ، بل إنه ولى أربعة من رؤساء القبائل لكى يخططوا المدينة ويحددوا لكل قبيلة خطتها ، وهنا يقول المقريزى[1] : إعلم أن الخطط التى كانت بمدينة الفسطاط بمنزلة الحارات التى هى اليوم بالقاهرة فقيل لتلك فى مصر (أى الفسطاط) خطة وقيل لها فى القاهرة حارة » أما اليوم فتعرف الخطة باسم الحى .

وقد قسم عمرو بن العاص الفسطاط إلى أربع وعشرين خطة ، وكانت خطة كل قبيلة قائمة بذاتها منعزلة عن غيرها موزعة فى السهل ، وكانت الخطط تمتد من النيل فى الغرب حتى عين الصيرة فى الشرق ومن جبل يشكر فى الشمال حتى الشرف وجبل الرصد أو اصطبل عنتر فى الجنوب . وكان أكثرها التصاقا ما كان على مقربة من الجامع وحصن بابليون[2]. وكان لكل قبيلة مسجدها ولا يوجد إلا جامع واحد هو جامع عمرو تجتمع فيه القبائل لتأدية صلاة الجمعة .

---

(١) الخطط والآثار ج ٢ ص ٧٦ - ٧٨ .

(٢) المسجى ص ١٩٧ .

ومن أهم خطط الفسطاط عند الفتح خطط الفرس ، وكانت قبائل الفرس تشمل بنى وائل وراشدة . ويحدثنا المقريزى عن (الفارسيين) فيقول : من حضر فتح مصر من الفارسيين وهم بقايا جند باذان عامل كسرى على اليمن قبل الإسلام ، أسلموا بالشام ورغبوا فى الجهاد فنفروا مع عمرو بن العاص إلى مصر فاختطوا بها » وقد نسب لبنى وائل خليج متصل ببركة الحبش وكانت بساتين بنى وائل تقوم على شواطئ هذه البركة ، وهى المعروفة الآن بالبساتين .

وقد أنشأ الحاكم بأمر الله جامعا فى خطة قبيلة راشدة سابقة الذكر فعرف بها . ويصف المسبحى جامع راشدة فيقول : وفى سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة ابتدئ بناء جامع راشدة وكان بناؤه من الطوب . ثم هدم وزيد فيه وبنى بالحجر وأقيمت به الجمعة » . ويسير المسبحى فى سرد قصة جامع راشدة فيقول : فى شهر رمضان سنة ٣٩٥ ﻫ فرش جامع راشدة وتكامل فرشه وتعليق قناديله وما يحتاج إليه . وركب الخليفة الحاكم بأمر الله عشية يوم الجمعة الخامس عشر منه (رمضان) وأشرف عليه . وفى سنة ٣٩٨ ﻫ وفى شهر رمضان صلى الحاكم بأمر الله بجامعه الذى أنشأه براشدة صلاة الجمعة وخطب . وفى شهر رمضان سنة ٤٠٠ ﻫ أنزل بقناديل وتنور (نجفة) من فضها زنتها ألوف كثيرة فعلقت بجامع راشدة . وفى سنة ٤٠٣ ﻫ صلى الحاكم فى جامع راشدة صلاة الجمعة وعليه عمامة بغير جوهر وسيف محلى بفضة بيضاء دقيقة والناس يمشون بركابه من غير أن يمنع أحد منه وكان يأخذ قصصهم ويقف وقوفا طويلا لكل منهم » يضيف المسبحى فى وصف إقامة الشعائر بالجامع فيقول وحدث سنة ٤١٤ ﻫ أن خطب فيه خطبتان معاً على المنبر وذلك أن أبا طالب على بن عبد السميع العباسى استقر فى خطابته باذن قاضى القضاة . وفى نفس الوقت توصل ابن عصفورة إلى أن أخرج له أمر أمير المؤمنين الظاهر لإعزاز دين الله بن الحاكم بأمر الله أن يخطب . فصعدا جميعا المنبر ووقف أحدهما دون الآخر وخطبا معا . ثم استقر بعد ذلك أبو طالب خطيبا على أن يخلفه ابن عصفورة .

ويتكلم ابن المتوج عن جامع راشدة فيقول : هذا الجامع فيما بين دير الطين والفسطاط وهو مشهور الآن بجامع راشدة ، وليس بصحيح وإنما جامع راشدة كان جامعا قديم البناء

بجوار هذا الجامع عمرٌ فى زمن الفتح ، عمرته راشدة وهى قبيلة من قبائل (تجيب ومهره) نزلت فى هذا المكان وعمروا فيه جامعا كبيرا أدركت أنا بعضه ومحرابه . وكان فيه نخل كثير من نخل المقل ومن جملة ما رأيت فيه نخلة من المقل عددت لها سبعة رؤوس مفرعة منها فذاك الجامع هو المعروف بجامع راشدة . وأما هذا الموجود الآن فمن عمارة الحاكم ولم يكن فى بناء الجامع هو المعروف بجامع راشدة . وأما هذا الموجود الآن فمن عمارة الحاكم ولم يكن فى بناء الجوامع أحسن من بنائه » . يفهم مما ذكره ابن المتوج أن جامع راشدة ليس هو الحاكم الذى بناه الخليفة الحاكم ، وإنما هو جامع قديم أنشأته قبيلة راشدة فى زمن الفتح » .

كذلك تناول ابن المتوج اسم الجامع فيقول : وقيل عمرته حظية الخليفة وكان اسمها راشدة فعرف باسمها » .

ويفند المقريزى أقوال ابن المتوج فيقول : إن ابن المتوج أخطأ فى موضعين ، أولهما أن راشدة عمرت هذا الجامع زمن الفتح وهذا قول لم يقله أحد من مؤرخى مصر فهذا الكندى ثم القضاعى وعليهما يعول فى معرفة خطط مصر . ومن قبلهما ابن عبد الحكم لم يقل أحد منهم أن راشدة عمرت زمن الفتح جامعا . والخطأ الثانى أن الجامع سمى باسم محظية الخليفة الحاكم فمردود عليه إذ لم يذكر مؤرخ غيره بل إن جميع المؤرخين وكتاب الخطط يجمعون على أن الجامع أخذ اسمه من قبيلة راشدة التى بنى الجامع فى خطتها . ويضيف المقريزى فيقول : كيف يمكن أن يستدل على أن راشدة كان لها جامعا من مشاهدة بقايا مسجد قديم .

الواقع أن الخلاف بين ابن المتوج والمقريزى دينى معمارى دقيق ، لأن المقريزى لا ينكر وجود مسجد لراشدة يسبق الجامع الذى أنشأه الخليفة الحاكم والذى نحن بصدد الحديث عنه ولكنه ينكر وجود جامع لراشدة وقت الفتح ، ومن هنا تبين لنا أن هناك فرقا كبيرا بين المسجد والجامع من الناحية الدينية والناحية المعمارية . فمن حيث الناحية الدينية ، فالمسجد يؤدى فيه جميع الصلوات وقد كان لكل قبيلة مسجدا أو أكثر فى خطتها ، أما الجامع فهو الذى تجتمع فيه الجماعة يوم الجمعة ، ويؤم فيه الخليفة أو من ينوب عنه المسلمين

فى صلاة الجمعة . أما من الناحية المعمارية فإن المسجد لا يحتوى على مئذنة ولا منبر . لأن خطبة الجمعة لا تكون إلا فى الجامع .

وكان للتفريق بين المسجد والجامع ضرورة اقتضتها روح الدين الإسلامى الحنيف وحرصه على تجميع قلوب المسلمين والتأليف بينهم واجتماعهم للتشاور فيما يعنيهم من أمور الدنيا والآخرة . وفى ذلك يقول المقريزى[1] : ولما افتتح عمر بن الخطاب البلدان كتب إلى أبى موسى الأشعرى وهو على البصرة يأمره أن يتخذ مسجد للجماعة ، ويتخذ للقبائل مساجد ، فإذا كان يوم الجمعة انضموا إلى مسجد الجماعة ، وكتب إلى سعد بن أبى وقاص وهو على الكوفة بمثل ذلك وكتب إلى عمرو بن العاص وهو على مصر بمثل ذلك أيضا ، فكان الناس متمسكين بأمر عمرو وعهده وكانت صلاة الجمعة تؤدى فى المسجد الجامع .

ومن ثم فقد أصبح للفظ الجامع مدلول سياسى فى عهد الدولة الأموية ، فقد عرف بالجامع المسجد الذى يؤم فيه الخليفة أو من ينوب عنه المسلمين فى صلاة الجمعة ، وأصبح ذكر اسم الخليفة فى الخطبة التى تلقى من على منبره شارة من شارات الخلافة .

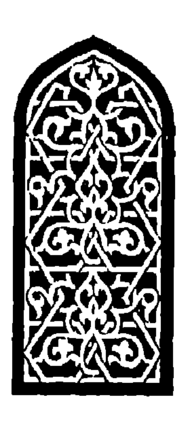
ويضيف المقريزى فى سرد تاريخ جامع راشدة فيقول : وقد جدد جامع راشدة مرارا وأدركته عامرا (أى فى القرن ١٥ م) تقام فيه الجمعة ويمتلئ بالناس لكثرة من حوله من السكان ، وإنما تعطل من إقامة الجمعة بعد حوادث سنة ست وثمانمائة .

ويقول محمد بن أسعد الجوانى النسابه : راشدة بطن من لخم وهم ولد راشدة بن الحارث ابن اد بن جديله من لخم بن عدد بن الحارث بن مرة بن أود وقيل راشدة بن أدوب ، ويقال لراشدة خالفه ولهم خطة بمصر بالجبل المعروف بالرصد المطل على بركة الحبش وقد دثرت الخطة ولم يبق فى موضعها إلا الجامع الحاكمى المعروف بجامع راشدة .

* * *

---

(١) الخطط ج ٢ ص ٢٤٦ .

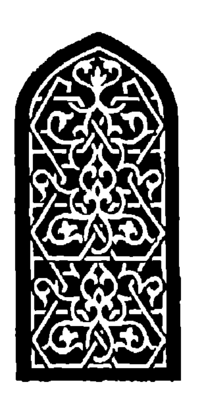


مسجد سيدى العجمى

وبالقرب من المكان الذى أقيم عليه جامع راشدة يوجد الآن مسجد صغير لا تزال تؤدى فيه الشعائر الدينية يعرف باسم مسجد العجمى . وتعرف المنطقة التى يوجد بها المسجد الآن بقرية دير الطين . ولا أدرى ما السبب فى تسمية المسجد باسم العجمى ، وأغلب الظن أنه أخذ هذا الاسم من الاسم القديم للخطة التى أنشئ عليها ، إذ أنه بنى فى خطط الفرس وكثيرا ما نطلق فى مصر على الفرس كلمة العجم ، فقد ذكر فؤاد فرح[1] : وكانت قبائل الفرس تشمل بنى وائل وراشدة ولهم إلى اليوم مسجد يعرف بمسجد الفارسيين أو مسجد سيدى العجمى بدير الطين .

---

(١) القاهرة ج ٢ ص ٢٢٠ .



جامع غبن أو زاوية الأباريقى

بجزيرة الروضة

لقد تخلف من العصر الأخشيدى بجزيرة الروضة بستان كبير عرف باسم المختار ويحدثنا السيوطى[1] عن هذا البستان فيقول : صرف الأخشيد فى بنائه خمسة آلاف دينار وجعل فيه داراً للغلمان ودارا للنوبة وخزائن الكسوة وخزائن الطعام وكان الأخشيد يتنزه فيه ويفاخر به أهل العراق واستمر هذا البستان محلا للنزهة إلى أن زالت الدولة الاخشيدية والكافورية وقدمت الدولة الفاطمية من بلاد المغرب إلى مصر » .

ويحدثنا المقريزى[2] عن بستان المختار فى العصر الفاطمى فيقول : كان يتنزه فيه المعز لدين الله مصر وابنه العزيز بالله نزار وابنه الحاكم بأمر الله ، فصارت الجزيرة مدينة عامرة بالناس ولها وال وقاض ، وكان يقال « القاهرة ومصر والجزيرة » .

ويستمر المقريزى[3] فى سرد تاريخ الجزيرة فيقول: فلما كانت أيام الأفضل شاهنشاه ابن أمير الجيوش بدر الجمالى ووزير الخليفة المستنصر بالله الفاطمى ، أنشأ فى بحرى الجزيرة مكانا للنزهة سماه الروضة وتردد إليها كثيرا . وفى عهد الوزير المأمون البطائحى بنى منظره مكان دار الصناعة الذى نقلت إلى الساحل الشرقى للنيل ، فلما تولى الخليفة الآمر باحكام الله أنشأ بجوار البستان المختار من جزيرة الروضة مكانا على النيل لمحبوبته الغالية البدوية وسماه الهودج .

---

(١) كوكب الروضة ص ١٥٩ .

(٢) الخطط والآثار ج ٣ ص ٣١٩ ، ٣٢٠ .

(٣) الخطط والآثار ج ٤ ص ٨٧ .

وكان الخليفة الحاكم بأمر الله فى أول خلافته يكثر التردد على جزيرة الروضة بقصد التنزه واستجلاء الطبيعة والبعد عن زحمة الحياة فى القصور الفاطمية . لذلك فقد فكَّره خادمه وتابعه المخلص غبن فى إنشاء جامع يصلى فيه سيده عند وجوده بالجزيرة .

ويترجم المقريزى لغبن فيقول : غبن أحد خدام الخليفة الحاكم بأمر الله خلع عليه فى تاسع ربيع الآخر سنة ٤٠٢ هـ وقلده سيفا وأعطاه سجلا قرئ (براءة) فإذا فيه أنه قائد القواد وأمر أن يكتب بذلك وبه ركب وبين يديه عشرة أفراس بسروجها » . ولم يكتف الخليفة الحاكم بهذا الشرف الذى خلعه على خادمه ، بل أنفذ إليه فى ذى القعدة من السنة نفسها ، كما يذكر المقريزى ، خمسة آلاف دينار وخمسة وعشرين فرسا بسروجها ولجمها وقلده الشرطتين والحسبة بالقاهرة ومصر والجيزة والنظر فى أمور الجميع وأموالهم وأحوالهم كلها وكتب له سجلا بذلك قرئ بالجامع العتيق (جامع عمرو) .

ويصف لنا ابن المتوج الموكب الذى خرج فيه غبن حتى وصل إلى جامع عمرو فيقول : فنزل إلى الجامع ومعه سائر العسكر والخلع عليه وحمل على فرسين » . أما عن بيان بعض ما جاء فى السجل الذى أمر الحاكم بقراءته بجامع عمرو فيقول المقريزى : وكان فى سجله مراعاة أمر النبيذ وغيره من المسكرات ويتبع ذلك والتشديد فيه والمنع من عمل الفقاع (هو شراب يتخذ من الشعير سمى بذلك لما يرتفع فى رأسه ويعلوه من الزبد ، وبيعه ومن أكل الملوخيا والسمك الذى لا قشر له والمنع من الملاهى كلها . كما جاء فى السجل ، والتقدم بمنع النساء من حضور الجنائز والمنع من بيع العسل وأن لا يتجاوز فى بيعه أكثر من ثلاثة أرطال لمن لا يسبق إليه ظنه أن يتخذ منه مسكرا » .

واستمر غبن فى وظائفه المتعددة التى أسندها إليه الخليفة الحاكم سنة ٤٠٤ هـ ثم صرفه عن الشرطتين والحسبة ، ولم يكتف بذلك بل قلب له ظهر المجن ، ولم يكن ذلك غريبا على الحاكم الذى وصفه أبو المظفر بن قزأ[1] وغلى فى تاريخه . وكانت خلافته

---

(١) النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٧٦ .

متضادة بين شجاعة وأقدام ، وجبن وإحجام ومحبة للعلم وانتقام من العلماء وميل إلى الصلاح وقتل الصلحاء وكان الغالب عليه السخاء ، وربما بخل بما لم يبخل به أحد قط » .

ويحدثنا المقريزى عما حدث لغبن بعد أن جرد من كل الوظائف التى كان يشغلها فيقول : بعد أن صرف غبن عن الشرطتين والحسبة بمظفر الصقلى ، أمر بقطع يدى كاتبه أبى القاسم على بن أحمد الجرجانى فقطعتا جميعا . ويبين المقريزى السبب الذى من أجله قطعت يداه فيقول : وذلك أنه (أى الجرجانى) كان يكتب عند السيدة الشريفة أخت الحاكم فانتقل من خدمتها إلى خدمة غبن خوفا على نفسه من خدمتها . فسخطت لذلك عليه فبعث إليها يستعطفها ويذكر فى رقعته شيئا وقف عليه ، فارتابت منه فظنت أن فى ذلك حيلة عليها ، وأنفذت الرقعة فى طى رقعتها إلى الحاكم ، فلما وقف عليها اشتد غضبه وأمر بقطع يديه جميعا فقطعتا .

ولم يقف انتقام الحاكم عند قطع يدى الجرجانى كاتب غبن بل امتد إلى قطع يدى غبن الواحدة تلو الأخرى ثم انتهى بقطع لسانه فموته متأثرا بجراحه ، وفى ذلك يحدثنا المقريزى فيقول : قيل إن غبن هو الذى يوصل رقاع صاحب الخبر (أى المشرف على البريد) إلى الحاكم فى كل يوم فيأخذ مختومة بختم صاحب الخبر ويدفعها إلى كاتبه الجرجانى حتى يخلو له وجه الحاكم فيأخذها حينئذ من كاتبه ويوقفه عليها ، وكان الجرجانى يفك الختم ويقرأ الرقاع ، فلما كان فى يوم من الأيام فك الجرجانى رقعة فوجد فيها طعنا على غبن أستاذه وقد ذكر فيها بسوء فقطع ذلك الموضع وأصلحه ، وأعاد ختم الرقعة ، فبلغ ذلك صاحب الخبر فبعث إلى الحاكم يستأذنه فى الاجتماع به خلوة فى أمر مهم فأذن له وحدثه بالخبر ، فأمر الحاكم بقطع يد غبن الأخرى وكان قد أمر بقطع يده الأولى قبل ذلك بثلاث سنوات وشهر ، فصار مقطوع اليدين معاً » .

ويضيف المقريزى على هذه القصة فيقول : ولما قطعت يده حملت فى طبق إلى الحاكم فبعث إليه بالأطباء ووصله بألوف من الذهب وعدة من أسفاط ثياب وعادة جميع أهل الدولة ، وبعد مضى ثلاثة عشر يوما أمر بقطع لسانه فقطع وحمل إلى الحاكم فسبّر إليه ومات بعد ذلك سنة ٤٠٥ هـ .

وصف الجامع

قال ابن المتوج : المسجد الجامع بروضة مصر يعرف بجامع غبن وهو القديم ولم تزل الخطبة قائمة فيه إلى أن عمّر جامع المقياس فبطلت الخطبة منه ، ولم تزل الخطبة بطالة منه إلى عهد السلطان الظاهر بيبرس فكثرت عمائر الناس حوله فى الروضة وقل الناس فى القلعة وصاروا يجدون مشقة فى مشيهم من أوائل الروضة وكان الصاحب محيي الدين أحمد ولد الصاحب بهاء الدين على بن حنا قد عمر دارا على خوخه الفقيه نصر قبالة جامع غبن فحسن له إقامة الجمعة فى هذا الجامع لقربه منه ومن الناس فتحدث مع والده ، فشاوروا السلطان الملك الظاهر بيبرس فوقع منه بموقع لكثرة ركوبه بحر النيل واعتنائه بعمارة الشوانى (السفن الكبيرة) ولعبها فى البحر ونظر كثرة الخلائق بالروضة . فرسم (أمر) بإقامة الخطبة مع بقاء الخطبة بجامع القلعة لقوة نيته فى عمارتها على ما كانت عليه » .

ويذكر ابن تغرى بردى أن الخطبة أقيمت فى جامع غبن فى سنة ستين وستمائة وولى خطابته قاضى القضاة جمال الدين بن الغفارى وكان إمامه فى حال عطلته من الخطبة فلما أقيمت فيه الخطبة أضيفت إليه الخطابة فيه مع الإمامة .

ويقول السيوطى ، وقد صار هذا الجامع يسمى الآن (أى فى القرن العاشر الهجرى) جامع الأباريقى . وقد ترجم له الشيخ الشعرانى فى طبقاته الوسطى فقال : هو الشيخ أحمد الأباريقى الأحمدى من أهل القرن السابع الهجرى ، اتخذ من جامع غبن بالروضة خلوة له ودفن به فعرف بزاوية الأباريقى .

ويكمل على مبارك تاريخ جامع غبن فيقول : وفى زمننا هذا يعنى سنة إحدى وتسعين

---

(١) النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢٧٦ .

(٢) الخطط التوفيقية ج ١٨ ص ١٢ .

(٣) تحفة الأحباب وبغية الطلاب هامش ص ١٥٥ ، ١٥٦ .

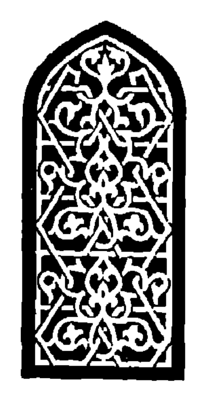
ومائتين وألف ، صار موضعه زاوية صغيره بها ضريح الشيخ الأباريقى ظاهر بزار . وقد جدد هذه الزاوية الأمير على باشا شريف ، ويستطرد على مبارك فى الحديث عن جامع غبن فيقول : إن الأمير المذكور لما نبش الأرض التى بقرب الزاوية لأخذ منها ما يرفع به أرض بستانه وجد كثيرا من قطع الرخام ووجد حيضانا مبنية ومجار وغير ذلك . ويعلق على مبارك على ذلك بقوله : وهذا يعين أن جامع غبن الذى اشتهر بالأباريقى فيما بعد كان فى هذا الموضع بعينه والذى عمر منه هو الجزء الذى فيه ضريح الأباريقى المذكور .

وأضيف على ما ذكره على مبارك بخصوص ما عثر عليه من مخلفات جامع غبن تحت الأنقاض بأن الكثير منها باق حتى الآن بمتحف مقياس الروضة الملاصق لضريح الشيخ الأباريقى ، وفى اعتقادى أن متحف المقياس الحالى هو نفس المكان الذى كان يشغله جامع غبن .

ويقول السخاوى : أن هناك لوحة تذكارية موجودة بالزاوية تثبت تجديد عبد المجيد بك شريف سنة ١٣٣٧ وأن ضريح الأباريقى يشغل الجهة الغربية من الزاوية تحت قبة من حجر وعليه ستر أخضر من عمل عبد المجيد بك المذكور .

يقع مسجد الأباريقى الآن فى شارع محمد ذو الفقار بالمنيل الروضة . ويتكون حاليا من مسجد بسيط مستطيل الشكل خالى من الأروقة والأيوانات . ويتصدر حائطه الشرقى محراب بجانبه منبر بسيط . وبجوار مكان الصلاة يوجد ضريح الشيخ الأباريقى ، وهو عبارة عن غرفة ترتفع بضع درجات عن أرضية المسجد . والغرفة مستطيلة الشكل اقتطع منها جزء مربع أقيمت فوقه قبة . وفى منطقة الانتقال من المربع إلى دائرة توجد حنيات كبيرة فى الأركان . وجدران الضريح وكذا القبة مزخرفة بزخارف زيتية حديثة . وبين حنيات الأركان توجد أربع نوافذ مربعة صغيرة .

* * *



جامع الرصد

بجبل الرصد
أو اسطبل عنتر
جنوب مصر القديمة

كان لعلم النجوم أثر كبير فى توجيه سياسة بعض خلفاء الدولة الإسلامية الذين كانوا يعتمدون على التنجيم فى تنفيذ سياستهم ، فقد اعتمد أبو جعفر المنصور على النجوم فى تأسيس مدينة بغداد بعد أن استشار منجمه أبى سهل بن نوبخت . كما اختار الاسماعيلية ابن حوشب لرياسة دعوتهم فى بلاد اليمن لأنهم عرفوا عن طريق النجوم أنه سيكون له شأن فى نشر هذه الدعوة فى تلك البلاد[1] وكذلك حذا الفواطم حذو العباسيين فى الاعتماد على التنجيم فقد ذكر ابن دقماق[2] أن مدينة القاهرة سميت بهذا الاسم لأن أساسها شق على طلوع كوكب المريخ الذى يسمى (القاهر) .

ولما كانت العقيدة الفاطمية تعتمد قبل كل شىء على العلم وتتميز الآلهيات من الطبيعيات[3] فلا غرو أن نرى العلوم الفلسفية على اختلاف ألوانها وفنونها تزدهر فى عصرهم، بل كان من الخلفاء الفاطميين من أتقن هذه العلوم وبرز فيها ولاسيا رصد الكواكب . فالمؤرخون[4] يذكرون أن المعز لدين الله والعزيز بالله والحاكم بأمر الله والحافظ لدين الله كانوا يرصدون النجوم لاستقراء ما وراءها من أحداث ، كوسيلة لادعائهم معرفة الغيب .

ويروى المؤرخون فى هذا المجال روايات هى أقرب إلى الأسطورة منها إلى الحقيقة ، كما يروون بعض الأشعار التى كان يتهكم بها المصريون على ادعاء الفاطميين معرفة الغيب . من ذلك ما روى أن العزيز بالله صعد المنبر ذات يوم فرأى رقعة كتب فيها :

بالظلم والجور قد رضينا ‏ ‏ ‏ وليس بالكفر والحماقة
إن كنت أعطيت علم غيب ‏ ‏ ‏ فقل لنا كاتب البطاقة

---

(١) عمارة اليمنى : تاريخ اليمن ص ١٤٠ .
(٢) الأنتصار لواسطة عقد الأمصار ج ٦ ص ٣٥ .
(٣) فى أدب مصر الفاطمية لمحمد كامل حسين ص ٩٦ .
(٤) المقريزى ج ١ ص ٩٧ ، وابن تغرى بردى ج ٤ ص ١٧٩ .

وتضيف الرواية أن العزيز بالله أقلع عن ادعائه الغيب بعد ذلك . ويذكر ابن ميسر[1] فى تاريخه أن النيل زاد وبلغ الباب الجديد (أحد أبواب سور القاهرة مكانه الآن ميدان المحطة) فلما بلغ ذلك الخليفة الحافظ أظهر الحزن والانقطاع ، فدخل إليه بعض خواصه وسأله عن السبب فأخرج له كتابا فإذا فيه : إذا وصل الماء الباب الجديد انتقل الإمام عبد المجيد ، ثم قال : هذا الكتاب الذى نعلم منه أحوالنا وأحوال دولتنا وما يأتى بعدها .

وإلى جانب هذه الروايات التى تؤيد ادعاء الفاطميين الغيب وأن الأئمة يعرفون ما كان وما يكون إلى يوم القيامة عن طريق رصد الكواكب والأجرام السماوية ، فأننا نجد نصوصا وروايات تثبت عكسها ، فالقاضى النعمان يحدثنا فى كتابه المجالس[2] والمسايرات : ذكر الإمام المعز لدين الله يوما : وأنا بين يديه النجامة والمنجمين ، فقال : من نظر فى النجامة ليعلم عدة السنين والحساب ومواقيت الليل والنهار وليعتبر بذلك عظيم قدرة الله جل ذكره ، فقد أحسن وأصاب . ومن تعاطى بذلك علم غيب الله والقضاء بما يكون فقد أساء وأخطأ .

ومهما يكن من الأمر فإننا لسنا فى مجال التحقيق أو الاستقراء ، ولكن الذى نستطيع أن نقول به ونؤكده هو أن الفاطميين اهتموا بالنجوم ورصدها واستدعوا لذلك الكثير من المنجمين . فعندما دخل المعز لدين الله مصر قدم معه منجمه محمد بن عبد الله بن محمد العتقى ورفع العزيز بالله المنجم أبا عبد الله بن القلانسى إلى أن توفى سنة ٣٨٦ هـ[3] . وأنشأ الحاكم بالمقطم منزلا يرصد فيه النجوم وعمل له منجمه أبو الحسن على بن يونس الزيج الحاكمى فى أربعة مجلدات .

ويقول ابن خلكان[4] عنه ، إنه لم ير فى الأزياج على كثرتها أطول منه . ويضيف القفطى[5] فيقول إن ابن يونس كان يقصد تحرير زيج جامع كبير يدل على أن صاحبه كان أعلم الناس بالحساب وهو الزيج هو الذى سار عليه منجمو مصر من بعد . (وقد ترك لنا ابن يونس من آلات الرصد والتنجيم ، الاسطرلاب الذى يعتبر أقدم أسطرلاب صنع فى مصر وهو مؤرخ وعليه اسمه) .

---

(١) أخبار مصر حوادث سنة ٥٤٣ هـ .
(٢) أدب مصر الفاطمية ص٩٧ .
(٣) القفطى ص ٢٦٧ .
(٤) ابن خلكان ج ١ ص ٢٧٥ .
(٥) ابن القفطى ص ١٥٥ .

وصف الجامع

نستفيد مما تقدم أن الخليفة الحاكم بأمر الله قد بنى مرصدا على سفح جبل المقطم ، ومن المرجح أن يكون الجرف الذى بنى عليه الحاكم مرصده قد أصبح يعرف منذ ذلك الوقت باسم جبل المرصد ، كما يفهم ذلك من رواية المقريزى[1] عن جامع الفيلة إذ يقول : جامع فيلة يقع بسطح الجرف المطل على بركة الحبش المعروف الآن بالرصد . وقد بنى هذا الجامع الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالى فى شعبان سنة ثمان وتسعين وأربعمائه وبلغت النفقة على بنائه ستة آلاف دينار .

ويوضح لنا المقريزى السبب الذى من أجله عرف الجامع باسم فيله فيقول : وإنما قيل له جامع الفيلة لأن قبلته تتكون من تسع قباب فى أعلاه ذات قناطر (أى أن القباب مقامة على عقود) إذا رآها الإنسان من بعيد شبهها بمدرعين على فيلة كالتى كانت تعمل فى المواكب أيام الأعياد وعليها السرير وفوقها المدرعون أيام الخلفاء .

ويقال إن الأفضل شاهنشاه وجد بموضع الجامع مطلبا (أى كنزاً) فختم عليه أشهراً إلى أن نقله وعمل مكانه صهريجا وبنى عليه هذا المسجد . ويصف المقريزى موقع الجامع فيقول وهذا الشرف (المرتفع) الذى عليه جامع الفيلة منظره فى غاية الحسن لأن فى قبليه بركة الحبش وبستان الوزير المغربى والعدوية ودير النسطورية وبئر أبى سلامة وهى بئر مدورة برسم الغنم وبئر النعش كان يستقى منها أصحاب الزوايا وسميت بئر النعش بهذا الاسم لأنها على هيئة النعش وماؤها يهضم الطعام وهو أصح الأمواه .

ويكمل المقريزى تاريخ بناء الجامع فيقول : ولما كمل بناء الجامع أقام فى خطابته الشريف الزكى أمين الدولة أبا جعفر محمد بن هبة الله الحسينى ، الذى ولى قضاء عسقلان وغيرها ثم قدم إلى مصر فولى الحكم بالمحلة وولى ديوان الأحباش وكان أحد الأعيان الأدباء العارفين بالنسب ومن المجيدين والنحاة اللغويين . ولد بطرابلس الشام

---

(١) الخطط والآثار ج ٤ ص ٧٤ .

سنة ٤٦٢ هـ وقدم إلى القاهرة سنة ٥٠١ هـ ومدح الأفضل شاهنشاه فرشح للنقابة بمصر ولم ينلها مع تطلعه إليها ، فلما عينه الأفضل فى خطابه جامع الفيلة عز عليه أن يكون هذا جزاءه ، فلما رقى المنبر أول خطبة أقيمت فى هذا الجامع ، ارتج عليه فلم يدر ما يقول وكان هناك الشيخ أبو القاسم على بن منجب بن الصيرفى الكاتب وولده مختص الدولة وغيرهما من وجوه الدولة ، فلما اضجر من حضر نزل عن المنبر وقد حم فتقدم قيم الجامع وصلى ومضى الشريف الزكى إلى داره فاعتل وبقى مريضا حتى مات سنة ٥١٧ هـ .

ويختم المقريزى حديثه عن جامع الفيلة فيقول : وهذا الجامع لا تقام فيه اليوم الجمعة (أى فى القرن ١٥ م) ولا الجماعة لخراب ما حوله من القرافة وراشدة ، وينزل فيه أحيانا طائفة من العرب بإبلهم يقال لهم المسلمية .

وأضيف على ماتقدم أن جامع الفيلة كانت له شهرة كبيرة فى العصر الفاطمى ، وذلك اعتمادا على الحفائر التى أجريت فى مدينة الفسطاط والتى عثرنا فيها على أوان زجاجية كتب عليها بمادة البريق المعدنى (مما عمل فى طراز فيلة) ، وكلمة الطراز هنا تعنى مصنع ، ومعنى هذا أن الحى الذى أقيم فى الجامع نسب إليه ، كما نسبت إليه كل المصانع التى أقيمت فيه .

ويذكر المقريزى فى خططه مسجد الرصد فيقول : هذا الجامع بناه الأفضل شاهنشاه ابن أمير الجيوش بدر الجمالى بعد بنائه للجامع المعروف بجامع الفيلة لأجل رصد الكواكب بالآلة التى يقال لها ذات الحلق . ومن المرجح أن يكون الأفضل قد بنى مسجد الرصد مكان مرصد الحاكم بأمر الله فوق الجرف الذى عرف باسم جبل الرصد والذى يعرف الآن بجبل اسطبل عنتر[1] .

وفى اعتقادى أن الطابية التى أقامها محمد على فى القرن ١٩ قد حلت محل مسجد الرصد .

ولعل فى اهتمام الأفضل شاهنشاه بعلم الفلك ورغبته القوية فى عمل زيج يفوق الزيج الحاكمى ما يؤيد ما رجحناه من أنه قد أقام مسجد الرصد مكان مرصد الحاكم بأمر الله . فقد ذكر المقريزى[2] ، أنه عمل للأفضل مائة تقويم لاستقبال سنة ٥٠٠ هـ فوجد بينها

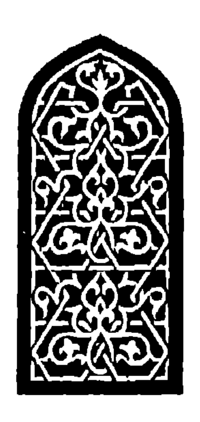
---

(١) النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٧٧ (تعليق أحمد رمزى) .

(٢) الخطط ج ١ ص ٢٠٦ .

اختلاف كثير . فأنكر ذلك ، فلما كان غرة سنة ٥١٣ سألهم عن السبب فى الاختلاف بين التقاويم فقالوا : الشامى يحسب ويعمل على رأى الزيج المأمونى ، ونحن نعمل على رأى الزيج الحاكمى لقرب عهده وبين المتقدم والمتأخر تفاوت ، ثم أشاروا عليه بعمل رصد مستجد . فنشط فى إقامة المرصد وساعده جميع المهندسين وعلماء الحساب والتنجيم إلى أن قتل الأفضل سنة ٥١٥ هـ وولى الوزارة المأمون البطائحى فأحب أن يتم هذا الرصد على أن يعرف بالرصد المأمونى المصحح واستمر العمل إلى أن قتل الوزير البطائحى سنة ٥١٨ فوقف العمل به .

وأود قبل أن أختم الكلام عن مسجد الرصد أن أذكر أهمية الرصد بالنسبة للدولة الفاطمية من الناحية الدينية . فمن المعروف أن من المسائل الفرعية التى يختلف فيها الشيعة الاسماعيلية عن مذهب أهل السنة هو ابتداء شهر الصوم ، بينما يذهب جمهور أهل السنة إلى ضرورة رؤية الهلال لبداية الصوم ، فقد لجأ الفاطميون إلى الفلك والحساب فعملوا تقويما قمريا يحسبون بمقتضاه سير القمر ويقدرون منازله حتى يعرفوا أن هلال رمضان قد أهل حقا . كذلك فسروا قول النبى الكريم «صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته» أنها رؤية استبصار لا رؤية إبصار .



مشهد أخوة يوسف

يوجد هذا المشهد بالقرافة الجنوبية على بعد مائة متر شمال مسجد لؤلؤة .

ويقع المشهد ضمن مجموعة من المقابر والأضرحة التى ترجع إلى عصور متأخرة معظمها من العصر التركى .

ويمكن الدخول إلى المشهد عن طريق باب يقع فى الجهة الجنوبية من المشهد يؤدى إلى غرفة مربعة تقريبا تبلغ مساحتها (٣ر٧٤ × ٣ر١٢) متر مغطاة بأقباء متقاطعة وعلى يمينها توجد غرفة أخرى أكبر قليلا من الأولى مغطاة كذلك بأقباء متقاطعة تحتوى على محراب يتوسط الجدار الشرقى يعلوه عقد منكسر .

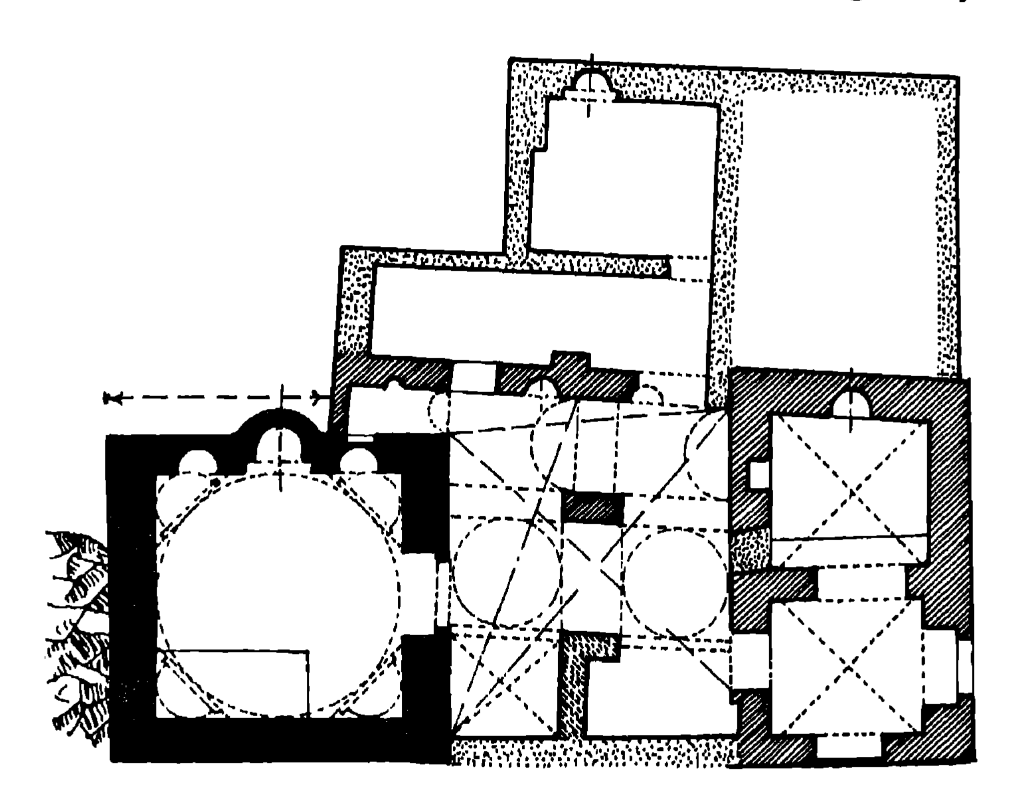
وتؤدى هاتان الغرفتان إلى مجموعة من المبانى مقسمة إلى ستة أقسام ، المتوسط منها مغطى بأقباء ضحلة تقوم على مثلثات مقعرة كروية ، والقسمان القريبان من حائط القبلة مغطيان بأقباء . أما القسمان الأخيران فمغطيان بأقباء متقاطعة .

ومن هذه المجموعة من المبانى تدخل إلى المشهد الذى يتكون من مربع يبلغ طول ضلعه (٥ر٧٣) متر وارتفاعه (٤ر٦٤) متر ، أما منطقة الانتقال فيبلغ ارتفاعها (١ر٩٧) متر ويشغلها مقرنص واحد كبيرمن الداخل ، أما من الخارج فنجدها مشطوفة إلى ارتفاع (١ر٩٠) متر ويعلو منطقة الانتقال رقبة مثمنة يبلغ ارتفاعها (١ر٣٥) متر وطول كل ضلع (٢ر٦٠) متر . ويتوسط كل ضلع من أضلاع الرقبة المثمنة نافذة ومما يجدر ملاحظته دائما ، ولعل السبب فى ذلك أن كثرة المقابر والأضرحة بالجبانة لم تساعد على فتح مدخل فى الجهة الغربية وقد سبق أن رأينا ذلك فى مشهد السيدة عاتكة .

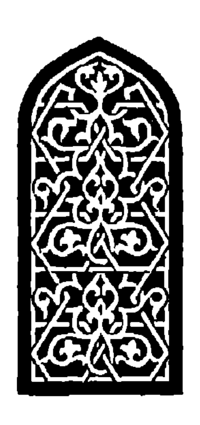
المحراب : ويعتبر المحراب الثلاثى لمشهد أخوة يوسف من أجمل المحاريب الجصية التى ترجع إلى العصر الفاطمى .

وتشغل المحاريب الثلاثة القبلة كلها تقريبا ، إذ يبلغ سعة المتوسط منها (٢٫١٥) مترا وارتفاعه (٤٫٠٥) مترا ويبلغ عرض كل من الجانبين ١٫٤٥ – ٢٫٨٥ مترا ويعلو المحاريب الثلاثة عقود منكسرة يحيط بها إطار مستطيل من الزخارف الجصية يشغل معظمه شريط عريض من الكتابة الكوفية المزهرة الجميلة كما يشغل خواصر العقود زخارف نباتية محورة .

ويعتبر المحراب الثلاثى من الأشياء النادرة فى العمارة المصرية لأننا لا نجده إلا فى ضريح خضرة الشريفة وضريح الإمام الشافعى وفى ضريح مصطفى باشا الذى يرجع إلى سنة ٦٦٦ ويمكن ارجاع هذا المشهد إلى سنة ٥٠٠ هـ .



أضـرحة اخوة يوسف



جامع المتولى ومسجد العمرى
بالمحلة الكبرى
بمحافظة الغربية

كانت المحلة الكبرى من المدن المصرية القديمة اسمها القبطى (دقلا) ، ولما فتحها العرب سموها (محلة دقلا) وعرفت بمحلة شرقيون ثم سميت بالمحلة الكبرى لأنها أكبر البلاد المسماة باسم المحلة بمصر . وذكرها المقدسى باسم المحلة الكبرى ، وقال أنها مدينة على نهر الاسكندرية (أى فرع رشيد) وأنها عامرة نزيهة الشط حسنة النهر يقابلها صندقا ، شبيها بمدينة واسط بالعراق . إلا أنه ليس بينهما جسر بل يعبرون فى المراكب . ووصفها الادريسى قال : المحلة مدينة ذات أسواق عامرة وتجارات شاملة ، ووصفها ابن دقماق وصفا شاملا جاء فيه : المحلة هى قصبة إقليم الغربية من الديار المصرية ، وولايتها قد تعرف بالوزارة الصغيرة ، ثم يضيف وفى بلاد مصر نحو مائة قرية تعرف كل منها بالمحلة تتميز بلقب تعرف به أو بنسبة تعرف بها . والمحلة هذه مدينة كبيرة ذات أسواق وبها جامع ومدارس وقياسر وبزازون وفنادق ومنارة ويشقها نهر من النيل .

ومما يسترعى الانتباه أن الآثار الاسلامية الباقية فى محافظات الوجه البحرى قليلة نسبيا عن تلك التى توجد بمصر العليا . وليس معنى ذلك أن هذا الإقليم كان أقل أهمية فى العصر الاسلامى ، بل يرجع إلى اندثار وزوال الكثير من الآثار الإسلامية بالدلتا ، حيث أنها منطقة زراعية تتناولها عمليات الاصلاح المستمرة لشق الترع وإقامة الجسور مما يتبعه بطبيعة الحال تغيير تخطيط المدن والقرى .

وتحتفظ المحلة الكبرى لحسن الحظ بالكثير من آثارها الاسلامية . بعضها دينى

كالمساجد وتبلغ نحو الأربعين مسجدا غير الزوايا الصغيرة . وأكثرها عامر تقام به الشعائر والجمعة والجماعة والآخر مدنى كالوكالات والحمامات والخانات والقيساريات وما شابه ذلك . ومن أهم آثارها الباقية جامع المتولى .

وقد أنشأ هذا الجامع - وكذا مدرسة مجاورة له - الشيخ أحمد بن على بن يوسف الشهاب أبو العباس المحلى ويعرف بالطرينى ، وقد جاء فى الخطط التوفيقية ، أن الشيخ الطرينى من رجال القرن السادس الهجرى ، على أن السخاوى ينقض هذا الرأى ، ويقول أن الطرينى توفى سنة ٨٣١ هـ . ولكنى أرجح الرأى الذى جاء فى الخطط التوفيقية وذلك اعتمادا على الأسلوب المعمارى للمسجد إذ أنه يماثل العمائر الأيوبية فى القرن السادس الهجرى .

ولعل الذى يعنيه على مبارك فى خططه هو يوسف الشهاب أبو العباس الطرينى أى الجد الأكبر الذى عاش فى القرن السادس الهجرى ، أما حفيده الشيخ أحمد فهو من رجال القرن التاسع الهجرى كما جاء فى الضوء اللامع . وجاء فى الخطط التوفيقية أن مسجد المتولى أعيد بناء معظم أجزائه ورمم فى القرن التاسع عشر وكان ذلك بمعرفة شرفى بيك والشيخ محمد الجمل ناظر مدرسته .

وصف الجامع

وتبلغ مساحة المسجد نحو فدانين فهو بذلك أكبر مساجد المحلة بل مساجد المحافظة كلها . ويتكون من صحن مكشوف تحيط به الأروقة من جميع الجهات إلا أن عددها يختلف فى كل ضلع من الأضلاع وذلك نتيجة للاصلاحات والترميمات التى أجريت له فيحتوى إيوان القبلة على خمسة صفوف من البوائك المحمولة على أعمدة رخامية وجرانيتية يبلغ عدد كل صف منها ثلاثة عشر عمودا ، أما الايوان الشمالى المقابل لايوان القبلة فيحتوى على صفين من البوائك كل صف منها يتكون من ثلاثة عشر عمودا ، ويحتوى الايوان الغربى على أربعة صفوف منالبوائك يتكون كل صف منها على سبعة أعمدة أما الايوان الشرقى فيتكون من ثلاثة صفوف من البوائك . وبذلك نرى أن مسجد الطرينى يحتوى على حقل من الأعمدة يبلغ عددها (١٤٩) عمودا وعقود البوائك مدببة الشكل وكلها فى وضع مواز للحائط الذى تقابله ، وتيجان الأعمدة مختلفة الأشكال والطرز ، مما يدل على أنها أخذت من عمائر أخرى قديمة بالمنطقة .

وبالمسجد منبر خشبى طعمت بعض حشواته المجمعة بالعاج والصدف ، كما نقش على بابه إسم منشئه وتاريخ الانشاء وبيتان من الشعر وفيما يلى النص :

أنشأ هذا المنبر الشريف ، الفقير إلى الله تعالى إبراهيم مراوح فى شهر جمادى الآخر سنة ١١٢٧ هـ .

رعى الله من أنشا من الناس منبرا به الخير الجليل إماما

إن الله وملائكته يصلون على النبى يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما

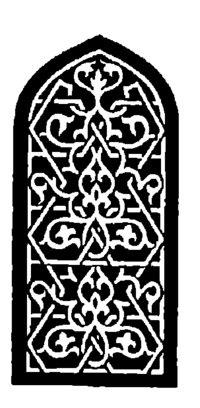
وقد زخرف المحراب بطريقة الطوب المكحل (المنجور) التى تقابلها كثيرا فى مساجد الوجه البحرى . ويوجد بالمسجد عشرة نوافذ قنديلية فى الضلعين الجنوبى الشرقى حيث يوجد المحراب والضلع الشرقى . كما يوجد للمسجد خمسة أبواب الرئيسى منها فى الضلع الشرقى . وتقع مئذنة الجامع فى الركن الشمالى الشرقى منه وتتكون من قاعدة مربعة تعلوها

طبقة مثمنة الشكل ثم مثمن ثان تعلوه خوذة مخوصة . وتعد هذه المئذنة من أجمل المآذن التي ترجع إلى العصر المملوكي .

أما المسجد العمرى فمن الثابت أنه أقدم الآثار الاسلامية الباقية بالمدينة . إذ أنه يرجع إلى العصر الفاطمى ، ولعل فى تسميته بالعمرى ما يدل على ذلك ، فقد جرت العادة فى مصر على تسمية أقدم مساجد كل مدينة أو قرية باسم المسجد العمرى على اعتبار أن أول مسجد أقيم فى مصر الإسلامية هو جامع عمرو بن العاص . وقد أعيد بناء هذا المسجد عدة مرات فتغيرت معالمه الأصيلة ، والمسجد الحالى بحالة سيئة ولم يبق من المسجد الأصيل غير لوحته التأسيسية وهى مثبتة الآن بجوار المحراب . واللوحة من الرخام مقاسها ، (٥٠ × ١٠٠) سم ونقش عليها بالخط الكوفى المزهر الذى كان سائدا فى العصر الفاطمى ، تاريخ الانشاء واسم المنشىء والنص كما يأتى : بسم الله الرحمن الرحيم « إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر » إلى ـ المهتدين ـ مما أمر بعمله السيد الأجل الأفضل أمير الجيوش سيف الاسلام ناصر الإمام كامل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين ، عضد الله به الدين وامتع بطول بقائه أمير المؤمنين وأدام قدرته وأعلى كلمته وأنفذ فى البسيطة أوامره وأحكامه على يد عبده ومملوكه القاضى أبى الفتح المسلم بن على بن الحسن الرصعنى متولى الحكم الشريف بمدينة المحلة من أعمال الغربية فى المحرم سنة ثمان وخمسمائة » .

وهكذا نرى أن المسجد العمرى قد بنى فى عهد الخليفة الآمر بأحكام الله الفاطمى سنة ٥٠٨ هـ .

وهناك لوحة رخامية أخرى مثبتة فوق اللوحة الأولى مقاسها (٦٠ × ٦٠) سم نقش عليها كذلك بالخط الكوفى المزهر آيات من القرآن الكريم وبعض أسماء وألقاب الأئمة الشيعة الإسماعيلية مذهب الدولة الفاطمية . وقد محيت هذه الأسماء والألقاب من عمد منها فى العصر الأيوبى الذى اتبع المذهب السنى .



مشهد محمد الجعفرى

بشارع الخليفة
بقسم الخليفة

خلف الإمام جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي ابن أبي طالب ، من الأولاد غير موسى وإسماعيل أبناء آخرون نخص بالذكر منهم ، عبد الله الأفطح ومحمد الديباج صاحب المشهد الذى نحن بصدد الحديث عنه .

وقد ذكر أبو الحسن النوبختى[1] ، أن فريقا من الشيعة ذهب إلى أن الإمام بعد جعفر الصادق ابنه محمد ، أخوموسى واسحاق .

وكان محمد بن جعفر قريباً إلى قلب والده لشدة شبهه بوالده وبرسول الله صلى الله عليه وسلم وفى ذلك يقول المؤرخون[2] «أن محمدا دخل على أبيه جعفر يوما وهو صبى فعدا عليه ، فكبا فى قميصه ووقع لحر وجهه ، فقام إليه جعفر وقبله ومسح التراب عن وجهه ووضعه على صدره ، وقال سمعت أبى يقول إذا ولد لك ولد يشبهنى ، فسمه باسمى ، فهو شبيهى وشبيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله وعلى سنته» ويضيف النوبختى على ذلك فيقول : «لذلك فقد جعل جماعة من الشيعة الامامه فى محمد بن جعفر وولده من بعده . وهذه الفرقة تسمى السمطية التى تنتسب إلى رئيس لهم يقال له يحيى بن «أبى سميط» .

وقد ولد لجعفر الصادق محمد وموسى واسحاق من أم ولد يقال لها حميدة ، وكان محمد منذ نعومة أظفاره . وقورا يترفع عن الصغائر لا يجارى أترابه فى لعبهم ولهوهم

---

(١) أبو الحسن النوبختى : فرق الشيعة ص ٦٤ ، ٦٥ .

(٢) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ج ٢ ص ١٢٦ .

ولا يأنس لمجتمعاتهم عزوفا عن اللعب والمرح الصبيانى ، ولعل بعض السبب فى ذلك هو شبهه برسول الله صلى الله عليه وسلم الذى جعله يحترم هذا الشبه .

ويصفه الطوسى[1] فى رجولته فيقول : وكان محمد بن جعفر شيخا من شيوخ آل أبى طالب يقرأ عليهم العلم ، روى عن أبيه رضوان الله على علما جما ، فمكث بمكة مدة .

ويقول الفخرى[2] عند كلامه على خلافة المأمون «وفى أيامه خرج محمد بن جعفر الصادق رضوان الله عليهما بمكة ، وبويع بالخلافة وسموه أمير المؤمنين ، وكان بعض أهله قد حسن له ذلك حين رأى كثرة الاختلاف ببغداد وما بها من الفتن وخروج الخوارج .

وكان الغالب على أمر محمد ابنه وبعض بنى عمه ، فلم يحمد سيرتهما وأرسل المأمون إليهم عسكرا ، فكانت الغلبة له ، وظفر به المأمون وعفا عنه» .

على أن دعوة محمد بن جعفر الصادق فى الإمامه لم تمت بموته سنة ٢٠٩ هـ ، فقد ذكر لنا يحيى[3] بن الحسين المتوفى ٣٦٩ هـ ، أن القاسم أخا محمد بن جعفر استقر فى مصر ، وأنه دعا إلى نفسه حين بلغه موت أخيه محمد . وقد بث دعاته وهو على حال استتاره زهاء عشر سنين ، فبايعه أهل مكة والمدينة والكوفة والرى وقزوين وطبرستان وبلاد الديلم وكاتبه أهل البصرة والأهواز وحثوه على الظهور ، فاتصل خبره بمسامع الخليفة ، فأمر بالتشدد فى طلبه . فلم يطب للقاسم المقام فى مصر ، فعاد إلى الحجاز ومنها إلى تهامه ، ولحق به جماعة من بنى عمه وغيرهم ، فبثوا الدعوة باسمه فى بلخ والطالقان ومرو وغيرها . فذاع خبره وبعث الخليفة إلى بلاد اليمن جندا يطلبونه فاختفى فى حى من البدو كثيف . فانتقض عليه أمره وذلك سنة ٢٢٠ هـ .

وقد روى لنا يحيى بن الحسن عن خادم القاسم بمصر القصة الآتية «ضاقت بالإمام القاسم المسالك واشتد الطلب ، ونحن مختفون معه خلف حانوت اسكاف يقطن قرب مشهد السيدة نفيسة . فنودى نداء يبلغنا صوته : برئت الذمة ممن آوى القاسم بن إبراهيم

---

(١) محمد بن الحسن الطوسى : فهرست كتب الشيعة ص ٦٧ (طبعة كلكتا سنة ١٨٥٥ م) .

(٢) الآداب السلطانية ص ١٠٢ .

(٣) يحى بن الحسين : تاريخ الأئمة السادة على مذهب الزيدية ص ١١٣ .

ومن لا يدل عليه ، ومن دل عليه فله ألف دينار ومن البز كذا وكذا ، والاسكاف يسمع ويعمل ولا يرفع صوته . فلما جاءنا قلنا له : أما ارتعت ؟ قال : من لى ، وما ارتياعى منهم ولو قرضت بالمقاريض بعد ارضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى فى وقايتى لولده بنفسى[1]

الواقع أن القصة السابقة تعتبر فى الدرجة الأولى ، شاهد حق وعدل بالنسبة إلى قوة إيمان المصريين على اختلاف درجاتهم الفقير قبل الغنى وتمسكهم بعقيدتهم الاسلامية وتفانيهم فى حب الرسول وآل بيته حتى أنهم ليضحون فى سبيل ذلك بالنفس والنفيس . هذا بالإضافة إلى أننا نستطيع أن نستنتج من هذه القصة نقطتين هامتين بالنسبة لموضوع مشهد الجعفرى الذى ينسب إلى الإمام محمد بن جعفر الصادق . أولها أن المكان الذى اختبأ فيه أخوه القاسم عند الاسكافى ، كان بالقرب من ضريح السيدة نفيسة ومشهد الجعفرى الحالى يقع بشارع الخليفة بالقرب من السيدة نفيسة . ثانيها أنه من المرجح أن المصريين قد اعتزوا بهذا المقام الذى سكنه أحد أفراد آل البيت وأقاموا مكانه زاوية أو مسجدا أعاد بناءه خلفاء الدولة الفاطمية أو لعله من أضرحة أو مشاهد الرؤيا التى كثر بناؤها فى العصور الوسطى وخاصة لآل البيت . ويؤيد هذا ما ذكره ابن الزيات[2] عند كلامه عن أعمال الخليفة الحافظ الفاطمى أنه أمر وزيره أبا تراب الحافظى ببناء مشهد السيدة رقية وعاتكة والجعفرى . ويضيف ابن الزيات[3] فيقول وهى مشاهد رؤيا .

* * *

(١) حسن إبراهيم حسن : الفاطميون فى مصر ص ٤٧ ، ٤٨ .

(٢) الكواكب السيارة ص ١٧٨ .

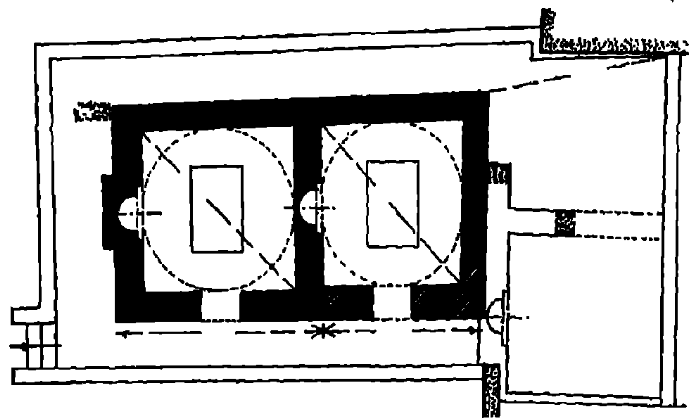
(٣) المرجع السابق ص ١٨٤ .

وصف المشهد

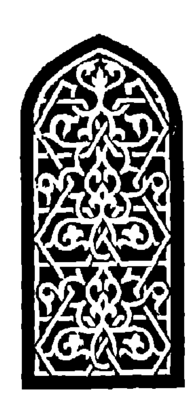
ويتكون المشهد من مربع يبلغ طول ضلعه (٣ر٨٠) متر وسمك الحائط (٧٠ر) متر حتى تستطيع تحمل منطقة الانتقال التى تبدو مثمنة من الداخل ومدرجة من الخارج . ويظهر هذا الأسلوب فى معالجة منطقة الانتقال لأول مرة فى مصر فى مشهد الجعفرى ثم انتشرت بعد ذلك فى قباب العصر الأيوبى . وتتكون منطقة الانتقال من ثلاث حنيات فى أركان المربع يعلوها حنية رابعة ، وبين حنيات الأركان توجد نافذه ذات ثلاثة فصوص تشبه فى تصميمها الخارجى لحنيات الأركان . وأسلوب النافذه ذات الفصوص الثلاثة يسبق تاريخيا النافذة ذات الثلاث فتحات ومن ثم نستطيع القول بأن مشهدى الجعفرى وعاتكة يسبقان تاريخيا مشهد السيدة رقية .

وكان باب مشهد الجعفرى يوجد فى الجهة المقابلة للقبلة أى فى الجهة الغربية ولكنه سد وبنى مشهد السيدة عاتكه ملاصقا لمشهد الجعفرى فى تلك الجهة ، حيث حل محراب مشهد السيدة عاتكة محل باب مشهد الجعفرى مما يدل على أن مشهد الجعفرى أسبق تاريخيا من مشهد السيدة عاتكة ولذلك فمن المرجح أن يكون تاريخ مشهد الجعفرى سنة ٥١٣ لأن مشهد السيدة عاتكة يرجع ٥١٥ هـ .

وتوجد أبواب المشهدين الآن فى الجهة الشمالية . وفوق منطقة الإنتقال تأتى قبة مفصصة تغطى المشهد .



مسجد محمد الجعفرى والسيدة عاتكة



مشهد السيدة عاتكة

هى عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل العلوية[1] عاصرت الرسول صلى الله عليه وسلم وهاجرت إلى المدينة[2] ، وكانت شاعرة حسناء[3] تزوجها عبد الله بن الصديق رضى الله عنه . وقد شغلته لجمالها عن الجهاد فأمره أبوه أن يطلقها وأنشد[4] يقول :

يقولون طلقها وحم . مكانها

مقيم عليك الهم أحلام نائم

وأن فراق أهل بيت جمعتهم

على كبر منى لأحدى العظائم

أرانى وأهلى كالعجوز تزوجت

إلى (نوّها) قبل العشار الروائم

ثم طلقها فدخل عليه أبوه وهو ينشد ويقول :

أعاتك قلبى كل يوم وليلة

عليك بما تخفى النفوس معلق

---

(١) أعلام النساء ج ٢ ص ٩٤٤ .

(٢) الدر المنثور ٣٢٠ .

(٣) الاستيعاب ج ٤ ص ٣٥٤ .

(٤) مهذب الروضة الفيحاء فى تواريخ النساء : تأليف ياسين بن خير الله العمرى

ولم أرمثلى طلق اليوم مثلها

ولا مثلها فى غير جرم تطلق

لها كلف جزل ورأى ومنصب

وخلق سوى فى الحساة مصدق

فرق له أبوه وأمره فراجعها وقال :

أعاتك قد طلقت فى غير ريبه

ورجعت للأمر الذى هو كائن

كذلك أمر الله غاد ورائح

على الناس فيه ألفة وتباين

إلا أن عبد الله لم يسعد طويلا بعاتكة الجميلة إذ سرعان ما عاجلته منيته ، إذ خرج فى سرية إلى الطائف فأصيب بسهم ومات فى المدينة فحزنت عليه عاتكة حزنا شديدا ورثته بقصيدة طويلة جاء فيها :

رزيت بخير الناس بعد نبيهم

وبعد أبى بكر وما كان قصرا

ثم تزوجها عمر بن الخطاب رضى الله عنه سنة اثنتى عشرة . فلما قتل تزوجها الزبير ابن العوام رضى الله عنه ، وكان الزبير يغار عليها لفرط جمالها فكان يمنعها من الخروج إلى المسجد ، فتقول له لا أزال أخرج حتى تمنعنى فتذكر قوله صلى الله عليه وسلم : لا تمنعوا أماء الله مساجد الله . فتنكر لها ليلة فى مكان مظلم وقرصها ، فرجعت إلى بيتها وامتنعت عن الخروج إلى المسجد . فكان الزبير يقول لها : لم لا تخرجين ؟ فتقول : كنت أخرج والناس ناس وأما إذا فسد الناس فبيتى أوسع لى .

وكان سوء الحظ دائما بالمرصاد للسيدة عاتكة إذ قتل الزبير بن العوام رضى الله عنه فى واقعة الجمل ودفن بالبصرة . وقد قام بينها وبين ولده خلاف على الميراث ، ولكن عبدالله ابن الزبير صالحها على ثمانين ألف درهم . ثم تزوجت محمد بن أبى بكر رضى الله عنه الذى

تولى إمرة مصر من قبل الخليفة على بن أبى طالب رضى الله عنه ، فلما قتل بمصر رثته بقولها :

أن تقتلوا وتمثلوا بمحمد

فما كان من أجل النساء ولا الخمر

ثم خطبها على بن أبى طالب رضى الله عنه وهو يومئذ خليفة المسلمين ، ولكنها رفضت قائلة : إنى أضن بك يا بن عم رسول الله على القتل ، إذ كان المسلمون يتندرون عليها فيقولون : من أحب الشهادة فليتزوج[1] عاتكة .

وجاء فى الاستيعاب[2] أن آخر أزواج السيدة عاتكة هو الحسن بن على ، ولم يذكر أنها تزوجت محمد ابن أبى بكر . وجاء فى الأغانى[3] ، أن آخر أزواجها الحسين ابن على رضى الله عنه . فلما قتل رثته[4] بقولها :

واحسنا فلا نسيت حسينا

أقصدته أسنة الأعداء

---

(١) الروضة الفيحاء ص ١٩٤ .

(٢) الاستيعاب جـ ٤ ص ٣٥٦ .

(٣) الأغانى جـ ٦ ص ١٣٠ .

(٤) معجم البلدان جـ ٧ ص ٢٢٩ .

وصف المشهد

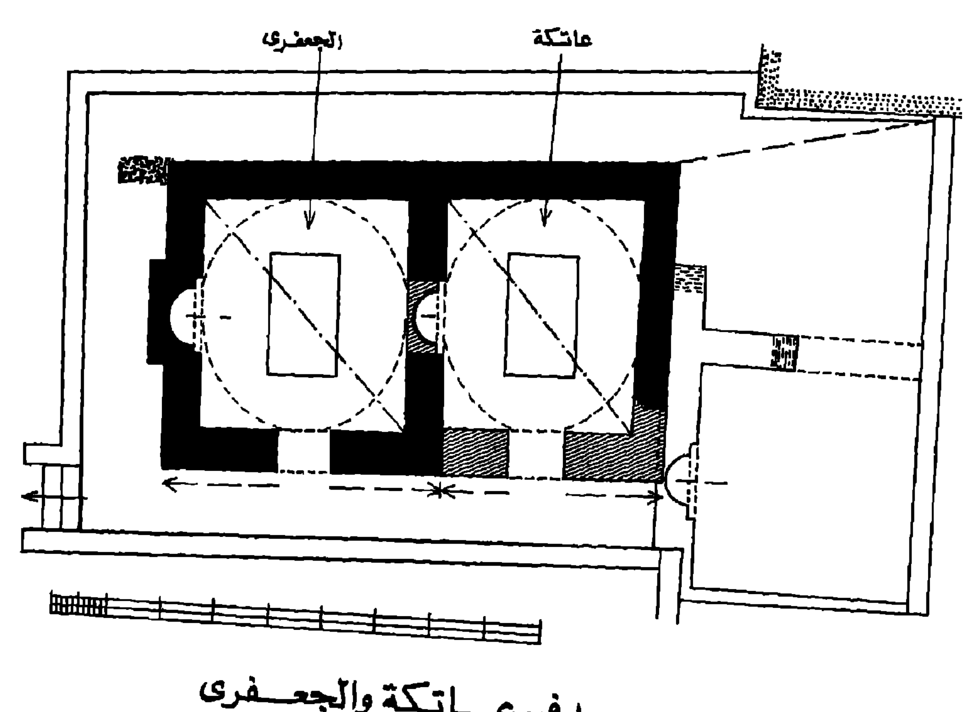
يتكون مشهد عاتكة من مربع يبلغ طول ضلعه (٣,٨٠) متر وسمك الحائط (,٧٠) متر حتى تستطيع تحمل منطقة الإنتقال التى تبدو مثمنة من الداخل ومدرجه من الخارج . وقد ظهر هذا الأسلوب فى معالجة منطقة الإنتقال لأول مرة فى مصر فى مشهد الجعفرى ، ثم انتشرت فى قباب العصر الأيوبى . وتتكون منطقة الإنتقال من ثلاث حنيات فى أركان المربع يعلوها حنية رابعة . وبين جنبات الأركان توجد نافذة ذات ثلاثة فصوص تشبه فى تصميمها الخارجى لحنيات الأركان وأسلوب النافذة ذات الفصوص الثلاثة يسبق تاريخيا النافذة ذات الثلاث فتحات ومن ثم تستطيع القول بأن مشهد السيدة عاتكة يسبق تاريخيا مشهد السيدة رقية .

وكان باب مشهد الجعفرى فى الجهة المقابلة للقبلة أى فى الجهة الغربية ولكنه سد وبنى مشهد السيدة عاتكة ملاصقا لمشهد الجعفرى فى تلك الجهة . بل أن محراب مشهد السيدة عاتكة حل محل باب مشهد الجعفرى مما يدل على أن مشهد الجعفرى أسبق تاريخيا من مشهد السيدة عاتكة ولذلك فمن المرجح أن يكون تاريخ مشهد الجعفرى سنة ٥١٤ ، ومشهد السيدة عاتكة ٥١٥ هـ .

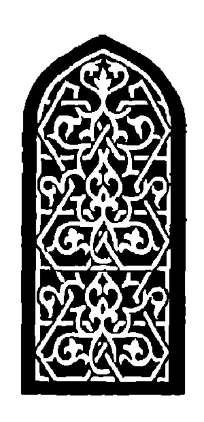
وتوجد أبواب المشهدين الآن فى الجهة الشمالية . وفوق منطقة الانتقال تأتى قبة مفصصة تغطى المشهد .

وما يزال مشهد السيدة عاتكة يحتفظ لحسن الحظ بالكثير من زخارفه الجصية التى نراها ممثلة فى شريط الكتابة الكوفية المزهرة التى يحيط بأعلى الجدران وتحت المقرنصات مباشرة . وكذا الشريط الزخرفى الذى يحيط النوافذ ذات الثلاث فصوص .

محراب السيدة عاتكة : يبلغ ارتفاع هذا المحراب (٣,٠٤) متر وسعته (١,٧٦) متر ويحيط بعقدة شريط من الكتابة الكوفية المزهرة . كما ملئت خواصر العقد والإطار الذى يعلوها بزخارف نباتية محورة على أرضية مدهونة باللون الأرضى مما جعل الزخارف أكثر وضوحا .



مدفن عاتكة والجعفرى



مشهد السيدة كلثوم

السيدة كلثوم بنت القاسم الطيب بن محمد المأمون بن جعفر الصادق بن محمد الباقر على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب وهى أخت السيد يحيي الشبيهى . وبرغم شهرة هذه السيدة لما اتصفت به من الورع والتقوى ، هذا بالإضافة إلى أنها من آل البيت ، إلا أنهم لم يزيدوا عن قولهم ، « وشهرتها تغنى عن الإطناب فى مناقبها » .

ويقال أن السيدة كلثوم تزوجت بمصر وأنجبت عددا من الأولاد لم يذكر عددهم ولا أسماؤهم . ويفهم من العبارات التى تواترت فى كتب التراجم أنهم ماتوا وهم أطفال أو أنهم ماتوا دون أن يخلف أحد منهم ذرية ، إذ يقولون[1] أنها تزوجت وحصل لها أولاد وقد انقرضت ذريتها ، وقيل أن معها فى قبرها جماعة من أولادها ، وقيل لم يكن بالمشهد غيرها .

وقد جاء فى ترجمة والدها القاسم[2] الطيب ، أنه كان أحفظ الناس لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولقد كتب عنه أربعمائة محبرة . وقد حفظت السيدة كلثوم كل ما كتب عن والدها ، وكانت تحدث به بعد وفاة والدها ، وقد ذكر الرازى ، كان أولاده وأتباع القاسم يعرفون بالطهارة ويضيف الأسعد النسابة فيقول ويعرفون كذلك بالكلثميين[3] نسبة إلى السيدة الطاهرة صاحبة الترجمة .

---

(١) كواكب السيارة : ص ٩٦ .

(٢) تحفة الأحباب ، وبغية الطلاب ص ٢٢٤ .

(٣) ابن الزيات ص ٩٦ .

ويذكر ابن عثمان[1] فى تاريخه السيدة كلثوم رضى الله عنها فيقول : ومشهدها معروف بإجابه الدعاء .

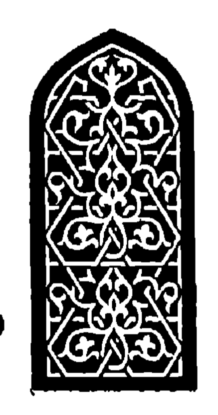
وقد اختلط الأمر على بعض كتاب التراجم بين السيدة كلثوم والسيدة أم كلثوم بنت محمد بن جعفر الصادق ، ذلك أن الاخيرة مدفونة بمشهد آخر يعرف بمشهد السيدة العيناء . وقد حدث هذا الخلط نتيجة لأن كلا المشهدين موجود بطريق الإمام الليث ابن سعد .

وقد توفيت السيدة كلثوم بعد والدها القاسم الطيب وذلك فى نهاية القرن الثالث الهجرى . ويحدد المقريزى[2] موضع المشهد فيقول : ـ موضعه بمقابر قريش بمصر بجوار الخندق ، وهى أم جعفر بن موسى بن اسماعيل بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق كانت من الزاهدات العابدات .

---

(١) تحفة الأحباب ص ٢٢٤ ، كواكب السيارة ص ٩٦ .

(٢) الخطط جـ ٢ ص .



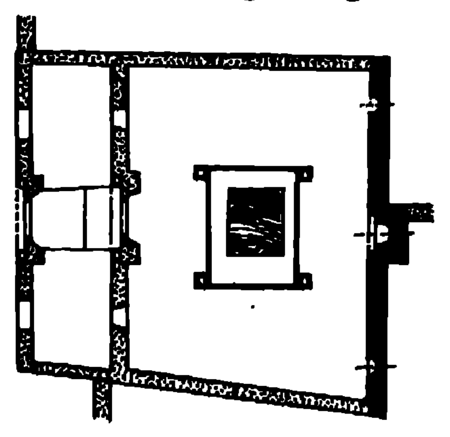
مشهد السيدة أم كلثوم

" ٥١٦ - ١١٢٢ م "

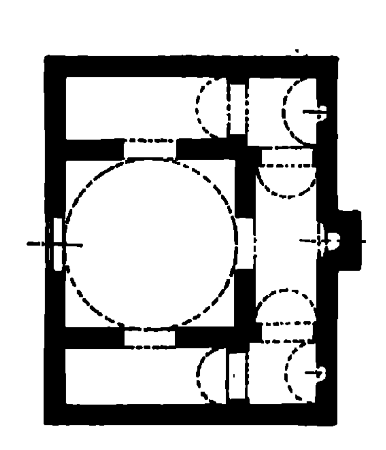
يقع هذا المشهد بالقرب من مشاهد يحيي الشبيهى وأبى القاسم الطيب ، كما أنه يبعد مائة ياردة عن ضريح ابى منصور الثعالبي .

ويتكون المشهد الآن من زاوية فى غاية البساطة مغطاة بسقف خشبي يتوسطها الضريح ، على أن أجمل ما فيها محراب جصى على جانبيه محرابان خاليان من الزخرفة .

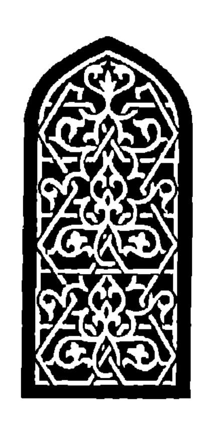
ويعلو المحراب الرئيسى طاقية على شكل محارة تعتبر الأولى من نوعها فى مصر ، كما زخرف تجويفه بشريط عريض يبلغ (٦٧ سم) من الزخارف الهندسية على الجص تشكل فى مجموعها أربعة نجوم ذات ثمانية رؤوس وبداخل كل نجمة يوجد اسم (على) ومن المرجح أن يرجع هذا المشهد (٥١٦ هـ - ١١٢٢ م) .



ضريح أم كلثوم ١ : ٢٠٠



ضريح أم كلثوم إعادة البناء المقترح ١ : ٢٠٠



ضريح محمد الحصواتي

"٥١٩هـ - ١١٢٥م"

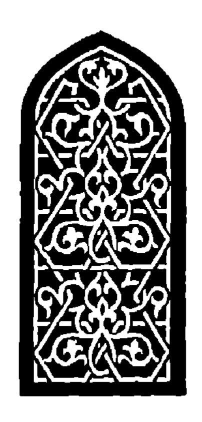
يقع هذا الضريح على بعد ستين ياردة جنوب غربي الإمام الشافعي . ويتكون الضريح من مكعب يبلغ طول ضلعه (٤١ر٣) متر ، يعلوه منطقة انتقال تأتى فوقها القبة مباشرة بدون رقبة .

والضريح كله مبنى من الآجر ومكسو بطبقة من الجص .

ويتوسط كل جدار من جدران الضريح عدا جدار القبلة ، فتحة معقودة بعقد منكسر . ويعلو منطقة الانتقال قبه ممتدة مفصصة .

المحراب : يشبه إلى حد كبير محراب السيدة رقية وإن كان يفوقه من حيث الاتساع وكثرة الزخارف الجصية وثرائها . فالمحراب يعلو عقد منكسر مفصص ويحيط به مستطيل يحتوى على شريط عريض من الكتابة الكوفية المزهرة .

ومن المرجح أن يرجع هذا الضريح إلى ٥١٩هـ .



مشهد السيدة رقية

لقد تواتر ذكر مشهد السيدة رقية فى معظم المراجع التاريخية التى تناولت تاريخ الدولة الفاطمية وخاصة تاريخ الخليفة الحافظ لدين الله وكذا كتب المزارات وكتب الخطط والآثار . لكن أحدا منهم لم يذكر شيئا على الإطلاق عن ترجمة صاحبة المشهد .

فقد ذكر المقريزى[1] فى خططه عند الحديث من مسجد الرحمة ما نصه « مسجد الرحمة ، عرف كذلك باسم مسجد أبى تراب الصواف وكيل السيدة (الجهة) التى بنت مسجد الأندلس ورباطه ومسجد « رقيه » . والسيدة (الجهة) التى جاء ذكرها فى النص السابق هى (جهة مكنون) أم ابنة الخليفة الآمر بأحكام الله الفاطمى التى يقال لها ست القصور . وكانت (جهة مكنون) هذه تعرف كذلك باسم (علم[2] الآمريه) .

أما عن أبى تراب وكيل السيدة علم الآمرية ، الذى قام بكل المبانى والمشاهد التى طلبتها ، فهو أبو تميم تراب الحافظ جد بنى تراب ، بلغ منصب الوزارة فى أيام الحافظ . ويضيف ابن الزيات[3] فيقول « وهو الذى بنى للحافظ مشهد رقية » .

ويكمل لنا المقريزى قصة أبى تراب فيقول : أبو تراب هو الذى أخرج إليه ولد الآمر فى قفة من خوص فيها حوائج طبيخ من كرات وبصل وجزر وهو طفل فى القماط فى أسفل

---

(١) الخطط جـ ٢ ص ٤٤٧ ، ٤٤٨ .

(٢) المرجع السابق جـ ٢ ص ٤٤٦ .

(٣) الكواكب السيارة ص ١٧٨ .

القفة ، والحوائج فوقه ، ووصل به إلى القرافة وأرضعته المرضعة بهذا المسجد (يعنى مسجد الرحمة) . وأخفى أبو تراب أمر الطفل عن الخليفة الحافظ حتى كبر وصار يسمى (قُفَيفة) فلما حان نفعه نمّ عليه أبو عبد الله الحسن بن أبى الفضل عبد الله بن الحسين الجوهرى الواعظ ، بعد ما مات الشيخ (أبو تراب) عند الحافظ ، فأخذ الصبى وفصده فمات ، وخلع على ابن الجوهرى ثم نفى إلى دمياط فمات بها فى جمادى سنة ثمان وعشرين وخمسمائة[1] » .

أما قصة الطفل الذى قتله الحافظ فتتلخص فى أن الخليفة الآمر لم يخلف ولدا وترك امرأة[2] حاملا ، وكان الامر قد نص على الحمل قبل موته ، فوضعت الحامل طفلا ، هو الذى تخلص منه الحافظ كما ذكرنا سابقا . ولكن الأمر لم يستقم للخليفة الحافظ ، فقد قامت الدعوة للملك الطفل ، ولقب الإمام الطيب ، ونقشت الدنانير باسمه سنة ٥٢٥ هـ وقد جاء فيها « بسم الله الرحمن الرحيم ، وضرب هذا الدنير بالاسكندرية سنة خمس وعشرين وخمسمائة »[3] . (أبو القاسم المنتظر بأمر الله أمير المؤمنين الإمام محمد)

ويحدثنا على مبارك عن موقع المشهد وتاريخه فى عهده فيقول : يقع مشهد السيدة رقية بجوار البوابة الموصلة إلى السيدة نفيسة بالقرب من جامع شجر الدر على يمين الذاهب من السيدة سكينة طالبا المشهد النفيسى . ثم يتكلم على مبارك على التكية الملحقة بمشهد السيدة رقية فيقول : والتكية بها مساكن للصوفية ومحل لإقامة الصلاة وحنفيات وأشجار بكثرة وعدة أضرحة . وقد أقيم فوق ضريح السيدة رقية مقصورة من الخشب المطعم بالعاج والصدف فوقها قبة من البناء .

ويعمل لها مولد كل سنة وحضرة كل أسبوع وشعائرها مقامة من ريع أوقافها فإن إيرادها سنويا ثلاثة عشرة ألف قرشا وسبعمائة وثمانية عشر قرشا واثنان وثلاثون نصفا فضة من الروزنامجه ومرتبات أخر » .

---

(١) المقريزى جـ ٢ ص ٤٤٨ .

(٢) النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ١٧٤ .

(٣) الخطط الجديدة جـ ٦ ص ٥٦ .

Lavoix : Cataloque des Monniaes Musulmanes p. 163. (قطعة رقم ٤٣٩)

وهكذا نرى أن أحدا من المراجع على اختلافها لم يذكر شيئا عن صاحبة المشهد وإن كان من المؤكد أنه لابد وأن يكون من آل البيت وإلا لما أقام الخليفة الحافظ القبة الفاطمية التي ترجع إلى سنة ٥٢٦ هـ عليها . ولذلك فإنني أرجح أن تكون صاحبة المشهد هي السيدة الفاضلة رقية بنت الرسول صلى الله عليه وسلم وشقيقة السيدة فاطمة الزهراء التي تنتسب إليها الدولة الفاطمية ، ولذلك فقد رأيت أن أذكر بعض ملامح ترجمة صاحبة السيرة العطرة .

السيدة رقية بنت الرسول صلى الله عليه وسلم من زوجه خديجة وهي تصغر أختها السيدة زينب بثلاث سنين . زوجها النبي عليه السلام عتبة بن أبي لهب وأقامت عنده إلى أن نزلت « تبت يدا أبي لهب » فقال أبو لهب لولده يهجوني محمد وابنته عندك ، رأسي من رأسك حرام إن لم تفارق ابنة محمد ، ففارقها[1] . فزوجها الرسول لعثمان بن عفان رضي الله عنه ، فهاجر بها إلى الحبشة وكانت بارعة الجمال . وولدت رقية لعثمان عبد الله وبه يكنى ، وعاش عبد الله ستة أعوام ، ثم نقر ديك عينه فتورمت ومات في جمادى الأولى سنة أربع[2] ، ولما عاد عثمان من الحبشة ومعه زوجته رقية قدم إلى مكة ثم هاجر بها إلى المدينة . ولما خرج الرسول صلى الله عليه وسلم لغزوة بدر سنة اثنتين كانت السيدة رقية قد تمرضت بالحصبة ، فتخلف عثمان عن الجهاد بأمر رسول الله ليمرضها فماتت قبل مجئ زيد بن حارثة بشيرا بقتلى بدر ، فهمّ في دفنها . وذكر في كتاب البستان أن السيدة رقية ماتت بعد ما خرج الرسول صلى الله عليه وسلم إلى بدر ، ولما عاد وجدها ميتة فزوج عثمان أختها أم كلثوم رضي الله تعالى عنها .

وعلى أية حال فسواء أكان هذا المشهد للسيدة رقية صاحبة السيرة العطرة السابقة ، أم لرقيه غيرها من آل البيت فهي من مشاهد الرؤيا كما أجمع على ذلك كل المؤرخين مثل ابن الزيات[3] والسخاوى[4] وغيرهم .

---

(١) الروضة الفيحاء ص ١٤٥ .

(٢) الاستيعاب جـ ٤ ص ٢٩٢ .

(٣) الكواكب السيارة ص ١٧٨ .

(٤) تحفة الأحباب ص ١٧١ .

وصف المشاهد

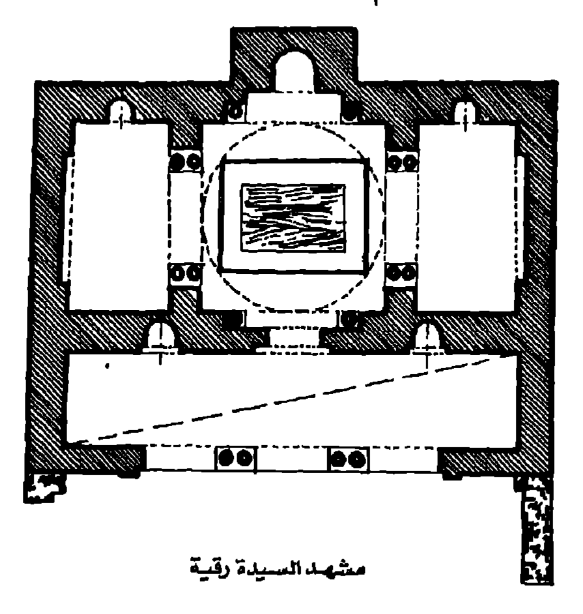
مشهد السيدة رقية

يوجد المشهد داخل أسوار تحيط بالمشاهد الثلاثة الخاصه بأصحاب التراجم السالف ذكرهم ومجموعة أخرى من الغرف ، كان يطلق عليها فى العصر العثمانى اسم (التكية) . ويمكن الدخول إلى المشهد عن طريق سقيفة تتقدمه لها ثلاث فتحات معقودة . ويبلغ طول هذه السقيفة ١٢٫٥ متر وعمقها ٢٫٥ متر . ويتكون الضريح من مستطيل يتوسط ضلعه الغربى المدخل وعلى جانبيه حنيتى محراب يعلو كل منهما شكل (محارة) تتفرع فصوصها من الوسط . وينقسم الضريح إلى ثلاثة أقسام ، المتوسط منها مربع إذ يبلغ طول ضلعه خمسة أمتار ، أما القسمان الجانبيان فيبلغ مساحة كل منهما ٢٫٨٥ × ٥ مترا وقد غطى سقف القسمان الجانبيان وكذا السقيفة التى تتقدم الضريح سقف خشبى مسطح ، أما القسم المتوسط حيث توجد المقبرة فتغطيها قبة . ويفصل هذه الأقسام عقدان يقوم كل منهما على عمودين قريبين جدا من الجدران . ويتوسط كل قسم من الأقسام الثلاثة محراب مجوف . ويعتبر المحراب الرئيسى فى مشهد السيدة رقية تحفة فنية رائعة لا مثيل لها فى مصر ، إذ يبلغ سعته ثلاثة أمتار وعمقه ١٫٢٠ مترا وارتفاعه ٦ أمتار تعلو طاقية على شكل (محارة) مفصصة يتوسطها جامة تحتوى على اسم « على » يحيط به اسم « محمد » سبع مرات . ويحيط بعقد المحراب صفان من الفصوص ، الداخلى يحتوى على اثنى عشر صفا والخارجى أكبر ويحتوى على تسعة فصوص . ويحيط تجويف المحراب مستطيل زخرف خواصر عقد المحراب برسوم نباتية يتوسطها رسم دائرة ، ويعلو المستطيل شريط به كتابة كوفية .

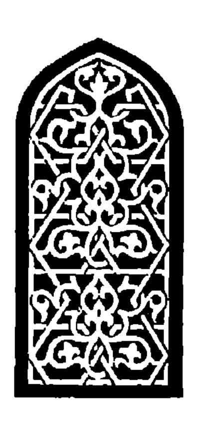
وتحتوى قبة الضريح على ٢٤ ضلعا ، وترتكز على رقبة مثمنة تقوم بدورها على دلايات فى أركان المربع . وفى منتصف كل ضلع من أضلاع مربع القبة ، بين الدلايات توجد نافذة ذات ثلاث فتحات .

ويرجع (Ravisse) تاريخ المشهد اعتماداً على المحراب الخشبي المتنقل الموجود حاليا بمتحف الفن الإسلامى إلى ٥٢٨ هـ (١١٣٤ م) ويؤيد ذلك النص الذى أورده المقريزى والذى جاء فيه ، أن (أبو تراب) وكيل الأميرة بنى مسجد السيدة رقية ، وقد توفى (أبو تراب) سنة ٥٢٨ هـ . لكن (فان برشم) يعتقد أن المشهد بنى سنة ٥٥٠ هـ أو سنة ٥٥٥ هـ .

وقد استطاع الأستاذ كرزويل العثور على تاريخ المشهد مكتوبا على القبة مع كتابات قرآنية باللون الأزرق على أرضية بيضاء ، جاء فيها فى شهر ذى الحجة فى ٥٢٧ هـ . وتعتبر الكتابة المرسومة بالزيت أقدم كتابة فى مصر وإن كان قد سبقها الكتابة المنقوشة على قصر خرانة فى الأردن التى جاء اسم عبد الملك ، كتبت يوم الاثنين لثلاث بقين من المحرم سنة ٩٢ هـ (٧١٠ م) . كما وجدت كتابة على قصير عمره ترجع إلى سنة ٩٧ هـ ، وكذلك وجدت كتابة على منزل عثر عليه Clarwke بمدينة المنيا كتب عليه (مالك بن كثير) كتب فى رجب سنة ١١٧ هـ (٧٣٥ م) .



مشهد السيدة رقية



مشهد يحيى الشبيهى والقاسم الطيب

بقرافة الإمام الشافعى

هو يحيى بن القاسم الطيب بن محمد المأمون بن جعفر الصادق بن محمد الباقر ابن على زين العابدين ابن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم . وتجمع المراجع التاريخية وكتب التراجم ، بأنه عرف باسم الشبيهى لشبهه بالرسول صلى الله عليه وسلم ، فقد ذكره الأسعد بن النحوى النسابة والرازى وابن بللوه النسابة . ويقول القرشى فى تاريخه أنه كان شديد الشبه بالنبى صلوات الله عليه .

ويضيف ابن النحوى فيقول : « كان بين كتفيه شامة بها شبه بخاتم النبوة ، وكان إذا دخل الحمام فنظر الناس الشامة التى بين كتفيه يكثرون من الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكان أمير مصر فى ذلك الوقت أحمد بن طولون ، فلما سمع بشبه سيدى يحيى برسول الله صلى الله عليه وسلم ، أراد أن يكون لمصر شرف التطلع إليه فبادر بإرسال وفد محمّل بالهدايا والتحف إلى الحجاز حيث كان يقيم سيدى يحيى وأسرته مع رجاء بتشريفه وأسرته بزيارة مصر . وقد قبل سيدى يحيى الشبيهى الدعوة ولبى الرجاء .

ويصف ابن الزيات[1] قدومه إلى مصر فيقول : «ولما سمع أهل مصر بقدومه خرجوا إلى ظاهر مصر يتلقونه ، وكان يوم قدومه يوما مشهوداً» .

وقد جاء مع سيدى يحيى السيد الشريف الإمام العالم القاسم الطيب بن محمد الباقر ابن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنهم . تحدث عنه

(١) الكواكب السيارة فى ترتيب الزيارة ص ٩٥ .

ابن النحوى[1] فقال : « كان القاسم هذا من أحفظ الناس لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد كتب عنه أربعمائة حديث » ويصف أبوعمر[2] أخلاق الإمام القاسم فيقول : رأيت القاسم بمكة يدعو الله تعالى وقد اقشعر جسده ، فقلت له ما هذا يا ابن بنت رسول الله ؟ فقال لأنى أستحي أن أدعوه بلسان ما أديت به حق شكره ومناقبه كثيرة » .

كما جاء مع يحيي الشبيهى أخوه عبد الله القاسم وهو مدفون معه فى ضريحه وعند رأسه لوح رخام فيه نسبه وتاريخ الوفاة وهويوم الاثنين لاثنتى عشرة ليلة خلت من شهر رمضان سنة احدى وستين ومائتين » . ويصف ابن الزيات زهده وروعه فيقول : وكان تلو أخيه (أى يحيي الشبيهى) فى العبادة والطهارة والعفة والصلاح ، وهم بيت عظيم معروفون بإجابة الدعاء .

ورافقت الأسرة كذلك السيدة أم النذرية زوجة القاسم الطيب ، وقبرها بجانب ولدها . وكانت رحمة الله عليها من الزاهدات العابدات وهى شريفة ذكرها القرشى فى طبقة الأشراف . كما دفن بالضريح السيد يحيي بن الحسن الأنور أخو السيدة نفيسة الطاهرة فقد ذكره القرشى[3] فقال : « وليس بمصر من أخوتها أحد سواه ولا عقب له» . وقد عقب السخاوى على ما ذكره القرشى فقال : «إن للسيدة نفيسة فى مصر أخ آخر هو زيد بن الحسن دخل مصر هو وولداه محمد الأصغر وحسن الأنور ، كما يحكى القضاعى والجونى والمقريزى وغيرهم » .

وتذكر المراجع الكثير عن كرامات سيدى يحيي الشبيهى منها ما ذكره ابن الزيات والسخاوى وغيرهما ، عن لسان أبو الذكر ، أنه كان يرى على قبره نور ، ويقول : دخلت إلى قبر يحيي فلم أحسن الأدب فسمعت من قبر ورائى يقول « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا » ويضيف ابن الزيات[4] فيقول : «الواجب على الزائر إذا دخل إلى مكان فيه أشراف أن يقرأ هذه الآية : وهذا المشهد معروف بإجابة الدعاء فيه[5] » .

---

(١) تحفة الأحباب وبغية الطلاب ص ٢٢٤ .

(٢) جوهر السكرى : الكواكب السائر إلى زيارة المقابر .

(٣) ترتيب الزيارة ص ٩٥ .

(٤) تحفة الأحباب ص ٢٢٣

(٥) طبقات الأشراف

وصف الضريح

على بعد مائتى وخمسين مترا جنوب ضريح الإمام الشافعى يوجد مبنى يتألف من غرفة مربعة يبلغ طول ضلعها نحو سبعة أمتار ونصف متر تعلوها قبة ويحيط بها ردهة من ثلاث جهات ، وفى منتصف كل ضلع من الأضلاع الثلاثة فتحة على الردهة . ويعلو الفتحة عقد ذو زاوية .

ويفتح الضلع الشمالى للقبة على صحن مساحته ١٣×٢٦ مترا ، ويقسم الصحن الآن صفان من البوائك إلى ثلاثة أروقة . وتتكون كل بائكة من ثلاثة عقود ذات زاوية تعتمد على عمودين . وفى طرفى الضلع الشرقى للصحن محرابان صغيران ، أما الجزء الأوسط فتوجد به فتحة تؤدى إلى ردهة على جانبيها الشمالى والجنوبى غرفتان .

أما منطقة الانتقال من المربع إلى الدائرة التى تعلوها القبة فنلاحظ أن ارتفاعها تبلغ ٥ر٣ متر وفى الأركان الأربعة مثلث يشتمل على صفين من المقرنصات وبين كل مثلثين توجد نوافذ كل منها يتكون من ثلاث فتحات . وهى فى ذلك تشبه قباب مشهد السيدة رقية أما فى الخارج فنلاحظ أن منطقة الانتقال مدرجة على شكل سلم وهى تشبه فى ذلك ضريح الجعفرية وعاتكة والشيخ يونس . ولا توجد للقبة رقبة بل ترتكز مباشرة على منطقة الانتقال وهى بذلك تشبه قبة السيدة رقية .

وفى الضلع الشرقى للردهة التى تحيط بالقبة توجد ثلاثة محاريب الأوسط أكبرها ، إذ يبلغ اتساعه خمسة أمتار وعمقه (٧٥ر٢) متر . وهو يشبه محراب السيدة رقية .

أما عن تاريخ بناء الضريح فإن (فان برشم[1]) يرجعه إلى القرن (١٢ م) وذلك اعتمادا على المقرنصات فى منطقة الانتقال ، وكذا النوافذ ذات الثلاث الفتحات التى تشبه ضريح السيدة رقية ويرجع تاريخه إلى (سنة ٥٢٧ هـ/١١٣٣ م) . أما (كزويل) فإنه يرجح أن يكون تاريخه تاريخ تأسيس الضريح فى منتصف القرن (١٢م) أى بعد التاريخ الذى قال به «فان برشم[2]» بربع قرن ، وذلك لأنه محاريبه الجصية أكثر تطورا من ضريح السيدة رقية ،

1) Van Berchem : C.Z.A. Egypte I p.p. 23 - 7 and Comité de Conservation Répertoire chronologique d'Epigraphie Arabe II pp. 173 - 4 (1894).

2) G. Wiet : Les mosqués du Caire. pp. 242 & 245 & 6 (p. 6 41 and 42).

كما أنه لايصل إلى درجة تطور زخارف جامع الصالح طلائع الذى يرجع تاريخه إلى (سنة ٥٥٥ هـ ١٣٦٠ م) .

أما الباذكتان[1] اللتان أضيفتا إلى صحن الضريح فقد بنيتا فى القرن (١٩ م) عندما دفن بالضريح إسماعيل باشا قاسم .

أما عن التوابيت التى توجد ببقيه الضريح فيبلغ عددها سبعة ، خمسة كبيرة واثنان صغيران وقد وجد على التابوت الأول شاهدا قبر كتب عليهما أن عبد الله بن قاسم – ابن على ابن أبى طالب ومؤرخ (١٨ رمضان سنة ٢٦١ هـ) والتابوت الثانى كتب على شاهده يحيى ابن قاسم ، أى أنه أخو عبد الله وتاريخ الوفاة (٢٨ رجب سنة ٢٦٣ هـ) وإلى سيدنا يحيى المعروف بالشبيهى نسبة إلى شبهه بالرسول صلى الله عليه وسلم ، كما سبق القول ، ينسب الضريح .

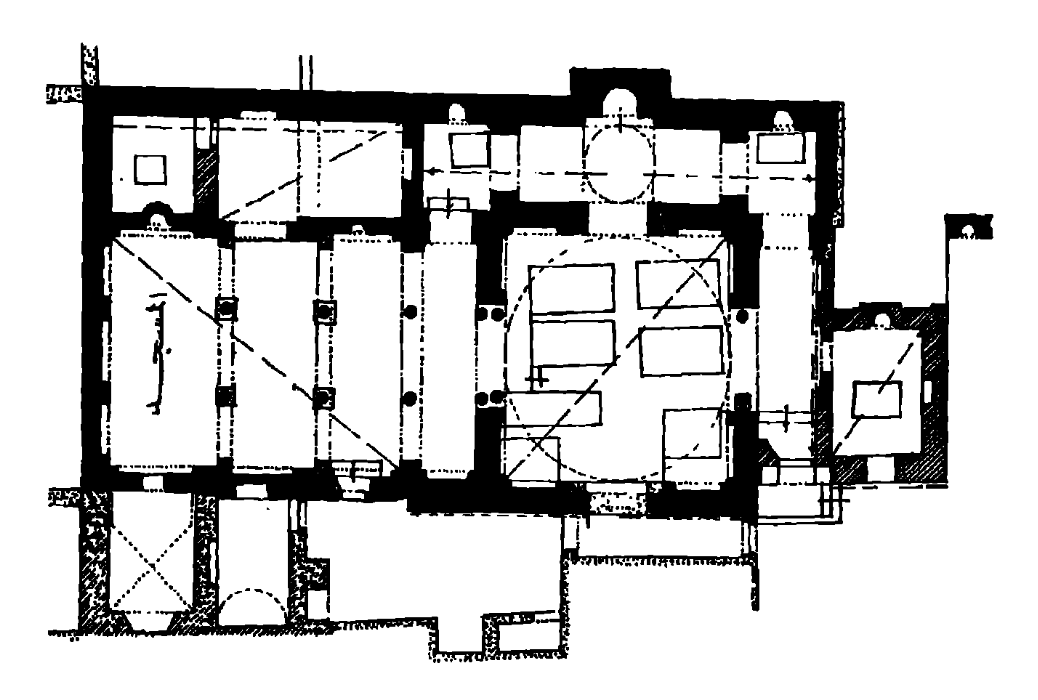
والتابوت الثالث كتب على شاهده اسم السيدة أم الذرية زوجة القاسم ولكن لم نجد تاريخ الوفاة .

ومما يجدر ملاحظته أنه برغم أن مبانى الضريح ترجع إلى العصر الفاطمى فى القرن السادس الهجرى ، إلا أن الكتابة التى حفرت على شواهد القبور ترجع إلى القرن الثالث الهجرى ، فهى من الخط الكوفى البسيط ، وتشبه إلى حد كبير أسلوب الخط الذى نقش على اللوحة التأسيسية لجامع أحمد بن طولون والمؤرخة سنة ٢٦٥ هـ .

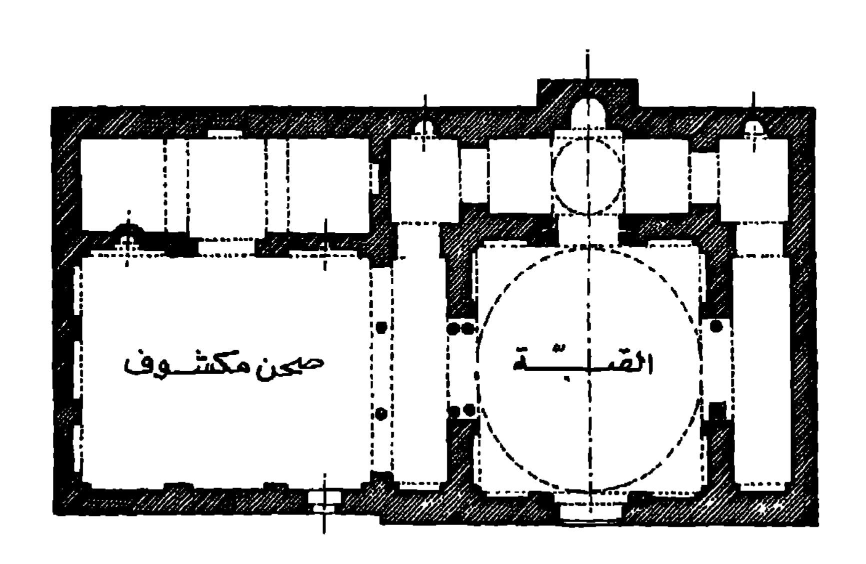
ويتكون ضريح القاسم الطيب من حجرة مربعة يبلغ طول ضلعها ٧٥ر٣ متر تقريبا من الداخل ، و ٥ أمتار من الخارج وبوسط كل من الضلع الشمالى الغربى والجنوبى فتحة معقودة وفى الضلعين الآخريين نجد فتحتين مستطيلتين . ويعلو الحجرة قبة تقوم على مثمن بكل ضلع منه مقرنص ، ويعلو منطقة الانتقال هذه رقبة مثمنة تنتهى بشريط به كتابة نسخية . ومن المرجح أن يكون تصميم الضريح الأصلى يشبه تصميم ضريح يحيى الشبيهى أى أنه يحيط بالقبة ردهة من ثلاث جهات مغطاة بقبو وأن الضلع الجنوبى الشرقى للردهة به ثلاثة محاريب .

---

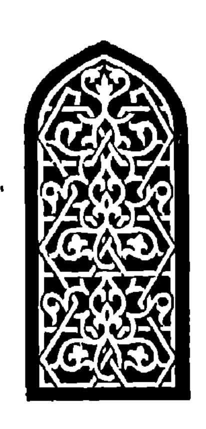
1) Creswell : The Muslim Architecture of Egypt I. p. 268.



ضريح يحيى الشبيهي القديم



ضريح يحيى الشبيهي - إعادة بنائه



جامع سارية الجبل
داخل قلعة صلاح الدين

ينسب هذا الجامع إلى سارية الصحابي ، وبالرجوع إلى (أسد الغابة فى معرفة[1] الصحابة) عثرنا على صحابيين عرفا باسم سارية ، الأول هو سارية بن أوفى ؛ الذى وفد على الرسول صلى الله عليه وسلم ، فعقد له النبي ، فسار إلى بنى مرة فعرض عليهم الإسلام فأبطأوا عليه ، فعرض عليهم السيف ، فلما أسرف فى القتل أسلموا . وأسلم من حولهم من قيس فسار إلى النبي فى ألف .

والثانى هو سارية بن زنيم بن عمرو بن عبد الله بن جابر بن محمية بن عبد بن عدى ابن الديل بن بكر بن عبد مناة بن كنانة ، كان من أشد الناس حضرا ، وهو الذي ناداه عمر بن الخطاب رضى الله عنه : ياسارية الجبل . أخبرنا أحمد بن عثمان بن أبى على الزرزارى عن ابن عمر عن أبيه قال : أنه كان يخطب على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة فعرض له فى خطبته أن قال : ياساريةُ ، الجبل الجبل، من استرعى الذئب ظلم ، فالتفت الناس بعضهم إلى بعض ، فقال عليٌّ : ليخرجن مما قال ، فلما فرغ من صلاته قال له عليٌّ : ما شئٌ سنح لك فى خطبتك ؟ قال : وما هو ؟ قال : قولك : يا ساريةُ الجبلَ الجبلَ ، من استرعى الذئب ظلم ، قال : وهل كان ذلك منى ؟ قال : نعم قال : وقع فى خلدى أن المشركين هزموا إخواننا فركبوا أكتافهم ، وأنهم يمرون بجبل ، فإن عدلوا إليه قاتلوا من وجدوا وقد ظفروا ، وإن جاوزوا هلكوا فخرج منى ما تزعم أنك سمعته .

---

(١) عز الدين ابن الأثير حرف (س) .

قال ابن عمر ، فجاء البشير بالفتح بعد شهر ، فذكر سارية أنه سمع فى ذلك اليوم فى تلك الساعة ، حين جاوزوا الجبل صوتا يشبه صوت عمر : ياسارية الجبلَ الجبلَ ، قال : فعدلنا إليه ففتح الله علينا .

وبالرجوع إلى كتب التاريخ والتراجم لم نجد ذكرا لأحد منهم أن سارية الجبل الصحابى المشهور قد وفد على مصر واستقر ومات ودفن بها . إلاّ أننا نجد ابن جبير يذكر فى رحلته عند حديثه عن مشاهير الصحابة بمصر ، سيدنا سارية الجبل ويحدد قبره فيقول : أنه يوجد بسفح جبل المقطم .

وصف الجامع

يقول المقريزى[1] فى خططه عند ذكر قلعة الجبل أنه كان يوجد على الجبل قبل بناء القلعة عدة مساجد ، منها مسجد قسطة أنشأه أبو منصور قسطة وكان غلاما أرمينيا من غلمان المظفر ابن أمير الجيوش . ويضيف الحافظ أبو الطاهر السلفى فيقول : سمعت أبا منصور قسطة الأرمنى والى الاسكندرية يقول كان عبد الرحمن خطيب ثغر عسقلان يخطب بظاهر البلد (لعله يعنى مسجده الذى يقع بظاهر القاهرة) فى عيد من الأعياد فقيل له قد قرب منا العدو فنزل عن المنبر وقطع الخطبة» والذى يعنينا من القصة التى جاءت على لسان أبى المنصور قسطة أن مسجده كان جامعا تقام به الجمعة والجماعة حيث أن له خطيب ومنبر .

ويكمل ابن عبد الظاهر الحديث عن جامع أبى المنصور قسطة فيقول : وبالقلعة مسجد الردينى وهو أبو الحسن على بن مرزوق الحوفى وكان ينكر على أصحابه البطالة والكسل وكانت كلمته مقبولة عند الملوك وكان يأوى بمسجد سعد الدولة ثم تحول منه إلى مسجد عرف بالردينى وهو الموجود الآن بداخل قلعة الجبل، وعليه وقف بالاسكندرية . وفى هذا المسجد قبر يزعمون أنه قبره (أى الردينى) . وجاء فى كتب المزارات بالقرافة ، أن الردينى توفى ودفن بها فى سنة أربعين وخمسمائة بخط سارية الجبل .

ويقول أحمد[2] رمزى فى تعليقه على مسجد الرّدينى : هذا المسجد لا يزال قائما إلى اليوم داخل قلعة الجبل فى الجهة الشمالية الشرقية منها ويعرف باسم جامع سيدى سارية بالقرب من قصر الحرم الذى جدده محمد على (سنة ١٢٤٣ هـ-١٨٢٧ م) ويضيف أحمد رمزى فيقول : وقد دلنى البحث على أن الذى أنشأ هذا المسجد هو أبو منصور قسطة الأرمنى الذى كان واليا على الاسكندرية وذلك سنة ٥٣٥ هـ (أى فى العصر الفاطمى) ، ويؤيد ذلك ما هو منقوش بالحفر على لوح من الرخام ،كان مثبتا على باب المسجد ومذكور فيه اسم منشئه وتاريخ إنشائه .

والظاهر أنه لما جدد بناء هذا المسجد فى سنة ٩٣٥ هـ نقل اللوح المذكور من المسجد ووضع على قبر أبى المنصور قسطة الذى قال عنه المقريزى[3] أنه مات مسموما من أكلة هريسة . ثم وضع المجدد لوحا آخر بدلا عن السابق أثبت فيه اسمه وتاريخ بناء المسجد وتعميره .

---

(١) خطط المقريزى جـ ٣ ص ٣٢٩ ، ٣٣٠ .

(٢) النجوم الزاهرة جـ ٦١ ص ٢٦٢ .

(٣) المقريزى جـ ٣ ص ٣٢٩ .

وينتهى أحمد رمزى ، اعتمادا على ماجاء فى المقريزى وعلى اللوحة التى عثر عليها والمحفور عليها اسم أبى المنصور قسطة إلى النتيجة التالية : من هنا يُعلم أنه لما أنشأ أبو المنصور قسطة هذا المسجد سنة ٥٣٥ هـ انتقل إليه أبو الحسن الردينى واستمر فى التدريس إلى أن مات سنة ٥٤٠ هـ .

ويكمل على مبارك[1] تاريخ المسجد فيقول : «وفى سنة ٩٣٥ هـ جدد هذا الجامع سليمان باشا الخادم الذى كان واليا على مصر من قبل السلطان سليمان بن سليم خان العثمانى كما هو ثابت على اللوحة التأسيسية المثبتة بأعلى الباب الغربى . ويحتوى الجامع على منبر خشبى ودكة وله منارة ومطهرة وأخلية (ميضأة ونورة مياه) وله أوقاف دائرة وشعائره الإسلامية مقامة بنظر الشيخ سليم عمر القلعاوى أحد مدرسى السادة الحنفية بالأزهر وكان أحد قضاة المحكمة الكبرى بالقاهرة .

وقد كان هذا الجامع منذ إنشائه فى العصر الفاطمى على أقل تقدير موضع العناية والرعاية والإجلال لانتسابه إلى الصحابى الجليل سيدى سارية الجبل ، فقد كان الملوك والخلفاء والسلاطين يذهبون إليه للتبرك ولحل قضاياهم الهامة التى يرجون لها البركة والتوفيق ، فنذكر على سبيل المثال لا الحصر ، ماحدثنا به ابن تغرى[2] بردى بالنسبة للسلطان الملك الظاهر برقوق فى أحداث سنة ٧٨٤ هـ ، إذ قال : وفى شهر ربيع الأول جلس السلطان بمسجد الردينى (سارية الجبل) داخل القلعة بالحريم السلطانى واستدعى الخليفة المتوكل على الله من مكانه بالقلعة ، فلما دخل عليه الخليفة قام الملك الظاهر له وتلقاه وأخذ فى ملاطفته والاعتذار إليه واصطلحا وتحالفا ومضى الخليفة إلى موضعه بالقلعة ، فبعث السلطان إليه عشرة آلاف درهم وعدة بقج فيها أثواب صوف وقماش سكندرى .

وجاء فى طبقات الشعرانى[3] أن الشيخ محمد الكعكى مدفون بزاويته بالقرب من سيدى سارية صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم . كما توجد قبور أخرى لبعض المماليك وعلى شاهد كل قبر نوع لباس الرأس الذى كان يلبسه المملوك للمدفون فيه[4] ، وهى عدة عمامات للرأس تكون فى مجموعها فكرة متكاملة عن الأشكال والأحجام وترشدنا إلى نماذج لباس الرأس عند المماليك فى العصرين المملوكى والعثمانى .

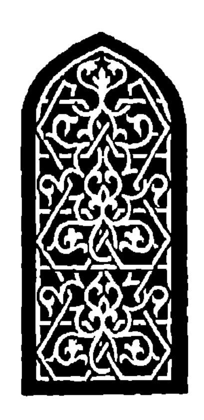
---

(١) الخطط التوفيقية جـ ٥ ص ١٤ .

(٢) النجوم الزاهرة جـ ١١ ص ٢٦١ .

(٣) الطبقات الكبرى ص ٩٥ .

(٤) النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٢٦٢ (حاشية أحمد رمزى) .



قبـة الإمـام الشـافعى ومسجـده

الشافعى هو : أبو عبد الله محمد بن ادريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب ابن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف ، فهو عربى قرشى هاشمى مطلبى ، يلتقى مع الرسول صلى الله عليه وسلم فى جده عبد مناف .

ولد الإمام الشافعى بغزة سنة ١٥٠ هـ ، وهى نفس السنة التى مات فيها الإمام أبو حنيفة . وكان مولده بمدينة غزة من أرض فلسطين ، وروى ياقوت عن الشافعى أنه قال (ولدت باليمن فخافت أمى على الضيعة ، فحملتنى إلى مكة وأنا ابن عشر أو شبيه بذلك) .

وذهب البعض فى التوفيق بين الروايتين إلى القول بأنه ولد بغزة ، ونشأ بعسقلان وهى بلدة تبعد نحو ثلاثة فراسخ من غزة كانت تسكنها قبائل اليمن .

ونشأ الشافعى فى أسرة فلسطينية فقيرة ومات أبوه وهو صغير ، فانتقلت به أمه إلى مكة لتحافظ على شرف نسبه .

وأم الشافعى تدعى فاطمة بنت عبد الله الازدية نسبة إلى قبيلة الازد التى قال فى شأنها الرسول الكريم (الازد أسد الله فى الارض ، يريد الناس أن يضعوهم ، ويأبى الله الا أن يرفعهم وليأتين على الناس زمان يقول الرجل ـ ياليتنى كنت أزديا وياليت أمى كانت أزدية) .

شب الشافعى فقيرا ضيق العيش حتى اضطر وهو يطلب العلم إلى الكتابة على قطع الخزف وقطع الجلود وسعف النخل وعظام الحيوانات لضيق ذات يده وعدم قدرته على شراء الورق .

حفظ الشافعى القرآن الكريم وهو صغير، وأخذ يحفظ الأحاديث النبوية ويكتبها، ورحل إلى البادية وعاشر قبيلة (هذيل) قرابة عشر سنين ليأخذ عنها قواعد اللغة العربية وكلماتها ، فحفظ الشافعى أشعار هذيل وأخبارها وكانت هذيل أفصح العرب قاطبة .

تعلم الشافعى الرمى إلى جوار العلم حتى كان يرمى عشرة سهام فلا يخطئ فى سهم منها وقال فى ذلك (كانت همتى فى شيئين : فى الرمى والعلم ، فصرت فى الرمى بحيث أصيب من عشرة عشرة) وسكت فقال له بعض من سمعه : (أنت والله فى العلم أكثر منك فى الرمى).

مما سبق يتبين أن الشافعى كان فى أول أمره منصرفا إلى الشعر والأدب وأيام العرب، ثم قيض الله له من الاسباب ما صرفه إلى الفقه والعلم. وتقول الروايات أنه التقى وهو فى طريقه إلى طلب النحو والأدب بمسلم بن خالد الزنجى مفتى مكة فسأل الشافعى : من أين أنت ؟ قال : من أهل مكة . قال : أين منزلك ؟ قال : بشعب الخيف . قال : من أى قبيلة أنت ؟ فأجاب الشافعى : من عبد مناف . قال مسلم : بخ بخ لقد شرفك الله فى الدنيا والآخرة ، ألا جعلت فهمك هذا فى الفقه فكان أحسن لك ؟

نبغ الشافعى فى الفقه على حداثة سنه وأذن له مسلم بن خالد الزنجى فى الافتاء ، ولكن همة الإمام الشافعى لم تقنع بما وصل إليه ، إذ بلغته اخبار إمام المدينة مالك رضى الله عنه وكان ذلك فى وقت ارتفع فيه اسم مالك فى الآفاق وتناولته الركبان وبلغ شأوا عظيما من العلم والحديث .

سمت همة الشافعى للهجرة إلى المدينة فى طلب العلم وأعد لذلك عدته بأن استعار كتاب (موطأ مالك) من رجل فى مكة وقرأه وحفظه ثم أخذ خطاب توصية من أمير مكة إلى أمير المدينة ليتوسط له عند مالك حتى يقبله تلميذا عنده .

سافر الإمام الشافعى إلى المدينة المنورة ثم ذهب إلى الإمام مالك ومعه خطاب التوصية

فلما رآه الإمام مالك وقرأ خطاب التوصية غضب وقال يا سبحان الله ، أصبح علم رسول الله صلى الله عليه وسلم يحتاج إلى توصية ، فاعتذر له الشافعي وقال له إنما حملني على ذلك حرصي على تلقي العلم عنك ، فسأله مالك عن اسمه فقال محمد ، فقال له مالك : (يا محمد اتق الله واجتنب المعاصي فإنه سيكون لك شأن ، إن الله قد ألقى على قلبك نورا فلا تطفئه بالمعصية) ثم قال له (إذا ما جاء الغد تجئ ويجئ من يقرأ لك) . وأخذ الشافعي يقرأ ومالك يستزيده في القراءة وظل معه يروى عنه ويتفقه عليه ويدارسه المسائل التي يفتي فيها الإمام الجليل إلى أن مات الإمام مالك سنة ١٧٩ هـ وقد بلغ الشافعي شرخ الشباب .

ومع حرص الشافعي على ملازمة الإمام مالك ، كان يتحين الوقت بعد الآخر فيقوم برحلات إلى مكة يزور أمه ويستفيد بنصائحها وكان فيها نبل وحسن فهم وكان الإمام الشافعي يحب السفر ويرى فيه فوائد جليلة .

وكان يقول :

سأضرب في طول البلاد وعرضها ... أنال مرادي أو أموت غريبا

فإن تلفت نفسي فلله درها ... وإن سلمت كان الرجوع قريبا

ويرى الإمام الشافعي في السفر فوائد عديدة ضمنها شعره القائل فيه :

سافر تجد عوضا عمن تفارقه ... وانصب فإن لذيذ العيش في النصب

إني رأيت وقوف الماء يفسده ... إن سال طاب وإن لم يجر لم يطب

والأسد لولا فراق الغاب ما افترست ... والسهم لولا فراق القوس لم يصب

والتبر كالترب ملقى في أماكنه ... والعود في أرضه نوع من الحطب

لما تغرب هذا عز مطلبه ... وإن تغرب ذاك عز كالذهب

لم يقعد شرف نسب الإمام الشافعي عن العمل والسعي في طلب الرزق ليأكل من كد يمينه وعرق جبينه وتصادف . أن قدم إلى الحجاز أحد ولاة اليمن فحادثه بعض القرشيين في أن يولى الشافعي على عمل في اليمن فقبل ورهن الشافعي دارا ليجهز نفسه للسفر ، ثم تولى

عملا فى (نجران) ظهر فيه ذكاؤه وعدله وترفعه عن الظلم فرفض التملق والرشوة التى كانت تقدم لمن سبقه من الحكام . وكان الإمام الشافعى يذم الحكام الظالمين وينقدهم ويذكر ما أعده الله من العقاب للحاكم الظالم . ثم ولىّ على اليمن ـ ومن أعمالها نجران ـ وال ظالم مستبد فكان الشافعى يأخذ على يديه ويمنع مظالمه أن تصل إلى ممن تحت ولايته .

فلما بلغ ذلك والى اليمن ، كتب إلى هارون الرشيد كتابا يتهم فيه الشافعى بالتشيع لعلي وآل بيته واتهمه بأنه يسعى سرا لنقل الخلافة من العباسيين إلى العلويين، واتهم معه تسعة آخرين ، وكتب فى الخطاب إلى الرشيد (أن تسعة من العلوية تحركوا وأن هاهنا رجلا من ولد شافع المطلبى يعمل بلسانه مالا يقدر عليه المقاتل بسيفه ، فأرسل هارون الرشيد إلى والى اليمن يأمره أن يحضر أولئك النفر التسعة من العلوية ومعهم الشافعى .

أمر هارون الرشيد بضرب أعناق التسعة ثم جاء دور الشافعى فقال للخليفة :

(مهلا يا أمير المؤمنين ، فإنك الداعى ، وأنا المدعو ، وأنت القادر على ما تريد منى ولست القادر على ما أريده منك . يا أمير المؤمنين ، ما تقول فى رجلين ؛ أحدهما يرانى أخاه والآخر يرانى عبده ، أيها أحب الىّ ؟

قال الرشيد : الذى يراك أخاه .

قال الشافعى : فذاك أنت يا أمير المؤمنين .

قال الرشيد : كيف ذاك .

قال الشافعى : يا أمير المؤمنين ، إنكم ولد العباس ، وهم ولد على ، ونحن بنو المطلب فأنتم ولد العباس تروننا إخوتكم ، وهم يروننا عبيدهم .

فانشرح الرشيد للملك ، وقال للشافعى : يا ابن ادريس ، كيف علمك بالقرآن ؟ فقال الشافعى : عن أى علومه تسألنى ؟ عن حفظه ؟ فقد حفظته ووعيته بين جنبى ، وعرفت وقفه وابتداءه وناسخه ومنسوخه وليليه ونهاريه ، ووحشيه وأنسيه ، وما خوطب به العام يراد به الخاص وما خوطب به الخاص يراد به العام .

فقال هارون : فكيف علمك بالنجوم ؟ فقال : إنى لأعرف منها البرى والبحرى والسهلى والجبلى والمغبق والمصبخ وما تجب معرفته .

فقال الرشيد : فكيف علمك بأنساب العرب ؟ فاجاب الشافعى : إنى لأعرف أنساب اللئام وأنساب الكرام ونسبى ، ونسب أمير المؤمنين .

قال الرشيد : فهل من موعظة تعظ بها أمير المؤمنين ؟ فوعظه بموعظة مؤثرة لطاووس اليمانى ، فبكى منها الرشيد وأمر للشافعى بمال كثير وهدايا ففرقها عند الباب .

تقوم القصة السابقة دليلا ساطعا وبرهانا ناصعا على براعة الشافعى وقوة حجته وسرعة بديهته فى التخلص، من احرج المواقف ولا غرو فثقافة الشافعى مستمدة من عدة روافد، فهناك شيوخه وأساتذته وقراءاته ورحلاته إلى اليمن والكوفة والبصرة ومكة وبغداد التى قدمها سنة ١٨٤ هـ .

كان الشافعى وقت أن قدم بغداد فى الرابعة والثلاثين من عمره ، ولما نجاه الله من الرشيد، تفرغ لدراسة العلم والفقه على محمد بن الحسن الشيبانى صاحب أبى حنيفة واستوعب الشافعى فقه العراق، وبذلك اجتمع له فقه الحجاز الذى يغلب عليه النقل ، وفقه العراق الذى يغلب عليه العقل وهكذا استفاد من أئمة الفقه فى المنقول والمعقول .

ويقول ابن حجر فى ذلك (انتهت رياسة الفقه بالمدينة إلى مالك بن أنس فرحل إليه ولازمه وأخذ منه وانتهت رياسة الفقه بالعراق إلى أبى حنيفة فأخذ عن صاحبه محمد بن الحسن حملا ، ليس فيه شئ الا وقد سمعه عليه ، فاجتمع له علم أهل الرأى وعلم أهل الحديث، فتصرف فى ذلك حتى أصّل الاصول وقعد القواعد وأذعن له الموافق والمخالف واشتهر أمره وعلا ذكره وارتفع قدره ، حتى صار منه ما صار) .

ومن شيوخ الشافعى بالعراق أيضا وكيع بن الجراح الكوفى وأبو أسامة حماد بن أسامة الكوفى واسماعيل بن علية البصرى وعبد الوهاب بن عبد المجيد البصرى .

ومن شيوخه فى المدينة : مالك بن أنس وابراهيم بن سعد الانصارى وعبد العزيز بن محمد الداوردى وابراهيم بن يحيى الاسامى ومحمد بن سعيد بن أبى فديك وعبد الله بن نافع الصائغ .

ومن شيوخه فى اليمن : مطرف بن مازن وهشام بن يوسف قاضى صنعاء وعمر بن أبي مسلمة صاحب الاوزاعى ويحيى بن حسان صاحب الليث بن سعد .

ولقد أخذ الشافعى عن محمد بن الحسن الحديث والرأى ببغداد كما أسلفنا وكتب ما أخذه حتى حمل عنه وقر بعير وكان يجل أستاذه ويثنى عليه وكان محمد يكرم تلميذه الشافعى ويفضل مجلسه على مجلس السلطان .

ويروى أن محمدا خرج راكبا إلى دار الإمارة ورأى الشافعى قد نجاء فثنى رجله ونزل ، وقال لغلامه : اذهب فاعتذر ، فقال له الشافعى : لنا وقت غير هذا ، قال : لا وأخذه بيده فدخلا الدار .

وكان الشافعى يناظر أصحاب محمد بن الحسن ويدافع عن مذهب أهل الحديث وفقه الحجاز وكان لا يناظر محمدا نفسه اجلالا لمكانة الأستاذ . ولكن محمدا بلغه أنه يناظر أصحابه فطلب إليه أن يناظره ، فاستحيا الشافعى وامتنع وأصر محمد فناظره مستكرها فكان الانتصار للامام الشافعى رضى الله عنه .

عاد الإمام الشافعى إلى مكة وأخذ يلقى دروسه فى الحرم المكى والتقى به أكبر العلماء فى موسم الحج واستمعوا إليه وفى هذا الوقت التقى به أحمد بن حنبل الذى سئل عن الشافعى فقال : لقد منّ الله به علينا ، لقد كنا تعلمنا كلام القوم وكتبنا كتبهم حتى قدم علينا الشافعى فلما سمعنا كلامه علمنا أنه أعلم من غيره ولقد جالسناه الأيام والليالى فما رأينا منه الا كل خير رحمة الله عليه .

وكان ابن حنبل كثير التردد على مجلس الشافعى يحل مقامه ويحتفل به وحدث أن ركب الشافعى يوما حماره فمشى ابن حنبل إلى جانبه وهو يذاكره ولما علم يحيى بن معين بذلك عاتب ابن حنبل على فعله هذا فقال له ابن حنبل : (لو كنت فى الجانب الآخر من الحمار لكان خيرا لك) .

وفى سنة ١٩٥ هـ قدم الامام الشافعى بغداد ومعه أصول الفقه وقواعده الكلية فأقبل عليه العلماء والمحدثون وأهل الرأى ، فأخذ يفيض عليهم من علمه وكان له بالعراق تلاميذ وأتباع وعرف مذهبه واشتهر بمذهبه القديم .

وفى هذا الوقت ألف الشافعى كتاب الرسالة الذى وضع به الأساس لعلم أصول الفقه .
وجاء فى مناقب الشافعى للرازى أنه (روى أن عبد الرحمن بن مهدى التمس من الشافعى ، وهو شاب ، أن يضع كتابا يذكر فيه شرائط الاستدلال بالقرآن والسنة والاجماع والقياس وبيان الناسخ والمنسوخ ومراتب العموم والخصوص ، فوضع الشافعى رضى الله عنه كتاب الرسالة وبعثها إليه فلما قرأها عبد الرحمن بن مهدى قال : ما أظن أن الله عز وجل خلق مثل هذا الرجل) .

وأضاف الرازى يقول : (واعلم أن الشافعى رضى الله عنه قد صنف كتاب الرسالة وهو فى بغداد ولما رجع إلى مصر أعاد تصنيفه وفى كل واحد منهما علم كثير) .

وفى سنة ١٩٨ هـ . تولى الخلافة أبو عبد الله المأمون وفى عهده لم يطب للشافعى المقام ببغداد نظرا لغلبة الفرس واستيلائهم على شئون الحكم والشافعى عربى قرشى معتز بالشريعة ، بينما كان المأمون يشجع الفلسفة ، التى انتشرت ابان حكمه ويدافع عنها . ولقد عرض على الشافعى تولى القضاء فأباه .

ويقال إن سبب قدوم الشافعى إلى مصر هو أن العباس بن عبد الله بن العباس بن موسى ابن عبد الله بن عباس دعاه وكان العباس هذا خليفة لعبد الله المأمون على مصر .

ولقد قال الشافعى عندما أراد السفر إلى مصر :

لقد أصبحت نفسى تتوق إلى مصر ... ومن دونها قطع المهامه والقفر
فوالله ما أدرى أللفوز والغنى ... أساق إليها أم أساق إلى القبر ؟

أقام الشافعى بمصر أربع سنين ونيفا ، صنف فيها كتبه وسار ذكره ونال الفوز بسبب اقبال الناس عليه وحبهم له وانتشار مذهبه بينهم وعظم شأنه عند المصريين ووضع مذهبه الجديد الذى ذهب إليه فى مصر بسبب تغير الأوضاع والعادات وضمنه كتابه (الأم) .

وكانت الدروس والعلوم التى يلقيها الشافعى على تلاميذه كثيرة متعددة فقد كان الشافعى – كما يقول الربيع بن سليمان – يجلس فى حلقته إذا صلى الفجر فيجيئه أهل القرآن ، فإذا طلعت الشمس قاموا وجاء أهل الحديث فيسألونه تفسيره ومعانيه ، فإذا

ارتفعت الشمس قاموا فاستوت الحلقة للمذاكرة والنظر، فإذا ارتفع الضحى تفرقوا وجاء أهل العربية والعروض والنحو والشعر فلا يزالون إلى قرب انتصاف النهار .

من هذا يتبين أن الشافعى يظل قرابة ست ساعات يوميا يلقى دروسا متصلة ينتقل فيها من مادة إلى مادة وجموع التلاميذ تتوالى عليه ويظل هكذا من بعد صلاة الفجر حتى تدنو صلاة الظهر .

كان فقه الشافعى خصبا مثمرا لأنه خلاصة عقل ألمعى ورأى حكيم حصيف وخبرة مجرب . طاف البلاد وناظر الفقهاء واستمع للعلماء وسافر إلى أهم بلاد العالم الإسلامى واستفاد من أكبر فقهائه ورجاله. وكان الشافعى فى أول أمره يعد نفسه فقيها مدنيا من أصحاب مالك بن أنس ثم تميزت شخصية الشافعى فيما بعد ، فصار يقول رأيه سواء أخالف رأى مالك أم وافقه ، دون أن يتعرض لمالك بنقد ولكنه بعد ذلك وجد بعض الناس يغالون فى أمر مالك ويقدسون آثاره وثيابه وكان لمالك قلنسوة يتبركون بها فى الأندلس وإذا قيل : قال رسول الله أجاب هؤلاء : قال مالك .

فرد عليهم الشافعى بأن مالكا بشر يصيب ويخطىء وأخذ ينقده ووضع فى ذلك كتابا سماه (خلاف مالك) وقرر فيه أن لا رأى مع الحديث ، ولكنه طوى الكتاب عنده سنة احتراما منه لمكانة استاذه ثم نشره على الناس ، فكان يقصد بذلك وجه الله تعالى ولا يقصد التشهير بأستاذه .

ونقد الشافعى كذلك آراء لأبى حنيفةو الأوزاعى،وناله بسبب نقده هذا متاعب ومشاق .

ويقول فخر الدين الرازى فى فضل الشافعى وما قام به من الجمع بين الخضوع للحديث واستخدام الرأى :

(الناس كانوا قبل زمان الشافعى فريقين : أصحاب الحديث وأصحاب الرأى ، أما أصحاب الحديث فكانوا حافظين لأخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلاَّ أنهم كانوا عاجزين عن النظر والجدل ، وكلما أورد عليهم أحد من أصحاب الرأى سؤالا أو أشكالا ، سقط فى أيديهم عاجزين متحيرين .

وأما أصحاب الرأى فكانوا أصحاب النظر والجدل ، إلاَّ انهم كانوا عاجزين عن الآثار والسنن .

وأما الشافعي رضى الله عنه فكان عارفا بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، محيطا بقوانينها ، وكان عارفا بآداب النظر والجدل ، قويا فيه ، وكان فصيح الكلام ، قادرا على قهر الخصوم بالحجة الظاهرة ، وآخذا فى نصرة أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وكل من أورد عليه سؤالا أو أشكالا أجاب عنه بأجوبة شافية كافية ، فانقطع بسببه استيلاء أهل الرأى على أصحاب الحديث) .

كان الشافعي يتحرى الدقة فيا يرويه الرواة منسويا إلىالرسول صلى الله عليه وسلم ، كان يشترط فيمن يروى الحديث أن يكون صادقا اشتهر بصدقه وورعه وتدينه ، يفهم مايرويه وحافظا له وأن يكون قد سمع الحديث مباشرة ممن يروى عنه .

اعتبر الشافعي الاجماع حجة بعد القرآن الكريم وذلك بعد أن وضع له قيودا وشروطا تبعد عنهالفوضى، وكان يكره الابتداع فى الدين ويرى أنه لا يجوز لإنسان أن يقول فى الشريعة برأيه إلا إذا كان أساس هذا الرأى القياس ، وهو الحاق أمر غيرمنصوص على حكمه بأمر منصوص على حكمه ، لاشتراكهما فى علة الحكم .

ويقول الرازى فى فقه الشافعي (اعلم أن نسبة الشافعي إلى علم الأصول كنسبة ارسطو إلى علم المنطق وكنسبة الخليل بن أحمد إلى علم العروض) .

ألف الشافعي كثيراً من الكتب ومنها كتاب (الرسالة) الذى تحدث فيه عن أصول الفقه وقد أجمع الناس على استحسان هذه الرسالة وقال عنها المزنى (أنا أنظر فى الرسالة من خمسين سنة ما أعلم أنى نظرت فيها مرة إلا استفدت منها شيئا لم أكن عرفته) .

ومن كتب الشافعي كتاب (الأم) وهو كتاب جليل ضخم فى فقه الشافعي وبعض الباحثين ينسبه إلى تلميذه أبي يعقوب البويطى. وقد روى الامام الشافعي فى كتابه (الأم) كثيرا من الأحاديث فى فضل قريش ويرى أى الخلافة تكون بالبيعة ، إلا إذا دعت الضرورة ، فإنها تقوم بغير بيعة ، فلو غلب أحد بالقوة وأجمع عليه الناس جازت امامته .

وكان الشافعي لا يخوض فى الخلاف الذى وقع بين على ومعاوية وكان يستحسن قول خامس الراشدين عمر بن العزيز عندما سألوه عن أهل صفين : (هذه دماء طهَّر الله منها يدى ، فلا أحب أن أخضّب منها لسانى) .

وكان الشافعي يقدم أبا بكر رضى الله عنه على غيره ، ومع ذلك يحب آل بيت رسول الله عليه الصلاة والسلام ويشيد بعلى بن أبى طا'ب رضى الله عنه وفى ذلك يقول :

إن كان فرضا حب آل محمد   فليشهد الثقلان أنى رافضى

ويقال انه بايع امام العلويين الخارجين على العباسيين وقد قال فى الإمام على :

(كان فيه أربع خصال ، لاتكون خصلة واحدة منها للإنسان الا يحق له ألا يبالى بأحد : إنه كان زاهدا ، والزاهد لا يبالى بالدنيا أو أهلها ، وكان عالما ، والعالم لا يبالى بأحد ، وكان شجاعا ، والشجاع لا يبالى بأحد ، وكان شريفا ، والشريف لا يبالى بأحد) .

تعرض الشافعى فى حياته لأمراض كثيرة منها (البواسير) الذى كان سببا لنزف الدم منه فى كثير من الأحيان وعرضه هذا المرض ذات مرة لنزيف شديد قضى عليه .

وقد توفى الشافعى بمصر ليلة الخميس بعد المغرب فى آخر ليلة من شهر رجب سنة أربع ومئتين وعمره أربعة وخمسون عاما وكانت وفاته عند عبد الله بن الحكم ، واليه أوصى ودفن فى يوم الجمعة التالى ليوم وفاته ، ودفنه بنو عبد الحكم فى مقابرهم بالقرافة الصغرى وبنوا على قبره قبة جددها صلاح الدين وبنى بجوارها المدرسة الصلاحية عام ٥٧٥ هـ (١١٧٩ ميلادية) وكانت معقلا لنشر مذهب الشافعى . وقبة الشافعى قبة عظيمة ، تفنن المهندس فى زخرفتها وتوالى عليها التجديد والإصلاح من الملوك والحاكمين ومكتوب على مصراعيها :

الشافعى امام الناس كلهم   فى العلم والحلم والعلياء والباس

له الامامة فى الدنيا مسلمة   كما الخلافة فى أولاد عباس

أصحابه خير أصحاب ومذهبه   خير المذاهب عند الله والناس

وفوق قبة الشافعى مركب صغير مثبت فى هلال القبة منذ إنشائها وقد عاينها الامام البوصيرى صاحب البردة المتوفى عام ٦٩٥ هـ (١٢٩٥ م) وأنشد فيها :

بقبة قبر الشافعى سفينة   رست فى بناء محكم فوق جلمود

وقد غاض طوفان العلوم بقبره   استوى الفلك من ذاك الضريح على الجودى

وصف القبة

يقول المسعودى ، أن مقبرة الإمام الشافعى قد تميزت بوضع عمود حجرى ضخم عند الرأس وآخر عند قدميه ، وقد نقشت على عمود الرأس النص التالى : هذه مقبرة الإمام محمد بن الادريسى الشافعى المؤمن بالله » .

وفى عام اثنين وسبعين وخمسمائة أمر صلاح الدين الأيوبى ببناء مدرسة بجوار ضريح الامام الشافعى ، تم بناؤها فى رمضان سنة ٥٧٥ هـ وقد تبقى من هذه المدرسة لوحه عليها خمسة سطور موجودة بمتحف الفن الإسلامى بالقاهرة تثبت أن المدرسة إنما بنيت لتدريس المذهب الشافعى والنص كما يلى :

بنيت هذه المدرسة باستدعاء الشيخ الفقيه الإمام . . الزاهد نجم الدين ركن الإسلام قدوة الأنام مفتى الفرق أبو البركات بن الموفق الخبوشانى، أدام الله توفيقه لفقهاء أصحاب الشافعى رضوان الله عليهم الموصوفين بالاصولية الموحدة الأشعرية على الحشوية وغيرهم من المبتدعة وذلك فى شهر رمضان سنة خمس وسبعين وخمسمائة . كما أمر صلاح الدين بعمل تابوت خشبى ، يعتبر آية من آيات زخرفة الأخشاب ، وقد ورد على هذا التابوت تاريخ عمله وهو يقع فى حكم صلاح الدين الأيوبى . . هذا النص موجود فى أعلى التابوت فى الجزء الذى على هيئة الجملون ومؤرخ سنة ٥٧٤ هـ . كما جاء فى النص اسم الصانع وهو عبيد (ابن المعالى) ، ويعلق جاستون[1] فيت على اسم الصانع فيقول : إنه يعتقد أن (أبو المعالى) هذا من حلب ، وعلى ذلك فالتابوت من صناعة حلب ، وذلك اعتمادا على وجود اسم هذا العامل على منبر صنع سنة ٥٦٤ هـ . وأمر صلاح الدين بنقله إلى المسجد الأقصى ببيت المقدس . والاسم الذى ورد على منبر المسجد الأقصى هو (سلمان بن المعالى) أما النص الذى ورد على تابوت الامام الشافعى وبه تاريخ الانشاء واسم (ابن المعالى) فهو كما يلى :

---

(١) G. Wéit : Les Wosques du Caire. P. 295.

عمل هذا الضريح المبارك للإمام الفقيه أبي عبد الله محمد بن ادريس بن العباس ابن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن الهاشم بن المطلب بن عبد مناف رحمه الله صنعه عبيد النجار المعروف بابن معالى ، عمله فى شهور سنة أربع وسبعين وخمسمائة » .

ويقول المقريزى ، إن الملك الكامل دفن ابنه بجوار قبر الإمام الشافعى ، وبنى قبة كبيرة على القبر ، ووصل إليها المياه من بركة الحبش بواسطة قناطر ولذلك أقبل الناس على بناء مقابر موتاهم بجوار الإمام الشافعى ، وعرفت تلك المنطقة المجاورة للإمام الشافعى باسم القرافة الصغرى وعلى ذلك هجرت القرافة الكبرى .

ويضيف المقريزى فيقول ، فى يوم الأحد السابع من جمادى الثانى سنة ٦٠٨ هـ. انتهى الملك الكامل من بناء قبة الإمام الشافعى التى بلغت تكاليفها خمسين ألف دينار .

وقد سجل تاريخ الفراغ من القبة فى أبيات من الشعر منقوشة على مصراعى باب القبة وهى كما يلى :

الشافعى إمام النـــاس كلهم	فى العلم والحلم والعلياء والباس
له الامامة فى الدنيا مسلمـــة	كما الخلافة فى أولاد عبـــاس
أصحابه خير أصحاب ومذهبه	خير المذاهب عند الله والنـــاس

ويذكر ابن اياس أن السلطان قيتباى أمر باجراء إصلاحات بضريح الإمام الشافعى وذلك سنة[1] ٨٨٥ هـ . تحت اشراف شمس الدين ابن الزمن ، رئيس أعماله للشئون المعمارية ، ولكنه لم يشر إلى الاصلاحات التى قام بها . وقد أوضح السخاوى[2] فى ترجمته (لابن الزمن) الأعمال التى أشرف عليها فقال : « وعمر قبة الإمام الشافعى وجدد رخامها وزخرفتها » .

كما أننا نجد تاريخ عمارة قايتباى مثبت بوزرة القبة ونصها : أمر بتجديد هذه القبة المباركة مولانا السلطان الملك الاشرف أبو النصر قايتباى عز نصره . وكان الفراغ من ذلك فى شهر جمادى الآخرة سنة خمس وثمانين وثمانمائة من الهجرة الشريفة النبوية .

---

(١) ابن اياس جـ ٢ ص ١٩٨ .

(٢) الضوء اللامع جـ ٨ ص ٢٦١ .

وهناك كتابة أخرى على الحائط الشمالى الغربى على يمين النافذة على ارتفاع مترين من الأرض تثبت عمارة الغورى للضريح ولكن ابن اياس[1] لم يذكرها ، ولعل السبب فى ذلك يرجع إلى أنها لم تكن ذات شأن يذكر ، ونص الكتابة : أمر بتجديد هذه القبة المباركة السلطان الملك الاشرف قانصوة الغورى عز نصره .

ويقول الجبرتى[2] أن على بك الكبير ، أزال القصدير المغطى لخشب القبة الذى عمله السلطان الكامل ، لأن الخشب تحته كان قد تآكل ووضع بدله خشبا آخر ثم غطى الخشب بصفائح جديدة من القصدير وثبتها فى الخشب بواسطة مسامير كبيرة . ثم أصلح الزخارف الداخلية بطلاءات متعددة الألوان أهمها اللون الذهبى واللازورد . ويضيف الجبرتى فيقول وحول القبة كتب صالح أفندى أبياتا من الشعر من تأليفه أثبتت تاريخ هذه العمارة .

وقد دون تاريخ هذه العمارة على مربع القبة بما نصه : أمر بتجديد هذه القبة المباركة على التخصيص وتشييد أفنان وضعها بفنون النقش والترصيص عزيز مصر وحاكمها من ثبت أحكامه فى أقاليمها ومعالمها المتوكل على الله مولانا القائم فى الرعية بما يحبه ويرضاه على الاسم والقدر والجاه الحاكم بأمر الله أيد الله بالنصر لواءه وخلد عزه وبقاءه وخذل أضداده وأعداءه وبلغه قصده ورجاه إنه الملك اللطيف ببركة صاحب هذا المقام الشريف وذلك فى افتتاح سنة ست وثمانين ومائة وألف من الهجرة أدام الله عزه ونصره .

ويضيف الجبرتى ، عند كلامه عن عبد الرحمن كتخدا ، فيقول انه بلط ردهة غرفة قبة الإمام الشافعى بالرخام الملون الذى ، يدخل إليهابواسطة ممرطويل وعريض ومقفل بواسطة بابين كبيرين وذلك سنة ١١٩٠ هـ .

وهكذا نرى أن قبة الامام الشافعى كانت طوال العصور وما تزال موضع التقدير والتعظيم والاجلال تتوالى عليها يد الاصلاح والترميم .

يعتبر ضريح الامام الشافعى أكبر أضرحة مصر على الاطلاق ، ذلك إذا استبعدنا الاضرحة التى تكون جزءا من المدارس والخانقاوات ، إذ يبلغ مساحتها أكثر من ١٥ مترا مربعا من الداخل و ٢٠٫٥ مترا من الخارج ومعنى ذلك أن سمك الحوائط يبلغ ٢٫٧٥ من المتر مما يثبت متانة البناء ويؤهله لتحمل قبة من الحجر أو الآجر ، ولذلك فإن إقامة قبة من الخشب كان وما يزال موضع الدهشة .

---

(١) ابن اياس جـ ٢ ص ٣٠١ .

(٢) الجبرتى جـ ١ ص ٣٨٢ .

ويتكون الضريح من الخارج من طابقين الاول ويبلغ ارتفاعه (١٠ر٦٢) من المتر ، هذا بالإضافة إلى شرافة يبلغ ارتفاعها (١ر٠٨) من المتر . والطابق الثانى يبلغ ارتفاعه (٦ر١٦) من المتر بما فى ذلك الشرافات وعلى ذلك يبلغ ارتفاع الجدار كله (١٦ر٧٨) مترا من سطح الارض .

ونلاحظ أن الجدران الأربعة الخارجية ترتفع إلى (٦ر٣٠) من المتر دون أن يتخللها أى زخرفة ثم تـأتى زخرفة قالبيـة على شـكـل (Torus) وذلك على المدمـاك الخامس عشر . وبعد ذلك بقليل نجد أركان المبنى بها شطف به مقرنصات تشبه تلك الموجودة بالجامع الأقمر ولكنها أقل منها جمالا ، وبعد تلك المقرنصات ترتد الاركان إلى أصلها وتصبح ذات زوايا . وفوق الزخرفة القالبية مباشرة وفى منتصف كل حائط توجد نافذة ذات عقد مدبب يحيط بها إطار مستطيل ، وعلى جانبى كل نافذة حنيتان على اليمين وأخريان عن اليسار . وينتهى هذا الطابق بشرافة مكونة من شريطين بهما زخارف هندسية ، الشريط الضيق زخارفه بسيطة أما الشريط الثانى فعريض وزخارفه هندسية معقدة ومخرمة ويتخللها خمس دعائم من الآجر موضوعة على مسافات غير متساوية . ويبدو أن هذه الأشرطة المزخرفة أضيفت فيما بعد ، وإن كنّا قد عثرنا على جزء من شريط قديم لم يمس ، يقع فى نهاية الجانب الشمالى الشرقى ، وهو يشبه إلى حد كبير الزخارف التى تعلو المحاريب الفاطمية مثل محراب جامع أخوة يوسف ومحراب السيدة عاتكة والسيدة رقية .

وعلى الجانبين الجنوبى الشرقى ، والجنوبى الغربى ، فقدت الزخارف تماما من الأشرطة ومن الدعائم ، أما الجانبان الآخران فقد احتفظا بزخارفهما ، كما أعيد ترميم الاجزاء التالفة بعناية . ويبدو أن الدعائم تحتوى على زخارف متعددة منها ما يتكون من زخارف نباتية بحتة ، ومنها ما يتخلل زخارفها النباتية زخارف كتابية وأخرى زخارفها هندسية بحتة . وقد أصلح كثير من هذه الدعائم ولم يبق على حاله الأصلى الا الدعامة التى فى الركن الشمالى الشرقى وتتكون زخارفها من ثلاث نجوم كل منها تحتوى على ثمانية رءوس .

يدخل الطابق الثانى عن الطابق الأول بحيث يسمح بوجود ممر عرضه (٧٦) سم خلف الشرفة مباشرة . أما من الداخل فإن هذا الطابق يسير فى خط مستقيم ومن الخارج يستدق

بحيث يصبح سمك الحائط (٧٠ر١) من المتر . وهناك قطع واضح فى أركان الطابق الخارجية وفى وسط الضلع المقطوع يوجد باب يصعد إليه بقليتين كل منهما ذات أربع درجات . وبداخل الباب يوجد درج مكون من(١٥) درجة توصل إلى سطح بداية القبة، وقد زخرفت الواجهات الأربع للطابق الثانى بحنيات يعلوها عقد منكسر ضلع على جانبيه أعمدة ملتصقة صغيرة تشبه تلك الموجودة فى جامع الصالح طلائع وفى الجامع الازهر . ويتخلل الحنيات دوائر ومعينات مزخرفة ومربعة ، ويعلو هذه الحنيات شريط به زخارف هندسية بسيطة تشبه التى تكون شرفة الطابق الأول ويعلو الشريط شرفات مسننة (Cresting) يبلغ ارتفاعها ٦٠ر١ من المتر .

ويمكن معرفة المواد الخام بسهولة من الجانب الجنوبى الشرق ، فالجزء الاسفل من حوائط الضريح مبنى بقطع حجرية متساوية الأحجام يبلغ ارتفاع كل أربعة مداميك منها (٨٠ر١) من المتر وقد نحت فى الاحجار خروم لكى تملأ بطبقة المونة الخارجية . وفوق الزخارف القالبية بالطابق الأول يوجد ثلاثة مداميك يظهر بعدها رءوس عروق خشبية تحيط بالحائط كله ما عدا الاجزاء التى بها النوافذ والحنيات . وبعد ذلك نجد عروقا خشبية فى وضع رأسى تبدأ من بداية عقود النوافذ والحنيات حتى بداية الطابق الثانى . وبعد ذلك استعمل الآجر فى البناء .

يبلغ اتساع المدخل الرئيسى للضريح ٥٨ر١من المترو يوجد بالقرب من الركن الجنوبى من الضلع الشمالى الشرق ، ولما كان سمك الحائط يبلغ عرضه ٧٦ر٢ من المتر فقد أحدث هذا السمك ما يشبه الردهة ، لها بابان فى كل طرف من أطرافها . وقد كسيت عتبة الباب وكذا الردهة بالرخام الأبيض ولكن العتب من الخشب . والباب الخارجى مصفح بالفضة ويبدو من زخارفه أنه حديث نسبيا ، أما البابان الآخران فتتكون كل منهما من ضلفتين عرضها ٩٣ سم وارتفاعها ١٧ر٣ سم وسمكها ٩ سم يزخرف الوجه الداخلى لكل منها حشوة واحدة مستطيلة يحيط بها من أعلى وأسفل حشوة صغيرة وبهذه الحشوات زخارف نباتية وهندسية والحشوات الصغيرة تحتوى على كتابات بالخط النسخ الأيوبى عليها اسم الامام الشافعى وينتهى النص الكتابى بتاريخ جمادى الأولى سنة ٦٠٨ هـ - سنة ١٢١١ م . وتشبه هذه الابواب ، أبواب الامام الليث على بعد ٥٠٠ متر من الامام الشافعى، التى ثبتت

أنها أخذت من ضريح الامام الشافعى ، إذ عثرنا على اسم الشافعى منحوتا عليها إلا أن تاريخها يجئ بعد تاريخ أبواب الامام الشافعى بثلاثة أيام . ومن المرجح أن هذا الباب كان موجوداً محل الباب المصفح بالفضة الخارجى ، وهناك باب رابع من أبواب الامام الشافعى فى متحف الآثار الاسلامية وجهه الخارجى مصفح بالبرنز ويشبه إلى حد كبير باب جامع الصالح طلائع ويقول (فان برسم) ، وأن الجزء العلوى من الباب قد قطع ولكن الحقيقة أنه كامل وقد بلطت الردهة بفسيفساء خزفية على شكل النجمة بحيث تشبه (الزليج) الموجود بقصر الحمراء . ولعل هذا الخزف هو الذى ذكره الجبرتى على أنه من عمل عبد الرحمن كتخدا ، وقال الجبرتى أنه وجد فى مصر فى القرن (١٨) مصانع للخزف على الأسلوب المراكشى وإن كان المرجح أنها مستوردة من مراكش أو أسبانيا وسقف الردهة محفور ومطلى بالدهانات .

يضىء الجزء الأسفل من الضريح نافذتان أحدهما فى الضلع الشمالى فى وسطه تقريبا مقابلة لحائط القبلة ويبلغ اتساعها متران وارتفاعها ٥٩ر٢ من المتر وسقفها مغطى بخشب محقق مكون من عشرين حقا وهو أقدم مثل فى مصر لتغطية السقوف ، ثم تبعه الآثار الآتيـة :

(١) الإمام الشافعى	٦٠٨ هـ (١٢١١ م)
(٢) مدرسة الصالح نجم الدين أيوب	٦٣٩ هـ (١٢٤٢ م)
(٣) ضريح المنصور قلاوون	٦٨٣ هـ (١٢٨٤ م)
(٤) جامع الناصر محمد بن قلاوون	٧٣٥ هـ (١٣٣٥ م)
(٥) قصر بشتاك	٧٣٨ هـ (١٣٣٨ م)
(٦) قصر الأمير طاز	٧٥٣ هـ (١٣٥٢ م)
(٧) مدرسة السلطان فرح	٨١١ هـ (١٤٠٨ م)

والنافذة مملوءة بحديد مخرم ويعلوها عتب خشبى من النخيل ومغطى من الخارج بلوح خشبى عليه كتابة زال الكثير من معالمها ، وإن كان يمكن قراءة اسم السلطان الكامل وكذا التاريخ ٧ جمادى الأولى سنة ٦٠٨هـ يعلو عقد عاتق مكون من صفين من الصنجات Voussoires الخارج منها مكون من كتل صغيرة فى وضع مسطح . ويرجح كزويل أن هذه النافذة

كانت هى المدخل الرئيسى إلى الضريح فى عهد الملك الكامل . أما النافذة الثانية فتقع فى الضلع الشمالى الشرقى ويعتقد كزويل أنها كانت تستعمل فى الأصل كمنزل للمقابر الموجودة بالضريح وفى حائط القبلة يوجد ثلاثة محاريب غير بارزة من الخارج وذلك لكبر سمك الحائط . أما جدران الضريه ح ن الداخل فقد قسمت إلى شرائط عدة ملئت كلها بالزخارف تبدأ ببلاطات من الرخام المتعدد الألوان بارتفاع ٢ر٧٠ من المتر يعلوه افريز خشبى عرضه ٤٥ سم ويتخلل الافريز تجويف المحاريب ويبدو من زخارفه أنه يرجع إلى البناء الأصلى فى عهد الكامل . ويعلو الافريز الخشبى شريط به زخارف مرسومة بالطلاء عرضه ٦٠ سم عليه أبيات من الشعر باللون الذهبى على أرضية سوداء محصورة فى بحور ، يرجع إلى عهد على بك الكبير . وتبدأ عقود المحاريب من نهاية هذا الشريط . ويعلو هذا الشريط شريط آخر عريض ينتهى بانتهاء قمة عقد المحراب الكبير . ثم يأتى بعد ذلك شريط ضيق ثم افريز خشبى آخر مزخرف بكتابات كوفية باللون الذهبى على أرضية حمراء يرجع إلى سنة ١١٨٦ هـ – سنة ١٧٧٢ م .

ويحيط بالضريح من الداخل مثمن من افريز خشبى حفرت عليه كتابات بالخط الكوفى لكى يعلق به المصابيح ، كما يوجد فى كل ركن من أركان الضريح افريزان من الخشب . الكبير منها حفرت فيه زخارف كتابية ترجع إلى عهد الكامل ، أما الصغير فخلو من الزخارف .

وفى الجزء العلوى من كل حائط نجد خمس نوافذ على صفين ثلاث فى الصف الأول واثنتان فى الصف الثانى . والخمس فى إطار مستطيل ينتهى بعقد منكسر (Keel) وقد كانت هذه النوافذ مملوءة بجص مفرغ ، حلت محلها الآن جص يرجع إلى (١٨٩٦ م) وقد عثر على جزء من الجص القديم نقل إلى متحف الفن الإسلامى .

المحاريب : الأوسط منها أوسعها إذ يبلغ اتساعه ١ر٤٦ من المتر وعمقه ١ر٥٥ من المتر ، اما الجانبيان فأصغر فى العرض والارتفاع .

المقرنصات ، وهى من الخشب ومكونة من ثلاثة صفوف من الحنيات الأول مكون من خمس والثانى من سبع والثالث من ثلاث ، والأخير عقود عقوده ذات زوايا منكسرة ولا نجد لهذه الحنيات من مثيل فى آثار القاهرة غير جامع القاضى يحيى بالحبانية الذى يرجع إلى سنة ٨٥٣ هـ ، وعلى ذلك فإنه من المستبعد أن تكون الحنيات من عمل السلطان الكامل ولكن من المرجح أن تكون من عمل قايتباى سنة ٨٨٥هـ–١٤٨٠ م .

تتكون القبة من ألواح خشبية مثبتة على أربعة أربطة على ارتفاعات مختلفة ، تقسم القبة إلى خمس مناطق ، يبلغ عدد الألواح فى المنطقة الأولى والثانية ٩٦ لوحا و فى الثالث والرابع ٤٨ لوحا وفى الخامس ٢٤ لوحا ، وهذه الألواح تستدق فى المناطق العليا . والقبة مغطاة بصفائح من القصدير . وبالقبة ١٦ نافذة للتهوية ويعلو القبة مركب طولها متران من نصف مادة خشب القبة .

ولعلنا نستطيع أن نخرج من التحليل السابق إلى النتائج الآتية :

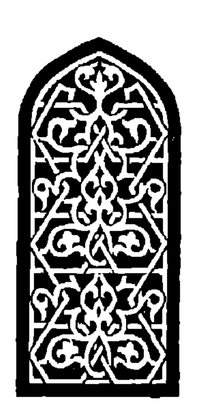
١ ـ أن الأساس وضعه الملك الكامل سنة ٦٠٨ هـ (١٢١١ م) الحوائط الخارجية ، الأبواب الداخلية ، الأفاريز الخشبية فى الداخل ذات الزخارف الكتابية .

٢ ـ اصلاحات قايتباى سنة ٨٨٥ هـ (١٤٨٠ م) الرخام الذى يكسو أسفل الجدران من الداخل إلى ارتفاع ٢٫٧٠ والمقرنصات الخشبية فى الأركان والقبة المقامة عليها .

٣ ـ إصلاحات على بك الكبير كل الطلاءات الداخلية تقريبا والأشرطة الكتابية المدهونة كذلك سنة ١١٨٦ هـ (١٧٧٢ م) .

٤ ـ أما عبد الرحمن كتخدا سنة ١١٩٠ هـ (١٧٧٦ م) فقد بلط أرضية ردهة المدخل ببلاطات من الزليج الأسبانى .

يوجد بالضريح أربع مقابر ، الأولى مقبرة الإمام الشافعى عليها التابوت الخشبى الذى أمر بعمله صلاح الدين ويحيط به مقصورة ترجع إلى القرن العشرين . التابوت الثانى لأم السلطان الكامل وهو من الخشب ويشبه إلى حد كبير تابوت الإمام الشافعى ويرجع إلى نفس تاريخ إنشاء الضريح (سنة ٦٠٨ هـ ـ ١٢١١ م) (٣) أما التابوتان الآخران فخلو من الزخارف والكتابات أحدهما للسلطان الكامل حوله مقصورة مطعمة بالصدف والثانى بجانب القبة وهو للسيد محمد ابن عبد الحكم .



ضريح الحافظ السلفى

بمسجد القاضى سند بن عثمان بالاسكندرية

هو الحافظ صدر الدين أبو الطاهر أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم سلفة الأصفهانى . وسلفة كلمة فارسية مكونة من مقطعين (سه) بمعنى ثلاثة (لفة) بمعنى شفاه أى ثلاث شفاه ، لأن شفته الواحدة كانت مشقوقة فصارت مثل شفتين ، غير الأخرى الأصلية . ولد فى مدينة أصفهان على الراجح سنة ٤٧٥ هـ ، فقد ذكر السبكى[1]، أن السلفى حكى عن نفسه أنه حدث سنة ٤٩٢ وهو ابن سبع عشرة سنة أو نحوها ، وقال الحافظ ابن عبد الغنى أنه سمع السلفى يقول : « أنا أذكر قتل نظام الملك سنة ٤٨٥ هـ وكان عمرى نحو عشر سنين » .

تلقى السلفى علومه الأولى فى مدينة أصفهان واتجه منذ اللحظة الأولى إلى علم الحديث فسمع من كبار العلماء بأصفهان مثل القاسم بن الفضل الثقفى وعبد الرحمن بن محمد بن عبد الوهاب المدينى ، والفضل بن على الحنفى ، ومى بن منصور بن علان الكرخى وغيرهم ، وقد بدأ السماع وهو فى نحو الثالثة عشرة من عمره[2] . فقد ذكر السبكى فى طبقاته ، أن أول سماع السلفى سنة ٤٨٨ هـ ، وفى موضع آخر قال ، وقد طلب الحديث وكتب الأجزاء وقرأ بالروايات سنة ٤٩٠ هـ ، وبعد أربع سنوات من طلبه الحديث بدأ يحدث ، واتخذ له مجلسا فى مساجد أصفهان .

---

(١) طبقات الشافعية ص ١٩٥ .

(٢) الشيال : أعلام الاسكندرية ص ١٣٣ .

وغادر السلفى مسقط رأسه أصفهان وارتحل إلى بغداد طلبا للعلم على علمائها وفقهاء أهل العصر ، ويصف السلفى رحلته هذه فيقول : دخلتها (أى بغداد) فى رابع شهر شوال فلم يكن لى همة ساعة دخولها إلا المضى إلى الشيخ نصر بن البطر ، فدخلت عليه وكان شيخا عسرا فقلت ، وصلت من أصفهان إليك ، فقال : اقرأ ، جعل الراء غينا ، فقرأت عليه وأنا متكئ لأجل دمامل بى ، فقال : « ابصر ذا الكلب ، فاعتذرت عليه بالدمامل وبكيت من كلامه ، وقرأت سبعة عشر حديثا وخرجت . ثم قرأت عليه نحوا من خمسة وعشرين جزءا » .

ولم يكن ابن البطر أستاذ السلفى الوحيد فى بغداد ، بل تتلمذ على معظم علمائها فى ذلك الوقت فدرس الفقه الشافعى ، فقد كان شافعى المذهب ، على الكيا أبى الحسن على الهراس ودرس اللغة على الخطيب أبى زكريا يحيى بن على التبريزى اللغوى ، وسمع الحديث ورواه عن أبى بكر الطرابيثى وأبى عبد الله بن البسرى ، وثابت بن بندار ، وأبى محمد ابن السراج وغيرهم من الأئمة الأفاضل .

وبعد أن قضى السلفى قرابة أربع سنوات ببغداد ارتحل إلى الحجاز ليؤدى فريضة الحج وهناك التقى بعلماء الحديث مثل الحسين بن على الطبرى بمكة وأبى الفرج القزوينى بالمدينة . ثم عاد إلى بغداد حوالى سنة ٥٠٠ هـ . فلما استوفى دراسته بها ألف معجما ثانيا لعلمائه وأساتذته بها ثم غادرها إلى المشرق ثانية حيث زار معظم مدنه الكبرى والتقى بعلمائها . وقد وصفه الحافظ بن نصر وهو فى بغداد فقال : « كان السلفى ببغداد كأنه شعلة نار فى تحصيل الحديث » .

ولما ارتحل السلفى إلى المشرق ثانية بدأ بزيارة مدينة همذان فالتقى ، بحجة الإسلام كما يقول السلفى ، الشيخ أبى حامد الغَزالى . كذلك التقى هناك بالشيخ أحمد الغزالى وفى ذلك يقول السلفى ، حضرت مجلس وعظه (أى الغزالى) بهمذان ، وكنا فى رباط واحد وبيننا ألفة وتودد ، وكان أذكى خلق الله ، وأقدرهم على الكلام ، فاضلا فى الفقه وغيره .

واستمر السلفى فى المشرق تسع سنوات حتى سنة ٥٠٩ هـ زار خلالها الرى ودينور وقزوين ونهاوند وطاف باذربيجان ، وفى ذلك قال ابن نقطة : كان السلفى حافظا ثقة جوالا فى

الآفاق ، سألا عن أحوال الرجال شجاعا . كما قال فى نفس المعنى ابن تغرى بردى : وكان طاف الدنيا ولقى المشايخ ، وكان يمشى حافيا لطلب العلم والحديث » .

وترك المشرق للمرة الثانية وذهب إلى دمشق ، فسمع ممن لا يحصى ، كما يقول الحافظ بن عساكر معاصره ، وحدث بدمشق فسمع منه أصحابنا ، ولم أظفر بالسماع منه . ولكنه لم يستمر طويلا بدمشق فقد تركها بعد عامين لوجود الصليبيين بها ، فقد ذكر السبكى مدة بقائه بدمشق فقال : وقدم « دمشق سنة ٥٠٩ هـ بعلم جم ، فأقام بها عامين وسمع منه الكثيرون » . ومن دمشق ذهب إلى مدينة صور حيث ركب سفينة سنة ٥١١ هـ حملته إلى ثغر الاسكندرية .

وصل شيخنا السلفى مدينة الاسكندرية وهو فى السادسة والثلاثين من عمره ، وكان كما وصفه ابن السمعانى ، ثقة ورع ، متقن مثبت ، حافظ فهم ، له حظ من العربية ، كثير الحديث ، حسن الفهم والبصيرة فيه . وكان السلفى قد وطد العزم على أن يتخذ من الإسكندرية دار قرار ، ولذلك نجده قد تزوج إحدى نسائها ، فقد ذكر ذلك السبكى فقال : « واستوطن الإسكندرية وتزوج امرأة بها ذات يسار ، وحصلت له ثروة بعد فقر ، وتصدق وصارت له بالإسكندرية وجاهة » .

وقد تحدث الشيخ السلفى عن زوجته (ست الأهل) وأمها (ترفه) فى كتابه (معجم السفر) فقال : (ترفه) هذه من بيت علم ، وهى فى نفسها كانت دينة كثيرة المعروف وتسمى أيضا عائشة وتدعى (ترفه) ، رحمها الله ، قرأنا عيها سنة ٥٣٤ هـ ، وتوفيت بعدها بمدة قريبة رحمة الله عليها . وكانت امرأة الشيخ أبى عبد الله محمد بن موسى الخولانى ، الذى تزوجت أنا بعد موته بابنته (ست الأهل) المرأة الصالحة الدينة رحمها الله ورحمنا إذا صرنا إلى ما صارت إليه » .

واشتغل السلفى منذ نزوله بالإسكندرية بالتدريس[1] ، والحديث بصفة خاصة ، وكان يعقد حلقاته فى أول الأمر فى مساجد المدينة ، ولم يلبث أن أقبل الطلبة عليه من كل فج

(١) الشيال : أعلام الاسكندرية ص ١٣٧ .

عميق . وفى سنة ٥٤٠ هـ ولى حكم الإسكندرية أبى الحسن على بن سلار ، وكان سنيا شافعى المذهب ، لهذا قرب إليه الشيخ السلفى وأكرمه وأنشأ له سنة ٥٤٤ هـ مدرسة خاصة عرفت بالمدرسة السلفية نسبة إليه كما عرفت بالمدرسة العادلية ، فهى بذلك ثانى مدرسة بالإسكندرية ومصر عامة بعد المدرسة الحافظية . وكان لإنشاء هذه المدرسة رنة فرح وسرور عبر عنها الشاعر السكندرى أبو محمد عبد الوهاب بن إسماعيل بن توهيب ، الذى مدح السلفى بأكثر من خمسين قصيدة ، جاء فيها :

لله در العــادل المرتجــى	ذى العز والتأييــد والنصــر
أنشــأها لنــا مدرســة مثلها	لم ينش فى دهــر ولا عصــر
بغـداد دار العلم لم تفخـر	بمثـلها قــط عــلى مصــر
فأرضها كالمسك جلت عن	البســـط تفــرش والحصــر
وما تولاهــا ســوى الحافظ	المعصــوم من عى ومن حصــر
خــير فقيـــه فى الــورى	عالم تبصــره كالحسن البصرى

وكان السلفى هو أستاذ المدرسة ويعاونه عدد من المعيدين ، خص السلفى منهم بالذكر فى كتابه (معجم السفر) أبو المعالى رافع بن يوسف بن زيدون القيسى . فقد كان يعيد الدرس على أربعين من الصبيان ويؤم الناس فى المدرسة فى الصلوات الخمس ، وبقى على ذلك مدة سبع سنوات إلى أن توفى وفى ذلك يقول السلفى ، وقد لازمنى وصفه السلفى فقال : كان أبو القاسم نجا بن على بن الحسن الرملى المؤذن بالإسكندرية شيخ صالح ، كبير السن ، شديد الصمم ، كان يؤذن فى دار الفقيه الطرطوشى ، ثم كان يؤذن عندى وكان جهورى الصوت .

وبقى السلفى بمدينة الإسكندرية معتكفا بمدرسته مدة مقامه بها وهى أربع وستون عاما وفى ذلك يقول الحافظ أبى نصر : وبلغنى أنه مدة مقامه بالإسكندرية ، وهى أربع وستون سنة ما خرج إلى بستان ولا فرجة غير مرة واحدة ، بل كان عامة دهره ملازما مدرسته ، وما كنا نكاد ندخل عليه إلا نراه مطالعا فى شئ» . والمرة الواحدة التى ذكرها الحافظ أبى

نصر التى غادر فيها السلفى مدرسته حين ذهب إلى الفسطاط ليتصل بمن فيها من العلماء ويأخذ عنهم وكان ذلك سنة ٥١٥ هـ ومكث بها ثلاث سنوات إلى أواخر سنة ٥١٧ هـ ، فسمع من أبى صادق المدينى والموجودين بها ثم عاد إلى الإسكندرية .

وكان السلفى من العلماء والفقهاء والقليلين الذين قدروا المرأة العالمة الورعة التقية حق قدرها فقد ترجم فى كتابه (معجم السفر) لعدد من نساء الإسكندرية المشتغلات بالعلم والأدب ممن أخذ هو عنهن أو ممن أخذن عنه ، وفى مقدمتهن أم زوجته وهى عائشة أو (ترفه) فقد قال عنها «عائشة هذه محدثة ، وابنة محدث ، وأخت محدث ، وكانت صالحة قرأنا عليها سنة ٥٣٤ هـ . أما أختها الأخرى وكانت محدثة أيضا ، فاسمها خديجة وكانت تدعى بمليحة ، ومن شيوخها ابن عبد الولى وابن الدليل وأبوها ولها من أبى الوليد محمد إجازة ، وقد قرأنا عليها عن هؤلاء كلهم ، توفيت سنة ٥٢٦ هـ وهى بكر لم تتزوج قط . وأوصت أن أصلى عليها ، رحمة الله عليها وكانت فى حياتها تصلى طول الليل ولا تنام إلا عن غلبة » .

كذلك التقى السلفى بسيدة مصرية اسمها خضرة بنت المبشر بن فاتك الدمشقى وأخذ عنها ذكرها فى كتابه فقال : وقرأنا نحن عليها عن أبى الحسن بن الطفال النيسابورى ، وأبى طاهر بن سعدون ، وأبى الفيض ذى النون بن أحمد العطار المصرى وغيرهم» . ومن الشاعرات ذكر تقية بنت غيث بن على الارمنازى الصورى وكانت تدعى ست النغم فقال : «ولها شعر جيد ومعان حسنة ، وقد مدحتنى بقصائد ، ولم أر قط شاعرة سواها» .

وكانت للسلفى فى المجتمع السكندرى مكانة ممتازة ملحوظة فكان يسعى إليه الملوك والأمراء وكبار رجال الدولة ، وكان هو فى اتصاله بهؤلاء الرجال الرسميين شديد الحرص، فهم فى معظمهم شيعة والدولة شيعية إسماعيلية وهو سنى شافعى ، ولهذا كان يغض[1] عن مذهبهم ، ويقنع بصلات الود والصداقة ويبعد ما استطاع من المناقشات الدينية والمذهبية. وإذا أحرج فى مناقشة من هذا النوع فإنه كان يتخلص بذكاء ولباقة . ويحدثنا السلفى عن مناقشة من هذه المناقشات التى دارت بينه وبين الأمير همام بن سوار اللخمى ، أخى الوزير

---

(١) الشيال : أعلام الاسكندرية ص ١٥٦ .

ضرغام فى أواخر العصر الفاطمى قال : «قال لى يوما الأمير همام بمحضر من الأمراء ما الخلفاء عندى سوى العلماء» فقلت «ما أبعد الأمير وفقه الله ، فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : «اللهم ارحم خلفائى ، قالوا : يا رسول الله ومن خلفاؤك ؟ قال : قوم يأتون من بعدى يروون أحاديثى وسنتى ويعلمونها الناس » ، ولكن النبى عليه السلام لما توفى ورث العلم والسيف فالعلم للعلماء يقولون ما أمر به الشارع ، والسيف للأمراء وجيوش الإسلام يأتمرون ذلك . لكن بين من يقول أفعل ، وبين من فعل بعيد وفرق ظاهر ، ونحن الآن وأنتم وإن اختلفنا فى الزى فوارثان لارث النبوة وكجسم واحد» .

ويعقب السلفى على هذا الحديث فيقول : فاستحسنوا واثنوا بخير ، وأرضيتهم بهذا الفصل خوفا من التشعيث . وفى هذا المعنى أيضا يقول السبكى ، وكان له عند ملوك مصر الجاه والكلمة النافذة ، مع مخالفته لهم فى المذهب وكان لا تبدو منه جفوة لأحد .

وقد امتد عمر شيخنا الحافظ السلفى وأشرف على المائة ، فشهد زوال الدولة الفاطمية فعاصر خلفاؤها الأواخر ، فقد وصل الاسكندرية فى عهد الخليفة الآمر ، ثم جاء بعده الحافظ والظافر والفائز وانتهت فى عهد العاضد وقامت الدولة الأيوبية .

وكان السلفى آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر ، أزال من جواره منكرا كثيرا ، كما يقول الحافظ عبد القادر ، ثم ضرب مثلا لبعض المنكر الذى أزاله فقال : «جاء جماعة من المقرئين بالألحان ، فأرادوا أن يقرأوا ، فمنعهم من ذلك وقال «هذه بدعة ، بل اقرأوا ترتيلا ، فقرأ كما أمرهم ، وكان لشعب الاسكندرية من العامة والخاصة فيه اعتقاد واحترام ومحبة ، فقد تاب على يديه عدد كبير منهم ، فقد قال : «وكان يجلب إلىّ واحدا بعد واحد فيتوبون عن الشرب وغيره» .

أما عن الاعتقاد فى بركاته فيقال إنه كان إذا اشتد ألم الوضع بامرأة من أهل الإسكندرية جاء أهلها إليه فيكتب لهم ورقة تعلق عندها فتتخلص بإذن الله . وقد كشف القوم مرة عن ورقة من هذه الورقات فوجدوه قد كتب فيها دعاء لطيفا قال فيه : «اللهم إنهم ظنوا بى خيرا فلا تخيبنا ولا تكذب ظنهم» . ويعلق الشيال[1] على هذا الاعتقاد فيقول :

(١) أعلام الاسكندرية ص ١٥٧ .

«كان السلفى يرى أن هذه الورقة تطمئن من نفوس العامة وتؤثر فى الوالدة تأثيرا نفيسا خاصا ، لهذا لم يكن يحجم عن كتابتها» .

ولم يشغل السلفى تدريسه بمدرسته عن التأليف فقد صنف العديد من الكتب معظمها فى علم الحديث[1] ومايتصل به من تراجم المحدثين مثل كتاب «السداسيات فى الحديث» وأجزاء السلفيات » وكتاب «الأربعين البلدانية » . كما ألف السلفى ثلاثة معاجم لشيوخه الذين أخذ عنهم ، المعجم الأول عن شيوخه فى أصفهان والثانى لشيوخ بغداد والثالث وهو «معجم السفر» خصصه لعلماء الإسكندرية وغيرهم من المصريين .

ومما يلفت النظر حقا أن نجد عالما ورعا تقيا من أبناء القرن السادس الهجرى عنده هذا الشغف على اقتناء الكتب وخاصة النادر منها ما عند شيخنا الحافظ السلفى ، إذ لم يكن يقنع باستنساخ الكتب لنفسه بل كان يتتبع تركات الكتب التى تباع بعد موت أصحابها ، فيشترى منها الكثير ليضمه إلى مكتبته الضخمة وقال السبكى فى هذا المقام ، «وكان معتنيا باقتناء الكتب وخلّف منها ما لم يخلّف غيره بالإسكندرية » .

---

(١) القفطى : أنباء الرواة على أنباء النحاة جـ ٣ ص ٥٧ .

وصف الضريح

وفى صبيحة يوم الجمعة الخامس من شهر ربيع الآخر سنة ٥٧٦ هـ انتقل الشيخ الورع التقى العالم الجهبذ إلى جوار ربه بعد أن جاوز المائة من عمره. ويقول الشيال[1] فى ترجمته وقد ظل حتى آخر لحظة من حياته حافظا لكل قواه العقلية ، حقيقة كانت السنون قد نالت منه ، وكانت أعظمه قد جفت وكانت حركته قد قلت ولكنه كان حاضر الذهن ، وقد قال هو عن نفسه هذين البيتين من الشعر يصف حالته :

أنا إن بان شبابى ومضى ... فلربى الحمد ذهنى حاضر

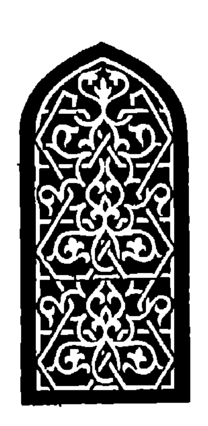
ولئن خفت وجفت أعظمى ... كبرا غصن علومى ناضر

وقد بقى يدرس بمدرسته حتى آخر لحظة من حياته ، فقد قال السبكى «ولم يزل يقرأ عليه الحديث إلى أن غربت الشمس من يوم وفاته وهو يرد على القارئ اللحن الخفى ، وصلى يوم الجمعة الصبح عند انفجار الفجر وتوفى عقيبه فجأة» . ودفن السلفى فى الإسكندرية فى مقبرة وعله قريبا من داره التى كان يسكنها . قال ابن خلكان «وهى مقبرة داخل السور عند الباب الأخضر فيها جماعة من الصالحين كالطرطوشى وغيره» .

ولكن أهل الإسكندرية وكذا وزارة الأوقاف يرجحون أنه مدفون داخل مسجد القاضى سند بن عنان أمام القبلة الموجود فى شارع الباب الأخضر (أو السكة الجديدة بالإسكندرية) .

---

(١) الشيال : أعلام الاسكندرية ص ١٥٨ .



الشيخ أبو الطاهر بن عوف
والمدرسة الحافظية بشارع صلاح سالم بالاسكندرية

نشأت فى شرق العالم الإسلامى فى القرن الرابع الهجرى عمائر دينية عرفت باسم المدارس القصد منها هو نشر وتدريس مذهب مخالف لمذهب الدولة الحاكمة ، واستعملت كلمة المدرسة لكى تستتر وراءه . وقد كانت المدارس الأولى فى المشرق تدرس المذهب الشيعى المخالف لمذهب الدولة العباسية السنية المذهب . ولكن سرعان ما تنبهت الدولة العباسية لخطورة هذه المدارس ، فأنشأت فى القرن الخامس الهجرى مدارس لتدريس المذهب السنى وكانت المدرسة النظامية التى أقامها الوزير (نظام الملك) أول مدرسة أنشئت فى المشرق للمذهب السنى[1] .

وقد حذت مصر حذو المشرق فى إنشاء مدارس لتدريس مذهب مخالف لمذهب الدولة الحاكمة ، فقد أقام الوزير رضوان بن الولخشى المدرسة الحافظية فى عهد الخليفة الحافظ لدين الله الفاطمى لتدريس المذهب السنى المخالف لمذهب الدولة الفاطمية الشيعية المذهب .

ويحدثنا ابن تغرى بردى عن المدرسة الحافظية فيقول ، إن الوزير رضوان بن الولخشى بنى هذه المدرسة بمدينة الإسكندرية سنة ٥٣٢ هـ للفقيه المالكى أبى طاهر بن عوف ، كما

---

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الخلفا ص ١٣٨ .

ذكرها المقريزى[1] فى حوادث سنة ٥٣٢ هـ دون ذكر اسمها فقال : «وفيها بنى الوزير رضوان المدرسة المعروفة فى ثغر الإسكندرية وجعل فى تدريسها الفقيه أبا طاهر بن عوف . وقد عرفت المدرسة الحافظية باسم «المدرسة العوفية[2]» فقد غلبت شهرة مدرسها على شهرة منشئها .

وعلى ذلك فإننا نستطيع القول فى ثقة واطمئنان بأن مدينة الإسكندرية كانت أول مدينة مصرية عرفت نظام المدارس ، وأن أول أستاذ نظامى للمذهب السنى فى مصر هو شيخنا أبو الطاهر بن عوف . ويحدد القلقشندى موقع هذه المدرسة فيقول : « وخرجت أوامره بإنشاء المدرسة الحافظية بهذا الثغر المحروس (الإسكندرية) بشارع المحجة » وقد حقق الدكتور[3] الشيال موقع شارع المحجة اعتمادا على نص للنويرى[4] ذكر فيه شارع المحجة ، بأنه شارع فؤاد (شارع أبى قير الحالى) واعتمادا على ما جاء فى المقريزى ، من ان المدرسة الحافظية أنشئت قريبة من جامع الجيوشى الذى بناه الوزير الأفضل شاهنشاه ابن بدر الجمالى ، نستطيع أن نرجح أنها تقع بحى العطارين فى بداية شارع فؤاد ،وياحبذ لو أجرت محافظة الإسكندرية بعض الكشف فى الدور القديمة خلف جامع العطارين (الجيوشى سابقا) لكى تحقق موقع أثر عزيز عليها بل على مصر كلها .

أما عن الأسباب التى من أجلها أنشأ الوزير رضوان بن الولخشى هذه المدرسة فيحدثنا عنها القلقشندى فيقول : «ولما انتهى إلى أمير المؤمنين ميزة ثغر الإسكندرية ـ حماه الله تعالى ، على غيره من الثغور ، وهو يشتمل على القراء والفقهاء والمرابطين الصلحاء ، وأن طالبى العلم من أهله ومن الواردين إليه أو الطارئين عليه مشتقو الشمل ومتفرقوا الجمع ، أبى أمير المؤمنين أن يكونوا حائرين متلددين ، ولم يرض أن يبقوا مذبذبين متبددين ، وخرجت أوامره بإنشاء المدرسة الحافظية بهذا الثغر المحروس ، منا عليهم وإنعاما ، ومستقرا لهم ومقاما ومثوى لجميعهم ووطنا ومحلا لكافتهم وسكنا» .

---

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الخلفا ص ١٣٨ .

(٢) ابن فرحون : الديباج المذهب ص ٩٦ .

(٣) طبوغرافية الاسكندرية وتطورها ص ٢٣٧ .

(٤) النويرى : الإلمام بالأعلام بما جرت به الأحكام المقضية فى واقعة الأسكندرية .

والحقيقة أن النص الذى أورده القلقشندى عن السبب فى إنشاء المدرسة الحافظية ، غامض يحتاج إلى توضيح ، ذلك أن الخليفة أمير المؤمنين الذى أمر بإنشائها شيعى المذهب فكيف يأمر بإنشاء مدرسة سنية ، وقد أجلى المقريزى[1] فى ترجمته للوزير رضوان بن الولخشى هذا الغموض فقال «وكان رضوان سنيا حسن الاعتقاد ، فأخذ يهين حواشى الخليفة إذا حضروا إليه ، ويقدح فى مذهبه لأنه كان سنيا ، وكان أخوه الأوحد إبراهيم إماميا» .

ولم يكتف الوزير رضوان بإنشاء مدرسة للمذهب السنى مخالفا بذلك مذهب الدولة الرسمى وهو المذهب الشيعى ، بل فكر فى خلع الخليفة الفاطمى الحافظ لدين الله ، ويبدو أن رضوان كان عظيم الثقة بأبى الطاهر بن عوف ، يلجأ إليه فى الملمات ، ويستشيره فى المشكلات الكبرى[2] ، يؤيد هذا ما ذكره المقريزى فى روايته عن النزاع القائم بين الخليفة الحافظ ووزيره رضوان ، إذ يقول « فلما كثر ذلك منه (رضوان) للخليفة فتنافر كل منهما من الآخر ، وكان رضوان خفيفا طائشا لا يثبت ، فهم بخلع الحافظ وقال : ما هو بخليفة ولا إمام ، وإنما هو كفيل لغيره ، وذلك الغير لم يصح» . وأحضر الفقيه أبا الطاهر ابن عوف وابن أبى كامل فقيه الإمامية (مذهب شيعى) وابن سلامة داعى الدعاة ، وفاوضهم فى الخلع واستخلاف شخص عينه لهم ، وألزم كلا منهم أن يقول ما عنده ، فقال ابن عوف : الخلع لا يكون إلا بشروط تثبت شرعا» . وقال ابن أبى كامل «السلطان أبقاه الله ، يحملنى على أن أتكلم على غير مذهبى فى الإمامة» . قال : « لا بل على مذهبك » فقال : «مذهبى معلوم» (ومعنى هذا أن خلافة الحافظ الذى يدين بالمذهب الشيعى الإسماعيلى باطلة) . أما ابن سلامة الداعى فقال : «أنا داعى القوم ومولى لهم ، وما يصح لى خلعه ، فإنى أصير فيما مضى كأنى أدعو لغير مستحق ، فأكون قد كلبت نفسى ، فلا أقبل الآن ، واستخصم بذلك ، ولا يؤثر قولى فيما تريدون ، ولم تجر العادة على الفاطميين بالخلع حتى نتأسى به» فقابله رضوان على هذا القول بالسب ، وأقامه أقبح قيام .

---

(١) اتعاظ الحنفا ص ١٣٧ .

(٢) أعلام الاسكندرية ص ١٢٤ .

أما أستاذنا أبو طاهر بن عوف الذى من أجله أنشئت أول مدرسة سنية فى مصر ، فهو إسماعيل بن مكى بن اسماعيل بن عيسى بن عوف الزهرى ، ينتهى نسبه إلى عبدالرحمن ابن عوف الصحابى الجليل ، ولد بمدينة الاسكندرية سنة ٤٨٥هـ وتوفى بها سنة ٥٨١هـ[1] عن ست وتسعين سنة ودفن بمدرسته . وصفه السيوطى فقال : «إنه صدر الإسلام ، تفقه على أبى بكر الطرطوشى وسمع منه وتخرج به الأصحاب . كما يذكر ابن فرحون ، أن ابن عوف أخذ عن الكثير من الفقهاء المالكية بالاسكندرية وخاصة عن أبى بكر الطرطوشى ، ولا عجب فى ذلك فقد كان ابن عوف ربيب الطرطوشى وزوج خالته . وقال عنه أبو الحسن على بن الحميرى[2] : كان ابن عوف رحمة الله عليه ، إمام عصره وفريد دهره فى الفقه على مذهب مالك ، وعليه مدار الفتوى وجمع إلى ذلك الورع والزهد ، وكثرة العبادة والتواضع التام ، ونزاهة النفس .

وترجم له أبو المظفر وجيه الدين منصور بن سليم الهمدانى[3] الاسكندرى ، محتسب الاسكندرية المولود سنة ٦٠٨ هـ فى تاريخه لمدينة الإسكندرية فقال : «كان ابن عوف من العلماء الأعلام ، ومشايخ الإسلام ، ظاهر الورع والتقوى ، كتب عنه الحافظ السلفى ، وروى عنه شرف الدين بن المقدسى» . ويستطرد منصور بن سليم فى ترجمته فيقول : وبيت ابن عوف بثغر الإسكندرية بيت كبير شهير بالعلم ، كان فيه جماعة من الفقهاء ، قال الشيخ شهاب الدين بن هلال ، سمعت أنهم اجتمع منهم سبعة فى وقت واحد ، وكانوا إذا دخلوا على الإمام أبى على سند بن عفان ، يقول «أهلا بالفقهاء والسبعة تشبيها بالفقهاء السبعة أئمة المدينة النبوية»[4] .

وتذكر المراجع أن نفيس الدين أبو الحرم المكى ابن أبى الطاهر بن عوف ، اشتغل بالتأليف فقد وضع شرحا عظيما على التهذيب لأبى سعيد البرادعى ، عرف بالعوفية ، يقع فى ستة وثلاثين مجلدا . ويضيف ابن فرحون فيقول عن شهاب الدين ابن هلال : «وكان

---

(١) النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ١٠٠ .
(٢) ابن فرحون : الديباج المذهب ص ٩٥ .
(٣) أعلام الاسكندرية هامش ص ١١٤ .
(٤) ابن فرحون / الديباج المذهب ص ٩٥ .

بقيده على دروسه التى كان يلقيها فى المدرسة العرفية (أو الحافظية) . ويعلق الدكتور الشيال على الرواية السابقة فيقول ، «ويفهم من هذا أن الابن كان يدرس فى مدرسة أبيه»[1] .

ويتبع ابن هلال مصير (العوفية) فيقول : «ولما قدم من المغرب ابنا الإمام أبى زيد وأخوه نسخاه ، وأنفقا على نسخه مالا عظيما ، وهو الآن فى خزانة سلطان فاس بالمغرب ، وبه نسخة وقف ، وهى التى بخط المؤلف أخذت فى تركة بيبرس الجمدار نائب السلطنة بالثغر المحروس لما عزل ، وبيعت بالقاهرة المحروسة ، فاشتراها قاضى القضاة الاخنائى المالكى . وهو كتاب نفيس للغاية» .

وأشار أبو شامة[2] حفيد ابن عوف الشيخ رشيد الدين عبد العزيز فقال : «إن الشيخ الإمام الزاهد الورع رشيد الدين عبد العزيز بن محمد بن الطاهر المعروف بابن عوف ، من ذرية عبد الرحمن بن عوف صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن فقهاء الاسكندرية ومفتيها فى مذهب مالك بن أنس ، وفد على دمشق لشغل عرض له ، فوصلها يوم الثلاثاء تاسع شعبان سنة ٦٢٦ هـ . ويذكر أبو شامة أنه اجتمع به الغد من مجيئه بالمدرسة العادلية بدمشق مع الشيخ أبى عمر ، وأنه حكى له أن عمره إذاك ستون سنة ، وكان تقيا ورعا يصوم يوما ويفطر يوما كصيام داود عليه السلام . ويضيف أبو شامة فيقول : «وأتى معه بدقيق من الإسكندرية فلم يزل يأكل منه حتى رجع لا يتناول غيره .

ويحدثنا الدكتور الشيال[3] عن تاريخ ابن عوف فى الدولتين الفاطمية والأيوبية فيقول : «وشهد ابن عوف نهاية الدولة الفاطمية الشيعية وقيام دولة صلاح الدين فى مصر سنة ٥٦٧ هـ وقد زار صلاح الدين الإسكندرية سنة ٥٧٧ هـ وحرص فى هذه الزيارة أن يحضر هو وأولاده وكبار رجال دولته دروس أبى طاهر بن عوف وسمعوا عليه جميعا (موطأ مالك) بروايته عن أستاذه الشيخ الطرطوشى .

---

(١) أعلام الاسكندرية ص ١١٦ .

(٢) أبو شامة : الذيل على الروضتين ص ١٥٦ (طبع القاهرة سنة ١٩٤٧ م) .

(٣) أعلام الاسكندرية ص ١١٦ .

وذكر أبو شامة خبر هذه الزيارة نقلا عن العماد الاصفهانى الذى صاحب صلاح الدين فقال : «وتوجه السلطان بعد شهر رمضان (سنة ٥٧٧) إلى الإسكندرية عن طريق البحيرة وخيم عند السوارى (عمود السوارى) . وشاهد الأسوار التى جددها والعمارات التى مهدها وأمر بالإتمام والاهتمام ، وقال السلطان : نغتنم حياة الشيخ الإمام أبى طاهر بن عوف ، فحضرنا عنده وسمعنا عليه موطأ مالك ، بروايته عن الطرطوشى فى العشرة الأخيرة من شوال ، وتم له ولأولاده ولنا به السماع[١] .

وقد أرسل القاضى الفاضل عبد الرحيم بن على البيسانى رسالة إلى صلاح الدين يهنئه فيها بهذه الزيارة جاء فيها «أدام الله دولة المولى الملك الناصر ، صلاح الدنيا والدين وسلطان الإسلام والمسلمين ، محيي دولة أمير المؤمنين ، وأسعد برحلته للعلم وأثابه عليها ، وأوصل ذخائر الخير إليه ، وأوزع الخلق شكرا لنعمته فيه فإنها نعمة لا توصل إلى شكرها إلا بايزاعه ، وأودع قلبه نور اليقين ، فانه مستقر لا يودع فيه إلا ما كان مستندا إلى إيداعه ، ولله فى الله رحلتاه ، وفى سبيل الله يوماه ، وما منهما إلا أغر محجل[٢] » .

وأصبحت لابن عوف منذ ذلك الحين مكانة كبيرة عند صلاح الدين يسأله الرأى ويستفتيه فى كل ما يعرض من مشاكل أو أمور جسام . فقد روى الصفدى[٣] قصة القاضى شرف الدين عبد الله ابن أبى عصرون ، الذى أصيب بالعمى ، فأرسل صلاح الدين يستفتى ابن عوف فى جواز أن يكون القاضى أعمى ، قال الصفدى : وكتب السلطان صلاح الدين بخطه إلى القاضى الفاضل يقول فيه : إن القاضى قال (أى القاضى شرف الدين) ، إن قضاء الأعمى جائز ، فتجتمع بالشيخ أبى الطاهر بن عوف الإسكندرى ، وتسأله عما ورد من الأحاديث فى قضاء الأعمى .

ويقول ابن فرحون[٤] ، إن ابن عوف كان السبب فى تجديد الصادر بثغر الإسكندرية (والصادر هو ضريبة تجارية تدفع على كل ما يخزن بالمخازن مقابل الميناء الشرقية) .

---

(١) أبو شامة : الروضتين جـ ٢ ص ٢٤ .
(٢) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ١٤٤ .
(٣) الصفدى : نكت الهميان ص ١٨٥ .
(٤) الديباج المذهب ص ٩٦ .

وهو شئ وظفه السلطان على تجار النصارى إذا صدروا إلى الإسكندرية زائدا على العشر ، رتبه لفقهاء الثغر دنانير تصرف كل شهر ، وجعل له ناظرا وشهودا ، أوقفه عليهم وعلى ذريتهم .

ويذكر ابن فرحون أن الشيخ ابن عوف له عدة مؤلفات ومصنفات ـ أشار إلى اثنين منها ، الأول كتابا سماه (الفاضح) رد فيه على المتنصر وهو رجل يدعى العلم وليس من أهله . والثانى (تذكر التذكرة) فى أصول الدين .

وقد أورد القلقشندى[1] السجل الصادر بتعيين ابن عوف مدرسا للمدرسة الحافظية ، رأينا أن ننقله إتماما للفائدة ، ونعطى فكرة عن كيفية تعيين المدرس وطريقة الإعلان عنه.

سجل بتدريس

«.... أمير المؤمنين لما منحه الله من الخصائص التى جعلته لدينه حافظا ، ولمصالح أمور المسلمين ملاحظا ، ولما عاد بشمول المنافع لهم مواترا ، وبما أحظاهم عنده تبارك وتعالى معينا عليه ومثابرا ، لا يزال يوليهم إحسانا وفضلا ومنّا ، ويسبغ عليهم إنعاما لم تزل تسم (؟) همتهم إلى أن نتمنى ، وقد يسر الله تعالى لخلافته ودولته ، ووهب الإمامة ومملكته ، من السيد الأجل الأفضل ، أكرم ولى ضاعف تقواه وإيمانه ، وأكمل صنى وقف اهتمامه واعتزامه ، على ما يرضيه سبحانه ، وأعدل وزير لم يرض فى تدبير الكافة بدون الرتبة العليا وأفضل ظهير ابتغى فيما أتاه الله الدار الآخرة ، ولم ينس نصيبه من الدنيا ، فهو يظافر أمير المؤمنين على ما عمم صلاحه عموم الهواء ، ويفاوض حضرته فيما يستخلص الضمائر بما يرفع فيه من صالح الدعاء » .

ولما انتهى إلى أمير المؤمنين ميزة ثغر الإسكندرية ـ حماه الله تعالى ـ على غيره من الثغور ، فإنه خليق بعناية تامة : لأنه من أرق الحصون والمعاقل والحديث عن فضله وخطير محله لا تهمة فيه للراوى والناقل ، وهو يشتمل على القراء والفقهاء ، والمرابطين والصلحاء ، وأن طالبى العلم من أهله ومن الواردين إليه ، والطارئين عليه ، متشتو الشمل متفرقو الجمع ، أبى أمير المؤمنين أن يكونوا حائرين متلددين ، ولم يرض لهم أن يبقوا

---

(١) صبح الأعشى جـ ١٠ ص ٤٥٨ .

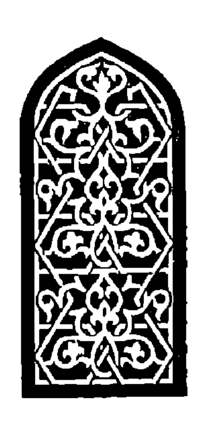
ملبذبين متبددين ، وخرجت أوامره بانشاء المدرسة الحافظية بهذا الثغر المحروس بشارع المحجة منا عليهم وإنعاما ، ومستقرا لهم ومقاما ، ومثوى لجميعهم ووطنا ، ومحلا لكافتهم وسكنا .

فجدد السيد الأجل الأفضل ـ أدام الله قدرته ـ الرغبة إلى أمير المؤمنين فى أن يكون ما ينصرف إلى مؤونة كل منهم والقيام بأوده ، وإعانته على ما هو بسبيله وبصدده من عين وغلة مطلقا من ديوانه واسترمد أمير المؤمنين المثوبة فى ذلك ، فأجابه جريا على عادة إحسانه . واستقرت التقدمة فى هذه المدرسة لك أيها الفقيه الرشيد جمال الفقهاء أبو الطاهر : لنفاذك واطلاعك وقوتك فى الفقه واستضلاعك ، ولأنك الصدر فى علوم الشريعة ، والحال فيها فى المنزلة الرفيعة ، والمشتغل الذى اجتمع له الأصول والفروع ، ومن إذا اختلف فى المسائل والنوازل كان إليه فيها الرجوع ، هذا مع ما أنت عليه من الورع والتقى ، وأن مجاريك لا يكون إلا ناكصا على عقبه مخففا ، وأمر أمير المؤمنين أن تدرس علوم الشريعة للراغبين ، وتعلم ما علمك الله إياه من يريد من المؤثرين والطالبين ، وخرج أمره مكتب هذا المنشور بذلك شدا لأزرك ، وتقوية لأمرك ورفعا لذكرك فاخلص فى طاعة الله سرا وجهرا ، فإنه تعالى يقول فى كتابه : (ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا) .

واعتمد توزيع المطلق عليهم وتقسيمه فيهم على حسب ما يؤدى اجتهادك إليه ، ويوقفك نظرك عليه ، وقرب من ارتضيت طريقته ، وأبعد من أنكرت قضيته ، فقد وكل ذلك إليك ، ووثق بك من غير اعتراض فيه عليك .

فممن قرأه وقرىء عليه من : الأمر المظفر ، والقاضى المكين ـ أوامر الله تأييدهما ـ وكافة الحماة والمتصرفين ، والعمال والمستخدمين ، فليعتمد رعاية المدرسة المذكورة ومن احتوت عليه من الطلبة وإعزازهم ، والاشتمال عليهم ، والاهتمام بمصالحهم والتوخى على منافعهم .

وليتل هذا المنشور على الكافة بالمسجد الجامع وليخلد بهذه المدرسة حجة بما تضمنه ، إن شاء الل ز وجل» .



ضريح الشيخ نجم الدين الخيوشانى

بقية الإمام الشافعى

هو الإمام أبو البركات[1] محمد بن موفق نجم الدين بن الحسن بن عبد الله الفقيه الشافعى ، المعروف باسم الخيوشانى نسبة إلى مسقط رأسه خيوشان وهى قرية صغيرة تابعة لنيسابور بإيران . ولد سنة ٥١٦ هـ وتفقه فى المذهب الشافعى على يدى محمد بن يحي تلميذ الغزالى رضى الله عنه . ولما كانت الغالبية العظمى من أهل إيران يعتنقون المذهب الشيعى فى ذلك الوقت ، لذلك نجد الشيخ نجم الدين يتعصب للمذهب الشافعى تعصبا شديدا ملك عليه كل حواسه ، حتى أنه صمم وهو فى التاسعة والأربعين من عمره فى الرحيل إلى مصر لكى يحارب المذهب الشيعى الاسماعيلى مذهب الدولة الفاطمية ، وفى ذلك يقول المناوى ، كان الشيخ نجم الدين يقول وهو فى نيسابور : لابد أن أصعد إلى مصر وأزيل دولة بنى عبيد (الفاطميين) فصعدها «وجاء نجم الدين إلى مصر سنة ٥٦٥ هـ ، أى قبل سقوط الدولة الفاطمية على يدى صلاح الدين بسنتين ، وأخذ منذ وطئت أقدامه أرض مصر يسب الفواطم ويلعنهم على كل منبر ، وكان من قوة الحجة والبيان وعظم الشخصية أن أخذت حاشية الخليفة تهادنه وتسترضيه ، فقد جاء فى الكواكب الدرية[2] : أنه لما جاء مصر وصرح بسب بنى عبيد أرسلوا له مالا فرده وضرب رسولهم على صدره ورأسه فصارت عمامته حلقا فى رقبته وسب القاصد» .

وقد وجد صلاح الدين الأيوبى بغيته فى الشيخ نجم الدين عندما أراد تحويل الخطبة من خلفاء الفواطم إلى خلفاء العباسيين أى من المذهب الشيعى الإسماعيلى إلى المذهب السنى .

(١) النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ١١٥ (حاشية ٤) .

(٢) الكواكب الدرية فى تراجم السادة الصوفية للمناوى جـ ٢ ص ١٠٠ .

فقد تهيب صلاح الدين الخطبة لبنى العباس فوقف الخبوشانى كما جاء فى (مرآة الزمان)[1] أمام المنبر بعصاه وأمر الخطيب بذكر بنى العباس ففعل فلم ينتطح فيها عنزان ووصل الخبر إلى بغداد فأظهروا الفرح ، وعظم شأن الخبوشانى عندهم » وهكذا نرى أن الشيخ الخبوشانى كان العامل الأول فى القضاء على المذهب الشيعى الإسماعيلى فى مصر وبالتالى فى إسقاط الخلافة الفاطمية .

للأسباب السابقة ولورع الشيخ الخبوشانى وتقواه كان صلاح الدين يحبه ويفتقد مجلسه كما كان يخشاه خوفا من أن يدعو عليه فيصاب بأذى ، ومما يروى فى هذا المجال[2] أنه لما خرج صلاح الدين لقتال الفرنجة جاء لوداع الخبوشانى ، فالتمس منه الأخير أموراً من المكس ليبطلها وهى مكوس كانت تؤخذ من الحجاج بجدة مما يحمل فى البحر ، فأبى صلاح الدين ، فقال له قم لا نصرك الله ووكزه بعصاه فوقعت قلنسوة السلطان عن رأسه. ويضيف المناوى[3] «ثم توجه صلاح الدين للحرب فكسر كما حدثت له أحداث كادت تودى بحياته» . أما عن الحادثة فقد جاء فى النجوم الزاهرة فى حوادث سنة ٥٧١ هـ أن صلاح الدين سار إلى منبج (مدينة بشمال حلب) فتسلمها ثم سار إلى قلعة (اعزاز) وحاصرها سنة٥٧١ هـ . وبينما صلاح الدين بها وثب عليه جماعة من الإسماعيلية (أعنى الفداوية) فقد جاءه ثلاثة فى زى الأجناد ، فضربه واحد بسكين فى رأسه فلم يجرحه وخدشت السكين خده . وبذلك نجاه الله منهم وظفر بهم وقتلهم جميعا وأقام على القلعة حتى أخذها ثم رحل صلاح الدين إلى حلب فلما نزل عليها بعث إليه الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين زنكى أخته خاتون بنت نور الدين ، فى الليل ، فدخلت عليه فقام قائما وقبل الأرض لها وبكى على نور الدين ، فسألته أن يرد عليها قلعة (اعزاز) فأعطاها إياها وقدم لها من الجوهر والتحف شيئا كثيرا . واتفق مع الملك الصالح أن من حماه وما فتحه إلى مصر له ، وباقى البلاد الحلبية للصالح» .

أما عن الحرب التى انكسر فيها صلاح الدين فقد جاء فى حوادث سنة ٥٧٢ هـ أنه عندما التقى صلاح الدين مع الفرنجة عند بلدة الرملة على ساحل بلاد الشام . انهزم المسلمون،

---

(١) مرآة الزمان لابن المظفر بن قزأوعلى .

(٢) النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٧٨ .

(٣) الكواكب الدرية جـ ٢ ص ١٠٠ .

ولما لم يكن لهم حصن قريب يأوون إليه ، يمموا وجههم شطر الديار الديار المصرية فضلوا الطريق وتبددوا وأسر منهم جماعة » . فلما عاد صلاح الدين إلى مصر ذهب للشيخ الخبوشانى وقبل يده ونفذ ما كان قد طلبه الشيخ من قبل ، فأبطل المكوس التى كانت تؤخذ من الحجاج بجدة ، مما يحمل فى البحر ، وعوض صاحب مكة عنها فى كل سنة ثمانية آلاف إردب قمحا تحمل إليه فى البحر فتفرق فى أهل الحرمين » .

وكان الشيخ الخبوشانى لا يخشى فى الله لومة لائم ، فقد علم أن تقى الدين عمر ابن أخى صلاح الدين له مواضع يباع فيها المزر (ضرب من شراب الذرة) فكتب الشيخ للسلطان يطلب منه أن ينهى ابن أخيه من بيع المزر ، فقال السلطان لعمر : يا عمر لا طاقة لنا بالشيخ ترضّاه » فركب تقى الدين عمر إلى الشيخ فقال له حاجبه قف بباب المدرسة (التى يقيم بها الشيخ) حتى أسبقك وأوطئ لك ، فدخل الحاجب وقال : تقى الدين يسلم عليكم ، فرد عليه الشيخ : بل قل شقى الدين لا سلم الله عليه ، فقال الحاجب أنه يعتذر ويقول : إنه ليس هناك مزر ، فقال : يكذب ، فقال الحاجب إن كان هناك مزر فأرناه ، فقال : إذن فأمسك ذوائبيته وجعل يلطمه على وجهه وخديه ويقول : لست مزارا فأعرف مواضع المزر » فخلصوه منه وفر هاربا إلى تقى الدين وقص عليه ما دار بينه وبين الشيخ ، فامتنع فى الحال من بيع المزر .

ويقول المناوى[1] إن الشيخ الخبوشانى كان إماما جليلا ورعا تقيا ، فلا ترى العيون مثله زهدا وعلما وتصميما على الحق . كان يستحضر كتاب المحيط ففقد فأملاه من خاطره ، وله من التصانيف الشئ الكثير لعل أهمها تحقيقه المحيط فى ستة عشر مجلدا ، كما أنه حدث بالقاهرة عن القشيرى وغيره . ومن ورعه أنه كان يركب الحمار ويجعل تحته أكسية لئلا يصيبه عرقه . وجاء الملك العزيز ابن صلاح الدين لزيارته وصافحه ، فاستدعى فاستدعى بماء بحضوره وغسل يده وقال : أنت تمسك العنان ولا تتوق الغلمان عليه . فاغسل وجهك فإنك بعد المصافحة مسسته فغسله .

ومنذ قدوم الشيخ الخبوشانى إلى مصر سنة ٥٦٥ هـ أقام بتربه الإمام الشافعى رضى الله عنه ثم أعطاه صلاح الدين مالا فبنى به المدرسة التى بجانب الإمام الشافعى إذ يقول ابن تغرى بردى فى حوادث سنة ٧٦٥ هـ ، فعمر صلاح الدين بالقرافة الصغرى المدرسة

---

(١) الكواكب الدرية جـ ٢ ص ١٠٠ .

المجاورة للامام الشافعى . وقد عرفت هذه المدرسة فى جميع المراجع[1] باسم المدرسة الناصرية ويصفها المقريزى فيقول : هذه المدرسة بجوار قبة الإمام محمد بن ادريس الشافعى من قرافة مصر ، انشأها صلاح الدين ورتب بها مدرسا يدرس الفقه على المذهب الشافعى وجعل له فى كل شهر من المعلوم عن التدريس أربعين دينارا ورتب له من الخبز فى كل يوم ستين رطلا وراويتين من ماء النيل . وجعل فيها معيدين وعدة من الطلبة ووقف عليها حماما بجوارها وفرنا تجاهها وحوانيت بظاهرها والجزيرة التى يقال لها جزيرة الفيل ببحر النيل خارج القاهرة (شبرا الحالية) . وقد تولى التدريس بها الشيخ الخيوشانى[2] طوال حياته ، ثم تولى بعده شيخ الشيوخ صدر الدين بن حموية كما ولى التدريس بها جماعة من الاكابر والاعيان نذكر منهم الشيخ تقى الدين بن دقيق العيد . ويعين لنا الجبرتى[3] مكان المدرسة الآن فيقول : إن الاميرعبد الرحمن كتخدا القازدغلى عمّر المسجد المجاور لضريح الإمام الشافعى فى مكان المدرسة الصلاحية التى أنشأها السلطان صلاح الدين سنة ٥٧٢ هـ .

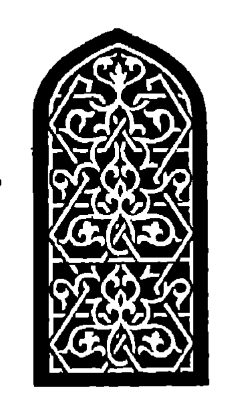
ويقول المناوى إن الشيخ الخيوشانى عاش عمره لم يأكل من وقف المدرسة الصلاحية لقمة ولا أخذ من مال الملوك درهما ، وكان بمصر رجل تاجر من بلده ، يأكل من ماله وكان حبه واحترامه للامام الشافعى جعله يداوم الجلوس بضريحه ولا يغادره إلا للتدريس بالمدرسة الصلاحية . وحدث مرة أن دخل القاضى الفاضل وزير السلطان لزيارة الامام الشافعى رضى الله منه فوجده يلقى الدرس على كرسى فقعد على طرفه وجنبه '' القبر فصاح الشيخ الخيوشانى فيه قائلا . قم ظهرك إلى الامام ، فقال الوزير : إن كنت مستدبره بقالبى ، فأنا مستقبله بقلبى ، فصاح فيه : ما تعبدنا بذلك فخرج الوزير وهو لا يعقل ومن كراماته التى يذكرها المناوى ، أن ابن أبى حصيبه مدحه بقصيدة وطلب منه أن يجعل جائزته دعوة لأبنة له مقعدة ، فدعا لها فقامت بعد ثلاثة أيام تمشى كأن لم يكن بها بأس . ومن نظمه رضى الله عنه :

فإن تسألونى بالنساء فاننى ... خبير بأدواء النساء طبيب
إذا شاب رأس المرء أو قل ماله ... فليس له من ودهن نصيب

توفى الشيخ الخيوشانى سنة ٥٨٧ هـ وكفن فى كسائه الذى جاء معه من خيوشان ودفن فى قبة الإمام الشافعى بمفرده تحت رجلى الإمام وبينهما شباك .

---

(١) التبر المسبوك السخاوى ، حسن المحاضرة السيوطى جـ ٢ ، المقريزى جـ ٤ ص ٢٥١ .
(٢) النجوم الزاهرة جـ ٢ ص ١١٦ ، الكواكب الدرية ص ١٠٠ .
(٣) عجائب الآثار جـ ٢ .



ضريح صلاح الدين الأيوبى

بدمشق

وجامعه

بالقاهرة

اختلف الكتاب فى نسب صلاح الدين فقد حاول البعض أن يرجعوه إلى أسرة عربية شريفة تنتهى إلى معد بن عدنان ، بل إلى آدم عليه السلام . على أن الثابت هو نسبه إلى جده الأول يوسف بن أيوب بن شادى . وكان موطن أبيه وأهله قرية (دوين) فى شرق أذربيجان . نزح جده شادى بولديه أيوب (نجم الدين) وشيركوه (أسد الدين) إلى بغداد ثم نزل إلى تكريت حيث توفى الأب (شادى) والتحق الأخوان بخدمة متولى بغداد ولكنهما لم يستمرا طويلا هناك فقد انتقل نجم الدين إلى خدمة عماد الدين زنكى صاحب الموصل فلما قتل زنكى انتقل نجم الدين إلى خدمة صاحب دمشق والتحق أسد الدين بخدمة نور الدين محمود . وفى ذلك الوقت ولد لنجم الدين غلام سماه يوسف ، هو بطلنا صلاح الدين الأيوبى . نشأ يوسف فى كنف أبيه بدمشق ، ولما شب عن الطوق دخل فى خدمة نور الدين مع أبيه وعمه رغم صغر سنه فقد كان فى السادسة عشرة من عمره ، وكان ذكيا لبقا شجاعا مقداما فى جلال ومهابة الأمر الذى جعل نور الدين يؤثره ويقربه .

وكان أول عمل جدى قام به يوسف هو خروجه إلى مصر وصحبه عمه أسد الدين شيركوه سنة ٥٥٩ هـ على رأس جيش متجها إلى مصر لنصرة الوزير شاور ، فقد كانت الحياة السياسية بها فى أواخر العصر الفاطمى قد دب فيها الضعف واعتراها الفساد وذلك لتنافس الوزراء فى الانفراد بالحكم وقد شجعهم على ذلك صغر سن الخلفاء وضعفهم . إذ كان آخر من تولى الخلافة الفاطمية طفل لم يبلغ سن الرشد لقب بالعاضد لدين الله . وكان طبيعيا أن يتنافس الوزراء للاستيلاء على الحكم الأمر الذى انتهى إلى أن يستند كل

كل منافس إلى قوة أجنبية تساعده على الحصول على النفوذ والسلطان ، فاستنجد الوزير ضرغام بالفرنجة (الصليبيين) واستنجد شاور بنور الدين محمود . وأرسل نور الدين أسد الدين شيركوه على رأس جيش ومعه ابن أخيه يوسف لنصرة شاور وصادف دخول أسد الدين إلى القاهرة خروج الفرنجة منها فسر به الخليفة العاضد وخلع عليه وولاه الوزارة ، ولكن القدر لم يمهله إذ مات بعد شهرين من ولايته ، فتولى الوزارة بعده ابن أخيه يوسف فقد أصدر الخليفة أمرا جاء فيه : « هذا عهد أمير المؤمنين اليك ، وحجة عند الله لديك فأوف بعهدك ، وخذ كتاب أمير المؤمنين بيدك » . كما منحه الخليفة اللقب التالى « الملك الناصر أبو المظفر صلاح الدنيا والدين يوسف بن أيوب) . ومنذ ذلك الوقت أصبح يعرف بين الخاصة والعامة باسم « الناصر صلاح الدين » . وقد مد القدر يده مرة ثانية لخدمة صلاح الدين ، فمات الخليفة العاضد ومات نور الدين محمود ومات (آمورى ملك بيت المقدس) فزالت غياهب الغيوم وانزاحت عقبات ضخمة كان صلاح الدين يخشى بأسها فأصبح والحالة هذه السيد المطلق فى مصر والقائد الأوحد لجميع المسلمين فراح يجمع الصفوف ويحشد القوى ويستعد للذود عن حياض العروبة والإسلام .

وفى مطلع سنة ٥٦٧ هـ قضى صلاح الدين على الخلافة الفاطمية ، ولم يجد المصريون معنى للاحتفاظ بشخصيات هزيلة لا حول لها ولا قوة ، وأن كل ما تسعى إليه الأمة هو دفع العدو الذى كان يتهدد البلاد وإقامة العدل ، وقد وجدت بغيتها فى شخصية صلاح الدين . وقد عمل منذ اللحظة الأولى على توحيد بلاد الشام وبلاد الجزيرة واليمن وبذلك استطاع أن يجد جيشا موحدا قويا يستطيع أن يقف به أمام جحافل جيوش الصليبيين الوافدة من كل حدب وصوب فى أوروبا . فلما دارت رحى الحرب بين الطرفين كان النصر مؤزرا لصلاح الدين عند (حطين) فقد دارت معركة لم ير الصليبيون مثلها منذ وطئت أقدامهم بلاد الشام ، وأصبحوا بين قتيل وأسير . على أن موقعة (حطين) لم تكن نهاية المعارك التى خاضها صلاح الدين مع الصليبيين بل تلتها مواقع عدة كان كلا الفريقين يتبادل فيها الانتصار والهزيمة فقد استطاع الصليبيون أخذ عكا وعزموا على دخول بيت المقدس . فجمع صلاح الدين امراءه لاستشارتهم كعادته وطلب صلاح الدين من القاضى ابن شداد الذى كان حاضرا أن يحث الحاضرين على الجهاد ، فكان مما قاله : (إن النبى

صلى الله عليه وسلم لما اشتد به الأمر بايعه الصحابة على الموت فى لقاء العدو ، ونحن أولى من تأسى به والمصلحة الاجتماع عند الصخرة والتحالف على الموت ، فاستحسن الجماعة ذلك ووافقوا عليه . ثم قال لهم صلاح الدين :

« اعلموا انكم جند الإسلام اليوم ومنعته ، وأنتم تعلمون أن دماء المسلمين وأموالهم وذراريكم معلقة بذممكم ، وأن هذا العدو ليس له من المسلمين من يلقاه إلا أنتم ، فإن وليتم بأنفسكم والعياذ بالله طوى البلاد طى السجل للكتاب ، وكان ذلك فى ذمتكم ، فإنكم أنتم الذين تصديتم لهذا وأكلتم مال بيت المال فالمسلمون فى سائر البلاد متعلقون بكم والسلام » .

لم يلبث العدو بعد أن اقترب على بيت المقدس أن اختلف أيهاجم المدينة أم يرحل عنها ثم انتهى على الارتحال منها ثم طلب الفرنج الصلح . وبعد مفاوضات نزل (ريتشارد) على رأى صلاح الدين ، فعقد الصلح على أن يسود السلام ثلاث سنين من تاريخ التوقيع عليه وهو شعبان سنة ٥٨٨ هـ (سبتمبر سنة ١١٩٢ م) . وبذلك انتهت الحروب الصليبية التى دارت فى عهد صلاح الدين .

أمضى صلاح الدين معاهدة الصلح مكرها ، لما رآه من المَلَل الذى بدا على الجند وكان يأمل أن يجدد قواه فى هذه المدة من السلم ليستخلص ما بقى فى يد الفرنج .

ذهب صلاح الدين بعد عقد الصلح إلى بيت المقدس وأمر بإحكام سوره ، ثم ذهب إلى دمشق وفى الطريق مر بالثغور الإسلامية وأمر بإحكامها .

أعلن السلطان رغبته فى أداء فريضة الحج ، فألح عليه الأمراء بألا يذهب خوفا من غدر الفرنج ، إذ أرسل إليه القاضى الفاضل يقول :

« إن الفرنج لم يخرجوا بعد من الشام ، ولا سلوا عن القدس ، ولا وثق بعهدهم فى الصلح ، فلا يؤمن مع بقاء الفرنج على حالهم ، وافتراق عساكرنا ، وسفر سلاطيننا سفرا مقدرا معلوما ومدة الغيبة فيه أن يسروا ليلهم ، فيصبحوا والقدس فى غفلة فيدخلوا إليه ، والعياذ بالله . ويفرط من يد الإسلام ، ويصير الحج كبيرة من الكبائر التى لا تغتفر ، والعثرات التى لا تقال » .

فعدل السلطان عن أداء فريضة الحج ، ولكنه انتهز فرصة عودة الحجاج من مكة فخرج لاستقبالهم ، وكان حفلا رهيبا تأثر منه السلطان وبكى ، وعاد فمرض من يومه مرضا حادا ، وبقى به ثمانية أيام وتوفى رحمه الله يوم الأربعاء ٢٧ من صفر سنة ٥٨٩ هـ (٤ من مارس سنة ١١٩٣ م) وكان عمره سبعة وخمسين عاما .

توفى صلاح الدين ، وقد حقق الجزء الأكبر من آماله فى طرد الصليبيين من الشام ، إذ لم يبق فى يدهم غير رقعة صغيرة تمتد من (صور) حتى (عكا) .

أما عن شخصية صلاح الدين فيكفى أن نذكر ثباته وقوة جنانه ، فكان لا يذهل عند صدمه بل يحس بها ويقف ويحكم ويريد وينفذ فى ثبات ودقة . ففى حصار عكا كان يرى العدو يزيد عدده يوما بعد يوم ، فلم يجزع ولم تخر عزيمته . وفى موقعة أرسوف وقف وحده وسط جمع قليل ، وقد انهزم جيشه وبقى هو على ثباته حتى بعث الشجاعة فى نفوس أتباعه فثبتوا ومنع بذلك كارثة كادت تكون القاضية .

ليس من المبالغة أن نقول إن لصلاح الدين فضلا كبيرا فى تلك الشهامة التى ظهرت فى المسلمين فى ذلك العصر ، فإن للقائد أثرا عظيما فى نفوس رجاله ، فالناس على وجه التقريب هم الناس فى كل وقت ، فإذا ما تولى أمرهم عظيم تساموا إلى مستوى عظمته فأتوا بالعجيب وعلى النقيض من ذلك إذا تولى أمرهم حقير النفس ضاع أمرهم وفشلوا وبرزت فيهم أدنى صفات الإنسان وأحقرها ، ويذكر فى هذا المجال الشاب الصانع الدمشقى الذى توصل إلى اختراع وسيلة لإحراق آلات العدو بعد أن أعيت المسلمين الحيل فى الدفاع عن أنفسهم أمامها — حتى إذا ما حضر إلى صلاح الدين وأظهر له رضاه وعرض عليه الجزاء ، أبى الشاب إباء صادقا ، ويقال إنه إنما فعله أداء لواجبه وتقربا إلى الله تعالى .

وصف الضريح

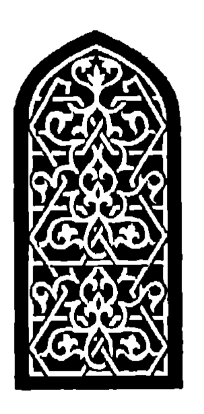
توفى صلاح الدين سنة ٥٨٩ هـ فى مدينة دمشق على أثر مرض شديد ألم به فدفن فى أول الأمر فى قلعة دمشق وبقى بها مدة ثلاث سنوات حتى أنشأ له ولده العزيز عثمان المدرسة العزيزية وألحق بها ضريحا فنقل إليه رفاته . وقد اندثرت المدرسة ولم يبق منها إلا المقبرة يعلوها بناء الضريح . ويقع الضريح فى حى الكلاسة شمالى الجامع الأموى وهو عبارة عن بناء مربع الشكل فى أركانه مقرنصات تقوم فوقها رقبة مثمنة بها أربع نوافذ وأربعة محاريب تعلوها القبة (المفضضة) . وفى وسط الحجرة يوجد قبر صلاح الدين عليه تركيبة من خشب الجوز المصنوع بطريق الحشوات المجمعة ومحفور فيه زخارف نباتية وهندسية غاية فى الدقة والإبداع وفى أعلى التركيبة كتبت آية الكرسى بخط كوفى مزهر . وقد أهدى غليوم الثانى إمبراطور ألمانيا لدى زيارته لدمشق الضريح تركيبة من المرمر تخليدا لذكرى بطل عالمى مايزال يعيش فى قلوب العرب والمسلمين .

ويقول ابن خلكان ، إنه قرأ على الضريح فى سنة ٦٨٠ هـ كتابة كتبها قاضى صلاح الدين الفاضل محيى الدين المعروف بابن زكى الدمشقى .

« اللهم فارض عن تلك الروح ، وافتح له أبواب الجنة فهى آخر ما كان يرجوه من الفتح » .

جامع صلاح الدين

وقد رأى قائد ثورتنا المباركة الرئيس الراحل جمال عبد الناصر ، أن يخلد ذكرى صنوه فى الجهاد فأمر بإنشاء جامع يحمل اسمه ؛ فأقامت وزارة الأوقاف الجامع فى أجمل موقع بمدينة القاهرة على شاطئ النيل بجزيرة الروضة عند النهاية الشرقية لكوبرى جامعة القاهرة . وهو بناء فخم يتكون من صحن متسع مغطى وبه نوافذ للإضاءة مفتوحة فى رقبة تعلوه . ويحيط بالصحن أربعة ايوانات يتقدم كلا منها عمودان وايؤان القبلة أكبر . وقد ألحق بالجامع مكتبة وساحة للعزاء . كما أقيم دور ثان لصلاة السيدات به نوافذ تطل على صحن المسجد ويعتبر المسجد من الناحية المعمارية تحفة فنية تمثل العمارة الإسلامية فى مصر فى القرن العشرين أحسن تمثيل .



ضريح الشيخ الشاطبى

هو القاسم بن فيره[1] بن خلف الرعينى الشاطبى ، ولد الإمام الشاطبى فى آخر سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة بمدينة شاطبه فى بلاد الأندلس . وقد فقد الشاطبى بصره[2] وهو لم يزل بعد حدث صغير فلما شب عن الطوق لم يكن أمامه غير تعلم العلوم الدينية ، فبدأ فى حفظ القرآن وهو مايزال ببلدته شاطبه وقرأ بها القراءات وأتقنها فى فترة وجيزة إذ أذهلت كل من اتصل به فنصحه أحد معلميه من المخلصين أن يرحل إلى مدينة بلنسيه القريبة من الشاطبه حيث يمكنه الاتصال بأساتذتها ليعرض عليهم مادرسه من القراءات .

وفى مدينه بلنسيه فتح الله على الشاطبى فتحا عظيما إذ درس هناك الحديث والنحو والأدب والفقه والتفسير فقرأ الكتاب لسبويه والكامل للمبرد وأدب الكاتب لابن قتيبة . ولما ذاع صيت الشاطبى فى بلده بلنسيه طلبة الحسن بن النعمة لكى يقرأ عليه كتابه (رى الظمآن فى تفسير القرآن) وروى تفسير عبد الحق بن عطيه (وقد أوتى الشاطبى منذ حداثة سنه استعداداً خاصاً من الذكاء وقوة الملاحظة هيئته للنبوغ فى كل مادرس وماحفظ فكان عالما بكتاب الله قراءة وتفسير مبرزا فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . إذ قرأ عليه البخارى ومسلم صحيح النسخ من حفظه . إماما فى النحو واللغة وراوية الأدب وله شعر إلا أن السليقة الأدبية كانت تنقصها حرارة العاطفة وروح الفن[3] .

---

(۱) فيره : بكسر الفاء وسكون الياء وتشديد الراء وضمها معناه الحديد . والرعينى نسبة إلى ذى رعين إقبال اليمن ، نسب إليه خلق كثير (ابن خلكان . وفيات الأعيان جـ ۱ ص ٤٢٢) .

(۲) نكت الهميان فى نكت العميان : خليل بن أيبك الصفدى ص ۲۲۸ .

(۳) أحمد بدوى : الحياة العقلية فى عصر الحروب الصليبية فى مصر والشام ص ۹۹ .

وقد تولى الشاطبي الخطابة فى مدينة بلنسيه مع صغر سنة كما يقول ابن خلكان[1] والمقرى [2] ، إلا أن أبو شامه ينقض روايتهما ويقول إن أمير بلنسيه طلب منه أن يتولى الخطابة بها فاعتذر تورعا مما كان الأمراء يلزمون به الخطباء من ذكرهم على المنابر بأوصاف لم يرها الشاطبي سائغة شرعا . ثم يعود ويقول أبو شامه وربما يكون الشاطبي قد أقيم فى الخطابه فعلا ثم فر منها محتجا بأنه قد وجب عليه الحج وأنه عازم عليه فترك وطنه ولم يرجع إليه وهكذا ترك الشاطبي بلاد الأندلس سنة اثنين وسبعين وخمسمائة وهو فى الرابعة والثلاثين من عمره يريد الحج فدخل مصر فى ذلك العام وهنا يقول السبكى[3] : ولست أدرى إن كان قد أتم فريضة الحج أو لم يتمها ولكنه على أية حال ألقى عصا التسيار فى مصر مستوفيا فيها حظه من الثقافة التى تتصل بالقرآن[4] وعندما وطأت أقدامه أرض مصر ذهب إلى الاسكندرية حيث التقى بعالم عصره الحافظ السلفى عالم علم الحديث الذى طاف من أجله البلاد وامتاز فيه بالإتقان والحفظ والنقد والتثبت ولم يكن فى مصر من يضارعه فى ذلك بل لقد تفرد بهذه المعرفة فى العالم الإسلامى[5] كله . وظل قائما بمدرسة السلفى بالاسكندرية حتى استوفى حظه من علم الحديث وذاع اسمه وعلا صيته بين تلاميذ السلفى حتى أنه كان يعيد الدرس فى غياب السلفى .

ومن الاسكندرية رحل إلى القاهرة تسبقه إليها شهرته فلما علم بمجيئه القاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانى أكرم وفادته وأنزله عنده على الرحب والسعة وعظمه تعظيما كبيرا[6] وطلب إليه أن يتولى الاقراء بمدرسته . وبرغم فقد الشاطبي للموقع إلا أنه اشترط عليه شروطا معينة وهنا يقول أحمد أحمد بدوى[7] ولست أدرى عن هذه الشروط التى اشترطها الشاطبي ، ولكن القاضى الفاضل فضلا عن قبول تلك الشروط جميعها جعله شيخ مدرسته .

---

(١) وفيات الأعيان جـ ١ ص ٤٢٢ .

(٢) نفح الطيب الين فى غصن الأندلس الرطيب جـ ١ ص ٣٣٩ .

(٣) طبقات الشافعية جـ ٤ ص ٢٩٧ .

(٤) الذهبى : طبقات القراء جـ ٢ ص ١٧٧ .

(٥) ابن العماد : شذرات الذهب جـ ٤ ص ٢٥٥ ، ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١٢ ص ٣٠٧ .

(٦) ابن العماد : شزرات الذهب جـ ٤ ص ٣٠١ .

(٧) الحياة العقلية فى عصر الحروب الصليبية ١٠٠ .

والمدرسة الفاضلية[1] هى التى أسسها القاضى الفاضل بجوار داره بالقاهرة وقد بدأ التدريس فيها فى العصر الأيوبى سنة ٥٨٠ هـ ووقفها على طائفتى الشافعية والمالكية وجعل شرط مدرسها أن يكون عالما بالمذهبين . وكانت هذه المدرسة من أجل مدارس القاهرة وأعظمها وكان يتولى التدرس فيها كبار العلماء . وقد روعى فى بنائها أن تحتوى بالإضافة إلى ايوانى الشافعية والمالكية على قاعة للقراء ، كما خصصت مساحة كبيرة للمكتبة بلغ عدد المجلدات بها مائة ألف مجلد . وقد ظلت هذه المكتبة عامرة بكتبها حتى وقع الغلاء بمصر سنة ٦٩٦[2] فمس الطلبه الضر ، فباعوا كتبها حتى ذهب معظم ما فيها .

ولما كان شرط التدريس بالمدرسة الفاضلية التبحر فى المذهبين الشافعى والمالكى فمعنى هذا أن الشاطبى كان يعرف مذهب الشافعى ومالك ولذا نجد كلا من طبقات الشافعية[3] والمالكية[4] يؤرخ له .

وقد استمر الشاطبى على الاقراء بمدرسته فكان يصلى فيها الصبح بغلس ثم يجلس للاقراء . وكان الناس يتسابقون إليه ليلا فإذا قعد فلا يزيد على قوله : من جاء أولا فليقرأ[5] وظل خادما للقرآن الكريم حتى آخر حياته .

وقد أطنب كل من تناول ترجمة الشاطبى فى مراكبه ومواهبه ، فقد قالوا[6] ، كان أعجوبة أهل زمانه فى الذكاء وسرعة البديهة فلا يرتاب به أنه يبصر لذكائه وأنه لا يبدو منه ما يدل على العمى[7] . ويقول ابن محمد الجذرى[8] عن زهد الشاطبى وورعه : وكان زاهدا عابدا مخلصا فيما يقول ويعمل ، منقطعا للعلم والعمل ، يتجنب فضول الكلام ، ولا ينطق إلا بما تدعو إليه الضرورة ، ويقول الذهبى[9] فى طهره ونظافته وحسن مظهره ، وكان لا يجلس للاقراء إلا على طهارة ، فى هيئة حسنه ، وخشوع واستكانة وكان يعتل العلة الشديدة فلا يشتكى ولا يتأوه .

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ٤ ص ١٩٧

(٢) المقريزى : السلوك جـ١ ص ٨٧

(٣) ابن قاضى شهبه : طبقات الشافعية ص ٤٠ ، السبكى طبقات الشافعية جـ ٤ ص ٢٩٧ .

(٤) ابراهيم بن على بن فرحون : الديباج الذهب فى معرفة أعيان الذهب طبقات المالكية ص ٢١٥ .

(٥) السيوطى : بغيه الوعاه ص ٣٧٩ .

(٦) ابراهيم بن على بن فرحون : الديباج الذهب فى معرفة أعيان مذهب طبقات المالكية ص ٢١٥ .

(٧) خليل بن أيبك الصفدى : نكت الهيمان فى نكت العميان ص ٢٢٨ .

(٨) محمد بن محمد الجزرى : غاية النهاية فى طبقات القراء جـ ٢ ص ٢١ .

(٩) الذهبى طبقات القراء جـ ٢ ص ١٧٧ .

أما عن خلقه وترفعه عن الصغائر وعزة نفسه فيحدثنا عنها أبو شامة[1] فيقول : حكى أن الأمير عز الدين موسك بعث إلى الشاطبي بدعوه إلى الحضور عنده ، فغضب شيخنا من هذه المعاملة وأحسها إهانة كيف يعامل الأمراء علماء الدين بهذا الاستهتار . فأمر الشاطبي تلميذه عثمان بن عمر بن أبي بكر الذى كان والده حاجبا للأمير موسك أن يكتب للأمير .

قل للأمير نصيحة   لا تركنن إلى فقيه

أن الفقيه إذا أتى   أبوابكم لا خير فيه

فقد تتلمذ على يدى الشاطبي كثير من علماء العصر ونبهائه وبرز كثير منهم فى مختلف العلوم والفنون نذكر منهم السخاوى الذى كان من أجل أصحابه وتلاميذه ، وابن الحاجب وأبو شامة وغيرهم كثير . وقد ترك لنا الشاطبي كثير من إنتاجه العلمى لعل أهمها ، قصائده الثلاث ، عرفت الأولى بالشاطبية واسمها حرز الأمانى ووجهه التهانى ، قال عنها ابن خلكان لقد أبدع فيها كل الإبداع وهى عمدة قراء هذا الزمان فى نقلهم ، فقل من يشتغل بالقراءات إلا ويقدم على حفظها ومعرفتها . أما ابن الجزرى فيقول عنها : ومن وقف على قصير حزز الأمانى ، عرف مقدار ما أتاه الله فى ذلك ، فقد عجز البلغاء من بعده على معارضتها ، فإنه لا يعرف مقدارها إلا من نظم منوالها أوقابل بينها وبين ما نظم على طريقها .

والقصيدة الثانية الرائعة والثالثة تدعى متممة الحرز من قراءة الكنز وكلها فى القراءات ومايتعلق بها . وبرغم أن الشاطبي قد استنقى مؤلفاته من كتب غيره مثل أبى عمرو الدانى ، فإنه مما لا شك فيه أنه انفرد بنظمها ووضع رموزها وإشاراتها ، وتقريب العلم بها لطلبة العلم وحفاظه ، حتى أصبحت كتبه ملاذ طلاب هذه الفنون أكثر من الأصول التى أخذت عنها[2].

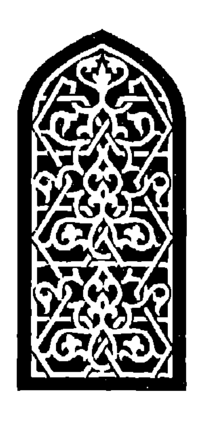
وقد ظل الشاطبي خادما للقرآن الكريم يقضى نهاره ومعظم ليله للاقراء بالمدرسة الفاضلية حتى توفى يوم الأحد[3] بعد صلاة العصر فى الثامن والعشرين من جماد الآخر سنة تسعين وخمسمائة ، ودفن بمقبرة القاضى الفاضل وخلف لنا واحدا هو محمد الشاطبي الذى روى قصيدة أبيه فى القراءات وهو مدفون بمدينة الاسكندرية والذى عرف حى الشاطبي باسمه لوجود ضريحه به .

---

(١) أبو شامة زيل الروضتين ص ٧ .

(٢) أحمد بدوى : الحياة العقلية فى عصر الحروب الصليبية ص ١٠٤ .

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٢٢ .



مسجد عبدالرحيم القناوى
بمحافظة قنا

ولد عبد الرحيم القنائى فى مدينة ترغاى بإقليم سبتة فى المغرب الأقصى سنة ٥٢١ هـ وقد نشأ هناك وترعرع ، فقد أمضى طفولته فى تحصيل العلم فى جامع ترغاى الكبير على يد والده كما تتلمذ على كبار العلماء فلم يكد يصل الثامنة من عمره حتى كان قد حفظ القرآن الكريم وجوده تلاوة وفهما ، وتوفى والده فى الثامنة عشرة من عمره . وكان رضى الله عنه يحب والده حبا عميقا ويرى فيه المثل الأعلى والقدوة الحسنة ، لذلك فقد تأثرت صحته وساءت حالته النفسية بسبب وفاته فمرض مرضا شديدا حتى أصبح شفاؤه ميئوسا منه ، مما جعل والدته العربية تفكر فى إرساله إلى أخواله فى دمشق . وفعلا رحل عبد الرحيم إلى دمشق حيث التقى هناك بأخواله وأهل والدته الذين أكرموا وفادته وسهلوا له مهمة الاتصال بكبار العلماء والفقهاء هناك . وقد أمضى فى دمشق سنتين نهل فيهما من علوم المشارقة كما تفقه فى علوم المغاربة ، ثم شده الحنين إلى العودة إلى مسقط رأسه فشد رحاله إلى ترغاى حيث أهله وعشيرته وكان قد بلغ فى ذلك الوقت العشرين من عمره .

وقد كان لامتزاج الثقافتين الشرقية والغربية أثرهما فى نفس عبدالرحيم فقد خلقت منه شخصية مصقولة متكاملة رغم حداثة سنه ، فقد دعى ابن العشرين ليحضر حلقات الدرس فى الجامع لا كتلميذ بل كمدرس ، حل محل والده ، فامتلأ المسجد حتى لم يعد فيه مكان لقادم ، إذ لم يقتصر الأمر على أهل ترغاى بل وعلى أهالى منطقة سبتة كلها الذين أتوا ليروا ابن شيخهم الذى وفد إليهم من دمشق وليستمعوا إلى المعلم الذى جمع بين ثقافتى

المغرب والمشرق وليروا أثر ذلك مع ابن العشرين . وقد أمضى عبد الرحيم خمس سنوات فى ترغاى يقوم بمهمة الوعظ والارشاد عن واجبات المسلم نحو ربه ومجتمعه بأسلوب ساحر أخاذ أبكى المستمعين تأثرا وإعجابا . على أن احداث المشرق فى ذلك الوقت من تكتل قوى الاستعمار الاوروبى المقنع تحت اسم الصليب ، للهجوم على بلاد المشرق واستعمارها كانت تشد تفكيره بقوة إلى المشرق حيث كان يرى وجوب تكتل كل قوى المفكرين من المسلمين لحماية الدول الاسلامية وتعبئ كل القوى المادية والمعنوية لحمايتها من التفكك والضعف والانحلال الذى أوشك أن يصيبها . وفى تلك الأثناء توفيت والدته ، الأمر الذىجعله بالإضافة إلى الأسباب السابقة،أن يفكر فى الرحيل إلى المشرق ، فرحل من ترغاى ميمما وجهه شطر الحجاز لتأدية فريضة الحج ، وفى طريقه مر بمدينة الاسكندرية والقاهرة فتركا فى نفسه أثرا لم تمحه رحلته المقدسة إلى البلاد الحجازية . وبقى فى البلاد الحجازية تسع سنوات قضاها متنقلا بين مكة والمدينة ينهل من علم وفضل فقهائها وعلمائها تارة وعابدا معتكفا بالبيت الحرام أو بمسجد المدينة تارة أخرى أو متنقلا يسعى فى مناكبها للاتجار فى بعض المحاصيل سعيا وراء كسب الرزق حتى يستطيع التفرغ للعبادة والعلم دون أن يمد يده للاستجداء أو أن يكون عالة على أحد . حتى إذا كان موسم الحج العاشر ، التقى بمكة بأحد الشيوخ الانقياء الورعين القادمين من مدينة قوص عاصمة صعيد مصر فى ذلك الوقت وهو الشيخ مجد الدين القشيرى ، ودار بينهما حديث فتعارف فألفه أصر بعدها القشيرى على أن يصحبه شيخنا عبد الرحيم إلى مصر وإلى قوص وقنا بالذات حيث أن مجتمعها متعطش إلى علم وفضل أمثاله من أولياء الله الصالحين .

وهنا يقول السيوطى : « ومازال الشيخ يحاوره ويدلل على حججه وعلى أن عبدالرحيم ليس له مايربطه بمكة والمدينة أحد أو شئ ، وأن واجبه الإسلامى يدعوه إلى الإقامة فى قوص أو قنا ليرفع راية الإسلام وليعلم المسلمين أصول دينهم وليجعل منهم دعاة للحق وجنودا للدين الله » . وأخيرا وافق عبد الرحيم على الرحيل إلى مصر فجاء بصحبة الشيخ مجد الدين القشيرى الذى كان يعمل حينئذ اماما بالمسجد العمرى بقوص وكانت له مكانته المرموقة بين تلاميذه ومريديه وكان ذلك فى عهد الخليفة العاضد بالله آخر خلفاء الدولة

الفاطمية ، ولكن عبد الرحيم لم يرغب البقاء فى قوص وفضل الانتقال لمدينة قنا تنفيذا لرؤى عديدة أخذت تلح عليه فى الذهاب إلى قنا والإقامة بها ولأن قوص ليست فى حاجة شديدة إليه فقد كانت وقتها غاصة بالعلماء والفقهاء وكبار المفكرين من أهل الدنيا والدين.

وبعد أن أمضى عبد الرحيم ثلاثة أيام بقوص رحل إلى قنا حيث التقى بالشيخ القرشى أحد أوليائها الصالحين فانعقدت أواصر الألفة بينهما وتحابا وتزاملا فى الله . وقد ساعد جو قنا الهادىء الشيخ عبد الرحيم على حياة التأمل فأمضى عامين كاملين يتعبد ويدرس ويختلى بنفسه ليتعرف على خباياها ولا يقطع عليه هذا الاختلاء وذاك التعبد إلا خروجه للتجارة التى يعتمد عليها فى معاشه ، فقد كان رحمه الله قد اتخذ لنفسه منهاجا لا يحيد عنه طوال حياته ، وهو العمل بيده حتى يكسب قوته . وقد درت عليه التجارة فى قنا ربحا وفيرا ساعدته على الانفاق على فقراء الطلاب والراغبين فى العلم وغير القادرين من أبناء المسلمين . وقد كانت لسيدى عبد الرحيم مدرسته الصوفية الخاصة التى تسمح للطرق الصوفية الأخرى بالأخذ منها من غير الخروج على طرقها ، إذ كان يقول : « إن الدين الإسلامى ، دين علم وإخلاص ، فمن ترك واحدة فقد ضل الطريق » . وقد أفاض فى شرح نظريته هذه فى كتاباته إذ كان يهتم رضى الله عنه دائما بالحديث عن العلم ، إيمانا منه بأن العلم دعوة سماوية ومتممة للعمل . وقد ترك الشيخ عبد الرحيم الكثير من المؤلفات منها تفسير القرآن الكريم ورسالة فى الزواج وكتاب الاصفياء وغيرها كثير . ولما تولى الأيوبيون مقاليد الأمور فى مصر ، عملت جاهدة على القضاء على المذهب الشيعى السائد فى عهد الدولة الفاطمية ونشرت المذهب السنى وكانت وسيلتها فى ذلك تولية شئون البلاد وحكمها لأصحاب المذهب السنى وخاصة المذهب الشافعى ، مذهب الأيوبيين الخاص فقد أصدر الملك العزيز بالله ابن صلاح الدين الايوبى قرارا بتعيين الشيخ عبدالرحيم شيخا لمدينة قنا ومنذ ذلك التاريخ أصبح شيخنا يعرف بالقنائى . وقد تزوج الشيخ عبد الرحيم بأبنة الشيخ القشيرى وبعد وفاتها تزوج ثلاثة أخريات أنجب منهن تسعة عشر ولدا وبنتا . واستقر الشيخ عبد الرحيم القنائى بقنا يلى شياختها وكان مركزه زاوية

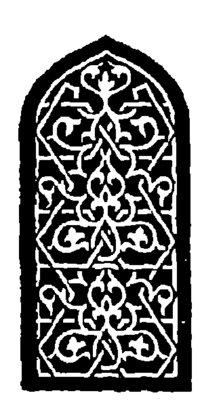
بجانب ضريحه الحالى يجتمع فيها بالوافدين عليه من كل مكان ، واستمر كذلك حتى توفى سنة ٥٩٢ هـ بعد أن عاش (٧٢) عاما .

* * *

أما مدينة قنا التى عاش فيها شيخنا الفاضل رضوان الله عليه ، فهى مدينة مصرية قديمة اسمها المصرى القديم (شابت) وفى العصر البطلمى عرفت باسم (كنابوليس) وفى العصر القبطى باسم (كونا) ومنها الاسم العربى (قونة) الذى حرف إلى (قنى أو قنا) . وجاء فى معجم البلدان ، قنا مدينة لطيفة بصعيد مصر بينها وبين قوص يوم واحد وتنسب إليها كورة قنا . ويقول ابن دقماق ، قنا بلدة فى ضفة النيل الشرقية مرتفعة البنيان بها مارستان (مستشفى) وحمامان وربط ، وهى الدور التى يتعبد فيها الصوفية وخرج من هذه المدينة جماعة من العلماء الرؤساء وأرباب المقامات والمكاشفات ، ولعله يقصد من بينهم الشيخ عبد الرحيم القنائى . وقد أعطانا الرحالة ابن جبير وصفا شاملا عن مدينة قنا فيقول : إنها من مدن الصعيد المشهورة كانت بيضاء أنيقة ذات مبان مشيدة ، وكانت مبانيها بالآجر واللبن وأكثرها مكون من طابقين ولما أصبحت المدينة عاصمة للمحافظة فى القرن التاسع عشر بنيت بها القصور لذوى الجاه والثروة والاشراف وكثرت اسواقها وازدحمت الحوانيت بأنواع البضائع الثمينة وكان بها كثير من أرباب الحرف ولكل طائفة شيخ ، وكان بها نحو اثنتى عشرة وكالة لاستقبال التجار الأجانب والوافدين عليها . ويقول على مبارك فى خططه : وبمدينة قنا قطعة أرض تقرب مساحتها من الفدان تؤخذ منها طينة طفلية تصنع منها الأوانى الفخارية التى تشتهر بها المدينة ، وعلى الرغم من الأخذ من هذا الفدان فإن مساحته لا تنقص » ، وتعليل ذلك سهل ميسور ، ذلك أن مياه الفيضان ترسب فيه كمية من الطمى تعادل تقريبا ما يؤخذ منه ، كما أنه قريب من مصرف قنا الذى تتجمع فيه مياه السيول من جبال البحر الأحمر ، وتقوم هذه السيول كذلك بترسيب كمية من طينة طفلية فى الفدان المذكور قبل تجمعها فى المصرف . وكان يوجد بقنا طريق يوصل إلى القصير يمر أولا بين الجبل والساحل متجها إلى الجنوب حتى يصل إلى بئر عنبر شرق قفط ثم يستقيم إلى جهة الشرق حتى يصل إلى القصير .

وصف المسجد

أما مسجد سيدى عبد الرحيم القنائى الملحق به ضريحه الموجود حاليا فيرجع إلى النصف الاول من القرن العشرين ، الا أنه حل محل الزاوية التى بناها الشيخ فى حياته والتى كان يتعبد بها ويستقبل فيها زواره ومريديه . ويتكون المسجد الحالى من صحن مربع مغطى بسقف به (شخشيخة) تعلو قبة صغيرة ضحلة . ويحيط بالصحن أربعة إيوانات عميقة متعامدة ، أكبرها ايوان القبلة ويقع فى الجهة الشرقية من المسجد ويتقدم كل ايوان عمودان كل منهما مكون من عمودين ملتصقين ، ويعلو العمودين ثلاثة عقود تكون واجهة الايوان . والمدخل الرئيسى للمسجد يقع فى الجهة الجنوبية وهو مرتفع إذ يصعد إليه بست درجات وتتقدمه مظلة ذات اعمدة ، وفى الركن الجنوبى الشرقى للمدخل توجد مئذنة الجامع وخلف الايوان الشمالى يوجد الضريح ، وهو عبارة عن غرفة كبيرة مربعة تعلوها قبة ترتكز على رقبة تقوم على ذلايات قصيرة فى أركان المربع . وخلف الايوان الغربى توجد دورة المياه .



ضريح ومدرسة السادات الثعالبة

بشارع سيدى عقبة

بالقرب من الإمام الشافعى

ينسب هذا الضريح والمدرسة إلى الامير الكبير الشريف فخر الدين أبو نصر اسماعيل ابن حصن الدولة فخر العرب ثعلب بن يعقوب بن مسلم بن أبي جميل دحية بن جعفر ابن موسى بن إبراهيم بن اسماعيل بن جعفر بن محمد بن على بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب . فهو إذن قرشى من آل البيت رضوان الله عليهم أجمعين ، ومن ثم فقد عرفت العائلة باسم السادات ولقب أبو النصر بلقب الشريف .

وكان أبو نصر اسماعيل ثعلب من كبار أمراء الدولة الايوبية فقد عينه الملك العادل أخو صلاح الدين أميرا للحاج والزائرين . وقد نسب إليه المقريزى[1] عدة منشآت ومدارس دينية غير المدرسة التى نحن بصدد الحديث عنها والتى يوجد بها ضريحه فيقول : « أنشأ الامير الشريف فخر الدين اسماعيل بن ثعلب المدرسة الشريفية التى بدرب كركامة على رأس حارة الجودرية (بدرب سعادة) من القاهرة ، التى تم بناؤها سنة اثنتى عشر وستمائة وهى من مدارس الفقهاء والشافعية » .

وقد وقف أبو منصور اسماعيل المدرسة الشريفية على الفقهاء الشافعية ويحدثنا ابن عبد الظاهر عن الحكايات والاحداث التى حدثت له عند وقفها فيقول : « وجرى له (اى اسماعيل الثعالبى) فى وقفها حكاية مع الفقيه ضياء الدين بن الوراق وذلك أن الملك العادل سيف الدين أبا بكر الايوبى ، لما ملك مصر وكان قد دخلها على أنه نائب للملك المنصور محمد بن العزيز عثمان بن صلاح الدين الايوبى ، قوى عليه وقصد الاستبداد بالملك فأحضر الناس للحلف وكان من جملتهم الفقيه ضياء الدين بن الوراق . فلما شرع الناس فى الحلف قال الفقيه ضياء الدين ما هذا الحلف ؟ بالأمس حلفتم للمنصور، فإن كانت تلك الايمان باطلة فهذه باطلة ، وإن كانت تلك صحيحة فهذه باطلة » .

---

(١) الخطط ج ٢ ص ٣٧٣ .

فنقل أحد الامراء المقربين من العادل ، وهو الصاحب صفى الدين بن شكر ما حدث من الفقيه ضياء الدين وقال له : أفسد عليك الأمور هذا الفقيه ، فأمر العادل ، بالحوطة على جميع موجود الفقيه وماله وأملاكه واعتقاله بالرصد (مسجد) مرسما عليه فيه لأنه كان مسجده ، فأقام مدة سنتين على هذه الصورة .

ويستطرد المقريزى فى سرد القصة فيقول : فلما كان فى بعض الأيام وجد غرّة من المترسمين (أى تهاون من الحراس) فحضر إلى دار الوزارة بالقاهرة ، فبلغ العادل حضوره فخرج إليه فقال له الفقيه : اعلم والله أنى لا حاللتك ولا برأتك ، أنت تتقدمنى إلى الله فى هذه المدة (أى تموت قبلى) وأنا بعدك أطالبك بين يدى الله تعالى وتركه وعاد مكانه بمسجد الرصد بالفسطاط (مصر القديمة) .

وتصادف أن حضر صاحب الترجمة فخر الدين بن ثعلب إلى الملك العادل فوجده متألما فسأله عن مصدر ألمه فعرفه به ، فرد عليه الشريف الثعلبى قائلا : يا مولانا ولم تجرد اسم فى نفسك ، فرد عليه العادل قائلا ، خذ كل ما وقعت بالحوطة عليه (أى ما حجر عليه) وكل ما استخرج من أجرة أملاكه وطيب خاطره .

أما الفقيه ضياء الدين فبالرغم من تحفظ العادل عليه بمسجد الرصد البعيد عن القاهرة ، الا أن تلاميذه ومحبوه كانوا قد كثروا كثرة ملحوظة وذلك لورعه وتقواه ولأنه لا يخشى فى الله لومة لائم . وحدث بعد مقابلته للملك العادل أن رأى فى منامه رؤيا ، فلما أصبح وحضرت إليه جماعة من الطلبة للقراءة عليه ، قال لهم ؛ رأيت البارحة النبى صلى الله عليه وسلم وهو يقول : « يكون فرجك على يد رجل من أهل بيتى صحيح النسب » .

فبينما هم فى هذا الحديث ، كما يروى المقريزى ، وإذا بغبرة ثارت من جهة القرافة (حيث يوجد مسجد الرصد) فانكشفت عن الشريف ابن ثعلب ومعه الموجود كله (أى ما حجر عليه من أموال الفقيه) . فلما حضر عرفه الجماعة المنام فقال الشريف الثعلبى : يا سيدى أشهد على أن جميع ما أملكه وقف وصدقة شكرا لهذه الرؤيا .

ويضيف المقريزى فيقول : وخرج الشريف الثعلبى عن كل ما يملكه وكان من جملة ذلك المدرسة الشريفية لأنها كانت مسكنه ووقف عليها أملاكه وكذلك فعل فى غيرها . ولم يحلل الفقيه الملك العادل ومات الملك العادل بعد ذلك ومات الفقيه بعده بمدة ، وتوفى الشريف اسماعيل بن ثعلب بالقاهرة فى السابع عشر من شهر رجب سنة ثلاث عشرة وستمائة ، ودفن بضريحه بمدرسته بشارع سيدى عقبة .

وصف المدرسة والضريح

لم يبق من المدرسة والضريح المعروف باسم السادات الثعالبة غير جزئين ، المدخل والثانى الايوان المقبي ومن المرجح أنهما كانا يكونان جزءا من المبنى الاصلى . ويعتبر الايوان ، أقدم ايوان مقبي ما يزال موجودا فى مصر حتى الآن . ويدخل الآن إلى الايوان من الطريق مباشرة وذلك بواسطة الهبوط بدرج تحت مستوى الشارع ويؤدى الدرج إلى ردهة يتوسطها عمود مثمن الشكل يقسمها إلى قسمين . ثم نجد بعد ذلك فتحة فى الحنية الشرقية للايوان يبدو واضحا أنها فتحت حديثا . وفوق هذه الفتحة يوجد جزء من شاهد قبر عليه كتابة كوفية مؤرخة سنة ٣٠٤ هـ فى شهر المحرم ، مما يدل على أنها أخذت من مبنى قديم . وتشبه الكتابة التى على الشاهد تلك الموجودة على شاهد قبر يحيى الشبيهى .

ويرى فان بيرشم (Van Bercham) أن الايوان والمدخل يرجعان إلى مبنى واحد . وأن شاهد القبر الموجود على ضريح أبو منصور اسماعيل يثبت أنه ضريح الشريف كما تثبت تاريخ الوفاة فى شهر رجب سنة ثلاث عشرة وستمائة (سنة ١٢١٦ م) .

كما يوجد ثلاث قطع من الخشب بمتحف الفن الإسلامى بالقاهرة عليها اسم أبو منصور الثعالبي ، وقطعة رابعة بمتحف فكتوريا عليها الاسم وتاريخ الوفاة فى رجب سنة ٦١٣ هـ .

ولقب شريف يدل على أنه ينتسب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، كما أن شريط الكتابة التى تحيط بالمدخل يحتوى على آيات تشير إلى آل البيت ، من سورة الاحزاب الآية (٣٣) :

بسم الله الرحمن الرحيم

انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا .

سورة الشورى الآية (٢٣) بسم الله الرحمن الرحيم

« قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى »

ويرى الأستاذ كزويل أن قطعة الرخام الموضوعة على القبر تخص مدخل المدرسة .

* * *

يبلغ ارتفاع المدخل الرئيسى (١٧ر٤) متراً واتساعه (٤٢ر٤) متراً وهو من الحجر. أما الباب فيبلغ ارتفاعه ٢٣ر٢ واتساعه (٢٨ر١) متراً ويقع فى حنية تدخل عن الواجهة بمقدار (١٦) سم واتساعها (٢٦ر٢) مترا . ويعلوها عتب مكون من صنجات معشقة طولها (٢٦ر٢) مترا وارتفاعها (٦٥) سم ، يحيط بها إطار غاية فى الجمال . ويعلو الصنجات مربعات ( ) بارزة بها زخارف مختلفة هندسية ونباتية وكتابية بالخط الكوفى ، ويبلغ طول ضلعها ١١سم . وتمتاز زخارف المربعات بتنوعها إذ أننا لانجد مربعين بهما زخارف متشابهة .

وفى وسط المدخل يوجد شريط عريض به كتابة قرآنية بالخط النسخ على أرضية مورقة . ويعلو إطار الصنج بلاطة من الرخام من المرجح أنها حلت محل شريط من الكتابة ، الذى سبق الإشارة إليه أنه استعمل كشاهد قبر للمقبرة الموجودة داخل الايوان .

وإذا مررنا داخل الباب نلاحظ أن الصنجات المعشقة ترى من الواجهة الداخلية كذلك ، كما نجد أن سقف المدخل مغطى بقبو يقرب شكله من نصف القبة الضحلة . فإذا ما تقدمنا قليلا نجد بقايا الممر وعرضه (٧١ر٣) متر ، جدرانه مبنية من الآجر . وكان مغطى بقبو ما تزال بدايته موجودة فى زاويتين بقرب الباب ، وطوله الآن (٩ر٦) مترا .

أما ايوان المدرسة فهو أقدم ايوان ما يزال موجودا بمصر حتى الآن ، ويتكون من مستطيل يبلغ طوله من الخارج (٥ر٢١) مترا وعرضه (٢٠ر١١) مترا وعمقه (٨٩ر٩) مترا ، وفتحته يبلغ اتساعها (٣٠ر٦) مترا . والايوان مبنى من الآجر ، وعلى جانبيه توجد حنيتان اتساع كل منهما (٣٣ر٣) مترا وعمقها (١٧ر٢) مترا . ويعلو فتحة الحنيات عتب خشبى يعلوه عقد عاتق ، ومن المرجح أن يكون سقف الحنيتين من الخشب وعلى جانبى الحنيتين توجد غرفتان صغيرتان مقبيتان ، الجنوبية منهما بها نافذة على شكل فتحة رمى السهام ، ولها جلسة منحدرة ، تشبه تلك الموجودة فى غرفة مسجد لولو وفى ضريح مصطفى باشا .

وفى صدر الايوان يوجد محراب مجوف كبير يبلغ ارتفاعه (٣٥ر٥) مترا واتساعه (٣٨ر٢) مترا ويحتوى على أربع حواف . ويعلو المحراب عقد منكسر ، وفوق العقد توجد نافذة مكونة من ست فتحات على الترتيب التالى : ثلاث فتحات فوقها اثنان يعلوهما فتحة واحدة . ويرتفع الحائط بمقدار متر واحد أعلا النافذة .

ويبلغ ارتفاع قبو الايوان (٩) أمتار ، وهو مبنى بنفس الطريقة التى بنيت بها قناطر البساتين ، وذلك ببناء المداميك الأُولى القريبة من الأَرض والتى ترتفع إلى بداية العقد ، فى وضع أفقى إلى ارتفاع أربعة أمتار ثم تبنى المداميك التى تلى ذلك فى وضع رأسى .

وفى وسط الايوان توجد مقبرة مكسى معظمها بالجص ومبيضة .

وتبلغ مساحة المقبرة (٢و٨ × ١و٨٥) متراً وضع على إحدى نهايتها لوح من الرخام عليه كتابة محفورة وينتهى بعقد منكسر ، ومقاسه يوافق مقاس الشريط الحالى الذى يعد المدخل الرئيسى للمدرسة مما يقطع بأنه أخذ من هناك .

وبالرغم من اندثار باقى أجزاء المدرسة ، فإن الأُستاذ كزويل يرى أن المدرسة كانت مكونة من إيوانين متقابلين وأن المقبرة كانت موجودة فى قبة مخصصة لذلك فلما سقطت نقلت المقبرة إلى الإيوان الباقى . ويدلل كزويل على رأيه هذا بالأَدلة الآتية :

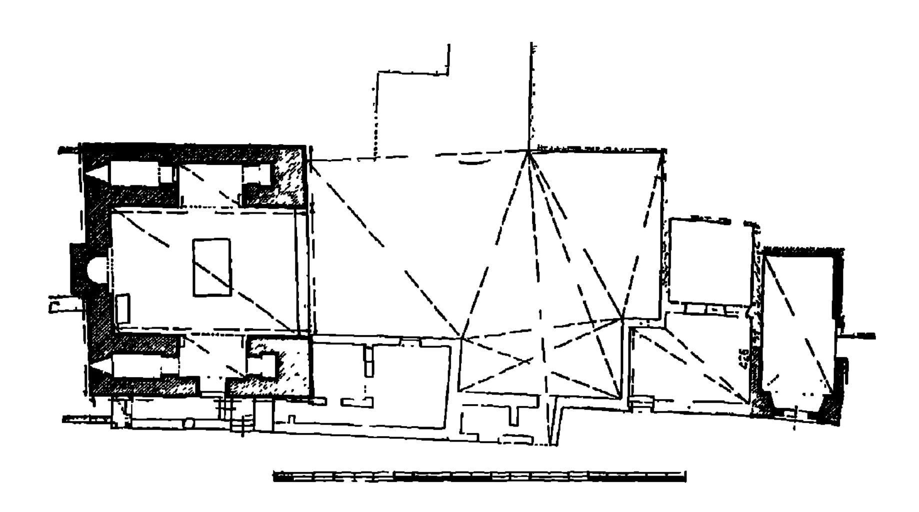
أولاً ــ أنه لا يوجد أضرحة فى مصر أو الشام داخل أواوين .

ثانياً ــ يقول المقريزى أن الشريف أبو منصور إسماعيل الثعالبى قد أنشأ مدرسة تعرف باسم المدرسة الشريفية لتدريس المذهب الشافعى ولكنها توجد بحارة الجودرية بالقاهرة ، بينما يوجد هذا المبنى بجوار الإمام الشافعى . ولكن لاتستبعد أن يكون مثل هذا الشريف الغنى الذى كان يشغل وظيفة أمير الحج منذ سنة ٥٩١ هـ وحتى وفاته سنة ٦١٣ هـ قد بنى مدرسة أخرى للمذهب الشافعى .

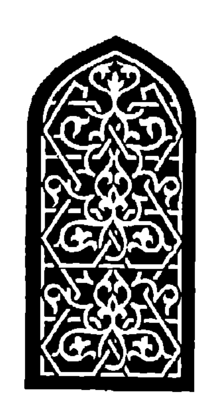
ثالثاً ــ يدل المدخل والايوان الباقى ، أنهما بقايا مدرسة مكونة من ايوانين ، وخاصة وأن المدارس فى العصر الأَيوبى كانت تتكون عادة من ايوانين فقط للمذهب الشافعى والمالكى.

رابعاً ــ لابد وأن يكون فى المدرسة قبة مدفون بها صاحب المدرسة وإن القطع الخشبية الموجودة بالمتحف الإسلامى بالقاهرة وبمتحف فكتوريا وألبرت بلندن ، ترجع إلى التابوت الخشبى الذى كان موضوعاً على التربة .

خامساً ــ من المؤكد أن الفتحتين اللتين بردهة المدخل الرئيسى كانت إحداهما تؤدى إلى المدرسة والأُخرى تؤدى إلى الضريح .



السادات الثعالبة



المدرسة الفخرية أوجقمق

بسكة درب سعادة
بحى الأزهر

أنشأ هذه المدرسة ، كما يقول المقريزى[1] ، الأمير الكبير فخر الدين أبو الفتح عثمان بن قزل البارومى ، استادار الملك الكامل محمد بن العادل الأيوبى . ولد الأمير فخر الدين سنة إحدى وخمسين وخمسمائة بحلب . ودخل فى خدمة سلاطين بنى أيوب وأمرائهم ، وأخذ يترقى فى سلك الوظائف حتى صار أحد الأمراء بالديار المصرية وقد أثبت من الكفاءة والذكاء حتى أنه وصل إلى وظيفة الأستادار فى عهد السلطان الملك الكامل .

وقد عهد إليه الملك الكامل أمر تدبير شئون المملكة ، فسار فيها أحسن سيرة . وكان خيراً كثير الصدقة يتفقد أرباب البيوت ، ترك كثيراً من الآثار ، منها المدرسة الفخرية ومسجد يقع تجاهه المدرسة وله أيضاً رباط بالقرافة وإلى جانبه كتاب وسبيل وبنى بمكة رباطاً .

وقد يكون من المفيد أن يتبين هنا اختصاصات وظيفة الأستادار فى عصر المماليك البحرية وفى عصر صاحب الترجمة الأمير فخر الدين ، حتى نرى ما كان عليه هذا الأمير من الجاه والسلطان . إن لقب أستادار يتكون من كلمتين (أستاذ ودار) أى السيد المشرف على الدار . وكان صاحب هذه الوظيفة فى عهد المماليك البحرية يتولى أمر البيوت السلطانية كلها من من المطابخ والشراب خانة والحاشية والغلمان ، وهو الذى كان يمشى بطلب السلطان فى الأسفار . كما كان له الحكم فى غلمان السلطان وباب داره وإليه أمور الجاشنكيرية (أى

(١) الخطط ج ٢ ص ٣٦٧ .

ذواق الطعام) . كما كان له الحديث المطلق والتصرف التام فى استدعاء ما يحتاجه كل بيت من بيوت السلطان من النفقات والكساوى وما يجرى مجرى ذلك[1] .

أما فى عصر السلطان الظاهر برقوق ، مؤسس دولة المماليك البرجية ، فقد ارتفعت اختصاصات وظيفة الاستادارية . فقد أصبح متوليها يناط به تدبير أموال المملكة ،فيتصرف فى جميع ما يرجع فيه إلى الوزير وناظر الخاص ، وصار الاخيران يترددان إلى بابه ويمضيان الامور برأيه ، فجلت منذ ذلك العهد رتبة الاستادار بحيث أنه صار فى معنى ما كان عليه الوزير فى آخر أيام الدولة الفاطمية .

ويحدد المقريزى موقع المدرسة الفخرية فى عهده فيقول ، هذه المدرسة بالقاهرة فيما بين سويقة الصاحب ودرس العداس ، أنشأها الامير فخر الدين سنة اثنتين وعشرين وستمائة . وقد بنيت المدرسة مكان دار الامير حسام الدين ساروح بن أرتق شاد الدواوين .

وقد بقيت هذه المدرسة عامرة مقامة الشعائر حتى القرن التاسع الهجرى ، فلما كانت سنة ٨٤٥ هـ بدأ الوهن يتطرق إليها وكادت تصبح أثرا بعد عين ، لولا أن قيض الله له السلطان الملك الظاهر جقمق الذى أعاد بناءها فتغيرت معالمها الأولى ومن ثم فقد أطلق عليها اسم مجددها السلطان جقمق وقد تمت عمارتها سنة ٨٥٥ هـ .

أما عن تاريخ منشئ المدرسة الموجودة حاليا ، فهو السلطان الملك الظاهر سيف الدين أبو سعيد جقمق العلائى الظاهرى ، عاشر سلاطين دولة المماليك الجراكسة ، بويع فى السلطنة بعد خلع الملك العزيز يوسف بن الاشرف برسباى ؛ وذلك فى سنة اثنتين وأربعين وثمانمائة.

وكان أصل الملك الظاهر جقمق جركسى الجنس جلبه الخواجا كزل فاشتراه منه العلائى على بن الاتابكى اينال اليوسفى وقدمه للملك الظاهر برقوق ، فصار من جملة المماليك السلطانية ثم بقى خاصكيا ، ثم رقى ساقيا ، ولما تولى السلطنة الملك الناصر فرج بن برقوق ، قبض عليه وحبسه ، فلما جاء الملك المؤيد شيخ أطلق سراحه وعينه أمير طبلخانة ، ثم خازندارا . وأخذ يترقى فى سلم الوظائف المملوكية ، فقد أصبح مقدم ألف فى دولة الملك الظاهر ططر ، ثم حاجب الحجاب فى عهد الاشرف برسباى ، ثم أمير آخور كبير ، وأميرسلاح إلى أن وصل فى عهد برسباى إلى أتابك العساكر . فلما توفى برسباى وتولى ابنه أصبح جقمق نظام المملكة ومشيرها ، فلما خلع ابن برسباى من السلطنة تولى جقمق كرسى السلطنة.

---

(١) المقريزى جـ ٢ ص ٢٢٢ .

ويصف لنا ابن اياس[1] شكل السلطان جقمق فيقول ، وكانت صفته معتدل القامة غليظ الجسد درى اللون ، مستدير الوجه ، مستدير اللحية ، حسن الشكل عليه وقار وسكينة ، مهيبا فى العيون، وكان فصيح اللسان بالعربية متفقها وله مسائل فى الفقه عويصة ترجع له فيها العلماء . ويضيف ابن اياس فيذكر مساوئه فيقول : لكنه كان ودينه (أى يسمع الوشاية) ماشا على قاعدة الاتراك عنده الدعوى لمن سبق ، وكان عنده حدة زائدة وبادرة فى الأمر .

وقد تزوج جقمق عدة زوجات من كبار عقائل الدولة حتى يضمن ولاء أسرهم ، فقد تزوج أولا خوند بنت البارزى ثم خوند بنت الامير جرباش الكريمى قاشق أمير سلاح ، ثم خوند بنت ابن عثمان وخوند الجركسية وأخيرا تزوج ببنت عبد الباسط ناظر الجيش .

وكان جقمق ملكا عظيما جليلا دينا خيرا متواضعا كريما يحب فعل الخير ، وكان لين الجانب يحب العلماء وينقاد إلى الشريعة ، ويقوم إلى العلماء إذا دخلوا عليه . وكان رقيق القلب يحب الأيتام ويكتب لهم الجوامك (كل ما يلزمهم من مأكل وملبس) ، ولا يخرج اقطاع من له ولد الا إلى ولده .

وكانت الدولة فى عهده ثابتة الأركان والقواعد ، فلم تحدث فتن ولا تجاريد ، وكان يحسن للأمراء الترا كمة ويعطيهم العطايا الجزيلة فكانوا تحت طاعته مدة ولايته . ويضيف ابن اياس فيقول ، وكان الملك جقمق طاهر الذيل عفيفا عن الصغائر والدنايا .

وقد بقى السلطان جقمق فى الحكم أربعة عشر عاما ، ثم مرض ولزم الفراش ، فلما اشتدت به وطأة المرض أرسل فى طلب الخليفة القائم بأمر الله حمزة والقضاة الأربعة ، فلما حضروا عهد بالملك إلى ولده المقر الفخرى عثمان ، وخلع نفسه من السلطنة واستمر عليلا ملازم الفراش إلى أن توفى سنة سبع وخمسين وثمانمائة ، فغسلوه وكفنوه وصلى عليه الخليفة حمزة بالقلعة ، ونزلوا به من باب المدرج وتوجهوا به إلى تربة قانباى الرماح التى عند دار الضيافة فدفن هناك وكثر عليه الحزن والأسى من الناس .

---

(١) بدائع الزهور فى وقائع الدهور ص ٣٣٢ .

وصف المدرسة

تقع المدرسة فى درب سعادة بالقرب من بداية شارع الأزهر ، وهى مسجلة بلجنة حفظ الآثار العربية تحت رقم (١٨٠) باسم مسجد وسبيل محمد سعيد جقمق ، والواقع أنها ليست مسجدا ولكنها مدرسة كما هو واضح من تخطيطها ، وكما هو ثابت من الكتابة المحفورة على المدخل الرئيسى لها . ولكن جمهور الكتاب فى العصر الحديث لا يفرقون بين المدرسة والمسجد على اعتبار أن كليهما يستعمل الآن مسجدا ، وتلاشت فكرة التدريس نهائيا التى من أجلها أنشئت المدارس طوال العصور الوسطى .

يقع المدخل الرئيسى للمدرسة فى الركن الشمالى الشرقى للمدرسة ويتكون عقد شاهق الارتفاع مدبب الشكل تملأ تجويفه مجموعة كبيرة من الدلايات البديعة الصنع ، والشارع مرتفع عن المدخل ببضعة درجات . وفى وسط المدخل يوجد باب يؤدى إلى ممر طويل يبلغ طوله (١٨) مترا أى بطول الضلع الشمالى للمدرسة . ويعلو هذا الباب عتب فوقه عقد عاتق ، وقد نقش على هذا العتب بالخط الثلث المملوكى النص التالى : « انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين » . أمر بانشاء هذه المدرسة المباركة مولانا السلطان الملك الظاهر محمد أبو سعيد جقمق خلد الله ملكه وثبت قواعد دولته بمحمد وآله يارب العالمين . وكان الفراغ من ذلك مستهل شهر المحرم سنة خمس وخمسين وثمانمائة من الهجرة » . وعلى جانبى هذا الباب توجد مكسلتا ن .

وينتهى الممر السابق الإشارة إليه ببابين أحدهما يؤدى إلى دورة مياه المدرسة والثانى يؤدى إلى صحن المدرسة . والصحن مربع الشكل إذ يبلغ طول ضلعه عشرة أمتار تقريبا . وهو مكشوف وتحيط به أربعة ايوانات .

ويقع ايوان القبلة فى الضلع الشرق ويتقدمه عقد مدبب على شكل حدوة الفرس تبلغ فتحته (٨) أمتار وعمقه (٦) أمتار . وفى صدر الايوان يوجد ثلاثة محاريب الأوسط منهم

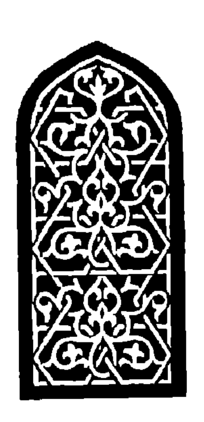
مجوف وله حافتان، والجانبيان مسطحان . وتعلو المحاريب جميعها عقود مدببة قليلا . وعلى جانبى الايوان يوجد حنيتان الشمالية منهما فتحت فيها نافذة تطل على الممر والثانية بها جلسة لمقرئ القرآن .

وإلى يمين المحراب المتوسط يوجد منبر المدرسة ، وهو حديث الصنع لا يرجع إلى عهد انشائها ، ويعلو جدار القبلة نافذتان معقودتان ومملوءتان بالجص والزجاج المعشق المتعدد الرسوم والألوان . كما يوجد فى الضلع الشمالى لايوان القبلة مجموعة من النوافذ المطلة على الممر وسقف الايوان من الخشب قد نقشت عليه بالرسوم الزيتية زخارف هندسية ونباتية غاية فى الدقة والابداع وهى ترجع إلى القرن التاسع الهجرى مع بعض ترميمات طفيفة أجريت فى أوائل القرن العشرين .

ويقابل ايوان القبلة ايوان مماثل فى الجهة الغربية من المدرسة يعلوه عقد مدبب على شكل حدوة الفرس تبلغ فتحته (٨) أمتار الا أنه أقل عمقا من إيوان القبلة ، إذ يبلغ عمقه (٤) أمتار . ويتصدر الايوان ثلاثة حنيات مسطحة وعلى جانبيه حنيتان عميقتان بهما جلستان . وهذا الايوان خالى من النوافذ والفتحات .

ويوجد فى الضلعين الشمالى والجنوبى للمدرسة ايوانان يتقدم كل منهما عقد مدبب على شكل حدوة الفرس ممتد يبلغ اتساع فتحته (٤) أمتار وعمقه ٤ أمتار . وفى صدر كل منهما حنيتان مسطحتان وعلى جانبيه حنيتان .

وبصحن المدرسة توجد أربعة أبواب يؤدى كل واحد منها إلى مدرسة مكونة من ثلاثة طوابق حيث كان الطلبة يتلقون دروسهم المدنية ، كما يبيت القسم الداخلى منهم . وقد اندثرت هذه المدارس تماما الآن ولم يبق الا بعض غرف فى الطابق الأول تستعمل كمخازن الآن .



المدرسة الكاملية

بشارع المعز لدين الله
بحى الجمالية
"بين القصرين سابقا"

أنشأ هذه المدرسة السلطان الملك الكامل بن الملك العادل ، الذى قال عنه خطيب مكة[1] فى عهده : سلطان مكة وعبيدها ، واليمن وزبيرها ومصر وصعيدها ، والشام وصناديدها والجزيرة ووليدها ، سلطان القبلتين ، ورب العلامتين وخادم الحرمين الشريفين الملك الكامل أبو المعالى ناصر الدين محمد خليل أمير المؤمنين . ويقول أبو المظفر[2] : ولد الكامل سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة ، وكان أكبر أولاد الملك العادل بعد ولده مودود . وكان العادل قد عهد إليه لما رأى من ثباته وعقله وسداده . على أن الحافظ الذهبى يقول فى كتابه تاريخ الإسلام ، أن السلطان الكامل بن السلطان العادل قد ولد بمصر سنة ست وسبعين وخمسمائة . وهناك قول ثالث فى مولده فقد جاء فى معجم ابن المسدى ، أن الكامل ولد فى ذى القعدة سنة خمس وسبعين وخمسمائة .

ومهما يكن من اختلاف فى أمر تحديد تاريخ مولده فإن الجميع يتفق على أن الملك الكامل كان قد تولى سلطنة مصر فى حياة والده العادل . فقد قسم العادل الممالك التابعة له فى أولاده ، فأعطى المعظم عيسى دمشق ، وأعطى الأشرف موسى الشرق ، وأعطى الملك الكامل محمدا هذا مصر ، وصار ينتقل فى ممالك أولاده .

فلما توفى الملك العادل تفرد الملك الكامل محمد بالخطبة فى ديار مصر وأعمالها ، واستقل بأمورها وتدبير أحوالها ، وذلك من يوم وفاة والده سنة خمس عشرة وستمائة .

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان .

(٢) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٢٢٧ .

وتجمع المراجع على أن الملك الكامل كان شجاعا ذكيا فطنا يحب العلماء والأماثل ويلقى عليهم المشكلات ، ويضيف أبو المظفر فيقول ، ويتكلم على صحيح مسلم بكلام مليح ، كما كان محبا للحديث وأهله ، حريصا على حفظه ونقله ، وللعلم عنده شرف ، خرّج[1] له أبو القاسم بن الصفراوى أربعين حديثا ، وسمعها جماعة ، وحكى عنه مكرم الكاتب أن أباه العادل استجاز له الإمام السلفى ، قبل موت السلفى بأيام .

وللملك الكامل مواقف مشهودة فى جهاده ضد الصليبيين فى دمياط ، كما أنفق الأموال الكثيرة فى سبيل القضاء عليهم ، بعد أن كافحهم برا وبحرا ليلا ونهارا ، ولم يزل على ذلك حتى أعز الله الإسلام وأهله وخزل الكفر وأنصاره . ويحدثنا ابن خلكان عن انتصار الملك الكامل فى دمياط على أعدائه الصليبيين فيقول : لما ملك الفرنج دمياط ، وصارت فى أيديهم خرجوا منها قاصدين القاهرة ومصر ، ونزلوا فى رأس الجزيرة التى تقع عليها دمياط . والمقصود[2] هنا بالجزيرة ، هى الأرض التى تشغلها اليوم مركز فارسكور ، وقد عرفت بالجزيرة لوقوعها بين فرع دمياط وبحر أشموم الذى يعرف اليوم باسم البحر الصغير ، وهذان الفرعان يتقابلان عند مدينة المنصورة على شكل مثلث رأسه المنصورة وقاعدته بحيرة المنزلة . وكان المسلمون قبالتهم فى القرية المعروفة بالمنصورة والبحر حائل بينهم وهو بحر أشموم ، ونصر الله سبحانه وتعالى ، وتوفيقه وجميل لطفه منه على المسلمين ، فرحل الفرنج عن منزلتهم سنة ثمانى عشرة وستمائة ، وتم الصلح بينهم وبين المسلمين ، ورحل الفرنج عن البلاد .

ويذكر أبو المظفر ، المعاصر للملك الكامل ، فى ترجمته له ، أنه لما استراح خاطره من جهة هذا العدو تفرغ للأمراء الذين كانوا متحاملين عليه فنفاهم عن البلاد وبدد شملهم وشردهم . ثم دخل القاهرة وشرع فى عمارة البلاد واستخراج الأموال من جهاتها ، وكان سلطانا عظيم القدر جميل الذكر محبا للعلماء متمسكا بالسنة حسن الاعتقاد معاشرا لأرباب الفضائل حازما فى أموره لا يضع الشىء إلا فى موضعه من غير اسراف ولا إقتار . وكان يبيت عنده كل ليلة جمعة ، جماعة من الفضلاء يشاركهم فى مباحثهم ، ويسألهم

---

(١) الحافظ الذهبى (النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٢٢٨) .

(٢) تعليق النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٢٣١ .

عن المواضع المشكلة فى كل فن ، وهو معهم كواحد منهم . ويضيف فيقول ، وكان الكامل يعجبه هذان البيتان وينشدهما كثيرا وهما :

ما كنت من قبل ملك قلبى　　تصد عن مُذْنفٍ حزين
وإنما قد طمعتَ لما　　حللت فى موضع حصين

ولم يزل فى علو شأنه وعظيم سلطانه إلى أن مرض بعد أخذه دمشق ، وكان ينشد فى مرضه كثيرا هذا البيت :ـ

يا خليلىَّ خبِّرانى بصدق　　كيف طعم الكرى فانى نسيته

ولم يزل كذلك إلى أن توفى يوم الأربعاء بعد العصر ، ودفن بالقلعة بمدينة دمشق يوم الخميس الثانى والعشرين من رجب سنة خمس وثلاثين وستمائة . ثم بنى له تربة مجاورة للجامع الأموى ، ولها شباك إلى الجامع ، ونقل إليها .

المدرسة الكاملية

يصف المقريزى[1] هذه المدرسة فيقول : هذه المدرسة بخط بين القصرين من القاهرة وتعرف بدار الحديث الكاملية ، أنشأها السلطان الملك الكامل فى سنة اثنتين وعشرين وستمائة ، وهى ثانى دار عملت للحديث ، فإن أول من بنى دارا هو الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى بدمشق ثم بنى الكامل هذه الدار ووقفها على المشتغلين بالحديث النبوى ، من بعدهم على الفقهاء الشافعية . ووقف عليها الربع الذى بجوارها على باب الخرتشف (الخرنفش) ويمتد إلى الدرب المقابل للجامع الأقمر . وهذا الربع من إنشاء الملك الكامل وكان موضعه من جملة القصر الغربى ثم صار موضعا يسكنه القماحون . وكان موضع المدرسة سوقا للرقيق ودارا تعرف بابن كستول .

وأول من ولى تدريس الكاملية ، الحافظ أبو الخطاب عمر بن الحسن بن على بن دحيه ثم أخوه أبو عمرو عثمان بن الحسن بن على ، ثم الحافظ عبد العظيم المنذرى ، ثم الرشيد العطار . وما برحت بين أعيان الفقهاء إلى أن كانت الحوادث والمحن منذ سنة ست وثمانمائة فتلاشت لما تلاشى غيرها ، واستمرت دهرا لا يدرس بها حتى نسيت أو كادت تنسى دروسها ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

---

(١) المقريزى جـ ٢ ص ٣٧٥ .

وصف المدرسة

تنص الكتابة على المدخل أن الأمير حسن الشعراوى كتخدا أصلح المدرسة الكاملية بعد أن تهدمت فى (سنة ١١٦٦ هـ - سنة ١٧٥٢ م) . وبالكشف عن المدرسة تبين أن حسن الشعراوى كتخدا لم يجر لها أى إصلاح ولكنه بنى مسجدا على جزء من الإيوان الشرقى ، أى إيوان القبلة ، من المدرسة الكاملية . أما الجزء الباقى من المدرسة الآن فهو الإيوان الشمالى الغربى المقابل لايوان القبلة ، وجزء من الضلع الجنوبى الغربى من الإيوان الجنوبى الغربى .

والايوان الشمالى الغربى يكاد يكون مربع التخطيط ، إذ يبلغ عمقه (١٠ر٣٥) مترا وفتحته (٩ر٥٦) مترا وفى نهايته يوجد عقد فتحته تبلغ (٥) أمتار ، بداخله حنية عمقها (٣ر٧٥) مترا . والايوان مغطى بقبو مدبب ، ولكن الحنية سقفها مسطح وترتفع جدرانها بارتفاع القبو ، ولذلك فإن الأستاذ كزويل يرجح أن تكون الحنية قد بنيت لتكون ملقفا للايوان فغطيت بسقف خشبى منحدر (Sloping) يشبه إلى حد كبير فى تصميمه غطاء علبة فتح بمقدار فى الاتجاه الشمالى بحيث يسمح للرياح الشمالية السائدة بالدخول ودفعها إلى أسفل . وستجد هذه الظاهرة (الملقف) فى مدرسة الناصر محمد (سنة ٧٠٣ هـ سنة ١٣٠٣ م) ، وفى خانقاه بيبرس جاشنكير (سنة ٧٠٩ هـ سنة ١٣١٠ م) ، كما وجدت فى المدرسة الظاهرية فى حلب وكذلك انتشرت على نطاق واسع فى منازل العصر العثمانى فى مصر .

وعلى جانبى الحنيه توجد فتحتان معقودتان ، اتساع كل منهما (١ر٣٠) مترا ، ولكن الغرف التى كانت تؤدى إليهما الفتحتان قد اختفيتا الآن . وعلى جانبى الإيوان الكبير توجد فتحتان كذلك اتساع كل منهما (٢ر١٤) مترا على كل منهما عتب (tie-beam) من الخشب يعلوه عقد عائق . كما توجد فتحة مماثلة من حيث الاتساع فى نهاية الحنية ولكنها تزيد فى الارتفاع بمقدار متر ونصف على فتحتى الايوان ، وقد سدت هذه الفتحات الثلاث بالآجر والحجر والدمشقوم .

وجدران الايوان مبنية من الحجر الكبير حتى نصل إلى بداية القبو ، التى كان يبلغ ارتفاع كل أربعة مداميك منها (١٫٧٤) مترا . وهى بذلك تشبه أحجار ضريح الإمام الشافعى وقلعة الجبل ، إذ يبلغ ارتفاع كل مدماك (٤٤ سم) . أما مبانى الحنية وكذا القبو ، فمن الآجر . ويبلغ سمك حائط القبو عند بدايته (مترا) ثم يستدق حتى يصل إلى (٤٥سم) عند نهايته .

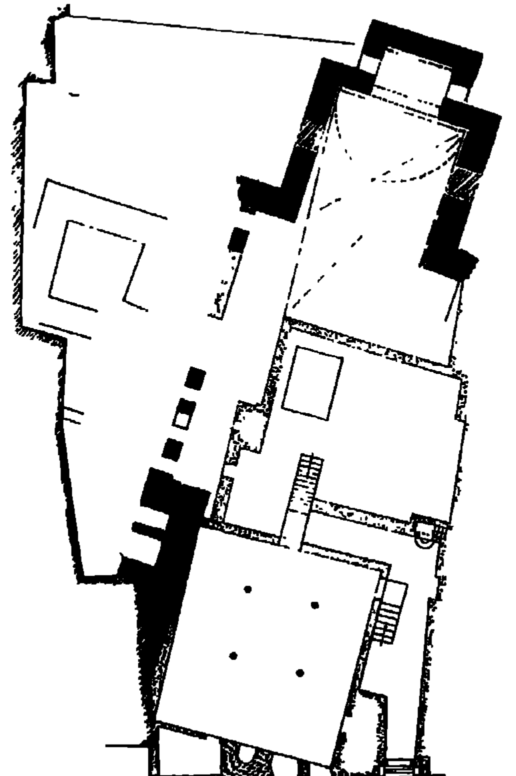
ويتوسط المدرسة صحن تبلغ مساحته (١٥٫٤٤ – ١٩٫٩٠) مترا ، يشغل جزء كبير منه الآن ميضأة مسجد حسن الشعروى كتخدا . ويشغل الجانب الشمالى من المدرسة الآن حمام يعرف باسم حمام السلطان إينال ، وإن كان قد جاء ذكره فى خريطة الحملة الفرنسية باسم حمام البيسارى نسبة إلى الدار البيسرية التى بنيت سنة ٦٥٩ هـ . التى تكلم عنها المقريزى[1] فقال : هذه الدار بخط بين القصرين من القاهرة ، كانت فى آخر الدولة الفاطمية ، قد أعدت لكى يجلس فيها قصاد الفرنج عندما تقرر الأمر معهم على أن تكون نصف ما يحصل من مال البلد للفرنج . فلما زالت الدولة الفاطمية ، ثم زالت دولة بنى أيوب وولى سلطنة مصر الملوك من الترك إلى أن كانت أيام الملك الظاهر بيبرس ، شرع الأمير ركن الدين بيبرس الشمسى الصالحى النجمى فى عمارتها فى سنة تسع وخمسين وستمائة » . ويصف المقريزى دار البيسرية فيقول : وتأنق فى عمارتها وبالغ فى كثرة المصروف عليها ، فأنكر الملك الظاهر بيبرس ذلك من فعله وقال له يا أمير بدر الدين ، أى شىء خليت للغزاة الترك ، فقال صدقات السلطان والله يا خوند ما بنيت هذه الدار إلا حتى يصل خبرها إلى بلاد العدو ويقال بعض مماليك السلطان عمرّ دارا غرم عليها مالا عظيما ، فاعجب من قوله ذلك السلطان وأنعم عليه بألف دينار عينا ، وعدّ هذا من أعظم إنعام السلطان . وكان سعة هذا الدار باسطبلها وبستانها والحمام بجانبها نحو فدانين ورخامها من أبهج رخام عمل فى القاهرة ، وأحسنه صنعة ، فكثر تعجب الناس إذ ذاك من عظمها . وعندما كملت عمارة هذه الدار وقفها وأشهد عليه بوقفها إثنين وتسعين عدلا من جملتهم قاضى القضاة تقى الدين بن دقيق العيد وقاضى القضاة تقى الدين بن نبت الأعز وغيرهم . وما زالت الدار بيد ورثة بيسرى إلى سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة » . ويستطرد المقريزى

(١) المقريزى جـ ٢ ص ٦٩ .

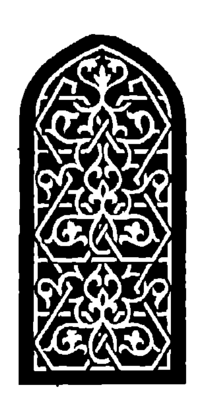
فى الحديث عن الدار وما صارت إليه فيقول : وآخر ا حكم به من استبدالها فى أعوام بضع وثمانين وسبعمائة فصارت من جملة الأوقاف الظاهرية برقوق وهى الآن أى (سنة ٨٤٠ هـ) بيد ابنه بيرم . وكان لها باب بوابته من أعظم ما عمل من البوابات بالقاهرة . ويتوصل إلى هذه الدار من هذا الباب وهو بجوار حمام بيسرى من شارع بين القصرين » .

مما تقدم يتبين لنا أن دار البيسرية قد بنيت فى آخر العصر الفاطمى وظلت فى العصر الأيوبى ثم أعاد بناءها الأمير ركن الدين بيبرس شمس الدين الأشرفى النجمى سنة ٦٥٩ هـ وظلت فى يد الورثة حتى سنة ٧٣٣ هـ . ثم أصبحت فى وقف برقوق سنة ٨٤٠ هـ ، ومعنى هذا أن حمام بيسار بنى قبل المدرسة الكاملية وظل بعد بنائها ، وبالتالى فإن مساحة المدرسة لم تتغير ، وعلى ذلك فلابد من وجود مبانى تابعة للمدرسة فى الجهة الشمالية ، كغرف للطلبة ، كما يوجد فى الجانب الجنوبى ، وما تزال فتحات الغرف باقية حتى الآن .

أما صورة النافذتين التى تحتفظ بها لجنة حفظ الآثار فيرجح الأستاذ كزويل ، أنهما صورة لخلاوى الطابق الثانى من غرف الطلبة ، كما هو الحال فى غرف طلبة خانقاه برقوق .



المدرسة الكاملية



مسجد عمر بن الفارض

بالقاهرة

إن كان منزلتى فى الحب عندكم ما قد رأيت فقد ضيعت أيامى

أمنية ظفرت روحى بها زمنا واليوم أحسبها أضغاث أحلام

وأن يكن فرط وجدى فى محبتكم إثما فقد كثرت فى الحب آثامى

هو أبو الحفص وأبو القاسم عمر بن أبى الحسن على بن المرشد بن على ، ويعرف بابن الفارض ، وينعت بشرف الدين ويلقب بسلطان العاشقين . وقد غلب عليه هذا اللقب أما السبب فى تسميته بابن الفارض فيرجع إلى أن أباه كان يعمل فارضا ، أى الذى يثبت الفروض للنساء على الرجال بين يدى الحكام ، ومن هنا غلب على الوالد لقب الفارض وعرف ابنه بابن الفارض . ويقال أن نسبه ينتهى إلى قبيلة عربية هى قبيلة بنى سعد التى انتسبت إليها حليمة السعدية مرضعة الرسول صلى الله عليه وسلم . قدم والد ابن الفارض مصر من حماه فسكنها واستقر بها وتدرج فى سلك الوظائف الحكومية فبدأ بوظيفة الفارض الذى يثبت فروضا للنساء على الرجال ، ثم ترقى إلى نيابة الحكم ثم عرض عليه بعد ذلك أن يتولى وظيفة قاضى القضاة ولكنه اعتذر عنها وفى ذلك يقول المقريزى : أجل رتب أرباب العمائم وأرباب الأقلام ، ويكون صاحب هذه الرتبة فى بعض الأحيان داعيا ، وعندئذ يقال له (قاضى القضاة وداعى الدعاة) ولا يخرج شئ من الأمور الدينية إلاّ عنه » ويضيف ابن إياس : ومع أن هذا المنصب كان من جلال القدر وعظم الشأن إلا أن ابن الفارض قد رفضه وآثر العزلة والانقطاع عن الناس معتكفا للعبادة لله عز وجل فى قاعة الخطابة بالجامع الأزهر ، وظل كذلك حتى وافته منيته .

اختلف المؤرخون اختلافا كبيرا فى تاريخ مولد ابن الفارض وإن كان من المرجح أن يكون التاريخ سنة ٥٧٦ هـ الذى ذكره ابن خلكان هو الأصح لأنه كما قال الدكتور مصطفى حلمى كان معاصرا لابن الفارض ولتحريه الدقة فيما يذكر ويؤرخ . ويقص علينا ابن الفارض نفسه فى كتاب حفيد عمر بن الفارض (ديباجة الديوان) كيف أمضى صدر شبابه وكيف كانت علاقته بوالده فيقول : (كنت فى أول تجريدى أستأذن والدى وأطلع إلى وادى المستضعفين بالجبل الثانى من المقطم وآوى فيه ، وأقيم فى هذه السياحة ليلا ونهارا ، ثم أعود إلى والدى لأجل بره ومراعاة قلبه . وكان والدى يومئذ خليفة الحكم للعزيز بالقاهرة ومصر المحروستين ، وكان من أكابر أهل العلم والعمل فيجد سرورا برجوعى إليه ، ويلزمنى بالجلوس معه فى مجالس الحكم ومدارس العلم ، ثم اشتاق إلى التجريد فأستأذنه وأعود إلى السياحة وما برحت أفعل ذلك مرة بعد مرة إلى أن سئل والدى أن يكون قاضى القضاة فامتنع ونزل عن الحكم واعتزل الناس وانقطع إلى الله تعالى بقاعة الخطابة فى الجامع الأزهر إلى أن توفى » .

عاش ابن الفارض فى كنف الدولة الأيوبية وكان عصره يحفل بطوائف شتى من العلماء والأدباء والفقهاء والزهاد والوعاظ والصوفية وقد آثر كل منهم فى الحياة المصرية من إحدى نواحيها العلمية والأدبية والشرعية والصوفية وكان لبعضهم اتصال قريب به منهم الإمام عز الدين بن عبد السلام الملقب بشيخ الإسلام والملقب بسلطان العلماء ومن الصوفية أبو الحسن بن الصباغ القوصى والشيخ عبد الرحيم القنائى .

وهكذا مهد التكوين العلمى والعملى والنشأة الروحية نفس ابن الفارض وقلبه وعقله مذ كان شابا يافعا أن يسلك طريق التصوف وأن يكون فى جميع مراحل حياته زاهدا متجردا سائحا متعبدا . وقد جاء فى (ديباجة الديوان) عن لسان ابن الفارض : أنه حضر يوما من سياحته فى القاهرة ودخل المدرسة السيوفية ، فوجد شيخا بقالا على بابها يتوضأ وضوءا غير مرتب ، فاعترض عليه ابن الفارض بأن هذا الوضوء مناف لقواعد الشرع ، وهنا نظر الشيخ إلى ابن الفارض وقال له : يا عمر ، أنت ما يفتح عليك فى مصر ، وإنما يفتح عليك بالحجاز فى مكة شرفها الله ، فاقصدها فقد آن لك وقت الفتح » . فدهش ابن الفارض من هذا القول ، ورد على الشيخ بأن الأمد بينه وبين مكة بعيد وأنه لا يجد ركبا ولا

رفقة غير أشهر الحج ، فقال له الشيخ وهو يشير (هذه مكة أمامك) فقال ابن الفارض ؛ فنظرت معه فرأيت مكة شرفها الله تعالى» . وهكذا رحل ابن الفارض إلى البلاد الحجازية وظل بها خمسة عشر عاما عاد بعدها إلى القاهرة سنة ٦٢٩ هـ بناء على إشارة من أستاذه وشيخه البقال بطريق الاتصال الروحى إذ استدعاه ليحضر وفاته ويجهزه ويصلى عليه ويدفنه» .

قضى ابن الفارض السنوات الأربع الأخيرة من حياته بالقاهرة حيث أقام بقاعة الخطابة فى الجامع الأزهر ، وعكف عليه الأئمة وقصده الخاص والعام حتى وافته منيته . وقد نظم ابن الفارض أكثر قصائده أيام إقامته بالحجاز ثم أملى ديوانه بعد عودته . ويحدثنا برهان الدين إبراهيم الجعبرى أحد الصوفية المعاصرين لابن الفارض ، عما شاهده عند حضوره احتضار ابن الفارض مما يكشف الكثير عما كان يسعى إليه من وراء هذا الحب الإلهى وأى مرام كان يرمى إلى أن يحققه له الله وقد أصبح فى طريقه إليه مما ألقى الضوء على المذهب الصوفى الذى ذهب إليه ابن الفارض فى حبه الإلهى مبرءا عن الهوى ، فقد جاء فى القصة : فقلت له (أى لابن الفارض) : يا سيدى هل أحاط أحد بالله علما ؟ فنظر إلىّ وقال : نعم إذا حيطهم يحيطون يا إبراهيم وأنت منهم ، ثم رأيت الجنة قد تمثلت له فلما رآها قال : آه وصرخ صرخة عظيمة وبكى بكاء شديدا وتغير لونه وقال :

إن كان منزلتى فى الحب عندكم ما قد رأيت فقد ضيعت أيامى

فقلت يا سيدى هذا مقام كريم ، فقال : ياإبراهيم رابعة العدوية تقول : وعزتك ما عبدتك خوفا من نارك ولا رغبة فى جنتك ، بل كرامة لوجهك الكريم ، ومحبة فيك . وليس هذا المقام الذى كنت أطلبه وقضيت عمرى فى السلوك إليه ، ثم بعد ذلك سكن قلقه وتبسم وسلم علىّ وودعنى وقال : احضر وفاتى وتجهيزى مع الجماعة وصل علىّ معهم ، واجلس عند قبرى ثلاثة أيام بلياليهن ثم توجه إلى بلادك» .

ولم تكن رياضة ابن الفارض لنفسه لتقف عند حد ، إذ لم يكن شهر رمضان عنده هو الشهر الذى تخصص بالصوم نهارا والاحياء ليلا ، وإنما رمضان عنده هو عمره كله وفى ذلك يقول :

فى هواكم رمضان عمره ينقضى ما بين احياء وطى
صاديا شوقا لصدا طيفكم جد ملتاع إلى رؤيا ورى

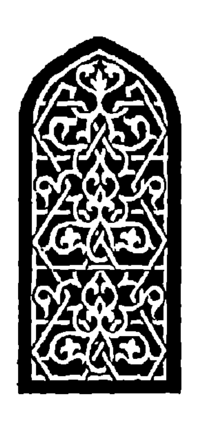
* * *

وصف المسجد

توفى ابن الفارض سنة ٦٣٢ هـ ودفن بالقرافة بسفح المقطم عند مجرى السيل تحت المسجد المعروف بالعارض وهو أعلى الجبل المذكور وهى (أى القرافة) بقعة مباركة كما يقول ابن الزيات بها جماعة من الأولياء والعلماء ، وقد دفن ابن الفارض تحت قدمى شيخه محمد البقال ، وقد أقيم على قبره ضريح منذ العصر الأيوبى إلا أن ذلك الضريح قد توالت عليه يد الاصلاح والتجديد ، فقد ورد فى الخطط التوفيقية أن السلطان إينال العلائى أضاف للضريح مسجدا ، كما خصص له الخدم القائمين على رعايته . وفى سنة ٨٦٠ هـ أوقف الأوقاف لصيانة المسجد والضريح وإطعام الفقراء وعين برقوقا ناظرا على هذا الوقف .

ويقع المسجد بالقرب من مسجد سيدى شاهين الخلوتى ، والضريح الحالى يرجع إلى عهد السلطان برقوق وهو عبارة عن غرفة مربعة مكونة من أربعة عقود تقوم عليها قبة حجرية غير مرتفعة وذلك لأنها ترتكز على منطقة الانتقال من المربع إلى دائرة مباشرة بدون وجود رقبة . وقد زخرفت أركان العقود بمجموعة من المقرنصات غاية فى الجمال والاتقان وفوق هذه المقرنصات شريط من الكتابة من آيات الذكر الكريم ويحيط بالضريح مقصورة من الحديد والخشب .

أما المسجد فيرجع تاريخه إلى القرن الثامن عشر ، فقد أنشأه أمير اللواء الشريف السلطانى على بك قازد على أمير الحج ، كما بنى لنفسه مقبرة بجوار المسجد ما تزال باقية حتى الآن . ويتكون المسجد من مستطيل ينقسم إلى مربعين منفصلين عن بعضهما تماما كما هو الحال فى الطراز العثمانى ، المربع الأول عبارة عن صحن مكشوف وتحيط به الأروقة من جميع الجهات ، أما المربع الثانى فهو إيوان القبلة وبداخله الضريح . ويحتوى إيوان القبلة على صفين من الأعمدة الرخام ، كل صف مكون من عمودين وتقسم هذه الأعمدة المسجد إلى ثلاثة أروقة وتقوم على الأعمدة عقود مدببة موازية لحائط القبلة .



مسجد الإمام الليث
بشارع الإمام الليث بالقاهرة

الليث بن سعد هو الإمام أبو الحارث الليث بن سعد بن عبد الرحمن الفهمى – نسبة إلى فهم وهم بطن من قيس عيلان[1] ، وهو أصفهانى الأصل ، مصرى المولد إذ ولد ببلدة قلقشندة إحدى قرى مديرية القليوبية وكان مولده فى شعبان سنة ٩٤ هـ وقيل أن مولده كان فى سنة ٩٣ هـ على اختلاف فى الروايات .

والإمام الليث من تابعى التابعين روى عن الكثير وروى عنه الكثير ، وأجمع العلماء على أمانته وعلو كعبه وسمو مرتبته فى الفقه والحديث وهو إمام أهل مصر فى زمانه .

كان الإمام الليث نبيلا سخيا ، حسن العقل وكان واسع الثراء كثير الأفضال وفى ذلك يقول الإمام الشافعى عندما جاء مصر وزار قبر الليث ما فاتنى شىء كان أشد علىّ من ابن أبى ذئب والليث بن سعد» .

ويروى أن الإمام الشافعى وقف على قبر الإمام الليث وقال : «لله درك يا إمام لقد حزت أربع خصال لم يكملهن عالم . العلم والعمل والزهد والكرم» .

ومما يؤثر أن الإمام الشافعى وابن بكير قالا : «إن الليث بن سعد أفقه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به» . ولذلك اندثر مذهبه خصوصا وقد نافسه تلاميذ مالك والشافعى .

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ١ ص ٦٢٥ ، تهذيب الأسماء ص ٥٢٩ .

كان الإمام الليث ممن منّ الله عليهم بثراء واسع وبسط لهم من نعمته فقد قيل أن دخله بلغ فى السنة الواحدة مائة ألف دينار ولم يغره هذا المال الطائل على اكتنازه أو البخل به، بل تجمع الروايات وتتناقل الألسن والمراجع أنه ما وجبت على الإمام الليث زكاة قط، وفى ذلك يقول محمد بن عبد الحكم : أنه كان يدخل لليث فى كل سنة أكثر من ثمانين ألف دينار وما وجبت عليه زكاة قط لأن الحول كان لا ينقضى عنه حتى ينفقها ويتصدق بها ، وكان له قرية بمصر يقال لها الفرما يحمل إليه من خراجها فيجعل ذلك صررا ويجلس على باب داره ويعطى صرة لهذا وصرة لهذا حتى لا يدع إلا اليسير .

ومما يروى عن الإمام الليث أنه لما زار المدينة المنورة أهدى الإمام مالك ألف دينار فقيل له كيف يكون عطاؤك له أكبر مما قدمه الخليفة إليه ؟ فأجاب بقوله كرهت أن أقدم للإمام مالك أقل من إيراد يوم مما أحصل عليه .

أما عن زهده فيحدثنا تلميذه يحيى بن بكير فيقول : «رأيت الفقراء يزدحمون على باب الليث بن سعد وهو يتصدق عليهم حتى لم يبق أحد منهم ، ثم مشى وأنا معه على سبعين بيتا من الأرامل ثم انصرف فمشيت معه فبعث غلامه بدرهم فاشترى زيتا وخبزا ثم جئت إلى بابه فرأيت أربعين ضيفا جاء إليهم باللحوم والحلوى فلما أصلح قلت لغلامه بالله عليك لمن الخبز والزيت ؟ فقال يطعم ضيفانه اللحم والحلوى ومارأيته يأكل إلا خبزا وزيتا» .

وحدث أن استدعى الخليفة هارون الرشيد الإمام الليث ليفتيه فى خلاف وقع بينه وبين زوجته السيدة زبيدة وقد أفتى الإمام الليث برد زوجته إليه ، فأمر له بمكافأة قدرها خمسة آلاف دينار فردها زاهدا فيها وقال للخليفة ادفعها لمن هو أحوج إليها منى .

وجاء ابن الزيات[1] فى مناقب الإمام الليث أن ابن النحوى قال «بلغنى عن يونس ابن عبد الأعلى الصدفى أنه قال صودر رجل من أهل مصر فى زمن الليث بن سعد ونودى على داره فبلغت أربعة آلاف درهم فاشتراها الإمام الليث بن سعد وبعثنى آخذ المفاتيح فوجدت فيها أيتاما وعائلة فقالوا بالله عليك اتركنا إلى الليل حتى ننظر خربة نذهب إليها . قال تركتهم وجئت إليه وأخبرته بالقصة فبكى وقال عد إليهم وقل لهم الدار لكم ولكم ما يقوم بكم فى كل يوم .

(١) الكواكب السياره : لابن الزيات ص ٩٩ .

كان الإمام الليث كثير الاتصال بمجالس العلم وكان يغشى مجالسها أينما كانت فحدث أن حج سنة ثلاث عشرة ومائة فسمع من ابن شهاب الزهرى ومن ابن مليكة وعطاء ابن أبى رباح وأبى الزبير ونافع وعقيل وعمران بن أبى أنس وهشام وجماعة من المشايخ فى هذه السنة .

وكان بمصر فى زمان هشام بن عبد الملك يزيد بن أبى حبيب وعبد الله بن أبى جعفر وجعفر بن ربيعة وأبو هبيرة والحارث بن يزيد وغيرهم من أهل مصر ومن أهل المدينة ومن أهل الشام والليث يومئذ شاب حدث السن فكانوا يتعارفون فضله وورعه ويقدمونه ويشيرون إليه . وكفاه فخرا أنه شيخ مشايخ البخارى ومسلم وروى البخارى عن يونس ابن عبد الأعلى عن الإمام الليث بن سعد وروى البخارى عن قتيبة بن سعيد عن الليث وروى عن الليث يحيى بن بكير وعبد الله بن وهب ومحمد بن المثنى الصدفى وأحاديثه فى الصحاح الستة وهو ثقة عدل . ذكره القضاعى وأثنى عليه ولو استوعبنا مناقبه لضاق الوقت وذكره ابن الجباس فى طبقة العلماء والمحدثين .

قال يحيى بن بكير تلميذ الإمام الليث عن لسان ابن وهب : دخلت على الإمام مالك فسألنى عن الليث فقال كيف هو فقلت بخير ، قال كيف صدقه قلت يا أبا عبد الله إنه لصدوق ، قال أما أنه إن فعل متعه الله بسمعه وبصره فأضاف يحيى بن بكير يقول : سمعت الليث كثيرا ما يقول أنا أكبر من ابن لهيعة فالحمد لله الذى متعنا بعقلنا .

يبين مما سلف أن الليث ومالكا كانا متعاصرين وكانا ممن عكف على الحديث والفقه وكانا فى المكانة متقاربين وكان بينهما مكاتبات ومراسلات تدور حول الحديث والفقه والفتوى .

وقد اشتهرت فى التاريخ رسالة فقهية بعث بها مالك إلى الليث ورد عليها الليث بأطول منها .

وفى رسالة مالك عتاب بعث به إلى الليث لأنه أفتى بأشياء تخالف عمل أهل المدينة مع أن الناس على حد تعبير مالك ــ تبع لأهلها إذ أنها دار الهجرة وفيها نزل معظم القرآن ويشير مالك إلى أن الخلفاء والصحابة والتابعين سلكوا سبيل السنن ولم يبتدعوا ويقصد مالك من رسالته أن ينهج الليث طريق أهل المدينة فى فتواه ولا يشذ عنهم وفيما يلى رسالة مالك :

«من مالك بن أنس إلى الليث بن سعد» :

سلام الله عليكم ، فإنى أحمد الله إليك الذى لا إله إلا هو . أما بعد : فعصمنا الله وإياك بطاعته فى السر والعلانية ، وعافانا وإياكم من كل مكروه واعلم – رحمك الله – أنه بلغنى أنك تفتى الناس بأشياء مختلفة مخالفة لما عليه جماعة الناس عندنا ، وببلدنا الذى نحن فيه ، وأنت – فى أمانتك وفضلك ومنزلتك من أهل بلدك ، وحاجة من قبلك إليك ، واعتمادهم على ماجاءهم منك – حقيق بأن تخاف على نفسك ، وتتبع ما ترجو النجاة باتباعه فإن الله تعالى يقول فى كتابه : (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم باحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه ، وأعد لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم» .

وقال تعالى : (فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب) .

فانما الناس تبع لأهل المدينة ، إليها كانت الهجرة وبها نزل القرآن وأحل الحلال ، وحرم الحرام ، إذ رسول الله صلى الله عليه وسلم من أظهرهم يحضرون الوحى والتنزيل ، ويأمرهم فيطيعونه ، ويسن لهم فيتبعونه ، حتى توفاه الله واختار له ما عنده ، صلوات الله وسلامه عليه ورحمته وبركاته .

ثم قام من بعده اتبع الناس له من أمته ، بمن ولى الأمر من بعده بما نزل بهم ، فما علموا أنفذوه ، وما لم يكن عندهم فيه علم سألوا عنه ، ثم أخذوا بأقوى ما وجدوا فى ذلك، فى اجتهادهم وحداثة عهدهم ، وإن خالفهم مخالف أو قال : أمر غيره أقوى منه أولى ، ترك قوله وعمل بغيره .

ثم كان التابعون من بعدهم يسلكون تلك السبيل ويتبعون تلك السنن ، فإذا كان الأمر بالمدينة ظاهرا معمولا به ، لم أر لأحد خلافه ، للذى فى أيديهم من تلك الوراثة التى لا يجوز انتحالها ولا ادعاؤها .

ولو ذهب أهل الأمصار يقولون : هذا العمل ببلدنا ، وهذا الذى مضى عليه من مضى منا ، لم يكونوا من ذلك على ثقة ، ولم يكن لهم من ذلك الذى جاز لهم .

فانظر رحمك الله فيما كتبت إليك فيه لنفسك ، واعلم أنى أرجو ألا يكون دعانى إلى ما كتبت به إليك إلا النصيحة لله وحده ، والنظر لك والضن بك ، فانزل كتابى منزلته . فانك إن فعلت تعلم أنى لم آلك نصحا . وفقنى الله وإياك لطاعته وطاعة رسوله فى كل أمر وعلى كل حال والسلام عليك ورحمة الله» .

وقد رد الإمام الليث على الإمام مالك بالرسالة[1] التالية :

«سلام عليكم ، فأنى أحمد الله إليك الذى لا إله إلا هو . أما بعد فعافانا الله وإياك ، وأحسن لنا العاقبة فى الدنيا والآخرة .

قد بلغنى كتابك تذكر فيه من صلاح حالكم الذى يسرنى ، فأدام الله ذلك عليكم ، وأتمه بالعون على شكره ، والزيادة من إحسانه ، وذكرت نظرك فى الكتب التى بعثت بها إليك ، وإقامتك إياها وختمك عليها بخاتمك وقد أتتنا ، فجزاك الله عما قدمت منها خيرا ، فانها كتب انتهت إلينا عنك فأحببت أن أبلغ حقيقتها بنظرك فيها .

وذكرت أنه قد أنشطك ما كتبت إليك فيه من تقويم ماآتانى عنك إلى إبتدائى بالنصيحة ، ورجوت أن يكون لها عندى موضع ، وأنه لم يمنعك من ذلك فيما خلا إلا أن يكون رأيك فينا جميلا ، وإلا لأنى لم أذاكرك مثل هذا وأنه بلغك أنى أفتى بأشياء مخالفة لما عليه جماعة الناس عندكم ، وإنى أجث على الخوف على نفسى لاعتماد من قبلى على ما أفتيتهم به ، وأن الناس تبع لأهل المدينة التى بها كانت الهجرة وبها نزل القرآن .

وقد أصبت[2] بالذى كتبت به من ذلك إن شاء الله تعالى ، ووقع منى بالموقع الذى تحب ، وما أجد أحدا ينسب إليه العلم أكره لشواذ الفتيا ، ولا أشد تفضيلا لعلماء أهل المدينة اللذين مضوا ، ولا آخذ بفتياهم فيما اتفقوا عليه منى ، والحمد لله رب العالمين لا شريك له .

وأما ما ذكرت من مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، ونزول القرآن بها عليه من ظهرانى أصحابه ، وما علمهم الله منه ، وأن الناس صاروا به تبعا لهم فيه ، فكما ذكرت .

---

(١) النجوم الزاهرة جـ ٢ ص ٨٢ .

(٢) تهذيب الأسماء ص ٥٢٩

وأما ما ذكرت من قوله تعالى (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم باحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه ، وأعد لهم جنات تجرى تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ، ذلك الفوز العظيم) فإن كثيرا من أولئك السابقين خرجوا إلى الجهاد فى سبيل الله ابتغاء مرضاة الله فجندوا الأجناد ، واجتمع إليهم الناس ، فأظهروا بينهم كتاب الله وسنة نبيه ، ويجتهدون برأيهم فيما لم يفسره القرآن والسنة .

وتقدمهم عليه أبو بكر ، وعمر وعثمان ، الذين اختارهم المسلمون لأنفسهم ، ولم يكن أولئك الثلاثة مضيعين لأجناد المسلمين ولا غافلين عنهم ، بل كانوا يكتبون فى الأمر اليسير لإقامة الدين ، والحذر من الاختلاف بكتاب الله وسنة نبيه . فلم يتركوا أمرا فسره القرآن ، أو عمل به النبي صلى الله عليه وسلم ، أو ائتمروا فيه بعده إلا علموه .

فإذا جاء أمر عمل فيه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بمصر والشام والعراق على عهد أبى بكر ، وعمر ، وعثمان ، ولم يزالوا عليه حتى قبضوا ، لم تأمروا بغيره ، فلا نراه يجوز لأجناد المسلمين أن يحدثوا اليوم أمرا لم يعمل به سلفهم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعين له .

مع أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد اختلفوا بعد فى الفتيا فى أشياء كثيرة ولولا أنى قد علمت أن قد علمتها ما كتبت بها إليك . ثم اختلف التابعون فى أشياء بعد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم – سعيد بن المسيب ونظراؤه – أشد الاختلاف ثم اختلف الذين كانوا من بعدهم ، فحضرتهم بالمدينة وغيرها ، ورأسهم يومئذ ابن شهاب وربيعة بن أبى عبد الرحمن إلى آخر ما جاء بالرسالة وهى طويلة وجاءت كاملة فى أعلام الموقعين لابن القيم الجزء الثالث ص ٧٢) .

وكانت المسائل التى أشار إلى بعضها مالك فى رسالته وأثبت الليث فى رده وجود الاختلاف فيها هى :

الجمع بين الصلاتين فى غير عرفة والمزدلفة بسبب المطر فى الحضر ، والقضاء بشاهد واحد ويمين صاحب الحق ، والثالثة متى يحق للمرأة أن تطالب بمؤخر الصداق والرابعة الإيلاء والخامسة الزوجة إذا ملكها زوجها حق طلاقها وفوضه إليها والسادسة مسألة الرجل الذى

تزوج أمة غيره ثم اشتراها ، أو الحرة التى تزوجت عبدا ثم اشترته والسابعة : الصلاة والخطبة فى الاستقساء أيها تقدم على الأخرى والثانية : متى يكون على الشريكين زكاة ؟ والتاسعة حكم المفلس الذى اشترى بيتا لم يقبض البائع له ثمنه كاملا بل قبض بعضه والعاشرة : سهم الفرس فى الغنيمة[1]. ورسالة الإمام الليث تعد نموذجا رائعا فى الحوارالعلمى الذى يدور بين قطبين من أقطاب الفقه والعلم فى الأمة الإسلامية .

والرسالة تكشف لنا عن أن أولئك العلية من الفقهاء كانوا يعتبرون ما كان عليه الناس فى عهد أبى بكر وعمر وعثمان ، أيام كان المسلمون مجتمعين إجماعا لا يجوز مخالفته ولا يحل لمن يجيئون بعد ذلك أن يغيروا ويبدلوا فيما استقر عليه رأى أولئك . فهى تقول فى ذلك (إذا جاء أمر عمل فيه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بمصر والشام والعراق على عهد أبى بكر وعمر وعثمان ولم يزالوا عليه ، حتى قبضوا ، لم يأمروهم بغيره ، فلا نراه يجوز لأجناد المسلمين أن يحدثوا أمرا لم يعمل به سلفهم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ورسالة الإمام الليث تبين أن أولئك الأثريين من الفقهاء الذين جمعوا مع الأثر الرأى والقياس الفقهى كانوا يرون أن من أساس الدراسة الفقهية دراسة آراء الصحابة والتابعين ، ولذلك كان أكثر ما يحتج به الليث على مالك هو أقوال الصحابة والتابعين وأعمالهم ، وإن مالكا إذا كان يدعو إلى العمل بما عليه أهل المدينة إنما كان يدعوه إلى اقتفاء آثار التابعين والصحابة والنبى الكريم من قبلهم ، فالعلم بفقه الصحابة والتابعين فى اتفاقهم واختلافهم كان أساس نقاشهم .

والرسالتان قد أثيرت فيهما تلك المسألة التى جعلها مالك أساسا من أسس الاستنباط عنده وهى مسألة عمل أهل المدينة ، وقد ذكرنا أن ربيعة أشار إليها فى بعض كلامه ، فمالك يستمسك فى رسالته بها ، والليث يناقضها لتفرق أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الأمصار والرسالتان فوق ذلك أدب جم وبحث قيم ومودة صادقة ويعود الليث فى ختام رده إلى الدعاء لمالك والتنويه بشأنه . كأن يقول له (وأنا أحب توفيق الله إياك وطول بقائك ، لما أرجو للناس فى ذلك من المنفعة ، وما أخاف من الضيعة إذا ذهب مثلك .... الخ) .

توفى[1] الإمام الليث سنة خمس وسبعين ومئة أى قبل وفاة الإمام مالك بأربع سنوات

---

(١) حسن المحاضرة جـ ١ ص ١٦٤ (مطبعة الوطن) .

(٢) الكواكب السيارة ص ١٠٠ .

وقيل سنة ست وسبعين ومائة والبعض يقول سنة سبع وتسعين ومائة على اختلاف فى الروايات والله أعلم . ودفن فى مقابر الصدف وجاء فى الكواكب السيارة لابن الزيات ماقاله القرشى من أن قبره كان كالمصطبة ثم بنى عليه هذا المشهد بعد مضى الأربعين وستمائة وأضاف ابن الزيات قوله بأن ابن الجباس قال فى تاريخه لقد رأيته كذلك وبناه ابن التاجر وهو مكان مبارك معروف باجابة الدعاء .

وبالمشهد أيضا قبر الفقيه الامام المحدث شعيب بن الليث بن سعد كان من أجلاء العلماء وهو معدود من المحدثين قال ابن أبى الدنيا : حج شعيب بن الليث سنة من السنين فتصدق بمال عظيم فمر عليه رجل من العلماء فسأل عنه فقيل له هذا العالم ابن العالم الكريم ابن الكريم . ولما فقد مال أبيه بعد موته رحل إلى الشام ودخل إلى دمشق فجاءه رجل وقال : أنا عبد أبيك ومعى لأبيك تجارة بألفى دينار وأنا الآن فى الرق فخذ مال أبيك وأعتقنى إن شئت وإلاً فبعنى فقال أنت حر والمال بيدك هبة منى إليك . قال الخطابى فلا أدرى أيهما أفضل العبد فى إقراره بالمال أم السيد حين أعتقه وأعطاه المال . .

وحكى عنه أيضا أن جاءه انسان فقال له ياسيدى كان والدك يعطينى فى كل سنة مائة دينار فأعطاه مائة دينار إلا دينارا فقال ياسيدى أعجزت عن دينار فقال لا ولكن فعلت ذلك تأدبا مع والدى وكان والده رضى الله عنهما قد أوصاه بحفظ العلم ودرس الحديث ومات بعد أبيه وهو بالمشهد المذكور وقبره الآن أمام قبر أبيه فى المكان الذى يلى المصطبة المقابلة لباب المشهد ومعه فى القبر محمد بن هارون الصدفى وهو أخوه لأمه قيل أنه صحب الشافعى .

وبالمشهد أيضا قبر الشيخ جمال وهو القبر الخشب الذى على باب المشهد معروف الآن وكان مشهورا بالصلاح وكان أهل مصر يتبركون به ويرون منه أحوالا شتى وكان الغالب عليه الجذب وبالتربة أيضا جماعة من القراء والخدام وبالباب الشرقى نجد قبر حجر حوض مع الحائط تحت عقد السلم الذى يصعد عليه إلى السطح قيل أنه سعد بن عبد الرحمن والد الإمام الليث عده القرشى من التابعين من طبقة بشر بن أبى بكره جد القاضى بكار وقال ابن الزيات ان الأصح أنه لا يعرف له قبر .

وصف الجامع

يقع مسجده الآن فى شارع الامام الليث ، ويقول المقريزى[1] ، قد اشتهر قبره عند المتأخرين ، وأن أول ماعرفه المقريزى عن خبر قبر الامام الليث أنه كان مصطبة فى آخر قباب الصدفيين وكانت عددها أربعمائة قبة ، وقد كتب على مصطبة الامام مانصه «الامام الفقيه الزاهد العالم الليث بن سعد بن عبد الرحمن أبو الحارث المصرى مفتى أهل مصر» .

وقد جاء فى كتاب هادى[2] الراغبين فى زيارة قبور الصالحين ، أن أول من بنى على القبر بناء وأضاف إليه حيزا من الأرض ، هو أبو زيد المصرى أحد كبار التجار وذلك بعد سنة أربعين وستمائة . ويضيف المقريزى[3] فيقول وأخذت تتوالى على الضريح يد التعمير والتجديد حتى كان عصر السلطان الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون ، فجدد الحاج سيف الدين المقدم قبة الضريح ، وذلك سنة ثمانين وسبعمائة .

ويقول الموفق ابن عثمان[4] ، أن الضريح جدد وأجريت عمارة المسجد فى أيام الناصر فرج بن الظاهر برقوق على يد الشيخ أبى الخير محمد بن الشيخ سليمان المادح فى محرم سنة احدى عشرة وثمانمائة . وقد سجلت هذه العمارة على باب حجرى أمام قبة الامام الليث كتب أعلاه « هذا مقام السيد الامام الليث بن سعد نفعنا الله به آمين » وكتب فوق العتب « جدد هذا المقام المبارك فى أيام سيدنا ومولانا السلطان الأعظم الملك الظاهر محمد عز نصره على يد الفقير إلى الله تعالى أبى بكر بن يونس شيخ القرافتين الصوفى خادم السيدين الامامين الشافعى والليث بن سعد لطف الله به فى المحرم عام أحد عشر وثمانمائة » . وكتب على جانبى الباب : بسم الله الرحمن الرحيم (إن المتقين فى جنات وعيون ، ادخلوها بسلام آمنين[5] . . . »

---

(١) الخطط ج ٢ ص ٤٦٣ .

(٢) أبو محمد عبد الكريم بن عبد الله بن عبد الكريم .

(٣) الخطط ج ٢ ص ٤٦٣ .

(٤) كتاب مرشد الزوار .

(٥) سورة الحجر آية (٤٥ ، ٤٦) .

وقد لاحظ حسن عبد الوهاب[1] تناقضا بين تاريخ التجديد وبن اسم السلطان وكذا اسم الشخص الذى قام بعملية التجديد كما تثبته المراجع التاريخية فيقول : وهذا التناقض الموجود فى النص يحملنى على القول بأنه حدث فى دولة الملك الظاهر محمد أبى سعيد جقمق أن قام شخص ما ، ولعله أبو بكر بن يونس ، بمحو اسم الناصر فرج وأثبت اسم سلطان وقته الظاهر محمد كما محا اسم سلفه أبى الخير المادح شيخ القرافتين الصوفى وخادم الامامين وأثبت اسمه مكانه ثم فاته تغيير التاريخ فنم ذلك على هذه السرقة الفنية .

ويستكمل المقريزى تاريخ مسجد الامام الليث حتى عصره فيقول : ثم جدد فى سنة اثنتين وثلاثين وثمانمائة على يد امرأة قدمت من دمشق فى أيام السلطان المؤيد عرفت بمرحبا بنت ابراهيم بن عبد الرحمن أخت عبد الباسط ، وكان لها معروف وبر ، توفيت فى تاسع عشر من ذى القعدة سنة أربعين وثمانمائة » .

وفى عهد السلطان الملك الأشرف قايتباى أقام الأمير يشبك بن مهدى سنة ٨٨٤ هـ مئذنة لجامع الامام الليث فى الطرف الغربى منه وقد سجل عليها تاريخ الانشاء واسم المنشئ وفيما يلى نصه : «أمر بانشاء هذا المنار المبارك المقر الأشرف العالى المولوى الأميرى الكبيرى المالكى المخلوى المجاهدى المرابطى المشاغرى المؤيدى الذخرى ، الهمامى القوامى السيدى السندى السيفى يشبك مهدى أمير داوادار كبير الملكى الأشرفى عزه نصره بتاريخ أربع » وباقى الكتابة حجبه المنزل المجاور .

كذلك أجرى السلطان الغورى عدة تجديدات بالمسجد على المدخل الرئيسى للمسجد كما نجد رنكة (أى شارته) وهو عبارة عن دائرة بداخلها اسمه ونص الكتابة كما يلى : « أمر بإنشاء هذا الباب الشريف من فضل الله تعالى سيدنا ومولانا ومالك رقابنا السلطان الملك الأشرف أبوالنصر قانصوه الغورى عز نصره ، وكان الفراغ من إنشاء هذا المكان فى مستهل رجب المفرد من سنة احدى عشرة وتسعمائة » .

ويرجع تاريخ القبة والمقصورة الموجودتين الآن على ضريح الامام إلى العمارة التى قام بها الأمير موسى جوربجى مرزا مستحفظان ، ونرى تاريخ التجديد مكتوبا على القبة : بسم الله الرحمن الرحيم هذا تاريخ تجديد رحاب الامام الأعظم والملاذ الأكرم الليث بن سعد قدس الله

---

(١) تاريخ المساجد الأثرية ص ١٩٩ .

روحه ونور ضريحه الذى جدده الجناب المعظم المخدوم المكرم الأمير موسى جوربجى مرزا ـ مستحفظان تابع المرحوم مصطفى جوربجى مرزا مستحفظان . وكان الفراغ يوم الخميس فى ٢٥ من شهر ذى القعدة سنة ١١٣٨ هـ » .

يتكون الجامع من مستطيل تتقدمه عدة مداخل ، تهبط إلى المدخل الأول عدة درجات وقد ثبت عليه لوحتان مؤرختان سنة ١١٩٤ هـ ، ١٢٠١ م يقرأ على السفلى منهما :

إذا رمت المكارم من كريـــم ... فيمم من بنى للفضل بيتـــا

فـذاك الليث من يحمى حماه ... ويكرم جاره حيـا وميتـا

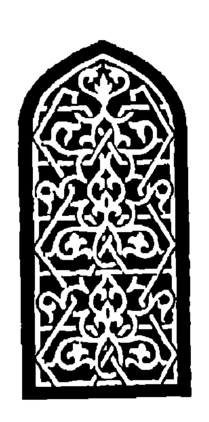
ويلى المدخل الخارجى باب آخر يؤدى إلى طرقة كبيرة بها عمودان رخاميان ؛ ثم يتأتى الباب الثالث الذى جدده السلطان الغورى سنة ٩١١ هـ ، وقد ركب على هذا الباب مصراعان من الخشب ذى الزخارف المحفورة حفرا عميقا ، نقلا إليه من مسجد الامام الشافعى ومؤرخ سنة ٦٠٨ هـ .

ويؤدى الباب إلى المسجد المستطيل وينتهى بحائط القبلة حيث يوجد المحراب والمنبر ويقول على مبارك[1] أن المحراب والمنبر من تجديدات اسماعيل بك بن المرحوم راتب باشا سنة ١٢٩٤ هـ ، كما جدد الايوان الكبير الموجود بالضلع الجنوبى الشرقى بالقبة ، فقد جاء فيه : وفى سنة أربع وتسعين ومائتين وألف أجرى اسماعيل بك بن راتب باشا عمارة بمشهد الامام الليث فجدد بالقبة ايوانا بقناطر من الحجر وكذلك بالجامع ورفع أرض القبة وفرشها بالبلاط وكذا داخل المقصورة . وكان سقف الجامع منخفضا وكان من افلاق النخل فأزاله ورفع البناء وجعل السقف من الخشب النقى وصبغ جميع ذلك بالبوية » .

ويقع ضريح الامام فى الضلع الجنوبى للمسجد وهو عبارة عن حجرة مربعة أقيمت بوسطها قبة صغيرة محمولة على أربعة أعمدة رخامية بها قواعد وتيجان بها زخارف عربية وكتابات كوفية منها « بركة كاملة ـ نعمة شاملة » لعلها ترجع إلى العمارة الأولى للمشهد أوانها أخذت من بعض المبانى الفاطمية .

---

(١) الخطط التوفيقية جـ ٥ ص ٩٧ .



ضريح الخلفاء العباسيين

خلف جامع السيدة نفيسة بقسم الخليفة

لقد كان توفيقا من الله أن أقام الظاهر بيبرس الخلافة العباسية فى القاهرة بعد أن قضى عليها التتار فى بغداد (سنة ٦٥٦ هـ/١٢٥٨ م) وفى ذلك يقول السيوطى[١] : «أعلم أن مصر من حين صارت دار الخلافة عظم أمرها ، وكثرت شعائر الإسلام فيها ، وعلت فيها السنة ، وعفت منها البدعة ، وصارت محل سكن العلماء ، ومحط رجال الفضلاء» . وليس من شك فى أن دولة المماليك قد أفادت فوائد جمة من وجود الخلافة فى القاهرة عاصمة ملكهم ، فهى التى أكسبت السلطنة شرعية دينية كما أظهرت السلاطين أمام العالم الإسلامى كحماة لها ولأشخاص الخلفاء .

ولم يكن الظاهر بيبرس أول من فكر من حكام مصر فى إقامة الخلافة العباسية بها ، فقد حاول من قبل أحمد بن طولون سنة ٢٦٩ هـ عندما استنجد به الخليفة المعتمد ضد أخيه الموفق طلحة المستبد بالسلطة دونه حتى لم يبق للخليفة منه شئ ، ولكن ابن طولون لم ينجح فى مشروعه ، إذ استطاع الموفق[٢] القبض على الخليفة المعتمد عندما خرج من بغداد فى طريقه إلى مصر وأعاده ثانية إلى العراق . كذلك حاول هذه المحاولة محمد بن طغج الأخشيد سنة ٣٣٣ هـ حين ذهب إلى الشام لانقاذ الخليفة المتقى من ظلم الحمدانيين بالموصل واستبداد الأتراك الذين استأثروا بالسلطة فى بغداد .

---

(١) حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٨٦ .

(٢) زكى حسن : مصر والحضارة الإسلامية ص ١٨ .

وكان الظاهر بيبرس يبغي من وراء أحياء الخلافة العباسية كسبا سياسيا إلى جانب الكسب الديني ، فقد كان يرى إلى بسط سلطانه بمعاونة الخليفة العباسي وتأييده على البلاد المجاورة لمصر وبخاصة بلاد الحجاز ليقوى بذلك مقام مصر الأدبي والديني في نظر المسلمين لوجود الحرمين الشريفين وليؤمن حدود مصر الشرقية من هجمات المغول وغيرهم من الغزاة الوافدين من أواسط آسيا[1] .

وصل أبو القاسم أحمد إلى القاهرة[2] سنة ٦٥٩ هـ بعد فراره من وجه التتار الذين استولوا على العراق ، فأعد السلطان بيبرس العدة لاستقباله ، وخرج للقائه ومعه الوزير الصاحب بهاء الدين بن حنا وقاضي القضاة تاج الدين وجميع الأمراء والجند وأعيان القاهرة ومصر والعلماء والمؤذنون والشهود واليهود يحملون التوراة والنصارى يحملون الانجيل ، وذهبوا جميعا إلى المطرية لمقابلته ، حتى إذا ماوقع نظر السلطان على هذا الأمير العباسي ترجل اجلالا وتقدم فعانقه . وكان أبو القاسم أحمد يلبس السواد شعار بني العباس فركب وركب معه السلطان يتبعهما الأمراء والعلماء والقضاة والجيش حتى وصلا إلى القلعة وهنا يقول المقريزي : « وتأدب السلطان بيبرس فلم يجلس بحضرة الخليفة على مرتبة ولا فوق كرسي » .

وفي الثالث عشر من شهر رجب سنة ٦٥٩ هـ عقد بيبرس مجلسا في قاعة الأعمدة بالقلعة دعا إليه القضاة والعلماء والأمراء وشيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام وكبار الدولة والقبائل العربية التي وفدت مع الخليفة وذلك لاثبات نسبه وتقرير بيعته . ويفصل لنا بيبرس الداودار ماحدث في تلك الجلسة فيقول : « ولما انتظم عقد المجلس جلس بيبرس بين يدي الإمام أبي القاسم أحمد ، واستدعى العربان الذين قدموا معه من بغداد وسئلوا عنه في ذلك المجلس : هل هذا هو الامام أحمد بن أمير المؤمنين الظاهر محمد ابن الناصر أحمد ؟ فأجابوا بنعم ، وشهد جماعة بالاستفاضة عند القاضي تاج الدين . فأقر ذلك أيضا بعض الفقهاء والقضاة ، فقبل القاضي القضاة شهاداتهم وحكم بصحة

---

(١) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسي .

(٢) المقريزي : السلوك جـ ص ٤٤٨ ، تاريخ ابن الوردي جـ ٢ ص ٢١٣ .

نسبه وبايعه بالخلافة . ثم قام السلطان بيبرس بعد ذلك وبايعه وقد سجل لنا المقريزى ما جاء فيها فهو يقول : « على كتاب الله وسنة رسوله والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والجهاد فى سبيل الله وأخذ الأموال بحقها وصرفها فى مستحقها » . وبايعه بعد السلطان شيخ الاسلام العز بن عبد السلام ثم الأمراء وكبار رجال الدول ، ثم الناس على اختلاف طبقاتهم وتلقب أبو القاسم أحمد بلقب ، الخليفة المستنصر بالله[1] .

ولما تمت مراسم البيعة للخليفة كتب بيبرس إلى أمراء وولاة سائر الولايات التابعة لمصر بأخذ البيعة للخليفة المستنصر بالله والدعاء للسلطان بعده وأن تنقش السكة بأسمهما (أى النقود) . وتلت مراسم البيعة مراسم أخرى ابتدعها الظاهر بيبرس وأصبحت سُنة صار عليها من جاء بعده من سلاطين المماليك ، فقد ركب السلطان والوزير والقضاة والأمراء إلى خيمة أقيمت خارج القاهرة ، وهناك ألبس الخليفة بيبرس خلعة السلطنة ، وهى كما يقول المقريزى[2] مكونة من عمامة سوداء مذهبة مزركشة ، ويحدثنا القلقشندى عن العمامة السوداء فيقول : كان أول من لبس العمامة السوداء الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم لبسها جماعة من الصحابة ، وتبعهم الخلفاء العباسيون ، وهى عبارة عن عمامة مدورة من حرير ، بعذبه قدر ذراع ترسل بين الكتفين . كما ألبسه جبة حرير سوداء وكان أول من لبس الجبة من الصحابة هو عبد الله بن العباس وتوارث الخلفاء العباسيون لبسها . كذلك وضع على كتفيه دراعه بنفسجية اللون ، وهى عبارة عن جبة مشقوقة المقدم ولا تكون إلا من الصوف . وبعد ذلك طوقه بطوق ذهب وقيده بقيد ذهب وضع فى رجليه ، كما قدم له سيفاً ، ولواءان منشوران على رأسه وسهمان كبيران ، وترسا . وقدم له فرسا وهذا الفرس هو الذى عرف باسم فرس النبوة ثم جرت العادة بعد ذلك بأن يقدم مثل هذا الفرس لكل سلطان جديد فى العصر المملوكى ووضع فى عنق الفرس مشدة سوداء ، والمشدة عند العامة شال من الحرير يعمّ أو يتمنطق به وعليه كنبوش أسود ، والكنبوش هو البرذعة تجعل تحت السرج .

---

(١) بيبرس الداودار : زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة (١٩) .

(٢) الخطط جـ ٢ ص ٣٠١ .

(٣) القلقشندى صبح الأعشى جـ ٣ ص ٢٧٦ ، الخالدى : المقصد ص ١٣١ .

وبعد مظاهر منح الخلعة ، عقد اجتماع تلا صاحب ديوان الانشاء (أشبه بسكرتير عام الدولة) تفويض الخليفة العباسى للسلطان الظاهر بيبرس ، وبعد ذلك سار السلطان وعليه الخلعة يتقدم موكب السلطنة ، عائدا إلى القاهرة حتى وصل إلى باب النصر ، ومن داخل هذا الباب سار فى طريق مفروش بالبسط يمتد حتى القلعة ، وهناك جلس بيبرس على عرش ملكه . ثم أمر بالاحتفال بهذا اليوم الميمون ، فمد سماط عظيم جلس إليه الأمراء والكبراء وهكذا تمت مراسم اعتلاء بيبرس عرش السلطنة المصرية بصفة رسمية تؤيدها الصفة الشرعية التى نالها من قبل الخليفة .

واستمر الخلفاء العباسيون فى مصر كرمز روحى يستمد منهم سلاطين المماليك صفة شرعية يؤيدون به استيلاءهم على السلطنة ، حتى إذا استولى سليم الأول على مصر بعد القضاء على دولة المماليك سنة ١٥١٧ ، أخذ معه عند عودته إلى القسطنطينية الخليفة العباسى ، فلما توفى ، تلقب السلطان العثمانى بلقب أمير المؤمنين وبذلك أصبح هو الخليفة والسلطان فى نفس الوقت .

وصف الضريح

يتكون الضريح من مبنى مربع الشكل يبلغ (٩٠) متراً مربعاً ، وارتفاعه (٥ر٥) أمتار . وفى أركان المربع توجد مثلثات مملوءة بالدلايات ، ثم تعلو ذلك قبة . ويوجد المدخل الرئيسى للضريح فى الجهة المقابلة للقبلة أى فى الجهة الشمالية الغربية ، والواجهة مزخرفة بباب معقود على شكل زاوية منكسرة ، وعلى جانبى الباب جلسة رخامية ، كما يوجد فى الجهة الشمالية الشرقية باب ثان حول الآن إلى نافذة ، ومن المرجح وجود باب ثالث فى الجهة الجنوبية الغربية وإن كان من المتعذر الآن التأكد من هذا لأن مسجد السيدة نفيسة قد بنى ملاصقا لهذه الجهة . وعلى جانبى باب المدخل توجد حنيتان مجوفتان تشبه المحراب ، كما حليت الواجهتان الشرقية والغربية بحنيات ولكنها مسطحة والضريح من الداخل مكسوّ بطبقة من الجص البديع الزخرفة وبجدار القبلة يوجد عقد منكسر بداخله تجويف المحراب تحيط به مجموعة من الدلايات والاشرطة الكتابية من الجص . ويعلو المحراب وكذا العقد المنكسر افريز خشبي عليه كتابة نسخية مرسومة بطلاء زيتّى .

ويوجد بالضريح مجموعة من النوافذ ، تشغل المناطق المحصورة بين مثلثات الاركان المملوءة بالدلايات . وتتكون النوافذ من ثلاث فتحات . وكلها مملوءة بالجص والزجاج المتعدد الالوان .

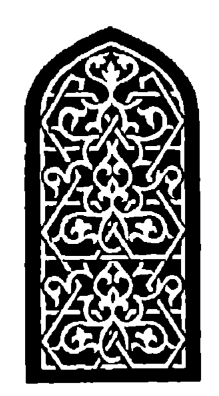
ويخلو هذا الضريح من الكتابات التى تبين تاريخ الإنشاء ولكنه يحتوى على ثمانية توابيت (تركيبات) عليها كتابات تبين أسماء أصحابها وتاريخ الوفاة . ويتكون التابوت الأول من قاعدة رخامية مغطاة بكسوة خشبية ، وقد نقشت على الكسوة الخشبية كتابات كلها عبارات دعائية كما احتوت اسم الذى أرسله المتوفى وتاريخ الوفاة . فقد جاء فيها (نرجو الرحمة لابو ندلة) ومؤرخ فى ربيع الثانى سنة ٦٤٠ هـ ، و (أبو ندلة) هذا هو سفير الخليفة العباسى إلى السلطان الصالح نجم الدين أيوب) . كذلك يوجد بالضريح سبعة عشر شاهد قبر ملتصقة ببناء أرضية الضريح ، منها اثنان لخلفاء العباسيين فى مصر ، وستة لابناء الخلفاء العباسيين وباقى الشواهد التسعة فهى لاحفاد الخلفاء .

ووجد على التابوت الخامس اسم (اناس باى) ابن السلطان بيبرس المتوفى سنة ٦٦٤ ﻫ وتابوت آخر عليه اسم ابن ثان للظاهر بيبرس المتوفى سنة ٦٦٨ ﻫ ، وشخص مجهول متوفى سنة ٧١٠ ﻫ . كما يوجد تابوت عليه اسم (خوندقمار) المتوفى سنة ٨٢٦ أما باقى التوابيت وهى الثالث والرابع والسادس فهى بدون أسماء أو تاريخ .

وقد جاء فى المقريزى[1] أن الخليفة العباسى (بمصر) الحاكم بأمر الله توفى فى جمادى الأولى سنة ٧٠١ ﻫ ودفن بالقرب من المشهد النفيسى . وقد أضاف السخاوى[2] فقال ، إن السلطان الناصر محمد أمر بأن يدفن فى المشهد النفيسى فدفن فى ضريح عليه قبة بنى خصيصا له بالقرب من المشهد النفيسى . وبالكشف على الضريح من الناحية المعمارية تبين أنه يرجع إلى (أبو ندلة) المتوفى سنة ٦٤٠ ﻫ ذلك لأنه يشبه تماما ضريح شجر الدر الذى بنى سنة ٦٤٨ ﻫ . أما من الناحية التاريخية فيقول الاستاذ (كزويل) ردا على هؤلاء الذين يستبعدون أن يبنى هذا الضريح الفخم لسفير مثل (أبو ندله) بل الصحيح أنه بنى لخليفة مثل الحاكم بأمر الله أبو العباس أحمد فيقول : « إن الخلافة العباسية سقطت بعد أن قضى عليها هولاكو سنة ٦٥٦ ﻫ ، وبعد بضعة سنين سنة ٦٥٩ ﻫ فكر الظاهر بيبرس فى احياء الخلافة العباسية ، فبحث عن أحد أحفاد العباسيين الذين فروا من وجه التتار وأعلنه خليفة ويضيف كزويل فيقول : وكان قصد السلطان بيبرس من ذلك أن يبارك له أعماله غير الشرعية فلما شعر بيبرس أن الخليفة الذى صنعه بدأ يتدخل فى شئون البلاد أصدر أمرا سنة ٦٦٣ ﻫ بأن يعزل عن السلطة تماما . ولما طلب بيبرس من الخليفة المستكفى بالله الاعتراف بابنه سلطانا باسم بيبرس الثانى ، سخر منه الشعب واطلقوا (على الخليفة) اسم (حاكم الريح) . هذا بالإضافة إلى أن اسم الخليفة الرابع والسادس وجد مكتوبا على شواهد قبور ملتصقة بأرضية الضريح ، بينما نجد باسم السفير (أبو ندله) وكذا أبناء السلاطين توابيت وتركيبات ظاهرة ومرتفعة فى وسط الضريح . ويخرج كزويل بالنتيجة التالية : وهكذا نرى أن الخلفاء العباسيين فى مصر الذين اصطنعهم السلطان الظاهر بيبرس كانوا مجرد أسماء وبذلك فهم أقل شأنا من (أبو ندله) سفير الخليفة العباسى الذى كان ما يزال متربعا على عرش الخلافة فى بغداد ، وأن السفير هو الذى أقام لنفسه هذا الضريح قبل وفاته سنة ٦٤٠ ﻫ ، لأن الضريح من الناحية المعمارية أيوبى الطراز .

(١) المقريزى الخطط جـ ٤

(٢) السخاوى : الضوء اللامع جـ ٥



المدرسة والقبة الصالحية

بالنحـــاسـين
بالصـــاغـــة

أنشأ المدرسة الصالحية السلطان الملك الصالح نجم الدين أبو الفتوح أيوب الذى تولى عرش مصر بعد أن خلع الشعب اخاه الملك العادل سيف الدين أبو بكر ابن السلطان الكامل وذلك لانشغاله باللهو عن تدبير أمور الدولة .

تولى الصالح نجم الدين آخر ملوك الدولة الايوبية عرش مصر ، يوم الأحد رابع عشر ذى القعدة سنة سبع وثلاثون وستمائة ، فاستولى على قلعة الجبل وجلس على سرير الملك بها فقام بأعباء المملكة أتم قيام ، كما يقول المقريزى ، وجمع الأموال التى أتلفها أخوه وقبض على الامراء ونظر فى عمارة أرض مصر ، وحارب عربان الصعيد وأخضعهم لسلطة الدولة .

وقد أكثر الصالح نجم الدين من شراء المماليك ، حتى أن قلعة الجبل ضاقت بهم فأمر ببناء قلعة الروضة بجزيرة الروضة ، وتحول هو وحاشيته ومماليكه من قلعة الجبل إلى قلعة الروضة وسكنها .

وفى أيامه نزل الفرنجة على الشاطئ الشمالى لمصر واستولوا على دمياط وذلك سنة سبع وأربعين وستمائة وكانوا بقيادة ملك فرنسا لويس التاسع . وكان الصالح نجم الدين فى ذلك الوقت بدمشق فجاء مسرعا عندما بلغه حركة الفرنج ونزل اشموم طناح ولكنه كان مريضا فمات بناحية المنصورة . فقامت أم ولده خليل واسمها شجر الدر بالأمر وكتمت موته واستدعت ابنه توران شاه من حصن كيفا وسلمت إليه مقاليد الأمور .

يقول المقريزى إنها تقع بخط بين القصرين من القاهرة ، كان موقعها من جملة القصر الكبير الشرقى فبنى الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب هاتين المدرستين ، فابتدأ بهدم موضع هذه المدارس فى قطعة من القصر

فى ١٥ ذو الحجة سنة ٦٣٩ هـ وفى سنة ٦٤١ هـ رتب فيها دروسا أربعة للفقهاء المنتمين إلى المذاهب الأربعة وهو أول من عمل بمصر دروسا أربعة فى مكان واحد . ودخل فى هذه المدرسة باب القصر المعروف بباب الزهومة ، موضعه قاعة شيخ الحنابلة الآن ، ثم اختط ما وراء هذه المدرسة فى سنة بضع وخمسين وستماية وجعل حكر ذلك للمدرسة الصالحية . وأول من درس فيها من الحنابلة قاضى القضاة شمس الدين أبو بكر بن العماد بن عبدالواحد ابن على بن سرور ، وفى يوم السبت ١٣ شوال سنة ٦٤٨ هـ أقام الملك المعز عز الدين أيبك التركمانى أقام الامير علاء الدين أيوكبن البندقدارى الصالحى فى نيابة السلطنة بديار مصر فواظب الجلوس بالمدارس الصالحية هذه مع نواب العدل وانتصب لكشف المظالم واستمر جلوسه بها مدة . ثم أمر الملك السعيد ناصر الدين بن بركة خان بن الظاهر بيبرس وقف الصاغة التى تجاهها وأماكن أخرى بالقاهرة وبمدينة المحلة بالغربية وقطع من أراضى الجزائر بالأعمال الجبزية والاطفيحية على مدرسين أربعة عند كل مدرس معيدان وعدة طلبة وما يحتاج إليه من أئمة ومؤذنين وقومة وما إليه .

وثبت وقف ذلك على يدى قاضى القضاة تقى الدين محمد بن الحسين بن رزين الشافعى ونفذه قاضى القضاة شمس الدين أبو البركات محمد بن هبة الله .

وفى كتاب السلوك يقول المقريزى : فى حوادث سنة ٦٣٨ هـ عندما تكلم عن الحروب الصليبية فى سوريا « إن السلطان الصالح نجم الدين أيوب أسر كثيرا من الفرنجة وأنه سخرهم فى بناء قلعة الروضة وبناء المدرسة الصالحية .

وصف المدرسة

تتكون هذه المدرسة من قسمين تقسمهما حارة الصالحية التى يعلو مدخلها عقدان يربطان شقى المدرسة ويحمل هذان العقدان المئذنة ، ولم يبق من القسم الجنوبى اليوم غير واجهته الغربية التى ترتبط بالقسم الشمالى عن طريق هذين العقدين السابق الإشارة إليهما ، كما يوجد جزء من السقف يلى المدخل مباشرة مغطى بحقاق محقق، اما القسم الشمالى فما يزال باقى جهة الواجهة الشمالية والايوان الشرقى والغربى وقد تهدم معظم قبو الايوان الشرقى ولم يبق غير بداية عقد الايوان . ومما يجدر ملاحظته أن الجزء الباقى من واجهة المدرستين غير متساوى الاطوال فنجد واجهة المدرسة الشمالية يبلغ طولها ٣٧٫٩٤م والمدرسة الجنوبية ٣٣٫٣٥ متر .

الواجهة : تنقسم الواجهة إلى حنيات طويلة يبلغ عددها ٩ فى الواجهة الشمالية و ٨ فى الجنوبية وبينهما عقد فتحة المدخل التى كان بها حتى القرن التاسع عشر (١٨٦٧) باب حديدى يبلغ عرضه ٢٫٧٧ متراً وارتفاعه ٣٫٩٦ متراً ويعلو الباب عقد أفقى مكون من ١٥ صنجة معشقة الوسطى منها مزخرفة بقوس ذى ثمانية فصوص، ويعلو هذا العتب والعقد المسطح افريز من الحجر المنحوت على شكل شرافات بديعة النقش يمتد على جانبه وتشبه إلى حد كبير تلك التى تعلو عقد مدخل باب الفتوح وباب النصر وجامع الاقمر . ويعلو العقد الافقى عقد عاتق مكون أيضا من ١٥ صنجة يحيط به افريز مزخرف أيضا .

ويتوسط هذا المدخل المعقود الواجهة باب ويبلغ اتساع هذا المدخل ٣٫٦٥ متراً وعمقه ٢٧ سم ويبلغ عرض الحوائط الجانبية والتى تفصل بينه وبين الحنيات الأخرى الجانبية ٣٫٦٥ متراً ومعنى هذا أن اتساع واجهة المدخل تبلغ ١٠٫٩٥ متراً ، وقد ملئت هذه المساحة بالزخارف الجميلة مما اكسب المدخل أهمية خاصة جعلته يبدو وكأنه مدخل تذكارى ، وعلى يمينه ويساره توجد حنيتان طويلتان يعلوهما عقد منكسر مفصص ترتكزان على بدن عامودين مثمنين تشبه تلك التى بجامع الاقمر ويشغل الجزء الأسفل من الحنيات تجويف يشبه المحراب يعلوه نصف قبة مدببة ، ويشغل كوشتى عقد الحنية مربع به دائرة بارزة ثم يأتى بعد كل هذا شريط من الكتابة بالخط النسخ به اسم السلطان الصالح دون ذكر تاريخ البناء ويمتد شريط الكتابة بعرض المدخل جميعه حتى بدن الحنيتين الجانبيتين .

ويعلو شريط الكتابة عقد منكسر وحنيتان مستطيلتان عن يمينه ويساره ويزخرف العقد خمس صفوف من الدلايات تشبه محراب أبو منصور اسماعيل ، وفى وسط العقد لوحة عليها كتابة مؤرخة . أما الحنيات المستطيلة مزخرفة بأربعة صفوف من الدلايات وزخرفة هندسية وزخارف كتابية تحتها ، وفى الجزء الأسفل منها توجد دوائر وتعتبر هذه الواجهة النموذج الذى حذا حذوه السلطان بيبرس فى مسجده .

الواجهة الشمالية : تتكون من تسع حنيات الجزء الاسفل منها تشغله نافذة والجزء العلوى تشغله دائرة مفصصة ، الحنية الأولى يعلوها عقد منكسر أما الثانية والثالثة فيعلوهما عقد مسطح اما الست الباقية فهى أقل ارتفاعا من الثانية والثالثة بمقدار مترين ، والثلاث حنيات الأخيرة من الجهة الشمالية نوافذهم مشتركة مع الايوان الغربى . والمتوسط منها أكبر ونافذته أكبر .

النوافذ : إن النوافذ التسع التى تشغل الجزء الأسفل من الحنيات زخرفت بزخارف مختلفة أما الزخارف المحصورة بين العتب والعقد العاتق فمتشابهة ماعدا الثانى من الشمال والسادس ، فالأول تشغله كتابة باسم السلطان الصالح وبدون تاريخ كذلك ويحيط بالنوافذ جميعها افريز من الزخارف الكتابية كما هو الحال حول سنجات عقود المدخل .

الجناح الجنوبى : يشبه الجناح الشمالى تماما فيما عدا أن عدد حنياته ٨ بدلا من ٩ كذلك نجد الحنية الثانية من الجنوب أكبر ونافذتها أكبر وللأسف غطت المحلات التجارية معظم نوافذه .

المادة الخام : من الحجر المنحوت وارتفاع كل ٤ مداميك ما بين ١٢٥ سم – ١٥٠ سم .

ممر المدخل : يتكون سقف المدخل من حقاق تشبه الموجودة فى شباك الإمام الشافعى إلا أنه لا يوجد نجوم داخل الحقاق ، وتخرج من ردهة المدخل التى تنتهى بعقد نصف دائرة الذى يبدو كأنه بنى حديثا وعلى جانبيه وأمامه عمودان ذو تيجان كورنثية وأباك خشب يحمل عتبا عليه عاتق من الآجر وفوق ذلك تأتى المثلثة المبنية من الآجر التى يدخل إليها من باب صغير يوصل إلى السقف ، ولا يمكن التنبؤ الآن عن مقدار طول حارة الصالحية وإن كان من المقطوع به أنها لا تقل عن ٦ أمتار وهى امتداد المدارس ، وقد اندثر الجزء

الجنوبى من المدرسة تماما وأصبح يشغله حوانيت ، أما القسم الشمالى فيشبه الجنوبى إلى حد كبير ويدخل إليه عن طريق مدخل معقود يبلغ ٢٫٦٦ متراً يؤدى إلى صحن المدرسة .

الصحن : عبارة عن مستطيل كبير يبلغ طول ضلعه ٢٨٫٣سم – ٢٠٫٩٩ متراً ضلعه الجنوبى مشغول بمجموعة من الغرف تبلغ خمسة يعلوها سكن يصعد إليه من حارة الصالحية ، ويشغل الجنوب الشرقى منزلان حديثان يمتدان بامتداد الايوان الغربى ، أما الضلع الشمالى من الصحن فيشغله صفان من الخلاوى فوقهما بقايا طابق ثالث .

المئذنة : تعلو المئذنة المدخل التذكارى والمدرسة وتتكون من مربع مجوف مبنى من الآجر يبلغ طول ضلعه ٥٫٤٠ مترا وارتفاعه ١٠٫٤٠ مترا . ويزخرف هذا المكعب ثلاث حنيات تنتهى بعقد منكسر والحنية التى فى الجهة الشمالية الغربية بها فتحة لاضاءة السلم . ويدخل إلى المئذنة عن طريق باب فى الجهة الجنوبية الشرقية منها حيث يوجد سلم خشبى حازونى يدور حول المكعب من الداخل وينتهى عند بداية الجزء الذى على شكل المبخرة ذات الثمان أضلاع التى تعلو المكعب ويبلغ محيطها ٤٫٦٠ مترا . وفى كل ضلع من أضلاع المبخرة يوجد باب داخل حنية مجوفة يعلوها عقد منكسر وهذه الأبواب تؤدى إلى دهليز ممر يقف فيه المؤذن للآذان . ويبلغ ارتفاع المبخرة ٤٫٩٠ مترا يعلوه صفان من الكرانيش المكونة من أربعة صفوف من الدلايات وفوق ذلك تأتى القبة المفصصة ذات القطاع المنكسر ، وقد انكسر جزء منها ، ويبلغ ارتفاعها قبل الكسر ٦٫١٠ مترا .

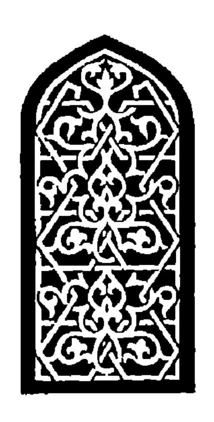
ومن حيث الأسلوب المعمارى تعتبر هذه المئذنة حلقة الاتصال بين مئذنة الغضنفر وجامع بيبرس .

الايوان الشمالى الغربى : يبلغ عرض الايوان ٩٫٣٣ مترا وعمقه ١١٫٧٠ مترا وارتفاع القبو ١٣٫٤٠ مترا من الخارج ولما كان سمك القبو مترا فيكون الارتفاع من الداخل ١٢٫٤٠ مترا ويشغل الجانب الشمالى الغربى منه ثلاث نوافذ ، هم النافذة السابعة والثامنة والتاسعة فى الواجهة الشمالية للمدرسة ، والمتوسط منهم أوسع من الجانبين ، وقد سدت هذه النوافذ ولم يبق منها غير فتحات صغيرة . وفى كل ضلع من أضلاع الايوان توجد حنية عرضها ٣٫٣٥ مترا وفى نهاية الضلع الشمالى الشرقى توجد نافذة تفتح على ضريح

الصالح نجم الدين مغطاة بشبكة برنزية مما يدل على أن هذه الفتحة ليست أصلية إذ أن الضريح بنى بعد المدرسة بسبع سنوات . وفى سمت القبو توجد ثلاث فتحات بها فتحات أنابيب قد تكون لوضع سلاسل المشكايات كما هو الحال فى طاق كسرى باكتسيفون وفى قيصر عمرا .

أما طريقة بناء الايوان فنلاحظ أن الجزء العلوى من القبو مبنى من الآجر فى وضع رأسى والجزء الأسفل فى وضع أفقى كما هو الحال فى ضريح الثعالبة والمدرسة الكاملية وإلى يمين الايوان يوجد بابان الأول به زخارف ترجع إلى القرن ١٩ يفتح على ممر على شكل حرف L موازى للايوان وعمقه ٨ أمتار ، والباب الثانى يفتح على ممر مقبى على شكل L كذلك يقع خلف الضريح .

الايوان الجنوبى الشرق : يبلغ عرضه ٩ر٦٠ مترا وعمقه ١٤ر٨٥ مترا ومعنى ذلك أنه أعمق من الغربى بمقدار ٣ر١٥ مترا وذلك لأن ايوان القبلة وقد سقط قبوه بعد ارتفاع ٢ متر من بدايته . ويوجد بالايوان ثلاثة محاريب ، وفى جوانب الايوان توجد حنيات . وسمك القبو يبلغ مترا .



ضريح الصالح نجم الدين

يقول المقريزى : إن قبة الصالح تجاور المدرسة الصالحية وكان محلها قاعة شيخ المالكية بنتها عصمة الدين ، أم الخليل شجر الدر لسيدها الملك الصالح نجم الدين أيوب الذى توفى أثناء حربه مع الفرنجة فى المنصورة ليلة نصف شعبان سنة ٦٤٧ هـ . وقد وضع جثمانه فى أول الأمر فى احدى قاعات قلعة الروضة حتى ١٧ رجب سنة ٦٤٨ هـ حيث نقل إلى القبة التى كانت قد انتهت منها شجر الدر فى ذلك الوقت. وتقع القبة بجوار ايوان قضاة المالكية.

الوصف : يقع الضريح فى شمال شرق ايوان المالكية للمدرسة الصالحية ، وتحتوى واجهتها على حنيتين واحدة منها بارزة . وهناك زخرفة قالبية (Torus) تزخرف الواجهة كلها حتى بداية المدرسة وهى تشبه تلك التى بجامع الأقمر . وفى وسط الحنيات توجد دوائر وأعلى الواجهة توجد شرافات مسننة أو مدرجة ويبلغ الارتفاع حتى الشرافات ١١ر٣٥ مترا. وفى الجزء الأسفل من الحنيات ذات العقود المنكسرة توجد نوافذ الاوسط أوسعها .

المدخل : يبلغ فتحة المدخل ٢ر٧٦ طولا × ١ر٥٢ متراً عرضا يعلوه عتب ذو صنجات معشقة غريبة الشكل ويعلو ذلك لوحة بها أربعة سطور من الكتابة النسخية . وعلى جانبى المدخل منطقتان غائرتان على شكل بحور كان الغرض منهما أن تحفر عليهما أشرطة كتابية ولكنها لم تتم . وهناك قاعدة جرانيتية عليها كتابات هيروغلوفية ، وأعلى المدخل يوجد اطار مزخرف يحيط بالباب من جميع الجهات .

وفى أركان الواجهة توجد شطفة بها ثلاث حنيات فى صفين واحدة يعلوها حنيتان تحتها كتابة كوفية . وبجانب الضريح توجد بقايا المدرسة الظاهرية .

وبعد الواجهة تأتى منطقة الانتقال التى من الداخل على صفوف من المقرنصات ومن الخارج تتكون من شكل سلم مدرج بعدد صفوف المقرنصات ويبلغ ارتفاع منطقة الانتقال من الأرض ٧٠ر١٣مترا ، أما ارتفاع الضريح كله حتى القبة فيبلغ (٢١) مترا أى أنها تصل إلى مستوى مئذنة المدرسة. والقبة لها شكل غير مألوف فهى على شكل عقد منكسر مفصص .

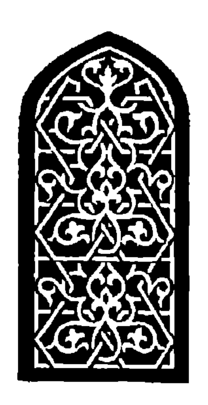
من الداخل : يؤدى الباب الخارجى إلى ردهة مستطيلة مغطاة بقبو متقاطع (من الآجر) وعلى يمين الردهة نجد بابا عليه عقد مدبب يؤدى إلى سلم الحجرة كانت تعلو ردهة المدخل وفى مواجهة المدخل يوجد عقد على شكل حدوة الفرس يؤدى إلى ممر طوله (٢) متر مغطى بقبو من الآجر ثم نخرج إلى صحن يبلغ مساحته (٦٥ر٣×٧٤ر٥) على جوانبه الأربعة توجد عقود على شكل حدوة الفرس . وينتهى الصحن إلى الممر الذى على شكل(L) الذى يمر خلف الضريح ويبدأ من المدرسة الصالحية كما يفتح ضلعه الشمالى فى المدرسة الظاهرية وفى الجهة الجنوبية يفتح على المدخل الضريح ، وتبلغ فتحة الضريح ٨٣ر١ ــ ٩٥ر٢ مترا ويعلوه عتب خشبى وفوقه عقد عاتق يشبه إلى حد كبير باب الامام الشافعى .

الضريح : مربع تقريبا يبلغ طول ضلعه ٩٠ر١٠ متراً ولكنه فى وضع مائل حتى يحصلوا على زاوية المحراب الصحيحة وهى الجهة الجنوبية الشرقية الأمر الذى جعل المعمار يتخذ سمكامختلفا للواجهةولذلك فإن سمك حائط الواجهة يتراوح ما بين ٩٧ر١ إلى ٣٤ر٥ متراوهذه الظاهرة معروفة فى القاهرة وغير معروفة خارج مصر. وفى الضلع الشمالى الغربى توجد ثلاث نوافذ الأوسط أوسعها:

المحراب : يوجد فى حائط القبلة محراب كبير ارتفاعه ٠٦ر٦ مترا وعرضه ٨١ر١ مترا . وهو بذلك أوسع محراب معروف فى ذلك الوقت كما أنه أول محراب زخرف بالرخام الخردة . ويتقدم المحراب عمودان من الرخام الأخضر الداكن تيجانهما على شكل جرس مزخرف برسوم نباتية ويشغل الجزء العلوى من مربع الضريح وبين مقرنصات الأركان ست حنيات ثلاث منها بها نوافذ مملوءة بالجص والزجاج المعشق والثلاث الأخرى صماء .

وأركان الضريح يشغلها ثلاث صفوف من الدلايات على الترتيب التالى ثلاث ثم ثلاث ثم أربعة وهو أول مثال فى مصر لثلاث صفوف من الدلايات . وأسفل القبة توجد ثمان نوافذ مربعة تقريبا خالية من الزخرفة ويبدو أنها حديثة .

التاريخ : الكتابة التى على المدخل تعطى تاريخ وفاة الصالح نجم الدين ١٥ شعبان سنة ٦٤٧ هـ وكذا الأخشاب الأربعة التى تقطع أركان الضريح عليها نفس التاريخ ، ولكن المقريزى أثبت أنه بنى بعد وفاته على يدى زوجته شجر الدر فى ٢٦ رجب سنة ٦٤٨ هـ .



مسجد أبى الحجاج

بالأقصر

بمحافظة قنا

الحمد لله العلى الصمد   الأول الآخر بلا أمد

هو السيد يوسف بن عبد الرحيم بن يوسف بن عيسى الزاهد وهو شريف حسينى ينتهى نسبه إلى الامام الحسين سبط النبى عليه الصلاة والسلام ، وكان يكنى بأبى الحجاج ثم يضاف إلى الكنية الأقصرى نسبة إلى مدينة الأقصر بصعيد مصر حيث مستقره الأخير . ولد أبو الحجاج الأقصرى فى أوائل القرن السادس الهجرى فى مدينة بغداد فى عهد الخليفة العباسى المقتفى بأمر الله ، كما جاء فى كتاب (أبو الحجاج الأقصرى) لمؤلفه محمد عبده الحجاجى . وقد نشأ أبو الحجاج وتربى فى مسقط رأسه بغداد فى أسرة ميسورة الحال على قدر كبير من التقوى والورع ، إذ كان والده يشغل منصبا رئاسيا فى الدولة فى ذلك الوقت. وتوفى والده وهو مايزال حدثا يافعا لم يترك له والده شيئا يذكر ، فاحترف صناعة الغزل والحياكة ، وكان له حانوت مشهور فى بغداد يؤيد ذلك القصة التى ذكرها الامام شهاب الدين السهروردى ، والتى جاء فيها : « أن قاتلا قتل رجلا ودخل على أبى الحجاج هاربا ، وكان أبو الحجاج يعمل حائكا وكان لحانوته بابان فقال أجرنى ، فقال له أنزل الجوزة (كلمة فارسية والمقصود بها هنا حفرة النول) بين فخذى ، ثم دخل أناس على أبى الحجاج وقالوا له : أين الرجل الذى دخل عليك ، فقال : فى الجوزة بين فخذى فقالوا : أتهزأ بنا وانصرفوا ، فقال الرجل لأبى الحجاج أتيتك لتجيرنى فدللت علىّ ، فقال أبو الحجاج لو كذبت لوجدوك فقتلوك ولكن الله نجاك بصدق » .

على أن هذه الحرفة لم تكن تشغل وقته كله ، إذ نراه جادا فى طلب العلم خاصة وأن مدينة بغداد كانت وقتئذ غاصة بعدد غفير من كبار رجال التصوف وعلماء الدين

الذين كان لهم أكبر الأثر فى ازدهار الحياة الثقافية والدينية ، فمن هؤلاء الشيخ عبد القادر الجيلانى والشيخ أبو النجيب السهروردى والسيد أحمد الرفاعى . هذا بالإضافة إلى وجود المدرسة النظامية (أول مدرسة مذهبية فى تاريخ الإسلام) التى أنشأها الوزير نظام الملك وزير ملك شاه السلجوقى فى القرن الخامس الهجرى . فالتحق أبو الحجاج بالمدرسة النظامية حيث زامل الإمام شهاب الدين السهروردى ، كما كان يتردد على حلقات الوعظ والتذكير التى كان يعقدها شيوخ التصوف وأعيانه . وكان رحمه الله جادا شغوفا صبورا فى القراءة والبحث والتحصيل وقد جعل قدوته فى ذلك حشرة الجعران ، إذ نراه يقول : « كنت فى حداثتى أسهر أكتب وأحبر فإذا (بأبى جعران) يجهد أن يرقى منارة السراج (زجاجة المصباح) لكى يقترب من النور ، فلم يزل يزلق لكونها ملساء ، فعددت عليه تلك الليلة سبعمائة وقعة ، وهو لا يرجع عن غايته ، ثم خرجت إلى صلاة الصبح ورجعت فوجدته جالسا فوق المنارة ظافرا منتصرا يرقب النور وعيناه تبرقان بالأمل، فكان ذلك من جنود الله على » .

.. وبعد أن تزود أبو الحجاج بقدر كاف من الثقافة الدينية ترك صناعة الغزل والحياكة ليتفرغ للوعظ والتذكير فى بغداد وقد أقبل العراقيون على وعظه اقبالا شديدا فقد امتاز إلى جانب غزارة علمه وورعه وتقواه ، بقدرة فائقة على الرواية بأسلوب يتسم بالرقة والسهولة واليسر مما يأخذ بوجدان السامعين . ثم يخرج من بغداد إلى الحجاز لتأدية فريضة الحج ويعود إليها ثانية لا ليستقر بها ولكن ليودعها إلى غير رجعة ، فقد كانت الحياة فى بغداد على عهد الخليفة الناصر لدين الله لا تطاق إذ تعرضت البلاد خلال حكمه للعديد من الفتن والثورات نتيجة لسوء إدارته وميله للظلم والتعسف . ومما عجل بسفر أبى الحجاج وتركه العراق وفاة والدته ثم لحقت بها زوجته وهى فى ريعان شبابها فأسف عليهما أسفا بالغا فكان لا بد له من الرحيل .

رحل أبو الحجاج ولم يبلغ الأربعين من عمره ، كما يذكر ابن الساعى ، ومعه أولاده الأربعة ونفر من ذوى قرباه وأصحابه إلى مكة المكرمة ، وهناك توفى أحد أولاده فدفنه بالمعلاه (مقابر مكة) ، وقد تعرف فى مكة بأحد ساداتها وهو الشيخ عبد المنعم الأشقر وتوطدت بينهما العلاقات حتى أن الشيخ الأشقر زوج بناته لأولاد أبى الحجاج الثلاثة ، كما عرض عليه أن يتزوج احدى بناته ولكن أبا الحجاج اعتذر قائلا : « أنا لا أتزوج

بعد أم أولادى ولست فى حاجة إلى النساء » . وقد أمضى أبو الحجاج سنة فى مكة تعرف خلالها على بعض أشرافها ممن ينتمون إليه بصلة القرابة وهم الذين رغبوه فى السفر إلى مصر ، لما تمتاز به فى ذلك الوقت من الهدوء والسكينة مما شجع الكثير من متصوفى العالم الإسلامى وخاصة المغاربة منهم على الارتحال إليها والاستقرار بها .

خرج أبو الحجاج من مكة إلى المدينة حيث زار قبر المصطفى عليه أفضل الصلاة والسلام، ثم اتجه إلى مصر وبصحبته بعض عرب جهينة وعسير ويصف أبو الحجاج نفسه رحلته إلى مصر فيقول : « ونزلنا شرق الدلتا ومكثنا بها أياما تعرف بنا أولاد عمنا وأعطونا أطيانا ظنا منهم مكوثنا عندهم ، فلما أراد الله سبحانه وتعالى سفرنا من هذه الجهة إلى جهة قبلى بشاطئ النيل إلى بلدنا الذى قسمه الله لنا ، توجهت أنا وأولادى الثلاثة إلى الجنوب إلى أن وصلنا اسيوط . ومنها سافرنا إلى جرجا ، ثم رحلنا منها إلى بلدة قوص وهى مدينة كبيرة ، فرحلنا منها حتى وصلنا إلى بلدة الاقصرين فمكثت بجانبها القبلى أنا وأولادى الثلاثة وبعض أقاربنا ممن وفدوا معنا ، وكان ذلك فى أواخر حكم صلاح الدين الايوبى على مصر » .

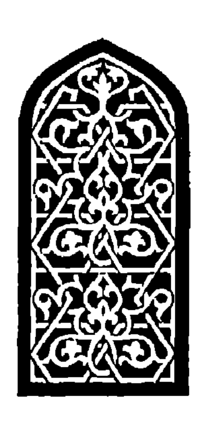
ومدينة الاقصر التى استقر بها شيخنا أبو الحجاج الاقصرى ، مدينة مصرية قديمة اسمها المصرى المقدس (أوست) والمدنى طيبة واسمها البطلمى (ديوس بوليس مجنا) أى الكبيرة أو العليا . واسمها القبطى بابه أو بابى كما يقال لها (أقصرين) كذلك عرفت باسم (تريا كاسترا) أى الثلاث قصور المحصنة . وردت فى قوانين ابن مماتى الاقصرين وهما بالبر الشرقى (يقصد بذلك معبد الاقصر والكرنك) وبها عنب فى غاية الحسن والكبر ، وبهما مدرسة لطلب العلم الشريف ، ويعمل فى هاتين البلدتين من الفخار الابيض النقى الرفيع مالا يعمل بديار مصر مثله ، ولا ما يقابله وهو ينقل إلى سائر البلاد . وجاءت فى الخطط التوفيقية : « ومن اسمائها طيبة وطيوة واسمها على لسان العامة لُقْصُر وهو يتفق مع الحالى الأقصر.

وقد أذاع أمر أبى الحجاج بين الناس لما امتاز به من التقوى والزهد والورع ، وتناهى خبره إلى سلطان مصر فى ذلك الوقت العزيز عماد الدين أبو الفتح عثمان بن صلاح الدين الايوبى ، وكان كما يقول ابن خلكان : (مباركا كثير الخير واسع الكرم محسنا للناس معتقدا فى أرباب الصلاح والتقوى) . فبعث إليه رسولا يستدعيه ، فلما حضر بين يدى السلطان أعجب بقوة شخصيته وغزارة علمه وورعه وتقواه فأسند إليه مشارف الديوان ، ولكن أبا الحجاج لم يستمر طويلا فى هذه الوظيفة فتركها غير آسف عليها . ثم اتجه

إلى الاسكندرية محط أنظار الكثير من كبار العلماء والزهاد والمتصوفة من المشرق والمغرب ، فقد انتقل إليها من الشرق من مدينة اصفهان المحدث الكبير الحافظ السلفي ، ومن المغرب وفد إليها أبو القاسم القبارى وأبو عبد الله الشاطبي وأبو الحسن الشاذلي وأبو العباس المرسى . وفى الاسكندرية التقى أبو الحجاج بالشيخ الزاهد الكبير أبو محمد عبد الرازق الجزولى السكندرى الذى يرجع إليه الفضل فى نشر الطريقة المدينية ، أول طريقة صوفية عرفتها الاسكندرية قبل الطريقة الرفاعية والطريقة الشاذلية وقضى أبو الحجاج فترة فى رحاب عبد الرازق الجزولى حتى أصبح من اخلص تلاميذه ، وأحب مريديه إليه . ثم عاد أبو الحجاج من الإسكندرية إلى بلدة الاقصر وعرج فى الطريق على قوص حيث التقى بقطبها سيدى عبد الرحيم القنائى . واستقر أبو الحجاج فى آخر أيامه فى الاقصر منقطعا للوعظ والتذكير والدعوة إلى طريق الحق . وكان مجلسه يغص بالعلماء والوجهاء وعلية القوم ، ومن أعماله العلمية الباقية منظومته فى علم التوحيد التى ضمنها تسعة وتسعين بابا وتقع فى (١٣٣٣) بيتا من الشعر وقد استهلها بالبيت التالى :

الحمد لله العلى الصمـد الأول الآخـر بلا أمـد

وقد توفى أبو الحجاج الاقصرى سنة ٦٤٢ هـ فى عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب بعد أن عمر أكثر من تسعين عاما ، ودفن بضريحه القائم فوق معبد الاقصر . وقد أعيد بناء مسجده القديم فى القرن التاسع عشر ثم رمّم فى أوائل القرن العشرين . ومما يجدر ملاحظته أن البقعة التى تضم ضريح ومسجد الشيخ أبى الحجاج كانت طوال عصورها التاريخية أماكن عبادة ، ففيها معبد آمون الفرعونى كما ضمت بقايا كنيسة مسيحية ثم علا ذلك مسجد أبى الحجاج فما أجمل تسامح الأديان . وفى النصف الثانى من القرن العشرين أقامت وزارة الأوقاف مسجدا جديدا بجانب المسجد والضريح القديم ، على أن أقدم أجزاء المسجد القديم المئذنة القديمة التى ترجع إلى تاريخ وفاة أبى الحجاج وهى تتكون من ثلاثة طوابق الأول عبارة عن مكعبين أما الدور الثانى والثالث فهما على شكل اسطوانة تستدق كلما اتجهتا إلى أعلى وتنتهى بطاقية مقبية . وبالدور الثالث مجموعة من الفتحات مصفوفة فى صفين . والمئذنة مبنية بالطوب اللبن ومقوى الجزء المكعب فيها بميدات خشبية . ويشبه طراز هذه المئذنة مآذن الصعيد فى العصر الفاطمى مثل مئذنة مسجد قوص ومئذنة مسجد إسنا ومسجد الجيوشى بالقاهرة .



ضريح الشيخ أبو السعود

ابن أبى العشائر

بسفح جبل المقطم

هو ابن شعبان بن الطيب الباذبينى ، وقيل أن اسمه محمد وقيل غير ذلك والأصح أنه لا يعرف له اسم ولا يعرف إلا بكنيته ، ولد أبو السعود ببلدة باذبين بقرب واسط بالعراق ، وجاء إلى مصر فى عهد الملك الكامل بن الملك العادل الأيوبى ، فى وقت كانت جيوش الفرنج (الصليبيون) كما يقول شمس الدين[1] الذهبى قد جاءت إلى ثغر دمياط فى مائتى مركب ، واستولوا على المدينة وملكوها ، فعند ذلك اضطربت أحوال الديار المصرية ، ونادى الملك الكامل فى القاهرة بأن النفير عام (أى التعبئة عامة) وأعلن الجهاد فى بلاد الإسلام . لذلك لم ير أبو السعود بدا من الانخراط فى صفوف المجاهدين ، خاصة وأن الملك الكامل قد سير السعاة إلى سائر البلاد الإسلامية يستحث الناس إلى الحضور لدفع الفرنج عن مصر فجاء لنصرة الملك الكامل جيوش الملك المظفر محمود ، صاحب حماه فى نحو أربعين ألف مقاتل ، وكذا الملك المعظم عيسى صاحب دمشق والملك الأشرف موس شاه صاحب حلب وماردين كل منهم فى جيش كثيف تلبية لنداء الجهاد فى سبيل نصرة الإسلام والمسلمين . وتقول المراجع التاريخية أن شيخنا قد أبلى بلاء حسنا فى تلك المعارك وإن لم تذكر الدور الذى قام به على وجه التحديد إلا أننا نستطيع اعتمادا على ما جاء فى كتاب (السلوك[2]) وكذا كتاب (بدائع الزهور)[3] من أن الفرنج قد حصنوا سور

---

(١) شمس الدين الذهبى .

(٢) السلوك فى معرفة دول الملوك المقريزى .

(٣) بدائع الزهور فى وقائع الدهور لابن إياس .

دمياط وجعلوا المسجد الكبير كنيسة . والواقع أن المسجد الكبير بمدينة دمياط هو المسجد الجامع المعروف باسم جامع أبو المعاطى ، وهو من أقدم المساجد فى مصر الإسلامية إذ يرجع تاريخه إلى العصر الأموى ، ومن هنا كان استيلاء الفرنجة عليه وتحويله إلى كنيسة حادثا جللا بالنسبة للمسلمين قاطبة ، ومن هنا نستطيع القول بأن دور أبى السعود كان على أقل تقدير هو التوعية الدينية والحث على الجهاد فى سبيل الله . ولم يرجع أبو السعود إلى القاهرة إلا بعد رحيل الصليبيين عن دمياط ، بعد أن عقدوا الصلح مع الملك الكامل .

وقد ذكرت كتب السير الكثير من الحكايات والقصص الطريفة عن الشيخ أبى السعود ابن أبى العشائر ، فقد جاء فى كتاب[1] الكواكب السيارة وكتاب الطبقات الكبرى وكتاب تحفة الأحباب وبغية الطلاب ، أن الشيخ أحمد الرفاعى بشر به فنشأ فى العبادة من حال صغره وصام فى قماطه . أما عن مقام الشيخ أبى السعود بالقاهرة فيقول ابن الزيات[2] أن الشيخ الإمام العالم أبى العباسى القراباغى من كبار الصوفية ، كانت له زاوية عند باب القنطرة (باب القنطرة مكانه الآن ميدان باب الشعرية نسبة إلى ضريح الشيخ الشعرانى ، وكان يعرف من قبل بباب القنطرة لوجود قنطرة على الخليج الذى يبتدئ من فم الخليج وينتهى عند السويس فى تلك المنطقة وأمام القنطرة فتح باب فى سور مدينة القاهرة الغربى ، فلما زال السور الغربى فى العصر المملوكى أطلق اسم باب القنطرة على المنطقة كلها) ، حكى عنه أنه لما احتضر سأله بعض أصحابه ومريديه « يا سيدى من يكون بعدك على هذه السجادة يأخذ العهد ويربى الفقراء » فأجاب القراباغى قائلا « ليس فى الجماعة من يجلس مكانى ، إنما يجلس مكانى رجل يأتى من العراق من بلاد واسط ومعه جماعة من أصحابه فيدخل هنا ويصلى صلاة الظهر ويجلس بهذا المكان ويأخذ العهد ويربى المريدين » . فلما مات الشيخ القراباغى انتظر أصحابه من يأتى إليهم ، فبعد قليل جاء سيدى أبو السعود ومعه أصحابه، فلما وصل إلى الزاوية أذن الظهر وكان من عادة الشيخ أبى السعود أنه

---

(١) الكواكب السيارة فى ترتيب الزيارة لابن الزيات ص٣١٦ . ، الطبقات الكبرى المسماة بلواقح الأنوار فى طبقات الأخيار الشعرانى ص ١٦٢ . ، تحفة الأحباب وبغيه الطلاب السخاوى .

(٢) الكواكب السيارة فى ترتيب الزيارة .

لا يمشى هو وأصحابه إلا على وضوء ، وأى مكان سمعوا فيه الأذان صلوا فيه . فقال لأصحابه هنا ندخل نصلى ، فصلى هو وأصحابه وجلس بالزاوية . وحدث فى تلك الأثناء أن كانت أرملة القراباغى تمشى بسطح الزاوية فقال أبو السعود « لا إله إلا الله صاحب هذه الزاوية توفى وهذه التى تمشى على السطح زوجته وقد قرب انتهاء عدتها ، وها هنا يكون مقامنا ، فأقام بالزاوية وتزوج أرملة الشيخ القراباغى ، ومنذ ذلك الحين عرفت الزاوية باسم زاوية أبى السعود » .

ويذكر سراج الدين[1] بن الملقن فى تاريخه ، أن الشيخ صفى الدين أبى منصور سمع عن أستاذه الحرار يقول : لما انبسطت نفسى للاجتماع بالناس وزرت المشايخ أتيت لزيارة سيدى أبى السعود فدخلت مسجده وكنت وحدى ولم أكن رأيته قبل ذلك ، فنزل الشيخ إلى الصلاة فسلمت عليه ، فنظر الىّ وقال ، لعلك الصبى صهر الشيخ أبى العباس ، قلت : نعم ، فأقبل على وطلع بى إلى منزله وألفنى بإحسانه وقبوله فتألفت به وآنسنى فصرت أتردد إليه وأبيت عنده ولم يكن بعد ، ظهر الظهور بعد ذلك » ويستطرد الأستاذ الحرار فيقول : وربما بت عنده ، وكان يفت لى بيده الكنافة لآكلهاأناوهو فى رمضان ، وحدثنى ببداية أمره قال : كنت ازور شيخك أبا العباس وجماعة من صلحاء مصر ، فلما انقطعت واعتكفت وفتح الله على لم يكن لى شيخ إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم يضيف أبو السعود فيقول إنه لم يكن له شيخ إلا النبى صلى الله عليه وسلم لأنه رأى جماعة من المشايخ وأراد أن يأخذ منهم عهدا فقالوا له حتى نستأذن النبى صلى الله عليه وسلم . فنام الشيخ أبو السعود تلك الليلة فرأى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : له يا رسول الله أتأذن لى أن آخذ منهم عهدا ، فقال له عليه السلام ، ما أنت لهم بل أنت لى أمدد يدك ، فمد يده ، فأخذ عليه العهد وألبسه الطاقية فأفاق غائبا عن وجوده وأقام فيها ثلاثة أيام والطاقية على رأسه ثم حصل له الفتح المحمدى والسرالأحمدى . ثم يختم كتاب السير هذه القصة فيقولون : إلى أن أنتهى إلى مقام القطبانية وأقام بها وكانت كرامته ظاهرة فى حياته وبعد مماته . ومنذ انقطع للعبادة لم يخرج من زاويته بباب القنطرة إلا للجمعة والحج ، وقد حج حجا سعيدا ، وكما تقول الرواية وكانت له كرامات عظيمة فى تلك الحجج . ويقول

(١) تاريخ ابن الملقن .

الأستاذ الحرار أكثر مريديه التصاقا به : ولم يمش لبيت أحد قط إلا لبيتى بمصر (يعنى الفسطاط) مرة واحدة ، ومرة زار فيها الشيخ أبا الفتح الواسطى ، لما ورد القاهرة بسبب علم له فيه . ومن طريف ما يرويه الحرار عن أستاذه وشيخه أبى السعود إنه كان إذا دخل إلى مجتمع وخلع نعليه يسمع لنعله أنين فسئل عن ذلك فقال هى أنفسنا نخلعها عند النعال خيفة من التكبر عند اجتماعنا بالناس .

ويقول الشعرانى عنه فى طبقاته الكبرى أن الشيخ أبى السعود كان من أجلاء مشايخ مصر ، وأن السلطان الملك الكامل وكذا السلطان الصالح نجم الدين الأيوبى كانا يسعيان لزيارته فى زاويته بباب القنطرة ، ومن مأثور كلامه : «كيف يصح لعابد أن يخلص فى عبادته وهو غير عالم بآفاتها فإن الهوى روحها ، والشيطان خادمها ، والشرك مركوز فى طبعها ، ومنازعة الحق والاعتراض عليه مجبول فى خلقتها ، وسوء الظن وما ينتج من الكبر والدعوى وقلة الاحترام سيمتها ، ومحبة الصيت والاستهتار حياتها ، فكيف يقرب عبد من مولاه مع بقائها ومصالحتها» .

وتوفى الشيخ أبى السعود رضوان الله عليه بالقاهرة سنة ٦٤٤ هـ ودفن بسفح الجبل المقطم بالقرب من جبانة ابن عطاء الله السكندرى[١].

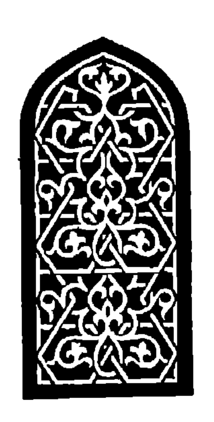
* * *

(١) النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٢٨٣ .

وصف الضريح

وبسفح جبل المقطم وبجوار مسجد السادات الوفائية يوجد ضريح الشيخ أبي السعود العشائرى . وهو عبارة عن حجرة مربعة فى أركانها الأربعة مقرنصات كبيرة تقوم عليها رقبة بها أربعة نوافذ وعلى الرقبة أقيمت قبة ضحلة ، سقط معظمها . وقد أضيت فى عصر متأخر لعله فى القرن السابع عشر مسجد بجوار الضريح يتكون من ثلاثة أضلاع مستقيمة ، أما الضلع الرابع الذى يوجد به المحراب فيه عدة انكسارات ، وذلك حتى تأتى القبلة فى مكانها الصحيح . وفى حائط القبلة يوجد ثلاثة محاريب ، المحراب المتوسط الكبير يوجد فى زاوية وعلى جانبيه محرابان صغيران أشبه بالحنيات التى تزخرف العمائر ، أما ما بقى من المسجد ، فمما يؤسف له أنه أصبح الآن مقابر واندثرت معظم معالمه .

ويصف محمد رمزى الضريح فيقول : « تقع زاوية الشيخ أبى السعود ابن أبى العشائر فى الشمال الغربى لجامع السادات الوفائية على بعد مائتى متر منه ويجاورها قاعة بها ضريح الشيخ أبى السعود . وقد ضربت الزاوية ولم يبق من مبانيها غير بابها والحائط الشمالى الشرقى والحائط الذى به المحراب . ومكانها اليوم أرض مشغولة بالمقابر » .



مسجد الشيخ سليم أبومسلم

بكفر أبـو مسـلم
بمحافظـة الشـرقيـة

ينتهى نسب أبو مسلم الى الإمام الحسين بن الإمام على رضوان الله عليهم أجمعين وهو سليم أبو مسلم بن يوسف أبى يعقوب الهمذانى العراقى الذى ينتهى إلى جعفر الصادق ولد الإمام يوسف بن أيوب الهمذانى بقرية بوزنجرد من ضواحى همذان كما يقول أبو مسعود السمعانى . ويضيف ابن خلكان ، أنه قدم فى صباه سنة ٤٩٠ هـ بغداد ولازم الشيخ أبا اسحق الشيرازى وتفقه عليه حتى برع فى أصول الفقه والمذهب وسمع الحديث من القاضى أبى الحسين المهتدى بالله وقريبه أبى جعفر محمد بن أحمد بن أبى مسلم . وكان رحمه الله يسجل ويدون كل ما يسمع ويرى فى مخطوطات حرصا منه على استيعابها والانتفاع بها عند الحاجة ثم انقطع بعد ذلك للعبادة والتصوف والسياحة والرياضة الروحية حتى صار علما من علماء الصوفية فى عهده . وفى سنة ٥٣٥ هـ عاد إلى بغداد واستقر به المقام فى المدرسة النظامية حيث كان يجلس للوعظ والإرشاد وصادف قبولا عظيما من الناس . ومما يروى عنه من قبيل الكرامات ما حكاه أبو الفضل بن عبد الله الصوفى قال حضرت مجلس شيخنا يوسف الهمذانى فى النظامية وكان قد اجتمع العالم فقام فقيه يعرف بابن السقا وسأله مسألة متهكما ، فرد عليه الإمام يوسف اجلس فإنى أجد من كلامك رائحة الكفر لعلك تموت على غير دين الإسلام . قال فاتفق أنه بعد هذا القول بمدة قدم رسول نصرانى من ملك الروم إلى الخليفة العباسى ، فمضى إليه ابن السقا وسأله أن يستصحبه فقبله النصرانى ولحق به إلى القسطنطينية وتنصر بها ومات على دين النصرانية .

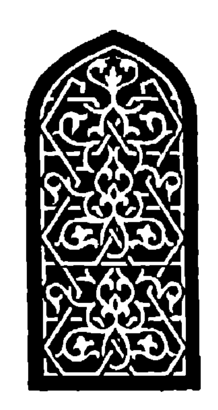
وبعد أن أقام فترة غير قصيرة ببغداد رحل إلى مرو بايران كما يقول ابن النجار فى تاريخه وسكنها ثم خرج منها إلى هراة وأقام بها مدة ، ثم سئل الرجوع إلى مرو فأجاب ومكث به مدة ثم رجع إلى هراة ثانية وعزم على الرجوع إلى مرو ولكن المنية أدركته فى الطريق إليها فتوفى بقرية تامين فى شهر ربيع الأول سنة ٥٥٥ هـ ومنها نقل إلى مرو حيث دفن بها .

أما شيخنا أبو مسلم فقد ولد سنة ٥٣١ هـ بمدينة همذان بإيران التى كانت وقتئذ مركزاً هاما من مراكز الشيعة فى العصر العباسى ولذلك فقد وفد إليها وأقام بها عدد كبير من أحفاد الأئمة من العلويين والمتشيعين لهم . وكان لأبى مسلم عم اسمه السيد منصور تفقه فى الفقه على مذهب الإمام الشافعى ولذلك ترك أقاربه وأهله فى بغداد قبل رحلتهم إلى همذان وحضر إلى مصر وكان ذلك فى أواخر القرن الخامس الهجرى . وعرف بين المصريين بعلمه وأدبه وزهده وتقواه . فقلده صلاح الدين الأيوبى ، كما يقول ابن الأثير، خطبة الجمعة بالمسجد الكبير بمصر (أى مسجد عمرو بن العاص بالفسطاط) فلما توفى السيد منصور فى زمن السلطان العادل أيوب ، حل محله فى الخطبة ولده إبراهيم ، وكان إبراهيم مصرى المولد والنشأة ولد سنة ٥٦٣ هـ ، تثقف بها وبالعراق على يدى أبى بكر محمد ابن الحسين وعلى بن الحسن المبارك وكانت خطبته جيدة كما يذكر ابن خلكان وشعره رقيقا يكاد يتشابه بشعر الأندلسيين ، غير أن عليه مسحة من التصوف ومكارم الأخلاق ظاهرة واضحة . وتوفى السيد إبراهيم سنة ٦١٣ هـ بمصر وقبل وفاته ببضع سنوات كاتب ابن عمه شيخنا (سليم أبو مسلم) فى أن يزوره فى مصر ورغبة فى جوها . ويضيف ابن خلكان فيقول وبينما يستخير أبو مسلم الله فى إجابة طلب ابن عمه إبراهيم ، إذ به يرى رؤيا أفزعته من مرقده وهو بهمذان وكان ذلك سنة ٦٠٩ هـ ، رأى أبو مسلم نارا قد اشتعلت جهة المشرق ثم امتد لهيبها إلى همذان فالعراق والشام حتى وصلت جبل الطور بمصر فانطفأت وخبا لهيبها . فلما استيقظ من نومه أخبر أهله وأقاربه بذلك فقيل له إن تأويل رؤياك تدل على أن دولة لا تؤمن بالله تهجم على البلاد التى رأيت فيها النار فتهلك الحرث والنسل وتعيث فى الأرض فسادا . ولعظم مقامه فى نفوس أهله وذويه خضعوا لأمره وعملوا بمشورته حفظا لغرضه وحقنا لدمائهم من الفتنة المنتظرة والتى تحققت بالغزو المغولى .

وتأهب للسفر ومغادرة همذان ومعه مئات من أقاربه وأنصاره وكان فيهم نحو ٧٥ رجلا من العلماء والفقهاء أمثال الوزواى والسنجرى ؛ وهم أصهاره ، على ما يظن ابن

خلكان . وحضر هؤلاء جميعا إلى مصر وانتشروا فى البلاد منهم من ذهب إلى الوجه القبلى والسودان ، وفريق آخر استقر فى الوجه البحرى فنراهم فى الصوة والسناجرة وفرسيس والاسماعيلية . وصل شيخنا أبو مسلم مصر سنة ٦١٠ هـ ونزل ضيفا على ابن عمه إبراهيم بمدينة القاهرة ، حيث كان يتولى الخطبة فى جامع عمرو بن العاص منذ عهد السلطان العادل ، كما سلف القول ، ولكنه لم يبق بها غير أسبوع واحد توجه بعده مع فئة كبيرة من أهله إلى الشرقية حيث استقر عدد كبير من القبائل العربية منذ الفتح الإسلامى . واتخذ له خلوة فى محلة (بحطيط) التى عرفت فيما بعد باسم كفر أبو مسلم . ولم تمض سوى ثلاث سنوات حتى توفى ابن عمه ابراهيم بمصر (أى القاهرة) فسافر إليها لحضور جنازته مع جمع غفير من أهله ثم عاد إلى محل إقامته بمحلة (بحطيط) وبعد بضع سنوات سمع بقيام التتار وما فعلوه بهمذان من قتل النفوس وهتك الأعراض فقال حمدا لله ، هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقا . وقد حزن لموت صديقه محمد خوارزم شاه ملك تركستان سنة ٦١٨ هـ فى هجوم التتار . وكانت همذان تابعة له وحاكمها شريف علوى .

وقد حل شيخنا مصر والصليبيون لا يفتأون يغيرون على سواحلها الشمالية بين الفينه والأخرى ولذلك فاننا نرى شيخنا يدلى بدلوه فى سبيل الجهاد لنصرة الإسلام والمسلمين بشتى الصور ، فتارة نراه واعظا مرشدا إلى ضرورة الجهاد فى سبيل الله بمحاربة أعداء الله وأعداء البلاد . وأخرى يخرج من قريته ومعه وفود كبيرة من أهله وأتباعه إلى ساحة الوغى يبشر المجاهدين بأن لهم الجنة . ولذلك فإننا نجد قبور وأضرحة كثير من أهله فى بلقاس والمنصورة والسنانية ممن استشهدوا فى حرب دمياط والمنصورة . وكان فى بعض الأحيان يحمل على ظهره أبريقا كبيرا يسقى منه الجنود فى ساحة الوغى ، وظل على هذا الحال حتى فارق الدنيا فى عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب سنة ٦٤٥ هـ أى قبل وفاة السلطان بعامين ، ودفن فى محله (بحطيط) كفر أبو مسلم حاليا حيث كانت خلوته . وكان رحمه الله على صلة وثيقة بالملك الصالح الذى كان يفد عليه فيكرم مثواه وكثيرا ما عرض عليه المال والمتاع ولكن الشيخ أبو مسلم كان يرفضه فى أدب وعفة نفس . فلما مات رأى الملك الصالح وفاء ببعض أفضال هذا الرجل الورع التقى أن يقيم له قبة فوق قبره ويلحق بها مسجدا .



ضريح أبومسلم

بقرية أبومسلم
مركز أبوحماد
محافظة الشرقية

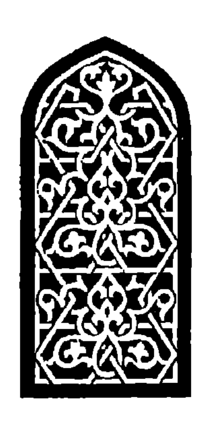
يوجد الضريح بقرية أبو مسلم بمركز أبو حماد بمحافظة الشرقية . وتبعد قرية أبو مسلم عن مدينة بلبيس بمقدار ١٠ كيلوا مترات شمالا وتبعد عن أبى حماد بمقدار ٩ كيلو مترات إلى الجنوب الغربى وعن الزقازيق بمقدار ١٦ كيلو مترا إلى الجنوب الشرقى .

ويقول أهل كفر أبو مسلم إن الشيخ سليم اختار هذه البقعة لماضيها الحافل بالأحداث والذكريات الدينية ، فيقال إنها كانت لبنى إسرائيل وأنهم ذبحوا بقرتهم التى ورد ذكرها فى سورة البقرة بها . كما أنها كانت هى وما حولها مخازن للغلال فى عهد يوسف الصديق ، وأنها كانت ممرا لسيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام .

ويشبه ضريح أبو مسلم إلى حد كبير الأضرحة الأيوبية مثل ضريح الخلفاء العباسيين وقبة الصالح نجم الدين أيوب وقبة شجرة الدر وذلك من حيث التصميم المعمارى وكذا شكل المقرنصات الموجودة فى أركان المربع التى تقوم فوقه دائرة القبة . ويتكون الضريح من مربع يبلغ طول ضلعه ٦ أمتار من الداخل فى كل ركن من أركانه مقرنص كبير بداخله ست عقود متدرجة ، ويبدأ كل عقد عند القاعدة من قمة ثلاث مقرنصات صغيرة هرمية الشكل والمقرنصات تشبه مقرنصات العصر الأيوبى مما يرجح أن الضريح القائم يرجع إلى عصر الملك الصالح نجم الدين . وتعتبر مقرنصات ضريح أبو مسلم فريدة فى نوعها من حيث ترتيبها ولكن للأسف فقد شوهت بالألوان الزيتية التى طلى بها الضريح بقصد التكريم بطبيعة الحال . ويعلو المربع رقبة مثمنة بها ست عشرة نافذة ثمانية منها مفتوحة ، والأخرى مغلقة .

وملحق بالقبة من جهتها الشمالية الشرقية مسجد جديد حل محل المسجد القديم أقامته وزارة الأوقاف . ويتكون المسجد من مستطيل تقسمه ثلاثة صفوف من البوائك إلى أربع أروقة موازية لحائط القبلة ، وتتكون كل بائكة من ثلاثة عقود مدببة تقوم على عمودين وأكتاف حائطية وفى الرواق الثانى من جهة القبلة توجد فتحة (شخشيخة) تقوم على رقبة ، مثمنة للتهوية وللمسجد ثلاثة أبواب فى كل ضلع من أضلاع المسجد باب فيما عدا حائط القبلة .

• • •



ضريح الشيخ عثمان بن عمر بن ابى بكر
المعروف بابن الحاجب
بمسجد ابن المنير
السكندرى

ابن الحاجب هوعثمان بن عمر بن أبى بكر كان والده حاجبا للأمير عز الدين موسك الصلاحى ومن هنا جاءت كنيته . كان والده فى أول أمره من الجنود التى وفدت مع جيوش نور الدين زنكى التى أرسلها بقيادة أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين الأيوبى لنصرة شاور وإخراج الصليبيين الذين كان شاور قد استنجد بهم من قبل . ويقال إن عمر بن أبى بكر والد ابن الحاجب كان كردى الأصل كصلاح الدين وأن أصوله كانت من (دوين) القرية التى ولد بها صلاح الدين نفسه بتكريت . ولعل ذلك يفسر لنا السر فى احتفاظ أسد الدين وصلاح الدين به دائما كجندياً فى الحملات التى خاضها إلى مصر .

فقد وفد عمر بن أبى بكر فى الحملة الثانية التى قادها شيركوه على مصر وكان من ضمن الحامية التى قصد بها شيركوه أطفيح ثم اتجه بها جنوبا حتى وصل ملوى حيث أدركه شاور وعامورى ملك الفرنجة ، وكادت تنشب معركة بين الجانبين عند البابين . وفى تلك الأثناء كاد اليأس ينشب أظفاره بين أفراد جيش شركوه الدين بعدوا كثيرا عن قواعدهم ولكن بعض الجنود البواسل الشجعان المخلصين لأسد الدين ومنهم عمر ابن أبى بكر وشرف الدين برغش استطاعوا أن يحولوا اليأس فى قلوب الجند إلى أمل ، إذ صاحوا فيهم قائلين : من يخش القتال والجراح والأسر فلا يخدم الملوك بل يكون فلاحا أو مع النساء فى بيتهم ، والله لئن عدتم إلى الملك العادل نور الدين من غير غلبة وبلاء تعزرون فيه ليأخذ إقطاعاتكم وليعودن عليكم بجميع ما أخذتموه إلى يومنا هذا .

ويقول لكم أتأخذون أموال المسلمين وتفرون من عدوهم وتسلمون مثل هذه الديار يتصرف فيها الكفار[1]» . وقد كان لهذه الكلمات وقعها على الجنود فتحولوا إلى أسود كاسرة واجتمعت كلمتهم على لقاء العدو فانتصر شيركوه فى موقعة البابين التى انتهت بالصلح بين الجانبين ووقف القتال وغادر شيركوه وعامورى مصر .

ولم يغب عمر بن أبى بكر عن مصر طويلا إذ عاد فى نفس السنة ١١٦٨ م فى الحملة الثانية لشيركوه التى جاءت بناء على دعوة من الخليفة العاضد ووزيره شاور وقد كتب لهذه الحملة الاستقرار فى مصر إذ على يديها انتهت الدولة الفاطمية وقامت الدولة الأيوبية . ولخبرة عمر بن أبى بكر بالصعيد فقد أرسله صلاح الدين الأيوبى فى الحامية التى ذهبت إلى الصعيد حتى وصلت إلى قوص وإسنا . وفى مدينة إسنا أنجب عمر بن أبى بكر ولده عثمان صاحب الترجمة وكان ذلك سنة ٥٧٠ هـ .

ولم يستمر عمر بن أبى بكر طويلا فى مدينة إسنا إذ لم يبق بها بعد ولادة ابنه عثمان غير بضعة شهور ثم انتقل إلى القاهرة عند وفاة الخليفة العاضد سنة ٥٧١ هـ وإعلان صلاح الدين نفسه سلطانا على مصر . وقد تربى وترعرع عثمان فى مدينة القاهرة ودخل مدارسها وحفظ القرآن بها كما درس العلوم المتصلة بها فقرأ القراءات على الغزنوى وتتلمذ على الشيخ الشاطبى وسمع الحديث من البوصيرى وغيره وأخذ الفقه عن أبى منصور الإبيارى وغيره ، كما أخذ الأدب على الشاطبى وابن البنا . وارتحل عثمان إلى دمشق فى الوقت الذى كان والده يعمل حاجبا للأمير عز الدين موسك فعرف عثمان بدمشق باسم ابن الحاجب . وفى دمشق سمع ابن الحاجب القاسم بن عساكر[2] ولازم الاشتغال بالعلم والأدب حتى ضرب به المثل وكان ذا ذكاء ممتاز ، عميق الفهم حاد القريحة فبرع فيما درسه وأتقنه غاية الإتقان ولاسيما الأصول والعربية وكان الأغلب عليه علم العربية فإنه برز فى النحو[3] .

وكان النحو فى ذلك العصر مادة أساسية من مواد الثقافة يكاد يشترط المثقفون كلهم من أن يأخذوا منها بنصيب وَنَدر من لم يشارك فيها ، وكانوا يعدونها وسيلة لدراسة العلوم

---

(١) النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٤٣٩ .

(٢) السيوطى : حسن المحاضرة جـ ١ ص ٢١٥ ، ابن العماد : شذرات الذهب جـ ٥ ص ٢٣٤ .

(٣) كشف الظنون : لحاجى خليفة جـ ١ نهر ١٦٢ ، ٢١٢ .

الشرعية . وعرفت البلاد فى ذلك الحين الكتب الأساسية المعروفة فيها يومئذ وكان أهم كتاب يدرس بمصر والشام فى ذلك الحين كتاب المفصل للزمخشرى . فقد نال المفصل من عناية العلماء فى ذلك العصر ما لم ينله كتاب آخر فظفر بشروح كثيرة تناهز خمسة عشر شرحا منها شرح لابن الحاج صاحب الترجمة . وقد كان ابن الحاج من كبار أعلام النحو فى عصره فقد قال عنه السيوطى وابن خلكان : وقد خالف ابن الحاج النحاة فى مواضع وأورد عليهم إشكالات وإلزامات مفحمة ، يعثر الجواب عنها . وقد تكررت رحلات ابن الحاج إلى دمشق للاستفادة حينا وللتدريس أحيانا وكان آخر دخوله إليها سنة ٦١٧ هجريا ، إذ أقام بها مدرسا بالجامع الأموى فى الزاوية المالكية[1] .

ويحدثنا ابن جبير عن زوايا الجامع الأموى بدمشق فيقول : وبالجامع الأموى بدمشق عدة زوايا يتخذها الطلبة للنسخ والدرس والانفراد من ازدحام الناس وفى الجانب الغربى من الجامع توجد زاوية المالكية وقد شاهدت بها الطلبة المغاربة مجتمعين فيها وفى زاوية المالكية بدمشق أقبل الطلبة على ابن الحاج ولازموا الأخذ عنه فى المواد التى أجاد دراستها . وطال مقام ابن الحاج فى مدينة دمشق يدرس ويؤلف حتى إذا كان حادث العز بن عبدالسلام مع الملك الأشرف ترك ابن الحاج دمشق إلى غير رجعة واستقر به المقام بمصر[2] .

وقد شارك ابن الحاج مشاركة فعالة فى الخلاف الذى وقع بين العز بن عبد السلام والملك الأشرف الصالح إسماعيل ، ذلك أن العز بن عبد السلام قد نقم على الصالح إسماعيل صلحه مع الفرنج . وقد اتفق الصالح إسماعيل المغيث بن الصالح نجم الدين مع صاحب حلب وصاحب حمص الذين صاروا كلمة واحدة على صاحب مصر السلطان نجم الدين الأيوبى واعتضدوا كما يقول أبو المحاسن بالفرنج وسلموا إليهم القدس وطبرية وعسقلان . ويقول ابن واصل : «وتسلم الفرنج حرم القدس وغيره وعمروا قلعتى طبرية وعسقلان وحصنوهما ووعدهم الصالح إسماعيل بأن إذا ملك مصر أعطاهم بعضها فتجمعوا وحشدوا وسارت عساكر الشام إلى غزة . وهنا يقول ابن واصل : ودخلت القدس فرأيت الرهبان

---

(١) وفيات الأعيان جـ ١ ص ٣١٤ .

(٢) رحلة ابن جبير ص ٢٤٠ .

على الصخرة (فى قبة الصخرة) وعليها قنانى الخمرة ورأيت الجرس فى المسجد الأقصى وأبطل الأذان فى الحرم وأعلن الكفر[1] » .

لمثل هذا ثار العز بن عبد السلام ونقم على الصالح إسماعيل فعلته هذه قائلا له : «إنه قد[2] ارتكب فى حق الإسلام وفى حق نفسه جريمة لا يعدلها إلا الشرك بالله سبحانه وتعالى وشارك ابن الحاج العز بن عبد السلام فى نقمته هذه ومضى إلى العلماء يعاتبهم عن عدم دفاعهم عن عز الدين مع أن معتقده هو الحق. فلما علم بذلك الصالح إسماعيل أخرجه من دمشق مع العز بن عبد السلام سنة ٦٣٨ هـ فعادا معا إلى مصر . وفى القاهرة تصدر ابن الحاج المدرسة الفاضلية ودرس فى موضع الشاطبى وقصده الطلبة وأكبوا عن الأخذ عنه . وهناك ألف الكثير من مصنفاته فقد وضع فى النحو الكافية وشرح كتاب سيبويه فى الصرف وضع الشافية وقد عنى العلماء بكتابى الكافية والشافية فشرحوهما شروحا كثيرة[3]. ولابن الحاجب أيضا كتاب (آمال) الذى يقع فى مجلد ضخم أعرب فيها ما يشكل فيه الاعراب وقد أملى هذه الأمالى فى أوقات متفرقة وأماكن متعددة كما ألف فى الشعر لعل أهمها القصيدة الموشحة ، كما وضع فى العروض (المقصد الجليل فى علم الخليل) وهو منظومه.. من بحر البسيط فى العروض وفى الفقه وصنف جامع الأمهات وهو موجز فى الفقه المالكى بالغ ابن دقيق العيد فى مدحه كمابالغ غيره من العلماء فى الثناء عليه وعنى بشرحه كثيرمنهم وفى أصول الفقه ألف المختصرالأصولى الذى عنى به الأصوليون وجعلوه من أسس كتب الأصول[4].

وممن التقى بابن الحاجب ورآه ابن خلكان[5] الذى شاهد من علمه الغزير ما جعله يثنى عليه ويقر له بالفضل ، كما وصفه مؤرخوه[6] بالورع والتقوى والتواضع ، كما أجمعوا على أنه كان ركنا من أركان الدين فى العلم والعمل[7] .

---

(١) النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٢٢ .

(٢) مفرج الكروب ص ٩٨ .

(٣) : التميمى : بغيه الطالب وإرشاد الدارس فيما بدمشق من الجوامع والمدارس جـ ٢ ص ١١٠ (مخطوطة بالمكتبة التيمورية رقم ١٤٩٨ تاريخ)

(٤) كشف الظنون جـ ١ نهر ١٧٧٤ .

(٥) وفيات الأعيان جـ ١ ص ٣١٤ .

(٦) ابن كثير جـ ١٣ ص ١٧٦ ، طبقات الشافعية جـ ٥ ص ٨٠ ، صفحات مهراجية بن حيب ص ٢٨٥ ، تنين الطالب جـ ٢ ص ١١١ وغيرهم كثير .

(٧) أحمد بدوى : الحياة الفعلية ص ٢٠٩ .

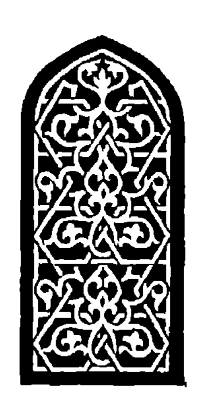
وفى آخر أيام ابن الحاجب رغب عن القاهرة وآثر الانتقال إلى الاسكندرية وكما يقول أحمد بدوى : لسنا ندرى سببا فى هذا الإيثار ولا تاريخ الانتقال ، إلا أن مدته بالإسكندرية لم تطل ومات بها فى ضحى نهار الخميس[1] السادس والعشرين من شوال سنة ٦٤٦ هجرية ورثاه الشيخ أحمد بن المنير بأبيات كتبها على قبره المجاور لمسجده ومنها :

ألا أيها المختال فى مطرف العمر — هلم إلى قبر الإمام أبى عمر

ترى العلم والآداب والفضل والتقى — ونيل المنى والعز غيبن فى قبر

فتدعو له الرحمن دعوة رحمة — يكافأ بها فى مثل منزله القفر

(١) بغية الوعاة : ص ٣٣٣ .



ضريح شجر الدّر
بقسم الخليفة بالقاهرة

أجمع علماء التاريخ والاجتماع على أن مصر كانت مهد الحضارة الإنسانية منذ عهود البشرية الأولى ، وأنها ظلت كذلك علما يذكر فى هذا الميدان عبر العصور الوسطى فالحديثة. ومع هذا فالمرأة لم تلعب فى حياة مصر السياسية دورا يذكر اللهم إلا فى ثلاث فترات متباعدة ، بدأتها الملكة حتشبسوت الفرعونية فالملكة كليوباترة البطلمية ثم شجر الدر الأيوبية . وقد يكون ذلك دليلا كافيا على ما امتازت به هؤلاء الملكات من صفات ممتازة ونادرة جعلتهن يقتحمن هذا الميدان الوعر الشائك ، ولعل هذا هو السبب أيضا الذى جعلنى أضم سيرة شجر الدر ضمن تراجم الأولياء والعلماء . أفضت السلطنة بمصر سنة ٦٣٧ هـ إلى السلطان الملك الصالح بن الكامل ، فأكثر من اقتناء المماليك الأتراك، وبنى لهم قلعة فى جزيرة الروضة ، كما جعلها المركز الرئيسى لملكه. نقل إليها أهله وحاشيته . فضلا عن مماليكه بدلا من قلعة الجبل . وفى أيامه حمل الصليبيون على مصر بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا ، والملك الصالح مريض . فأمر بالتجنيد للاستعداد للحرب ، لكن الصليبيين ظفروا بدمياط ، وتوفى الملك الصالح على أثر ذلك . وفى تقدير المؤرخ ابن تغرى بردى . أن الملك الصالح أعظم السلاطين الأيوبيين بعد صلاح الدين . وحرصا على بقاء خبر الوفاة مكتوما ، أعلنت شجر الدرأن السلطان مريض لا يزوره أحد سوى أطبائه . كما أحاطت الأمير حسام نائب السلطنة بالقاهرة بهذا الإعلان بمرسوم ، واستخدمت لهذا الغرض وغيره من شئون الحكم أوراق مراسيم بيضاء ، قيل إن السلطان وضع عليها علامته

قبل وفاته ، كما قيل إن خادما اسمه صواب السهيلى كان يتقن كتابة العلامة السلطانية إتقانا جاز على كثير من الذين وصلتهم هذه المراسيم . وبموجب هذه السلطات الواسعة استحضرت شجر الدر أمراء الجيش وزعماء المماليك إلى القصر السلطانى بالمنصورة وأعلنت فيهم كذلك خبر مرض السلطان ورغبته فى تحليف الأمراء له ولابنه تورنشاه بعده . ثم بعثت شجر الدر مرسوما إلى القاهرة لشرح ما تم من تحليف أمراء الجيش وزعماء المماليك ، فقام نائب السلطنة بالقاهرة بتحليف أكابر الدولة وأجنادها على ما وقع عليه بالمنصورة وأمر الخطباء بالدعاء للأمير تورنشاه بالمساجد فى خطبة الجمعة بعد أبيه .

ويبدو أن شجر الدر اختارت هذه المناسبة لتعين الأمير إيبك التركمانى وهو أكبر مماليك السلطان الصالح مرتبة وأعظمهم خطوة عند شجر الدر نفسها ، للمشاركة فى تدبير أمور الحكم ، وأرسلت زعيما مملوكيا ثانيا هو فارس الدين أقطاى للسفر فى طلب الأمير تورنشاه من حصن كيفا . وترتب على هذه التعيينات الجديدة إسناد القيادة إلى ثالث أمرائها فى الأقدمية وهو الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى . وبذلك أنقذت البلاد من كارثة كانت على وشك التردى فيها ، إذ لو علم الجيش والشعب بموت السلطان أثناء قتال الصليبيين لخارت عزيمتهم وانقلب الانتصار إلى هزيمة . فعاد المصريون لمحاربة الصليبيين ففازوا وردوا الصليبيين على أعقابهم بعد معارك حامية . وأسروا المالك لويس التاسع وكثيرا من ضباطه وكبار جنده .

ووقع الخلاف بعد ذلك بين رجال الملك غياث الدين تورنشاه ومماليك أبيه الصالح ، فثار عليه هؤلاء المماليك ، فخاف منهم وحاول الفرار ، ولكنه لم ينجح فقتلوه شر قتله قرب بلدة فارسكور . وقد كان لشخصية شجر الدر أثرها العظيم عند المماليك ، فلما مات تورنشاه أجمعوا على مبايعتها على اعتبار أنها أم الأمير خليل ابنها من السلطان الصالح نجم الدين ، ولذلك فإنها كانت تمهر الكتابات الرسمية باسم (أم خليل) برغم موته فى طفولته . وخطب لها بالسلطنة بالقاهرة ومصر وسائر الديار المصرية ، ونقش لقبها على النقود مصحوبا باسم الخليفة العباسى المستعصم بالله ، ولم تنقش شجر الدر اسمها صراحة على الدنانير الذهبية والدراهم الفضية التى ضربتها .

وقد تواتر فى المراجع التاريخية حتى أصبح كالحقيقة المؤكدة ، وهى أن الخليفة العباسى غضب غضبا شديدا عندما بلغه تولى شجرة الدر سلطنة مصر وأرسل إلى أمراء مصر وقوادها رسولا يحمل رسالة جاء فيها «من أبى أحمد عبد الله المستعصم بالله أمير المؤمنين إلى أمراء الجند والوزراء فى مصر . السلام عليكم ، وبعد فقد بلغنا أنكم وليتم أمركم شجر الدر جارية المرحوم الملك الصالح وقلدتموها أمور الدولة وجعلتموها سلطانة عليكم ، فإذا لم يكن عندكم رجال يصلحون للسلطنة فاخبرونا نرسل إليكم من يصلح لها» . ولكن الواقع والحقيقة أن الخليفة لم يبعث هذه الرسالة بوازع من ضميره أو بدافع دينى ، بل تنفيذا لرغبة قيمة قصر تسائه فى بغداد ، التى أرادت أن تلبى رغبة ورجاء صديقتها المصرية سلافة قيمة قصر السلطان الملك الصالح نجم الدين وأكبر منافسة لشجر الدر فى حياة السلطان ، فكيف بها وقد أصبحت مرءوسة لها بعد أن أضحت سلطانة للمسلمين . وكان حريا بالخليفة العباسى أن يراعى مصلحة الإسلام والمسلمين، ويقدر لتلك المرأة الفذة التى استطاعت أن تحول هزيمة المسلمين إلى نصر مؤزر فى وقت كانت فيه الدولة الأيوبية تحتضر وبذلك حفظت للعروبة والإسلام عزته وكرامته .

وصف الضريح

الضريح مبنى من الآجر ويتخلله أنصاف جزوع نخيل ، وهو يشبه ضريح الخلفاء من حيث الزخارف الخارجية ولكنه أكبر قليلاً من حيث المساحة إذ يبلغ طول كل ضلع من أضلاعه ٧ أمتار تقريبا من الداخل ويتوسط ثلاثة من أضلاعه باب ، كما هو الحال فى مشهد يحيى الشبيهى والخلفاء العباسيين . أما الضلع الرابع فى الجهة الجنوبية الشرقية فيوجد به المحراب . والأبواب مستطيلة ويعلوها عتب خشبى يعلوه عقد عاتق من الآجر .

وصف الضريح من الخارج

لقد زالت الزخارف التى تعلو الواجهة الشمالية الشرقية . وذلك لبناء مسجد ملاصق له فى النصف الثانى من القرن (١٩) ، كما غطى هذا المسجد الواجهة الشمالية الغربية كذلك . ومن الجهة الجنوبية الشرقية كان يلاصقه منزل ، وقد أزالت لجنة حفظ الآثار المنزل والمسجد الذى لم يبق منه غير شريط من الكتابة يحتوى على لقب خليفة عباسى لم يذكر اسمه وإن كان تاريخ وفاته قد كتب بالحروف سنة ١٢٤٢ هـ - ١٨٢٦ م . وجهة القبلة يوجد بها بروز المحراب النصف دائرى وعلى جانبيه حنيتان يعلوهما عقد ذو زاوية . ويتكون العقد من طرفين مفصصين تشبه واجهة مسجد الصالح طلائع وضريح أبو منصور إسماعيل والخلفاء العباسيين ، ونجد فى الكوشة بين المحراب والحنيات دائرتان بهما زخارف هندسية ، وفى الكوشتين الخارجيتين يوجد معينان بهما زخارف هندسية كذلك . وقد شطفت أركان الضلع الجنوبى الشرق وملئت بأربعة صفوف من الحنيهات الجصية

وتختلف الواجهة الجنوبية الغربية عن باقى الواجهات بوجود حنيتان مسطحتان صغيرتان على جانبى الباب الذى يتوسطها ، كما يوجد ثلاث دوائر ومعين واحد على كوشة العقود ، إلاّ أنه يوجد امتداد للواجهة من الجهة الغربية ويعتقد الأستاذ (Patricolo) الذى قام بعملية الإصلاح ، أن هذا الامتداد يدل على وجود حنية كاملة فى هذه الجهة ، وعلى جانبها يوجد معين فى كوشة العقد حتى يتم التماثل مع الطرف الجنوبى من هذه الواجهة .

ويفسر السبب فى وجود هذا الامتداد بأنه قد تكون هناك سقيفة تتقدم المدخل الرئيسى فى الجهة الشمالية الغربية كما هو الحال فى مسجد الصالح طلائع .

وفى منطقة الانتقال توجد درجة واحدة من الخارج ويعلوها القبة ذات القطاع لعقد ذو الزاوية (وهو نادر) ويبلغ ارتفاعها (١٤) متراً من أرض الضريح .

وصف الضريح من الداخل

يتوسط كل ضلع من أضلاع الضريح الأربعة التى يبلغ عرضه (٧) أمتار ، حنية جصية مستطيلة يبلغ عرضها (٢٫٠٥) مترا ، أما حنية المحراب فيعلوها عقد نصف دائرى . وترتكز العقود جميعاً على إفريز خشبى عرضه ٤٦ سم ، ويرتفع عن الأرض بمقدار (٢٫٨٣) متراً ، ويحيط بالضريح كله ، ويغطى عتب الأبواب الخشبى كما يحيط بتجويف المحراب ولذا فقد قطع إلى إثنى عشرة قطعة حتى يستطيع أن يحيط باستدارة التجويف . وقد حفر عليه كتابة كوفية وأسلوب حشواته فاطمية ويعتقد كزويل أنه أخذ من القصر الغربى الصغير أو من بعض العمائر المعاصرة . وقد كان الافريز مغطى بطبقة من الجص عليها كتابة نسخية تشتمل على بعض الآيات القرآنية ، ومدح فى الرسول صلى الله عليه وسلم . وعلى ارتفاع ٥٫٤٠ م يوجد افريز خشبى آخر عليه كتابات نسخية مرسومة باللون الأبيض ولكن هذه الكتابات لم تستطع إخفاء الأرضية بالافريز ذات الكتابة المورقة ، التى سبق نشرها مرتين بواسطة (Van Bercham) ويعد هذا الأفريز ثانى منطقة الانتقال إلى القبة .

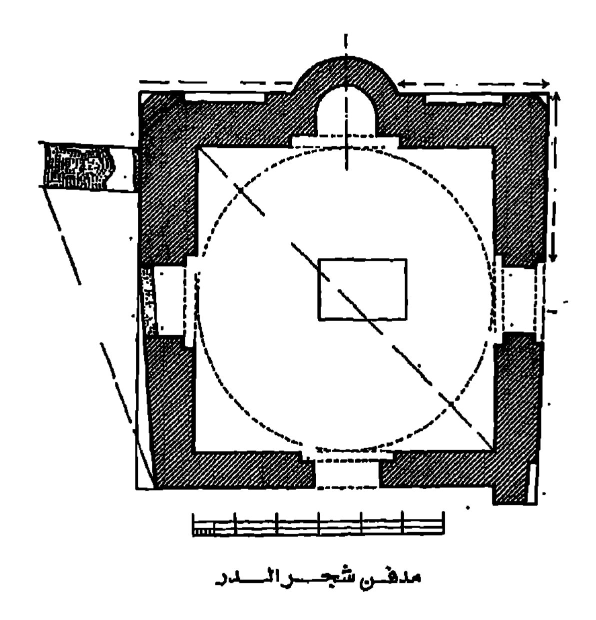
المحراب : ولهذا المحراب أهمية خاصة إذ أنه أول محراب فى مصر يحتوى على فسيفساء ، وإن كانت المراجع تشير إلى أمثلة سابقة فى مسجد عمرو . وتتكون الفسيفساء من إطار يحيط بنصف القبة عبارة عن شريط مضفور (Guilloch) (torsade) وفى الوسط شجرة ذات فروع متشعبة على أرضية ذهبية . والألوان الأساسية هى الأخضر والأبيض والأحمر قليل ، وكل الثمار تحتوى على صدف . والفسيفساء فى حالة جيدة وخاصة اللون الذهبى الذى يرى بريقه واضحا عندما تسطع عليه أشعة الشمس .

المثلثات الكروية : تتكون منطقة الانتقال من صفين من الدلايات ثلاثة فوق ثلاثة وبين الأركان توجد نوافذ ذات ثلاث فتحات ، كما يوجد فى القبة ثمان نوافذ ذات عقود

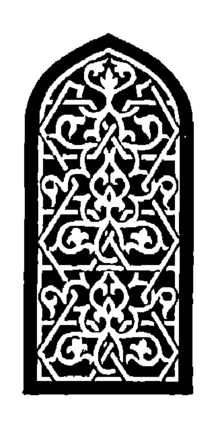
على شكل زاوية عند القاعدة وهناك بقايا رسوم فى تلك المثلثات باللون الأخضر الباهت وتتكون من رسوم أرابيسك كالتى نجدها على الخزف ذى البريق المعدنى الفارسى فى القرن (١٢) .

التابوت : وفى وسط الضريح يوجد تابوت خشبى حديث،وضع فى جوانبه أجزاء من التابوت القديم تحتوى على ثلاثة أشرطة من الكتابة النسخية تشتمل على آيات قرآنية . ولم يذكر اسم المتوفى على التابوت ،ولكن وجد نص ابن هارون الرشيد وسيدى محمد ، وهو لقب خليفتين من خلفاء العباسيين ، أولهم توفى سنة ٨٠٨ هـ والثانى ذهب إلى ، القسطنطينية مع السلطان سليم الأول ثم عاد إلى القاهرة وتوفى بها سنة ٩٤٥ هـ ، هذا ولم نجد اسم الخليفتين ضمن قائمة أسماء الخلفاء العباسيين ، ولذلك فهناك شك فى أن يكون التابوت يخص أحدهما .

التاريخ : الكتابة على الإفريز العلوى لا تحتوى على تاريخ وهى نقل للكتابة الأولى الأصلية . لقد بنت شجر الدر هذا الضريح قبل وفاتها ببضع سنوات وكتب عليه بعض ألقابها (عصمة الدنيا والدين) ولكن قتلها على تلك الصورة البشعة منع دفنها فى ضريحها العظيم ، وبعد قرنين أو ثلاثة ، دفن فى ضريحها أحد الخلفاء العباسيين .



مدفن شجر الدر



الإمام أبو الحسن على الشاذلى

بمحافظة البحر الأحمر

هو على بن عبد الله بن عبد الجبار ينتهى نسبه إلى الحسن ابن أمير المؤمنين على بن أبى طالب وابن فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولد ببلاد المغرب سنة ٥٩٣ هـ بقرية تسمى غمارة وهى مدينة قريبة من سبتة ببلاد المغرب (قرب طنجة الحالية) ، تلقى فيها علومه الدينية الأولى وبرع فيها براعة كبيرة ، بيد أن العلوم الظاهرة مهما بلغت من الدقة ومهما بلغ بها العمق ، لا تفضى بالنفوس الطموحة إلى الكف عن التطلع نحو عالم الغيب ، فقد شعر أبو الحسن بالرغبة الملحة فى القرب من الله وفى أن يستضىء قلبه بنور المعرفة . فهاجر إلى العراق محط أنظار طلاب الدنيا والدين ، إذ كانت تضم إلى جانب علماء العلوم المدينه كبار الفقهاء وأعلام المحدثين وأئمة الصوفية ، وانتهى به المطاف إلى بغداد حيث التقى بالأولياء وعلى رأسهم ، فى نظره ، أبو الفتح الواسطى ، وكان رحمه الله دائم السؤال عن قطب بغداد فقال له أحد الأولياء – كما جاء فى كتاب (درة الأسرار): يا أبا الحسن إنك تبحث عن القطب بالعراق مع أن القطب ببلادك ، إرجع إلى بلادك تجده .

وعاد أبو الحسن إلى غمارة مرة ثانية يحدوه الأمل ويغمره الرجاء. يسأل عن قطب ذاك الزمان ، وهناك التقى بالقطب الأكبر عبد السلام بن مشيش إمام أهل المغرب كما كان الشافعى إمام أهل مصر . وكان ابن مشيش يتعبد فى مغارة فى أعلى جبل فى غمارة ،

فأخذ يتردد عليه أبو الحسن وتتلمذ على يديه وعنه يقول ، أوصانى أستاذى ، رحمه الله تعالى ، فقال «حدد بصر الإيمان تجد الله فى كل شىء» .

وقد تنبأ ابن مشيش بما يخبىء القدر للحسن الشاذلى من أحداث جسام فأشار عليه بأن يرتحل إلى أفريقية (كانت تعنى فى ذلك الوقت تونس الحالية) . وجاء فى كتاب (درة الأسرار) أنه (أى ابن مشيش) عين له مدينة شاذلة بالذات فى أفريقية قائلا له : «فإن الله عز وجل يسميك الشاذلى . ولما وصل أبو الحسن إلى شاذلة ، سافر إلى جبل زغوان حتى يفزع لله تعالى عما سواه بالتعبد والنسك وبالصلاة والصوم والقراءة والتسبيح . على أن الشيخ لم يكن محجوبا فى الجبل عمن يريد لقاءه بل إنه رحب بكل محب للمعرفة جاد فى طلبها . وبقى أبو الحسن فى خلوته فى غار جبل زغوان حتى امتلأ قلبه بالله وتطهرت نفسه من الرجس فأصبحت خيرا خالصاً فرجع إلى عباد الله للهداية والإرشاد . أما عن نسبته إلى شاذلة فيقول الشيخ أبو الحسن : قلت ياربى لم سميتنى بالشاذلى ، ولست بشاذلى ، فقيل لى : يا على ما سميتك بالشاذلى وإنما أنت الشاذلى ، بتشديد الذال المعجمة يعنى المفرد لخدمى ومحبتى .

ورحل أبو الحسن من شاذلة إلى مدينة تونس موطنا النفس على تحمل البلاء ، الذى تنبأ له به شيخه ابن مشيش إذ قال له : «ويؤذى عليك بها من قبل السلطنة» فقد دبت الغيرة فى قلب ابن البراء قاضى قضاتها لما رأى كثرة مريدى الشيخ واجتماع الناس عليه والتفاف العلماء والفقهاء وعلية القوم حوله ، وخشى أن يتولى أبو الحسن منصب قاضى الجماعة بدلا منه . فأوغر ابن البراء قلب سلطان تونس عليه فأمر باحتجاز الشيخ فى قصره فترة ، وقعت أثناءها أحداث مفجعة أليمة للسلطان أعتقد أنها من كرامات الشيخ فأخلى سبيله فى الحال ومن تونس انتقل أبو الحسن إلى مصر ، وكان قد زارها من قبل فى طريقه إلى الحج ويقول الشيخ عن سبب ذهابه إلى مصر : رأيت النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام فقال لى : «يا على انتقل إلى الديار المصرية تربى فيها أربعين صديقا» . ووصل أبو الحسن إلى الإسكندرية وتزوج هناك وأنجب خمسة أولاد ثلاثة من الذكور واثنان من الإناث . وكانت إقامته بمصر فترة استقرار مادى ومعنوى فقد حبس سلطان

مصر برجا من أبراج سور الإسكندرية عليه وعلى أولاده من بعده . كما كانت فترة إقامته بها فترة مباركة من الدعوة ومن حيث إقبال أكرم العلماء وأفضلهم علما وخلقا عليه . فقد جاء فى القاموس المحيط . وممن كان يحضر مجلسه ، العز بن عبد السلام ، وابن دقيق العبد ، وناهيك بهما ، والحافظ المنذرى ، وابن الحاجب ، وابن الصلاح وابن عصفور ، وغيرهم بالكاملية من القاهرة» . والكاملية هى المدرسة المذهبية التى أنشأها السلطان الكامل ابن أخى صلاح الدين الأيوبى فى أوائل القرن السابع الهجرى وهى تقع فى شارع المعز لدين الله (شارع الصاغة) وقد كانت هذه المدرسة تعرف باسم (دار الحديث) ، إذ قصرها السلطان الكامل على المشتغلين بالأحاديث النبوية ، ثم من بعدهم تكون للفقهاء الشافعية ، وقد أوقف عليها أعيانا شتى يصرف من ريعها على كل ما تحتاج إليه .

وكان أبو الحسن على الشاذلى جميل المظهر عذب الحديث غير متزمت فى صوفيته ، إذ يقول : «ليس هذا الطريق بالرهبانية ، ولا بأكل الشعير والنخالة ، ولا ببقبقة الصناعة ، وإنما هو بالصبر على الأوامر ، واليقين فى الهداية» .

ويقول الشيخ ياقوت العرش نقلا عن شيخه أبى العباس المرسى ، أن أبا الحسن على الشاذلى ، كان يحج فى كل سنة فيجعل طريقه على صعيد مصر . وكان يجاور بمكة من شهر رجب حتى انقضاء موسم الحج ، ثم يزور القبر النبوى بالمدينة المنورة . وقد حدث فى حجته الأخيرة سنة ٦٥٦ هـ أن طلب من خادمه أن يستصحب معه فأسا وقفة وحنوطا وما يجهز به الميت ولما سأله الخادم عن السبب أجابه : «عند حميثرى الخبر اليقين . وحميثرى هذه ناحية من نواحى ميناء عيذاب على البحر الأحمر بها عين ماء زعاق وهى كثيرة الضياع . فلما وصل الشيخ أبو الحسن حميثرى اغتسل وصلى ركعتين وقبضه الله سبحانه وتعالى ودفن هناك. ويقول ابن بطوطة فى رحلته «وقد زرت قبره وعليه قبة مكتوب عليها اسمه ونسبه الذى ينتهى إلى الحسن بن على بن أبى طالب رضوان الله عليهما .

ورد فى رحلتى ابن جبير وابن بطوطة وفى الخطط المقريزية ، أن عيذاب كان فرضه (ميناء) على بحر القلزم ، وأنه لا عمارة فيها ، ولكنها كانت من أشهر المراسى فى البحار، تأتى إليها سفن اليمن والحبشة والهند . وكانت طريق الحج المصرى . يسير إليها الحجاج

عن طريق قوص ، ثم يركبون منها إلى جدة . وقد أقام حجاج مصر والمغرب أكثر من مائتى سنة يتوجهون إلى الحجاز عن طريق عيذاب ، ثم أبطل استعمال هذا الطريق فى سنة ٧٦٦ هـ . وقد اندثرت عيذاب منذ القرن العاشر الهجرى وتلاشى طريقها وتحول عنها الحجاج والقوافل التى كانت تسير بين عيذاب وقوص إلى طريق السويس فالعقبة فالساحل الشرق للبحر الأحمر إلى جدة .

ويصف ابن جيبر طريق الحج من قوص إلى عيذاب فيقول : المقصد من قوص إلى عيذاب على طريقين ، احدهما يعرف بطريق العبدين وهو أقصر ، أما الطريق الآخر فيعرف بالحميثرى ، وهو الطريق الذى سلكه شيخنا أبو الحسن فى رحلته الاخيرة إلى البلاد الحجازية حيث وافته المنية سنة ٦٥٦ ودفن بمنزله حميثرى .

* * *

وصف الجامع

ويتكون ضريح سيدنا أبي الحسن على الشاذلى القديم كما هو واضح فى الصورة من مبنى مثمن الشكل بكل ضلع من اضلاعه السبعة نافذة ، واحدة مستطيلة والثانية على شكل قمارى ، (أى فتحتان معقودتان تعلوهما دائرة أو معين) وهكذا بالتناوب ، أما الضلع الثامن فيوجد به مدخل الضريح . ويتوسط الضريح ثمانية أعمدة تقوم فوقها رقبة مرتفعة تعلوها قبة مدببة . وقد غطى الجزء المحصور بين القبة والمثمن الخارجى سقف مسطح كما زخرف أعلى جدران المثمن بشرافات مسننة . وفى جنوب الضريح أقامت وزارة الاوقاف الآن مسجدا ووصلت بينه وبين مدخل الضريح بممر مسقوف . وقد زودت المسجد بميضأة ودورة للمياه . كما أقامت فى الجهة الجنوبية والغربية من المسجد مدرسة لتحفيظ القرآن وسكنا لشيخ المسجد والقائم بالتدريس فى المدرسة .

أما عن التجديدات التى حدثت بعد ذلك فإنى أترك الخطاب الآتى يتحدث عنها .

القاهرة فى ٢٣-١١-١٩٦٨

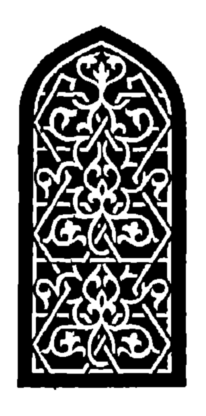
سيدتى الدكتورة سعاد ماهر :

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد فقد طالعت صباح اليوم مقالك القيم عن مسجد الإمام أبو الحسن على الشاذلى بمحافظة البحر الأحمر ومعه صورة للضريح القديم وصورة للقبر الموجود بجوار المسجد ولم تذكرى يادكتورة شيئا عن المسجد الجديد والقبر الجديد وقد كنت سنة ١٩٤٩ محافظا للبحر الأحمر برتبة قائمقام ولما وصلت إلى الغردقة عاصمة الإقليم وبعد بضعة أيام من وصولى رأيت فى منامى من يقول لى لا تنس زيارة قبر أبوالحسن الشاذلى وفى صباح اليوم التالى ذكرت منامى على بعض أهالى الغردقة القدامى فقالوا إن الملك السابق فاروق كان قد حضر إلى الغردقة فى سياحة من سياحاته المعروفة بالفجور والزندقة وسارت قافلته حتى وصلت إلى مكان قبر أبى الحسن الشاذلى فى وسط الصحراء بين القصير وأسوان وهناك أمر بإرسال تلغراف إلى مدير سلاح الحدود يأمره فيه ببناء ضريح ومسجد الشاذلى فوراً . ولكن فاروق كان معروفا بالزندقة وبالتالى فإن ضريح الشاذلى لا يهمه فى قليل ولا كثير وإنما يريد الرياء والضحك على ذقون أفراد شعبه الطيب ولذلك أهمل تنفيذ هذا الأمر وظل مهملا من سنة ١٩٤٥ إلى سنة ١٩٤٩ وبعون الله وتوفيقه قمت ومعى مهندس مبانى البحر الأحمر وقافلة من الأهالى والعمال وبعض السيارات المحملة بأدوات البناء كان قد تبرع بها سكان البحر الأحمر ولما وصلت إلى مكان الضريح القديم لم أجد شيئا إلا بعض الأحجار منثورة على الأرض وبدأنا فى تخطيط مبنى الضريح والمسجد والاستراحة ولم تمض أربعة أسابيع حتى تم البناء وذهبنا مرة أخرى لافتتاح المسجد ، والصلاة فيه .

وإليك يا سيدتى أهدى صورة الضريح والمسجد الجديد مع قبول خالص تحياتى . .

لواء بالمعاش : محمد مجدى الزارع

محافظ البحر الأحمر سابقا



تربة الزعفران وجامع الحلوجى

بحى الأزهر

أقام جوهر الصقلى بعد تأسيسه مدينة القاهرة سنة ٩٦٩ هـ ، قصرا للخليفة المعز لدين الله الفاطمى يقع إلى الشمال من الجامع الأزهر ، ويمكن أن نحدد موقعه على وجه التقريب ، بأنه يبدأ من الجهة الشرقية بمسجد سيدنا الحسين وينتهى غربا عند شارع المعز لدين الله (الصاغة حاليا) ، أما حده الشمالى إلى ما قبل جامع الأقمر بحى الجمالية ، وحده الغربى شارع السكة الجديدة ، وقد عرف هذا القصر باسم القصر الكبير أو القصر الشرق ذلك أن الخليفة العزيز بالله ابن الخليفة المعز أنشأ قصرا آخر أصغر من قصر أبيه ويقع إلى الغرب منه عرف بالقصر الصغير أو القصر الغربى يفصل بينهما طريق عرف باسم (بين القصرين) (شارع الصاغة حاليا) .

ولما كان المعز قد عقد العزم على البقاء والاستقرار فى مصر ، فقد أحضر معه رفات آبائه واجداده . فلما دخل قصره الكبير اتخذ له فيه مقبرة عرفت باسم التربة المعزية أو تربة الزعفران . ويصف لنا المقريزى موقع هذه التربة بالنسبة للقصر فيقول : «كان من جملة القصر الكبير التربة المعزية ، وفيها دفن المعز لدين الله آباءه الذين أحضرهم فى توابيت معه من بلاد المغرب وهم الإمام المهدى عبيد الله وابنه القائم بأمر الله محمد وابنه الإمام المنصور ، واستقرت مدفنا يدفن فيه الخلفاء وأولادهم ونساؤهم وكانت تعرف بتربة الزعفران » . ويعين المقريزى مكان التربة فيقول : وهو مكان كبير من جملتها الموضع

الذى يعرف اليوم بخط الزراكشة العتيق ومن هناك بابها . ويضيف المقريزى فيقول : «ولما أنشأ الأمير جهاركس الخليلى خانه المعروف بخان الخليلى فى الخط المذكور أخرج ما شاء الله من عظامهم فالقيت فى المزابل على كيمان البرقية . وتمتد تربة الزعرفان من خان الخليلى حتى خلف المدرسة الصالحية (توجد فى منتصف شارع الصاغة الآن) وبهذه المنطقة إلى اليوم (أى عصر المقريزى فى القرن ١٥) بقايا من قبورهم . وكان لهذه التربة عوايد ورسوم منها أنه كان على الخليفة كلما ركب بمظلة وعاد إلى القصر لابد أن يدخل إلى زيارة آبائه بهذه التربة ، وكذلك لابد أن يدخل فى يوم الجمعة دائما وفى عيد الفطر والأضحى مع صدقات ورسوم تفرق[1]» .

ويعدد على مبارك بعض محتويات تربة الزعفران فيقول : لما كانت الشدة العظمى فى أيام الخليفة المستنصر بالله (بسبب انخفاض النيل سبع سنوات) وطلب الجنود والاتراك مرتباتهم فماطلهم هجموا على التربة المعزية وأخذوا ما فيها من قناديل الذهب ، وكانت قيمة ذلك مع ما اجتمع إليه من الادوات الموجودة هناك مثل المجامر ، وحلى المحاريب خمسين ألف دينار . وقد دفن فى تربة الزعفران كل خلفاء الدولة الفاطمية ومعظم أولادهم عدا الخليفة الحاكم بأمر الله الذى قتل ولم يعثر على جثته .

وجاء فى حاشية تحفة الأحباب وصف موضع تربة الزعفران ، بأن موضعها اليوم هو السوق المعروف بخان الخليلى وسكة البادستان نسبة للامير جهاركس الخليلى ناظر الاصطبلات للظاهر برقوق . ولهذا الامير أثر قيسارية أخرى مكانها الآن فى شارع الفحامين المؤدى إلى عطفة الزيت وبنى بها فندقا للغرباء يعرف اليوم بوكالة الزيت .

ويفصل بين تربة الزعفران وجامع الحلوجى شارع السكة الجديدة الآن ، وكان الجامع يعرف باسم زاوية الحلاوى ذكرها المقريزى فقال : هذه الزاوية بخط (أى حى) الأباريين من القاهرة بالقرب من الجامع الأزهر أنشأها الشيخ مبارك الهندى السعودى الحلاوى أحد الفقراء من أصحاب الشيخ أبى السعود بن أبى العشائر البارينى الواسطى وذلك فى

---

(١) السخاوى ص ٩٧ .

سنة ٦٨٨ هـ وأقام بها إلى أن مات ودفن فيها فقام من بعده ابنه الشيخ عمر بن على بن مبارك وكانت له كرامات عدة ، ثم قام من بعده ابنه شيخنا (أى شيخ المقريزى) جمال الدين عبد الله ، وحدث كسمعنا عليه بها إلى أن مات سنة ٨٠٨ هـ وبها إلى الآن (أى سنة ٨٤٥ هـ) ولده وهى من الزوايا المشهورة بالقاهرة .

وقد ترجم السخاوى للحلوجى فقال : الشيخ الصالح العارف المعتقد أمين الدين أبو اليمن مبارك بن عبد الله الهندى عرف بالحلاوى نزيل القاهرة . ويقال أن شيخه هو السبب فى انشاء هذه الزاوية فى سنة ٦٥٦ هـ . وكان له أصحاب من العلماء والفقهاء والأعيان من أرباب الدولة . وكان يجتمع فيها قاضى القضاة والعلماء والفقهاء ، ويقال إن الشيخ مبارك الهندى كان يتكسب من عمل الحلواء وظهر له فيها كرامات ولذا اشتهر بالحلاوى .

وتعرف هذه الزاوية الآن باسم جامع الحلوجى ، والحلوجى تحريف لكلمة الحلاوى جددها السلطان الغورى فى القرن العاشر الهجرى ، وقد دفن بها كثير من أولياء وفقهاء القرن العاشر ، فقد ذكر الشعرانى فى طبقاته أن الشيخ عبيدا البلقينى المتوفى سنة ٩٣١ هـ دفن بهذه الزاوية وكانت تعرف به زمنا . والشيخ البلقينى كما يقول الشعرانى كان من أرباب الاحوال والكشف إذا أخبر عن شئ يأتى كفلق الصبح ، وكان السلطان قايتباى ينزل لزيارته فى بلقين فلما انتقل إلى القاهرة كان يتردد إليه . وكذلك فعل السلطان قنصوة الغورى . وكان رضوان الله عليه إذا سمع كلام سيدى عمر بن الفارض أو غيره من شعر كبار الاولياء المتصوفين يقوم كالجمل الهائج لا يستطيع أحد أن يقعده حتى يقعد بنفسه . وكان جليل المقام حسن الهندام يلبس النفيس ويأكل اللذيذ . ويضيف الشعرانى فيقول : ومع ذلك لم يكن للدنيا عنده حساب أو قدر فكان يخلع الجوخه والصوف النفيس يعطيه للسائل وقد صحبته نحو عشر سنين (أى الشعرانى) توفى سنة نيف وثلاثين وتسعمائة ودفن بزاويته بالقرب من الجامع الازهر المشهورة بالحلاوية .

ويحدد على مبارك[1] موقع شارع جامع الحلوجى كما كان فى النصف الثانى من القرن

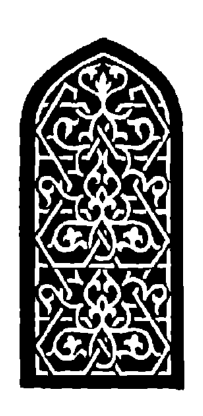
---

(١) الخطط التوفيقية جـ ٢ ص ٨٦

التاسع عشر فيقول : أوله من آخر شارع الصنادقية تجاه جامع محمد بيك وآخره شارع المشهد الحسيني من عند تقاطع شارع السكة الجديدة ، وطوله مائة متر عرف باسم الشيخ المعتقد سيدى مبارك الحلوجي لوجود زاويته المعروفة باسم زاوية الحلاوى التى حرفت إلى حلوجي وقد جدد هذه الزاوية الوزير محمد على باشا والى الديار المصرية وجدد ضريح الشيخ الحلاوى وضريح أولاده واستمرت عامرة يعمل بها حضرة كل ليلة ثلاثاء ومولد كل عام وشعائرها مقامة من أوقافها بنظر الديوان . وبجوار الزاوية حمام يعرف بحمام الحلوجي وهي قديمة ينزل إليها بدرج يدخلها الرجال والنساء فى أوقات معلومة منظمة .

وقد جاء فى وقفية السلطان الغورى أن هذه الزاوية تسمى بالمدرسة الحلاوية أما الحمام فيعرف بحمام الابارين لقربه من سوق الابارين الذى ذكره المقريزى فى خط (حى) السبع خوخ العتيق حيث قال : هذا الخط فيما بين خط اصطبل الطارمة وخط الزراكشة العتيق كان فيه قديما أيام الخلفاء الفاطميين سبع خوخ (ممرات ضيقة) يتوصل منها إلى الجامع الازهر ، فلما انقضت أيامهم أختط مساكن وسوقا تباع فيه الإبر التى يخاط بها يعرف بالأبارين .

ومما يؤسف له أن بلدية محافظة القاهرة قد أزالت زاوية الحلوجي وكذا الحمام دون أن تفكر فى تدبير مكان آخر لها فى نفس الحى حتى لا تقضى على أحياء وأسماء وتراث عاشت مع القاهرة منذ نشأتها . هذا بالإضافة إلى أن زاوية الحلوجى تحدد جزءا هاما بالنسبة للقاهرة القديمة إذ أنها كانت تقع أمام تربة الزعفران التى حل محلها خان الخليلى ، ناهيك إلى مالأصحابها والمدفونين فيها من أثر ومكانة كبيرة بين أولياء الله الصالحين ، وإنى لأرجو أن يعير أولو الأمر هذا الموضوع اهتمامهم وعنايتهم وذلك بتدبير مكان لهذه الزاوية وبأسمها فى نهاية منطقة الصنادقية التى تطل على ميدان الأزهر خاصة وإنها واردة فى وقفية الغورى ومحدد مكانها .



جامع قاهر التتار السلطان المظفر قطز

بمصر الجديدة

« الذى يعلم به الملك الناصر – انا قد فتحنا بغداد بسيف الله تعالى ، وقتلنا فرسانها وهدمنا بنيانها وأسرنا سكانها كما قال الله تعالى فى كتابه العزيز (إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون) . . . »

هكذا كان نص الخطاب الذى أرسله هولاكو إلى حاكم دمشق ، الذى لم يجد أمامه من ملجأ غير مصر يستنجد بها ، وكانت مصر ، كما هو شأنها دائما ، المنقذ والمعين ، إذا لم يكد يصل سفير حاكم دمشق ومعه رسالة هولاكو هذه ، حتى هبت مصر عن بكرة أبيها تستعد لرد العدوان عن أرض العروبة وتذود بالنفس والنفيس . حماية للإسلام والمسلمين .

ولما قدم السفير – الصاحب كمال الدين بن عمر ، عقد مجلس بالقلعة حضره الملك المنصور وقاضى القضاة والفقهاء والامراء من رجال الجيش لمدارسة الموقف ، فرأى أحد الامراء من الحاضرين واسمه – سيف الدين قطز – أن الملك منصور صبى صغير ، لا يعرف تدبير الموقف فى هذه المرحلة الدقيقة ، وأنه لابد من سلطان ماهر محنك يسارع بمنازلة التتار . نجح قطز فى أن يعزل هذا الملك ويتولى هو سلطنة مصر معلنا للملأ أنه ماقصد إلى ما ذهب إليه الأ للتجمع على قتال التتار ولا يكون ذلك بغير ملك ، فإذا نازلنا العدو وكسرناه ، فالأمر مرده لكم ، لتقيموا فى السلطنة من شئتم » .

كانت هذه المبادرة من قطز عملا موفقا منه شحذت همم القوم ورفعت الروح المعنوية لدى أمراء الشام وتشجع من شذ من هؤلاء الامراء للانضواء فى الصف العربى والتعاون على محاربة ذلك العدو الجبار .

أنجزت السلطات المصرية فى وقت قصير تعبئة قواتها لحرب التتار ، إذ بعث السلطان قطز إلى عماله فى المقاطعات المصرية يأمرهم بجمع الجنود الذين عادوا إلى بلادهم إثر انتهاء الحرب مع الصليبيين وأرسالهم سريعا إلى القاهرة ،وقام نخبة من رجال مصر بتلقين هؤلاء الجند وتوعيتهم بالمهمة التى انتدبوا للدفاع عنها ، وتهيئة شعورهم للجهاد وبيان فضل الجهاد وثوابه عند الله .

سارقطز على رأس القوات المصرية إلى الصالحية ، حيث انضم هناك إلى القوات الشامية وحرص قطز على عدم اضاعة وقته أو وقت الامراء فى المجاملات الرسمية أو انفاق مبالغلاداعى لها لتكريمه ، وصرف كل تلك الأموال فى المهمة التى ندبوا أنفسهم جميعا لها ، ألا وهى قهر العدو المشترك ، وأخذ يخطب الامراء شارحا لهم واجبهم الذى انيط بهم وقد أخذ الجميع ينظرون إليه إنه رجل الساعة ، وأنه معقد الامل والرجاء ، وقد أعلن قطز فى هذا المجاس الحربى أنه أول من يخرج لقتال التتار ولو كان بمفرده وأنه لن يتردد فى أن يضحى بنفسه فى سبيل الوقوف أمام سيل التتار الكاسح ويلقى ربه بنفس مطمئنة مرتاح الضمير ، عند ذلك انتقلت روح الحماسة من قطز إلى سائر الامراء وقد أزكى تلك الحماسة خطاب التهديد الذى وصل قطز من هولاكو والذى جاء فيه :

« من ملك الملوك شرقا وغربا ، القان الأعظم ، باسمك اللهم باسط الأرض ورافع السماء . . يعلم الملك المظفر قطز وسائر أمراء دولته وأهل مملكته بالديار المصرية وما حولها من الأعمال ، إنا نحن جند الله فى أرضه فتحنا البلاد وطهرنا الأرض من الفساد وقتلنا معظم العباد . فعليكم بالهرب وعلينا الطلب . فأى أرض تأويكم ، وأى طريق ينجيكم ، وأى بلاد تحميكم ، فما لكم من سيوفنا خلاص ، ولا من مهابتنا مناص ، فخيولنا سوابق ، وسهامنا خوارق وسيوفنا صواعق ، وقلوبنا كالجبال وعددنا كالرمال ، فالحصون لدينا لا تمنع والعساكر لقتالنا لا تنفع ، فلا تطيلوا وأسرعوا برد الجواب ، قبل أن تضرم الحرب نارها ، وترمى نحوكم شرارها ، فلا تجدون منا جاها ولا عزاً ، ولا كافيا ولا حرزاً ، وتدهون منا بأعظم داهية . وتصبح بلادكم منا خالية ، فقد أنصفناكم إذ راسلناكم ، وأيقظناكم إذ حذرناكم ، فما بقى لنا مقصد سواكم والسلام علينا وعليكم وعلى من أطاع الهدى وخشى عواقب الردى » .

وكان رد قطز على هولاكو ، هو قتل الرسل الذين وصلوا الخطاب إليه ، وأتبع ذلك بإصدار الأمر إلى سائر القوات العربية بالمسير إلى الشام .

وفى شهر رمضان سنة ٦٥٨ هـ – ١٢٦٠ م ، خرجت القوات المصرية والشامية يسودها النظام لملاقاة التتار ، وقد تولى ركن الدين بيبرس البندقدارى قيادة الطليعة ففاجأهم فى غزة ، فهربوا منها ، وكان هذا أول انسحاب لهم فى تاريخهم الحربى ، بعد ذلك وصل قطز إلى غزة ثم تابع سيره إلى عكا متخذا طريق الساحل ، وكان بمدينة عكا بقايا من الصليبيين الذين بادروا بالترحيب به وإظهار استعدادهم لمعاونته ضد التتار ، فرفض قطز مساعدتهم معلنا أن الدفاع عن الوطن العربى يتولاه أبناؤه ، وأقسم للصليبيين أن من يبادر عسكر المسلمين منهم بأى أذى ، فإن ذلك يدعوه للعودة واستئصال شأفة الصليبيين قبل ملاقاة التتار ، فقبع الصليبيون وأخلدوا إلى السكون خوفا من تهديد قطز .

سار قطز على خطته التى تقوم على مهاجمة التتار ، فأمر ركن الدين بيبرس أن يستمر فى مهاجمة قوات التتار المبعثرة فى سائر أنحاء أرض فلسطين ، فأثبت بيبرس مهارة فائقة فى ذلك وقد تبين له من تلك المناوشات التعرف على أمكنة تجمعهم والعلم التام بحركاتهم .

وبعث بيبرس بمعلوماته هذه إلى قطز الذى تابع سيره حتى انضم إلى بيبرس عند (عين جالوت) بين بيسان ونابلس بفلسطين .

نظم قطز القوات المصرية والشامية عند الموقع المذكور . وفى يوم الجمعة الخامس عشر من رمضان سنة ٦٥٨ هـ – ١٢٦٠ م التقت مقدمة القوات العربية بطلائع التتار وأنزلت بها هزيمة فادحة . وفى صبيحة اليوم التالى استطاع التتار أن يعيدوا تنظيم صفوفهم واحتلوا المنطقة الجبلية من ميدان القتال ليسيطروا عليه ، فكان منظرهم يبعث الرهبة فى النفوس .

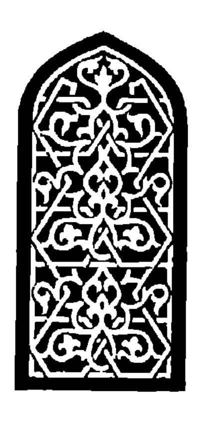
وعندما اصطدم الفريقان ، أظهر السلطان قطز مهارة وشجاعة فائقة ورفع روح الجند المعنوية ، فاشترك بنفسه فى القتال حتى أن جواده أصيب ، فترجل عنه وحارب على قدميه ، ولما اشتد القتال ألقى قطز خوذته على الارض وصاح بأعلى صوته (وا إسلاماه) فازداد حماس الجند وهجموا على التتار فى عنف حتى أن قائدهم الاعلى كتبغا خر قتلا ، وكان ذلك بداية انهيار خطط التتار .

ذهل التتار مما حل بهم من الفتك والقتل ، فأرادت بقية منهم استئناف الحرب ، فجمعت صفوفها مرة أخرى ، وهجمت على القوات العربية فى شدة وعنف ، فصاح قطز مرة أخرى أثناء القتال (وا إسلاماه) ثلاث مرات تشجيعاً لجنده ودلالة على أنه مشترك مع جنده فى حومة الوغى . فاستجاب الله لنداء قطز وحلت بالتتار هزيمة منكرة قضت على معظم فرسانهم وشجعانهم ، وعندئذ نزل قطز عن جواده (ومرغ وجهه على الارض وقبلها وصلى ركعتين شكرا لله تعالى) وحملت رأس كتبغا إلى القاهرة مع البشرى بالفوز ونجاة الوطن العربى من شر التتار ونكل قطز بالخونة من العرب الذين انحازوا مع صفوف التتار وحاربوا معهم ، فأمر بضرب أعناقهم .

وبعد الانتهاء من سحق قوات التتار ، خرج قطز من دمشق عائدا إلى مصر حتى وصل إلى القصير ، احدى قرى مركز فاقوس بمحافظة الشرقية ، فبقى بها مع بعض خواصه وأمرائه ورحل جنده إلى جهة الصالحية . وكانت جماعة من المماليك بزعامة الأمير بيبرس قد اتفقوا على قتل السلطان لحقد فى نفس بيبرس لعدم توليته نيابة حلب . فتظاهر بيبرس بأنه يبغى تقبيل يد السلطان ، فتقدم وقبض على اليد ، فانتهز الأمير (أنص) هذه الفرصة وضرب قطز بالسيف وتتابع الباقون عليه ورموه عن فرسه ورشقوه بالنشاب حتى قتلوه فدفنه بعض من كان فى خدمته فى القصير .

* * *

وتخليدا لذكرى قاهر التتار ، أنشأت وزارة الاوقاف جامعا عظيما يحمل اسمه بمصر الجديدة ، ويتكون الجامع من مربع كبير يتوسطه صحن مغطى . ويحيط به أربعة إيوانات يتقدم كلا منها عمودان وإيوان القبلة أعمقها . وملحق بالجامع مكتبة وساحة تتكون من صحن مكشوف يحيط به الأروقة من ثلاث جهات ، وقد أعدت هذه الساحة ، وتماثل فى مساحتها مساحة المسجد ، للاجتماعات العامة كالأفراح والمآتم والاحتفالات الدينية والوطنية .



شيخ الإسلام وقاضى القضاة
العز بن عبد السلام

بقلم فتح المقطم

هو عز الدين بن عبد السلام بن عبد العزيز بن أبى القاسم شيخ الإسلام وسلطان العلماء ولد سنة ثمان وسبعين وخمسمائة . تفقه على الفخر بن عساكر وأخذ الأصول عن السيف الأبذى وسمع الحديث عن عمر بن طبرزد وبرع فى الفقه والأصول العربية . يقول الذهبى فى العبر ، انتهت إليه معرفة المذهب مع الزهد والورع ، وبلغ رتبة الاجتهاد . قدم مصر فأقام بها أكثر من عشرين سنة ، ناشرا العلم ، آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر . يغلظ على الملوك فمن دونهم . ويضيف الذهبى « إنه لما دخل مصر استقبله الشيخ زكى الدين المنذرى وبالغ فى الأدب معه وامتنع من الافتاء لأجله ، قائلا « كنا نفتى قبل حضوره وأما بعد حضوره فمنصب الفتيا متعين فيه » .

أما عن السبب فى ترك العز بن عبد السلام سوريا وحضوره إلى مصر فيقول المقريزى فى كتابه السلوك فى حوادث سنة ثمان وثلاثين وستمائة : « أذن الملك الصالح اسماعيل للفرنج فى دخول دمشق وشراء السلاح ، فأكثروا من ابتياع الأسلحة وآلات الحرب من أهل دمشق ، فأنكر المسلمون ذلك . ومشى أهل الدين منهم إلى العلماء فاستفتوهم فأفتى الشيخ العز بن عبد السلام بتحريم بيع السلاح للفرنج ، وقطع من الخطبة بالجامع الأموى بدمشق الدعاء للصالح اسماعيل ، وصار يدعو فى الخطبة بدعاء منه « اللهم أبرم لهذه الأمة إبرام رشد ، تعز فيه أولياءك وتذل فيه أعداءك ويعمل فيه بطاعتك وينهى فيه عن معصيتك» والناس يضجون بالدعاء . وكان الملك الصالح اسماعيل غائبا فكتب إليه رجاله بذلك ،

فورد كتابه بعزل ابن عبد السلام عن الخطابة واعتقاله مع الشيخ أبى عمرو بن الحاجب لأنه شارك ابن عبد السلام فى استنكاره . فلما عاد الصالح إلى دمشق أفرج عنهما، وألزم ابن عبد السلام بملازمة داره وألا يفتى ولا يجتمع بأحد البتة . ولكن ابن عبد السلام استأذنه فى صلاة الجمعة والذهاب إلى الطبيب أو المزين إذا احتاج إليهما وأن يعبر الحمام ، فأذن له فى ذلك . ويكمل السيوطى قصة خروجه من دمشق فيقول : واستطاع بن عبد السلام والشيخ جمال الدين أبو عمرو بن الحاجب الخروج إلى الديار المصرية فأرسل الصالح اسماعيل إلى عز الدين ، وهو فى الطريق رسولا يطلب إليه العودة إلى دمشق فاجتمع به ولايته ، وقال له ما نريد منك شيئا إلا أن تنكسر للسلطان وتقبل يده لا غير ، فرد عليه ابن عبد السلام : يا مسكين ، ما أرضاه أن يقبل يدى فضلا عن أن أقبل يده ، يا قوم أنتم فى واد وأنا فى واد ، والحمد لله الذى عافانا مما ابتلاكم . فلما وصل إلى مصر استقبله سلطانها الصالح نجم الدين أيوب (آخر سلاطين الدولة الأيوبية) وأكرم وفادته وولاه قضاء مصر .

إلا أنه سرعان ما اصطدم فى مصر كذلك بإمرائها وحكامها ولكنه لم يلن ولم يخش فى الحق لومة لائم ، فقد حدث أن استادار (المشرف على شئون القصر) السلطان الصالح نجم الدين ويدعى فخر الدين عثمان — وهو الذى كان إليه أمر المملكة — عمد إلى أحد مساجد القاهرة ، وعمل على ظهره (طبلخانة) وبقيت تضرب هناك ، فاستاء أهل الحى من هذا الطبل خاصة وأنه داخل بيت من بيوت الله ، فلما ثبت هذا عند الشيخ عز الدين حكم بهدم بناء الطبلخانة ، وأسقط فخر الدين ، كما عزل نفسه من القضاء ، ولكن منزلته لم تسقط عند السلطان .

وكان للمواقف المشرفة التى وقفها الشيخ ابن عبد السلام ضد المنتهكين لحرمة الإسلام والمسلمين غير عابئ بما يتعرض له من أذى أو اضطهاد — أثره الكبير ليس فى مصر فحسب بل فى جميع أنحاء العالم الإسلامى . لقد ظن الاستادار فخر الدين وغيره أن حكم العز ابن عبد السلام لا يتأثر به فى الخارج ، فاتفق أن جهز السلطان الصالح نجم الدين رسولا من عنده إلى الخليفة العباسى المستعصم ببغداد ، فلما وصل الرسول إلى الديوان ووقف بين يدى الخليفة وأدى الرسالة له ، سأله : هل سمعت هذه الرسالة من السلطان ؟ فقال لا ولكن

حملنيها عن السلطان فخر الدين استاداره ، فقال الخليفة : إن المذكور أسقطه ابن عبد السلام فنحن لا نقبل روايته ، فرجع الرسول إلى السلطان حتى شافهه بالرسالة ثم عاد إلى بغداد وأداها .

ومن الأحكام القضائية التي قضى بها ابن عبد السلام والتي سجلها له التاريخ كرمز للعدل المطلق والدقة في تطبيق أحكام الشريعة ، حتى صار يضرب به المثل ولقب بحق (سيد الرجال) بيعه لأمراء المماليك إذا لم يثبت عنده أنهم أحرار ، وأن حكم الرق ستصحب عليهم لبيت مال المسلمين . فقد صمم الشيخ على أنه لا يصح لأمراء المماليك بيع ولا شراء ولا نكاح وتعطلت مصالحهم لذلك ، واحتدم الأمر ، وكان من جملتهم نائب السلطنة ، فاستشار غضبا ، فاجتمعوا وأرسلوا إلى ابن عبد السلام فقال : نعقد لكم مجلسا ، وننادى عليكم لبيت مال المسلمين ، فرفعوا الأمر إلى السلطان فبعث إليه فلم يرجع ، فأرسل إليه نائب السلطنة بالملاطفة فلم يفد فيه ، فانزعج النائب وقال : كيف ينادى علينا هذا الشيخ ويبيعنا ونحن ملوك الأرض ! والله لأضربنه بسيفي هذا ، فركب بنفسه في جماعته ، وجاء إلى بيت الشيخ والسيف مسلول في يده ، فطرق الباب فخرج ولد الشيخ فرأى من نائب السلطنة ما رأى ، وشرح له الحال ، فما اكترث لذلك وقال يا ولدى أبوك أقل من أن يقتل في سبيل الله ، ثم خرج ، فحين وقع بصره على النائب يبست يد النائب وسقط السيف منه ، وأرعدت مفاصله ، فبكى وسأل الشيخ أن يدعو له وقال : ياسيدى ايش تعمل ؟ قال : أنادى عليكم وأبيعكم . قال : ففيم تصرف ثمننا ؟ قال : في مصالح المسلمين . قال : من يقبضه ؟ قال : أنا . فتم له ما أراد ونادى على الأمراء واحدا واحدا وغالى في ثمنهم فلم يبعهم إلا بالثمن الوافي ، وقبضه وصرفه في وجوه الخير .

ومن المواقف التي تشهد له بالشجاعة الأدبية النادرة ما حكاه القاضي عبد الرحمن البكارى من أن الشيخ عز الدين بن عبد السلام أفتى مرة بشيء ، ثم ظهر له أنه خطأ ، فنادى في مصر (أي الفسطاط) والقاهرة على نفسه من أفتى له ابن عبد السلام بكذا ، فلا يعمل به فإنه خطأ .

ويقول ابن كثير : كان فى آخر عمره لايتقيد بالمذهب ، بل اتسع نطاقه وأفتى بما أدى إليه اجتهاده ولما عزل الشيخ نفسه عن القضاء ، تلطف السلطان فى رده إليه ، فباشره مرة ثم ثانية ، وتلطف مع السلطان فى إمضاء عزله فأمضاه وأبقى جميع نوابه من الحكام وكتب لكل حاكم تقليدا ، ثم ولاه التدريس بمدرسته التى أنشأها فى القصر الفاطمى الشرقى والتى تعرف باسم المدرسة الصالحية (ماتزال هذه المدرسة باقية حتى الآن بحى الصاغة بشارع المعز) .

ويقول السيوطى أن كرامات ابن عبد السلام كثيرة ، فقد لبس خرقة التصوف من الشهاب السهروردى ، كما كان يحضر عند الشيخ أبى الحسن الشاذلى الذى يقول عنه : ما على وجه الأرض مجلس فى الفقه أبهى من مجلس الشيخ عز الدين بن عبد السلام ، ويقول القطب اليونينى عن ابن عبد السلام ، وكان مع شدته وصلابته حسن المحاضرة بالنوادر والاشعار يحضر السماع (الذكر) ويرقص فيه . ويختم ترجمته بشهادة تلميذه القاضى ابن دقيق العيد: كان ابن عبد السلام أحد السلاطين العلماء ، توفى بمصر سنة ستين وستمائة ودفن بمقبرته بالقرافة الكبرى .

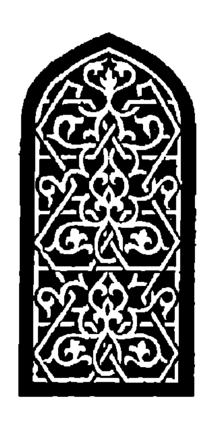
* * *

وصف الضريح

يقع الضريح فى منطقة البساتين بالقرب من جبانة التونسى وجبانة الإمام الليث وهو الآن بحالة خربة وإن كانت بقاياه تدل على أنه يشبه إلى حد كبير من الناحية المعمارية القباب التى أقيمت فى أوائل العصر المملوكى ، مثل قبة شجر الدر وقبة الأشرف خليل بن قلاوون وقبة الخلفاء العباسيين وكلها ترجع إلى النصف الثانى من القرن السابع الهجرى.

ويتكون ضريح ابن عبد السلام من مربع كبير يبلغ طول ضلعه ١٥ متر ومن المرجح أنه مغطى بقبة مرتفعة مثل القباب السالفة الذكر . وبحائط القبلة توجد خمسة محاريب أكبرها يتوسط الحائط واثنان على كل جانب وفى وسط الضريح توجد مقبرة عليها بناء مرتفع لعله كان مغطى بتابوت خشبى كما هى العادة فى ذلك الوقت .

وتقوم مصلحة الآثار الآن بالاشتراك مع وزارة الأوقاف بإعادة بناء الضريح تقديرا لهذه الشخصية الفذة التى لاتخشى فى الله لومة لائم .



جـامـع الحبيبى
بشارع السد
بالسيدة زينب

ينسب هذا المسجد إلى الشيخ محمد الحبيبى شيخ الطريقة الحبيبية الذى جدده سنة ١٢٤٧ هـ . وكان المسجد يعرف قبل ذلك باسم منشئه الأصلى الأمير عز الدين أيبك ابن عبد الله الدمياطى الصالحى النجمى . وعز الدين هذا أحد المماليك الجلبان ، اشتراه الملك الصالح نجم الدين الأيوبى وتربى بقلعة الروضة . وقد أظهر عز الدين من الكفاءة والامتياز ما جعله يتدرج سريعا فى سلم الترقى فى عهد سيده الملك الصالح نجم الدين آخر ملوك الدولة الأيوبية وفى دولة المماليك البحرية حتى وصل إلى درجة الإمارة ، فقد جاء فى كتاب النجوم[1] الزاهرة ، « أنه أحد أكابر الأمراء المقدمين على الجيوش ، كان قديم الهجرة بينهم فى علو المنزلة وسموا للمكانة » .

ويحدثنا المقريزى عن جانب من تاريخ الأمير عز الدين الدمياطى فيقول[2] : « لما خرج السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى سنة ٦٦١ هـ إلى بلاد الشام لمحاربة الصليبيين الذين نقضوا العهد ، وتأديب بعض أمراء الشام الذين خرجوا عن طاعته ، فوض إلى ثلاثة من أمراء المماليك ـ أحدهم هو الأمير عز الدين أيبك بن عبد الله الدمياطى ـ أمر المملكة حتى تصرفت يدهم فى كل شىء ، فقد أطلق لهم السلطان فى كل جمعة خوانين (مائدتين) يمدان لكل أمير من الأمراء الثلاثة يحتويان كل ما لذ وطاب حتى ماء الورد ، ورتب لهم

(١) النجوم الزاهرة فى أخبار مصر والقاهرة جـ ٧ ص ٢٧٥

(٢) الخطط والآثار : المقريزى جـ٤ ص٣٩٧ (٣) السلوك جـ١ ص٤١٢

كل شهر كلوتين (غطاء للرأس تلبس وحدها أو بعمامة) مزركشة (أى مطرزة) قيمة كل منهما خمسون دينارا عينا (أى ذهبا خالصا) ويدفع لهم قيمة كلبندها (نوع من غطاء الرأس يشبه العمامة) بمبلغ أربعين دينارا ، ورتب لهم قيمة المشروب اثنا عشر ألف دينار فى كل سنة ، هذا بالإضافة إلى ماخصصه لكل منهم من الإقطاعات الجليلة والمرتبات الكثيرة ، والانعامات وجوامك البزدارية (أى رواتب حملة الطيور الجوارح المعدة للصيد) والفهادة (حراس الفهود) وعليق الخيل» .

ويتم المقريزى حديثه فيقول : ولكن الأمراء أقبلوا على اللهو وشرب الخمر ، وحدث منهم أمورا لا تسر فأغضى عنهم السلطان ، فلما رجع السلطان إلى مصر ونزل بالقلعة ، أمر بالقبض عليهم واعتقلهم ، ولكنه أحسن إلى مماليكهم وحاشيتهم ولم يغر على أحد منهم ولا تعرض إلى بيوت الأمراء » . ويختم ابن تغرى بردى ترجمة حياة عز الدين الدمياطى فيقول : ثم أفرج الملك الظاهر بيبرس عن الأمير عز الدين أيبك الدمياطى من الاعتقال ، وكانت مدة اعتقاله تسع سنين وعشرة أيام وأعاده إلى مكانته ، ثم خلع السلطان عليه وعلى أمراء الدولة ومقدمى الحلقة وأعطى كل واحد منهم ما يليق من الخيل والذهب والحوائص والثياب والسيوف ، ، وكان قيمة ما صرفه فيهم فوق ثلثمائة ألف دينار » .

واعتمادا على الرواية السابقة نستطيع القول أن الأمير عز الدين أيبك الدمياطى يقدر بحكم مركزه وبما يملك من ثروة أن يبنى له قبة . وتحدثنا المراجع التاريخية أن هذه القبة كانت مقامة لأداء الشعائر فى حياته وبعد مماته . وقد اختلف مؤرخو العصر المملوكى فى تسمية المبنى الذى أنشأه الأمير عز الدين ، فالمقريزى يذكره فى خططه باسم زاوية الدمياطى ، وابن تغرى بردى يقول : ودفن الأمير عز الدين بتربته التى أنشأها بين مصر (يعنى الفسطاط) والقاهرة فى القبة المجاورة لحوض السبيل المعروف به . والذى نرجحه من تعدد هذه الأسماء هو أن الأمير عز الدين قد أنشأ مسجدا صغيرا ألحق به حوض السبيل (لشرب الدواب) وخصص به أماكن لبعض الصوفية كما يفهم من لفظ زاوية ، وبجانب المسجد

---

(١) الخطط والآثار : المقريزى جـ ٤ ص ٢٩٧

(٢) السلوك : جـ ١ ص ٤٩٣

بنى قبة لكى يدفن بها . والدليل على ذلك أن القبة تهدمت أما الزاوية أو المسجد فقد ظل قائما حتى جدده الشيخ الحبيبى شيخ الطريقة الحبيبية سنة ١٢٤٧ هـ . وقد جددت نظارة الأوقاف المسجد سنة ١٣٣٠ هجرية وهو مايزال مقام الشعائر إلى اليوم ، ويقع فى شارع السد الجوانى على رأس شارع الشيخ سليم بقسم السيدة زينب . أما عن حوض السبيل فيقول أحمد رمزى[1] ، أنه اندثر ، ومكانه الآن الدكاكين الواقعة بجوار جامع الحبيبى من الجهة البحرية والمشرفة على شارع السد ، حيث كان الطريق العام من عهد الدولة الفاطمية بين مصر القديمة والقاهرة إلى اليوم .

ويحدثنا على مبارك[2] فى خططه عن المسجد الحجبى فيقول : « وزاوية الحبيبى جددها الشيخ محمد الحبيبى شيخ طريقة الحبيبية ، وهى مقامة الشعائر إلى الآن (أى القرن ١٩) وبداخلها قبران ، أحدهما للشيخ الحبيبى والثانى لايعلم صاحبه ، وإن كنت أرجح أنه للأمير عز الدين أيبك الدمياطى المنشىء الأصلى للمسجد ، ويضيف على مبارك « ويوجد الآن قبالة زاوية الحبيبى سبيل بجوار بوابة السيدة عامر إلى الآن بنظر امرأة تدعى الست حنيفة يغلب على الظن أنه محل حوض الدمياطى » ولكنى أرجح رأى أحمد رمزى فى أن السبيل كان بجوار المسجد وليس فى مقابلته » .

---

(١) النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٢٧٥ هامش .

(٢) الخطط التوفيقية لعلى مبارك جـ ٣ ص ١٧

وصف المسجد

يصف على مبارك[1] الزاوية كما رآها فيقول : تحتوى زاوية الحبيبي على ستة أعمدة من الحجر وبعضها مسقوف بالبوص وخشب وأغلبها بلا سقف وفيها حوض بحنفيات ولها ساقية بها نخل وشجر وبها ضريح الشيخ الدمياطى والشيخ الحبيبي . ولها مرتب بالروزنامجة مائة وتسعة وثمانون قرشا ، وتحتها ثلاثة حواصل موقوفة عليها وبجوارها منزل موقوف عليها أيضا . ويعمل بها للشيخ محمد الحبيبي حضرة كل ليلة جمعة ومولد كل سنة .

---

(١) على مبارك : جـ ٦ ص ٢٤



ضريح الشيخ العتريس والشيخ عيدروس
بجامع السيدة زينب

فى الركن الشمالى الغربى لجامع السيدة زينب رضوان الله عليها ، يوجد ضريحان ، متجاوران للشيخ العتريس ، والشيخ عيدروس . والضريحان يعلوان مقبرتين موجودتين فى ساحة واحدة مفروشة بالرخام ومحاطة بسياج من حديد متصل بسياج الرحبة التى عليها قباب الأضرحة . ويصف على مبارك الضريحين فيقول : «يحيط بالرحبة درابزين عليها قباب وعليها سقف واحد من الخشب قائم على ستة أعمدة من الرخام وعلى كل منهما (كل مقبرة) مقصورة من حديد وقبة من خشب» . ثم يتكلم على مبارك عن عمليات التجديد والترميم التى توالت على الضريحين فيقول : «وقد جدد كل ذلك بأمر المرحوم سعيد باشا ومباشرة المرحوم أدهم باشا وذلك عند عمارة المسجد الزينبى» .

وقد سجلت عملية التجديد هذه فى لوحين من الرخام ملصقين بالقبتين جاء فى أحدهما :

شاد سعيد العصر فى مصر خير مقام قد زها مثل العروس

فى نور آل البيت تاريخه كان بناء العتريس والعيدروس

وجاء فى اللوح الثانى :

بسر أبى المجد الدسوقى وصنوه محمد العتريس كن متوسلا

وقد أعيد تجديد الضريحين مرتين بعد تجديد سعيد باشا ، وذلك عند إعادة بناء جامع السيدة زينب . فقد قامت وزارة الأوقاف بتجديد المسجد الزينبى فى النصف الأول من القرن العشرين على يد المهندس حسن حلمى ، ثم وسعته إلى ضعف مساحته فى سنة

١٩٦٧ م على يد محمد حسن حلمى ابن المهندس السابق . ويتكون الضريحان الآن من مقبرتين يحيط بهما مقصورتان من النحاس المخرم الجميل الصنع ، ويحيط بالمقصورتين ستة أعمدة من الرخام على صفين يعلوهما ستة عقود نصف دائرة مكونة شكلا مستطيلا ويعلو العقود والأعمدة قبتان مضلعتان من الحجر ، وقد زخرف واجهات العقود الستة بنقوش نباتية وكتابية غاية فى الدقة والجمال .

أما عن تاريخ الشيخ العتريس فقد جاء فى رسالة الصبان «هو محمد العتريس بن أبى المجد بن قريس بن محمد بن عبد الخالق بن القاسم وينتهى نسبه إلى زين العابدين ابن الحسين بن على بن أبى طالب» ويضيف الصبان فى رسالته فيقول : وللسيد إبراهيم الدسوقى عشرة أخوة من الذكور ، تلقوا جميعا تعلما دينيا وتأثروا بأبيهم أبى المجد العالم الدينى المتصوف ، ومن أشهرهم العارف بالله السيد شرف الدين المعروف بموسى أبى العمران وقد دفن بدسوق . والسيد محمد الفصيح المدفون بسنهور قرب دسوق . السيد العتريس المدفون بالسيدة زينب بجوار مسجدها بالقاهرة والسيد عبد الله المدفون بالدرب الأحمر بالقاهرة والسيدان محمد الرضا وعبد الخالق المدفونان مع والدهما بقرية مرقص» .

يفهم من العبارة السابقة أن الشيخ العتريس أخو ولى الله العارف إبراهيم الدسوقى كما يفهم أنه الثالث فى ترتيب السن بالنسبة للشيخ إبراهيم ، فإذا عرفنا أن الشيخ إبراهيم ولد سنة ٦٢٣ هـ ، فمعنى ذلك أن الشيخ عتريس قد ولد بعد هذا التاريخ ، والذى نرجحه أنه ولد فى نهاية عصر الدولة الأيوبية التى انتهت سنة ٦٥٨ هـ . ومما يؤيد ما وصلنا إليه ، ما ذكره الصبان فى رسالته من أن الشيخ عتريس شارك مع أخيه الشيخ إبراهيم فى محاربة الصليبيين والتتار مع آخر ملوك الأيوبيين الصالح نجم الدين أيوب وأوائل سلاطين دولة المماليك قطز والظاهر بيبرس البندقدارى» .

وقد درس الشيخ عتريس منذ نعومة أظفاره القرآن الكريم والحديث الشريف وأصول الفقه على مذهب الإمام الشافعى . وقد جاء إلى القاهرة فى عهد السلطان الظاهر بيبرس بعد انتصار المصريين على التتار فى «موقعة عين جالوت» ، وجاور بالأزهر ، وظهر علمه وفضله

وذاع صيته وشهرته ، والتف حوله أصحاب الطريقة البرهامية طريقة أخيه إبراهيم الدسوقى ويقال أنه كان كثير التردد على مسجد السيدة زينب ، وأنه أوصى أن يدفن بجوار مسجدها إذ أن نسبه ينتهى إلى ابن أخيها على زين العابدين .

أما عن الشيخ عيدروس فقد جاء فى الجبرتى فى حوادث سنة ١١٩٢ هـ هو وجيه الدين أبو المراحم عبد الله الحسينى العلوى العيدروسى التريمى (بلدة باليمن) نزيل مصر ولد سنة ١١٣٥ هـ ينتهى نسبه إلى جعفر الصادق ثم إلى الحسين بن على بن أبى طالب رضوان الله عليهم أجمعين . وقد أرخ بعضهم مولده فقال :

لله من سيد	أتى بيوم سعيد ضاء الزمان به
نعم الحبيب المجيد يانعم من وافد	بكل خير مديد
أن الصفى المصطفى	اللوذعى الرشيد
تاريخ ميلاده	آت شريف سعيد ـ سنة ١١٣٥ هـ
	٤٠١ ٥٩٠ ١١٤

وجاء فى دائرة المعارف الإسلامية عن أصل وجيه الدين العيدروسى ما يلى : عيد روسين يظن أنهما من أجداده أو من عمومته ، أحدهما أبو بكر بن أحمد بن حسين بن عبد الله العيدروسى صاحب (دولة آباد) بالهند ، كان عابدا ناسكا ولد باليمن بمدينةتريم ونشأ بها وحفظ القرآن والحديث وصحب أباه . ثم سافر إلى الهند وأقام بها فى أرغد عيش واجتمع بأعظم سلاطينها شاهجهان (بانى تاج محل) فقربه إليه وأكرم وفادته وعينه أميرا على المدينة (دولة آباد) التى بقى فيها حتى توفى سنة ١٠٤٨ هـ ، وقبره فيها يزار » .

وثانيهما أبو بكر بن حسين بن محمد بن أحمد بن عبد الله العيدروسى ، الضرير اليمنى نزيل مكة ولد بتريم سنة ٩٩٧ هـ وحفظ القرآن وكف بصره وحفظ بعض المتون واشتغل وسمع بقراءة أخيه وغيره على مشايخ عصره . وصحب أعمامه ولبس الخرقة من كثيرين وبرع فى الفقه والتصوف ، وهو الغالب عليه ، ثم رحل إلى مكة ، ولقى بالحرمين

جماعة أخذوا عنه فذاع صيته واختير للتدريس . وكان رحمه الله لطيفا وقورا حسن الأخلاق مهيبا محسنا ، وكان أكثر كلامه فى الوعظ ولم يزل بمكة محمود السيرة إلى أن مات بها فى سنة ١٠٦٨ هـ ودفن بالمعلاة وقبره هناك يزار » .

أما شيخنا العيدروسى بالقاهرة فقد جاء فى ترجمته فى الخطط التوفيقية « أنه نشأ على عفة وصلاح فى حجر والده وجده فى تريم باليمن وأجازاه وألبساه الخرقة ، وفى سنة ١١٥٣ هـ أى وهو فى الثامنة عشرة من عمره توجه فى صحبة والده إلى الهند فنزلا بمدينة (بندر الشحر) فاجتمع بالكثير من رجال الدين والفقهاء من ذوى قرابتهم ممن يرجع أصلهم إلى العيدروسية ، فأجاروه إجارة مطلقة . ثم أخذ يتنقل من بلد إلى آخر من بلاد الهند طلبا فى العلم وزيادة فى التفقه ورغبة فى زيارة أولياء الله الصالحين فقد رحل إلى مدينة (بروج) ثم ذهب إلى مدينة (سورت) بالقرب من بمباى حيث تركه والده عند أخيه وخاله زين العابدين ورجع إلى تريم باليمن . وفى مدينة سورت ظهرت كراماته ، كما جاء فى الخطط التوفيقية ، فعول على الرحيل إلى اليمن فدخل إلى تريم وجدد العهد بذوى رحمة وتوجه منها إلى مكة المكرمة فأخذ عن شيوخها وفقهائها ثم ذهب إلى الطائف وزار الحبر بن عباس ، ومدحه بقصائد واجتمع بالسيد عبد الله الميرغنى وصار بينهما ود كبير ، وفى سنة ١١٦١ هـ إذن له بالتوجه إلى مصر » .

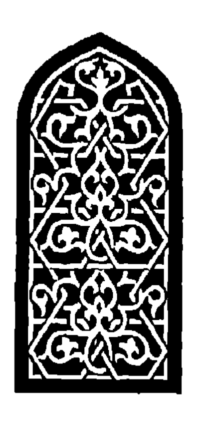
وجاء الشيخ عيدروس إلى مصر وهو فى السادسة والعشرين من عمره ، ويصف لنا على مبارك[1] رحلته إلى مصر فيقول : « وركب من جدة إلى السويس حيث زار سيدى عبد الله الغريب ومدحه بقصيدة ، ومن السويس رحل إلى القاهرة وزار الإمام الشافعى وغيره من أولياء الله الصالحين ومدح كلا بقصيدة تناسب المقام . وقد جمع كل تلك القصائد فى ديوانه المعروف باسم « رحلة العيدروس » . وفى مصر هرع إليه العلماء والفقهاء وكبار رجالاتها كما احتشد حوله أرباب السجاجيد وصارت له معهم المطارحات المذكورة فى رحلته » .

وبعد أن أمضى بمصر ثمان سنوات سافر إلى الحجاز فى سنة ١١٦٩ هـ حيث تزوج ابنة عم له وسكن بها الطائف ، وفى سنة ١١٧٢ هـ تزوج زوجة ثانية هى الشريفة رقية بنت

(١) على مبارك جـ ٥ ص ٧

السيد أحمد بن حسن أبي هرون وولدت له السيد مصطفى ، وفى عام ١١٧٤ هـ عاد إلى مصر بعياله صحبه الحج وألقى عصا التسيار واستقر بها ، وكان بعلمه وفضله أوحد عصره حالا وقالا ، كما جاء فى الخطط التوفيقية ، مع تنويه الفضلاء به وخضع له كبار الأمراء على اختلاف درجاتهم لا ترد رسائله ولا يرد سائله . ولم يستقر أمره على القاهرة فحسب بل ارتحل إلى معظم بلاد الصعيد الأعلى ، كما تعددت رحلاته إلى طنطا حيث زار السيد البدوى ودمياط ورشيد وفوة والإسكندرية وديروط ، كما زار الشيخ إبراهيم الدسوقى فى دسوق . كما سافر إلى الشام وغزة ونابلس ودمشق ، ثم إلى اسطنبول وكان فى حله وترحاله موضع الإجلال والإكبار والتكريم . كما قيل أنه حج سبع عشرة مرة وألف أكثر من سبعين مؤلفا شعرا ونثرا .

وجاء فى كتاب (النفحة القدسية بواسطة البضعة العيدروسية) أنه لما كثر عليه الواردون يتلقون عنه طرق الصوفية ، وكان فى أغلب أوقاته فى مقام الغطوس (أى ـ الاختلاء والتعبد) أمر السيد مرتضى أحد تلاميذه ومريديه أن يجمع أسانيده فى كتاب فألف باسمه الكتاب السابق ذكره (النفحة القدسية) فى نحو عشر كراريس وذلك سنة ١١٨٢ هـ ولم يزل يعلو ويرقى إلى أن توفى سنة ١١٩٢ هـ وخرجوا بجنازته من بيته بقلعة الكبش وقرئ نسبه على دكة الأزهر حيث صلى عليه صلاة الجنازة ، وكان الإمام الشيخ أحمد الدرديرى رضى الله عنه حاضراً ، ودفن بمقام ولى الله تعالى الشيخ العتريس رضى الله عنه بجوار مشهد السيدة زينب رضى الله عنها ، ورثى بمراث كثيرة رحمه الله تعالى .



مسجد الشيخ القبارى
بالاسكندرية

هو أبو القاسم محمد بن منصور بن يحيى القبارى السكندرى المالكى ، ولد بالإسكندرية سنة ٥٨٧ هـ وتوفى بها فى سنة ٦٦٢ هـ . وكان زاهدا ورعا تقيا فقد قال ابن عزم : « القبارى الإسكندرانى الإمام الربانى الأوحد شيخ الوقف زهدا وصلاحا » . وكان صالحا قانتا منقطع القرين فى الورع وكأن له بستان يعمله ويتبلغ منه بما يكفى معاشه[١] »

ويقول محمد زيتون فى معنى كلمة القبارى[٢]: القبار أو الكبار وهو ثمرة من الثمار النادرة وإليها كانت النسبة . وقد استند فى تفسيره هذا إلى نصين ، فقد جاء معجم السفر للشيخ السلفى فى ترجمة جد القبارى ، أبو محمد عبد الكريم القبارى ، إذ قال : لقد بقى ثلاثة وستين عاما لم يأكل من اللحوم إلا لحم الصيد ، ولم يشرب لبنا أو أكل جبنا قط تورعا منه ، وكان يصطاد بنفسه ومن قوته ومن القبار المباح » .

والنص الثانى ورد فى كتاب (مقامات سيدى القبارى) لتلميذه ناصر الدين بن المنير ، إذ جاء فيه عن شيخه القبارى : وذلك أنه لما انقطع فى القصر باع الدابة وضم ثمنها إلى ثمن ثمرة القبار ففاق ذلك على ثمانمائة درهم فزكاها » .

وفى موضع آخر يروى عنه ابن المنير هذه العبارة : استرحت من السكة (النقود) فقد

(١) ابن العماد : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب جـ ٥ ص ١٩٣

(٢) محمد محمود زيتون : القبارى زاهد الإسكندرية ص ٣٤

(٣) المرجع السابق ص ٥٧

علم الله أننى لو وجدت من يعاملنى بالقبار ونحوه من الثمار اجعله ثمنا للمشمونات من غير توسط السكة لما فعلت إلا ذلك .

ولد القبارى بمدينة الإسكندرية ونشأ وترعرع بها ، ومات ودفن بظاهرها ولم يكن له بها صاحبة ولا ولد ، إذ لم يتزوج طيلة حياته ، وكما يقول زيتون ، لم نعرف من أسرته غير والده منصور وجده يحيي وأخاه الذى مات بالإسكندرية فورثه القبارى . وقد ورث القبارى عن والده داراً خربه وبستانا برمل الإسكندرية ، وفى ذلك يقول ابن المنير عن القبارى أنه قال «سبق إلى ذهنى فى مبدأ العمر اختيار بستان الرمل من متروك أبى انقطع فيه» . وكانت لعائلة القبارى دار خربة وبأعلاها غرفة كان ينقطع فيها القبارى وهو صبى يشكو إلى الله إهانة زميل له ، بخل باعادة درس المدرس عليه بصوت مرتفع ، ودعا عليه فاستجاب الله له .

ويروى لنا ابن المنير قصة شيخه القبارى هذه فيقول : وكان لى ترب قد تنبه بهيئة الفقهاء فى لباسه وكلامه ، فوقفت به يوما وسألته أن يعيد لى ما جرى لهم فى الدرس ، فنفر فى وجهى نفرة التكبر فكسر قلبى ، فرجعت دارنا وكانت لنا غرفة خربة ، وكنت أخلو فيها فصعدت إليها وصليت ركعتين وبكيت ، وقلت : ابتليتنى بحب العلم وثقل السمع حتى تكبر على فلان اليوم ، وبخل علىّ بما لا يضره» . ودعوت على ذلك المسكين ، فاتفق فى بقية النهار أننى اجتمعت ببعض من كنت أطلعه على أمرى فتحدثت معه فى ذلك ، فلم يمر على ذلك المدعو عليه شهر حتى ظهرت عليه آثار المكر والإعراض عن العلم، وترك التزيى بزى أهل العلم ،وسقط بالكلية عن تلك الرتبة ، فقال لى ذلك الرجل : أقسم عليك بالله لا تعجل بعد هذا بالدعاء على أحد» .

وهنا يضيف ابن المنير فيقول : فكان بعد ذلك لا يدعو لأحد ولا على أحد ، بل كان إذا طلب أحد منه الدعاء يقول «للطالب ما يحتاج» أو « ما اشتهى أحد من أمة محمد صلى الله عليه وسلم إلا خيرا» أو «أحب لكل أحد ما أحب لنفسى» وكثيرا ما كان يقول «الدعاء النافع هو الذى يوافق القضاء ، فان خالف القضاء نسخ الدعاء وثبت القضاء .

وكان القبارى مصابا بثلاث حواس ، قلة السمع وقلة الشم وضياع التذوق ، ويعلق زيتون على ذلك فيقول ، وكان على ذلك صابرا لأمر الله ، غير برم بالحياة ولا ساخطا

على الناس والمقادير ، بل كان راضيا بقضاء الله وقدره ، بل على العكس كان يبدو وكأنه سوى الخلقة مبرأ من كل عاهة[1]. وفى ذلك يقول تلميذه ومريده ناصر الدين بن المنير :

وكان رحمه الله قد حمل عنه الشم ، فلا يشم طيبا ولا رديئا ، وبهذا ، والله أعلم ، استعان على شظف العيش . وكان يكتم هذا عن نفسه ، وما أظهره لى قط ، ولكنى فهمته من قرائن أحواله ، وأخبرنى به بعض من باطنه فى الخدمة . وكانت الطعوم أيضا قد حملت عنه ، فلا يفرق بينها ، ولهذا كان يقسم بالله أنه لا يأكل بشهوة منذ زمن طويل ، ولا يأكل إلا سدا للخلة (الحاجة) لا غير » .

ويروى ابن المنير عن ضعف سمعه فيقول : «وكان يحضر مجالس العلم على ثقل سمعه فاذا انقضى الدرس ، سأل من أترابه من يعيد له الدرس بصوت عال» .

وبرغم أن تلميذه ناصر الدين بن المنير ، قد ترجم له فى كتابه « مقامات سيدى القبارى» إلا أنه لم يذكر شيئا على وجه التحديد عن أساتذته الذين تلقى عنهم العلم ، ولا عن المدارس أو المساجد أو الحلقات التى كان يتردد عليها للدراسة ، وإن كان الدكتور الشيال[2] يرجّح أنه تتلمذ على كبار العلماء والمتصوفة الذين كانت تعمر بهم الإسكندرية فى ذلك العصر ، من أمثال أبى الحسن الشاذلى ، وأبى العباس المرسى ، وابن عطاء الله السكندرى ، وياقوت العرش والبوصيرى وغيرهم » .

وقد حج الشيخ القبارى إلى بيت الله الحرام وهو ما يزال شابا يافعا ، وقد جرت له بعض الأحداث حكى بعضها لتلميذه ابن المنيرللاستدلال على تصريف القدر للعبد بلا تدبير منه ، فقال ابن المنير[3] : كان القبارى فى الركب راجعا من مكة فى أول حجة وهو شاب ، فقال : فكنت فى آخر الركب فخرج العرب على الركب وتخطفوه وتعلوا بأواخره فجيئنا إلى عقبة تبلدت الناقة عن هبوطها فأدركنى بدوى راكب معه سيف مصلت ، فهوى به إلى وضربنى فصادفت ضربته ساق فكان لها طنين ، وكانت تلك الضربة سبب

(١) القبارى زاهد الإسكندرية ص ٥٩
(٢) أعلام الإسكندرية ص ٢٢٥
(٣) محمد محمود زيتون ص ٦٠

نجاتى ، لأن الناقة لما أحست بصوت الحديد نهضت فزجت نفسها من العقبة ، ففاته أن يضربنى ثانية فوقع لى عند حكاية قول بعضهم فى الحكاية المشهورة : نجيناك من التلف بالتلف» . ويعقب ابن المنير على هذه الحكاية فيقول : وعلى الجملة فكان حال الرجل صحيحا ، وقدمه راسخا وعزمه ثابتا ، فكان إذا شرع فى خير داوم عليه وأعين ، والعون هو الأصل » .

وكان القبارى قوى البنية شجاعا لا يخاف ولا يجبن ، وقد روى لنا ابن المنير الكثير من القصص والروايات التى تبرز شجاعته وجرأته وتصديه للجماعات وهو مفرد فيتغلب عليها بقوة بدنه وثبات جأشه وشجاعته وقوة إيمانه ، فمن ذلك قوله : أنا إن أخذت مطرقة ولقيت ثلاثين رجلا لا أبالى بهم » وكان له سيف يحسن الضرب به ومع ذلك لم يكن يعتمد عليه قدر اعتماده على نفسه وشجاعته .

ومما يروى عنه فى هذا المقام ، أنه هجم عليه فى قصره وبستانه فى غرب الإسكندرية زهاء مائة فارس من الأعراب ، وادعو أنه أخفى غنما لهم ، وشرعوا الرماح فى وجهه ، فصرخ فيهم صرخة قذفت الرعب فى قلوبهم ، وقال لهم «أما تستحون من الله» .

وتحدثنا المراجع التاريخية على أن الشيخ القبارى ظل يسكن البستان والدار التى ورثها عن أهله برمل الاسكندرية حتى بلغ التاسعة والخمسين من عمره ، حتى كانت سنة ٦٤٦ هـ التى اعتبرت نقطة تحول جديدة فى حياة القبارى فقد انتقل من الشرق من رمل الإسكندرية الى الغرب ، إلى المنطقة التى عرفت فيما بعد باسمه (منطقة القبارى) ويقول زيتون[1] عن الفترة التى قضاها فى غرب الإسكندرية وهى ستة عشر عاما ، ما يلى : وهى الفترة الثرية بجلائل الأقوال والأفعال ، الحافلة بالحكايات والنوادر الزاخرة باللقاءات مع الملوك والأمراء والجنود والفقهاء . المرغوب فيهم والمرغوب عنهم من الإنس والجن على السواء .

أما عن السبب الذى من أجله ترك القبارى بستانه فى شرق الإسكندرية ورحل إلى

---

(١) القبارى زاهد الإسكندرية ص ٧٤

الغرب ، فيرجع كما يقول ابن المنير إلى أن والى الإسكندرية فى عهد السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب كان قد سخر سنة ٦٤٦ هـ الناس فى إصلاح الخليج ، مما ترتب عليه ظلم لهم ، فلا يحق له فى نظره أن ينتفع بماء يجرى إلى بستانه وفى إجرائه عسف للعاملين فيه .

وقد سجل ابن المنير هذه الحادثة فقال : إن خليج الإسكندرية قد امتدت إليه يد الإصلاح سنة ٦٤٦ هـ ، وفى هذه السنة أبطل الشيخ (القبارى) تدوير الساقية فى بستان الرمل ، وأنشأ المكان الغربى فى المباح ، ووجد هناك عينا فزرع عليها شجرا وبنى حوشا للسكن ، وعزم على الانتقال إليه بالكلية ، فلما بطل ذلك العمل (فى الخليج) وعاد الأمر إلى ما كان قديما عاد » .

ولكن يظهر أن الشيخ القبارى كان قد وافقت هوى فى نفسه حياة الاعتزال فى الغرب. فاستقر به حتى وافته منيته ، وفى ذلك يقول : وزنت الأحوال بميزان الاعتبار فوجدتها لا تصلح إلا بالعزلة كما قال « علم الله منى أننى أوثر الوحدة فى الحياة وبعد الممات » .

وكان للقبارى كما يقول ابن المنير[1] ، خادم يخدمه ويعينه فى معيشته يعرف باسم (أبو الطاهر بن أبى العز) وكان رجلا صالحا يكثر من تلاوة القرآن أخلص فى طاعة ربه كما أخلص فى خدمة شيخه الذى استمر فى خدمته أربعين عاما . وكان القبارى يتعفف من تسميته بالخادم بل يطلق عليه (الرجل) . ويضيف ابن المنير فى وصف الخادم فيقول : وكان هذا الخادم قد تطبع وتأثر بسلوكه ، وعرف الناس عنه ذلك ـ حتى لقد مرض أحد تجار العجم الأغنياء ، فأشار عليه تابع له أن ينذر لخادم الشيخ بشئ إذا منّ الله عليه بالشفاء . فلما شفى جاء للوفاء بنذره ، وعرض على الخادم مالا ، فامتنع وألح وأصر ، والآخر مصمم على الامتناع ، ولكن أبا الطاهر اضطر أمام الحاح الرجل على القبول . فلما علم بذلك القبارى طرده ولم يسمح له بالبقاء ، عقابا له على قبوله النذر .

ويحدثنا زيتون عن قصر القبارى وسكنه فى غرب الإسكندرية فيقول : ومما لا شبهة

---

(١) المرجع السابق ص ٦٢

فيه أن هذا القصر القديم كان هو ذلك الدير القديم المهجور ، وله باب قديم ومنه كان القبارى يدخل إلى مسكنه ، وفيه كان مصلاه ، وكثيرا ما كان يطلق ابن المنير على هذه البقعة كلها «ناحية الدير» .

وكان القبارى على حد قول الأستاذ زيتون ، واحدا من أهل الله لا إفراط ولاتفريط ، خير الأمور عنده الوسط ، فقد كان يعيش فى هذه الدنيا غير ناس نصيبه منها ، ولا متشدد على نفسه فى استحلال الطيبات من الرزق . كانت معيشته غاية فى اليسر والبساطة ، لا تعقيد ولا مروق ، يأكل ويشرب ويصوم ، يتعبد لله فى عمله بيده ، وفى معاملته مع الناس على هدى وبصيرة من أمر دينه .

وكان رحمة الله عليه يأكل الطعام الخفيف الذى لا إسراف فيه ولا ترف ، وقد وصف لتلميذه ابن المنير أكلة كان يحبها كثيرا ، فقال : أكلت البارحة لونا غريبا ، فلقد صببت فى القصعة من الإبريق ماء قراحا ووضعت فيه الكسر ، وما كان هذا اللون إلا ألطف من الألوان البلدية وأنقى » .

ويصف ابن العماد[1] الشيخ القبارى بالورع والتقوى ، فيقول : «كان صالحا قانتا منقطع القرين فى الورع » . ولكن القبارى كان يتعض إذا ما وصف بالورع ويقول : «الورع الذى يشيرون إليه أن يترك الإنسان الحلال المحض تقللا ، وأين الحلال ؟ علم الله أنى ما وجدته كما اشتهى قط ،الحلال المحض هو الذى لا تراه ولا تسمع به ، فهل تجدون أكثر من أن أمد يدى إلى البحر لآخذ حوتا بلا آله فيها الشبهه ، ومع ذلك فما نفسى بذلك طيبة ، لأن القوة التى بسطت بها يدى إنما نشأت من هذه الأقوات ، وهى مشتبهة يشبع الإنسان مما يأكل ، فأين الورع . إنما هو التنظيف فما إليه سبيل ، فإن كان الأمر بهذه المثابة ، فما بقى للخلاص طريق إلا الاقتصار على سد الجوعة وستر العورة».

وفى هذا المعنى يقول المناوى[2] عن الشيخ القبارى : زاهد أخلص فى العمل ، واجتهد

---

(١) شذرات الذهب فى أخبار من ذهب جـ ٥ ص ١٩٨

(٢) المناوى : الكواكب الدرية

فى قطع الأمل ، ومال إلى العزلة ، واستعد للرحلة ، كان كثير الورع والخضوع ، غزير الأخبات والخشوع ، مبارك الطلعة ، مشهور الذكر بين الصوفية والسمعة ، يأمر بالمعروف واقتفاء آثاره وله بستان يقتات منه ويطعم الناس من ثماره» .

هذه بعض من جوانب حياة الشيخ القبارى الخاصة ، أما عن سلوكه مع ملوك وحكام عصره فمن المعروف أنه ولد فى عصر ملئ بالانتفاضات الروحية التى أثارها صلاح الدين بجهاده ضد الصليبيين ، ثم عاش القبارى شبابه فى عصر الملك الأيوبى ، وهو عصر إمتاز بنهضة علمية مزدهرة تولى قيادتها عدد من العلماء المصريين وعدد من العلماء المسلمين الوافدين على مصر . وشهد القبارى فى شيخوخته نهاية دولة بنى أيوب وقيام دولة المماليك البحرية ، وما صحب ذلك من حملة لويس الصليبية على دمياط والمنصورة وجهود الملك الصالح نجم الدين أيوب فى سحقها . كما شهد انتصار المماليك على التتار فى موقعة عين جالوت .

وبرغم هذه الأعمال والانتصارات الجليلة التى أحرزتها مصر فى عهد دولتى الأيوبيين والمماليك فإنه لم يكن راض عن تصرفات ملوكهما حيال الرعية كل الرضا ، فطالما سعى لزيارته ولاة الإسكندرية وكبار رجال الدولة ، بل سلاطين مصر أنفسهم ، ولكنه كان يرفض مقابلتهم ، وصاحب الحظ منهم من كان يسمح له بالتحدث إليه من نافذة الدار التى يسكنها .

ومن القصص التى تروى فى هذا المجال ما حكاه الشيخ القبارى نفسه عن زيارة السلطان الملك الكامل الأيوبى ، إذ يقول : لما جاء الملك الكامل الإسكندرية خطر له أن يخرج إلى عندى ، جاءت له مقدمات من مماليك وحجاب ، وصادفونى أصلى الوقود لعشائى وكنت حينئذ لا أجيب داخلا علىّ ، وكان عندى أحد المعتادين المترددين إلىّ من أهل البلد ، فقلت له ، ضم إليك ثيابك ، فانك لا تطيق مجالسة هؤلاء ، وقلت له : أتظن الكرامة فى أن يجئ ، قال ، ربما ، فقلت ، الكرامة فى أن ينصرف لأنه إن دخل محبا ، خرج مغضبا ، وإن انصرف جاء محبا وراح محبا فسلم منى وسلمت منه ، وربما أغضبه ذلك فلا نصيحتى تقبل،

ولا هو من الغضب يسلم ، فالسلامة والكرامة فى الحيلولة بينى وبينه . ثم أقبلت على ما كنت فيه ، إلى أن جاء إلى الباب فقيض الله له بعض أصحابه ، فقال له ، المملكة عظيمة ، وقد صحبك العسكر بجملة وأنت بين أمرين : أما أن يأذن لك أو يحجبك ، وإذا أذن لك صرفك كالآحاد ، ونصحك بما لا تطيق فعله ، فان فعلت تغيرت قواعد كثيرة ، وإن تركت قامت الحجة عليك ، والمصلحة عندى الاقتصار على الوصول إلى الباب ، فبلغنى أنه قال : خيره الله ، وقد حصلت النية ، فانصرف راجعا[1]» .

وأراد الملك العادل بن الملك الكامل أن يزور القبارى ويجتمع به للتبرك ، فأرسل خادما من خواصه يحمل إليه ألف دينار ، كما أرسل إليه عالما من علماء الإسكندرية للتوسط له لقبول الهدية والإذن بالزيارة ، فكان رد القبارى كما يلى : قال للخادم : لا يغرنكم هذا بمواعيده وأطماعه رد الدنانير إلى صاحبك وقل له : لو عرفت أصحابها لأشار عليك أن تعيدها إليهم ولكن هذا فات وأنا لا أتقلد وسخا (أى مال مجهول الأصل) لا آخذا ولا معطيا » .

ويحدثنا محمد زيتون نقلا عن ابن المنير ، عما كان بين الملك الصالح نجم الدين أيوب وبين القبارى فيقول : عندما علم الملك الصالح من أحد الحجاب أن القبارى قد اعتزم مغادرة الديار المصرية ، تخلصا من مشكلة شرعية هى ، هل من المباح أن يعمر الإنسان أرض الموات أى البور ، وبعد تعميرها واستصلاحها تصير ملكا له . وبلغ ذلك الملك الصالح فاهتم بالأمر غاية الاهتمام وبعث ساعيا بكتاب عاجل إلى القبارى ، وفيه الإذن المطلق المفوض له فى الإقامة بغرب الإسكندرية كما يشاء ، فلما جاءه الحاجب بالكتاب. قال : «هذا إذن وما استأذنته » . ثم قال عن الحاجب تعرض لى بالاحسان ، وأنا أخاف من الإحسان ، فإنه كالسوس فى الأسنان وقد علم الله أننى ما تعرضت لذلك «ثم أضاف قائلا حكمته المأثورة : لولا الطباع لكان المحسن هو المسيئ ، والمسيئ هو المحسن ، لأن المحسن يأخذ من حسناتك ، والمسيئ يعطيك من حسناته » .

---

(١) القبارى زاهد الإسكندرية ص ١٥٠

ولما تولى الظاهر بيبرس سلطنة مصر ، ذهب إلى الإسكندرية سنة ٦٥٨ هـ ليسحق الغارة التى قام بها الفرغ عليها ، وقد انتهز فرصة وجوده بالثغر وأبدى رغبته فى زيارة قطبى الإسكندرية فى ذلك الوقت القبارى والشاطبى . وقد سمح القبارى بزيارة الظاهر بيبرس بشرط أن يتلقاه من أسفل البستان ، وهنا رد السلطان ، كما جاء فى مفرج[1] الكروب ، أنا رايح لله تعالى ، فمن أى مكان شاء يكلمنى » .

ويطيب لنا قبل أن نختم قصة حياة شيخنا الزاهد الورع المتصوف القبارى أن نذكر قصته مع السلطان الأشرف قايتباى لنعرف مبلغ تقدير وتعظيم الملوك له حتى بعد مماته ، وقد وردت هذه القصة فى كتاب «القبارى زاهد الإسكندرية لمحمد زيتون ، نقلا عن كتاب «الوجه الصحيح فى ختم الصحيح» للشيخ محمد على بن علان المكى ، جاء فيها :

عندما حج السلطان قايتباى إلى بيت الله الحرام ، وزار الحضرة النبوية ، سأل خدام الحرم النبوى عن أعجب ما رأوه ، فقالوا : أن رجلا يأتى قبر النبى كل يوم فينفتح له ، ثم يغيب مدة ثم يظهر ، ومضى على ذلك وقت طويل ، حتى إذا جاء على عادته من كل ليلة سمعوا أصواتا وجلبة ، فاستعدوا بعصيهم إزاء القبر الشريف ، خشية أن يصيبه مكروه ، وإذا بالرجل يخرج فأمسكوا به وشددوا عليه ، وسألوه عن أمره ، فقال لهم أنه يأتى كل ليلة ليقرأ صحيح البخارى على النبى صلوات الله عليه وسألوه عن هذه الأصوات: فقال لهم أنها أصوات خاصة الله الكرام ، حضروا لختم البخارى والتبرك بالنبى عليه السلام ، وسألوه عن اسمه وبلده ، فقال أبو القاسم القبارى من الإسكندرية . فلما رجع قايتباى إلى مصر ، ذهب إلى الإسكندرية خصيصا ليقرأ الفاتحة على ضريح الشيخ القبارى[2] .

وتوفى الشيخ أبو القاسم القبارى رحمة الله عليه سنة ٦٦٢ هـ عن خمس وسبعين سنة ودفن فى بستانه ، وأقيم على ضريحه مسجد صغير قام بتوسيعه محمد سعيد باشا فى القرن التاسع عشر ، ثم توالت عليه يد التجديد والتعمير فى القرن العشرين .

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ص ٣٦٥

(٢) محمد زيتون ص ١٦٨

وصف المسجد

يتكون المسجد من ساحة كبيرة للصلاة تبلغ مساحتها (٢٥٢) مترا مربعا ، يحيط بها سور مرتفع يبلغ ارتفاعه ستة أمتار مبنى من الحجر المصقول . ويحيط بهذه الساحة من جانبيها مصليتان . الداخلية منهما وتبلغ مساحتها (٨٣) مترا مربعا والخارجية مساحتها (٤٥) مترا وللمسجد مدخلان رئيسيان أحدهما يقع فى الجهة الشمالية منه ويؤدى إلى فناء كبير تبلغ مساحته (٢٨٠) مترا مربعا ومدخل فى الجهة الغربية ويؤدى إلى فناء آخر تبلغ مساحته (٢٢٨) مترا مربعا .

وتقع مئذنة الجامع فى الجهة المقابلة لحائط القبلة أى فى الجهة الشمالية ، داخل السور . وتتكون المئذنة من دورتين رشيقتين يفصل بينهما شرفة للمؤذن تقوم على عدة صفوف من الدلايات البديعة الصنع وتنتهى المئذنة بعمود اسطوانى مفصص تعلوه خوصه أكبر منه وترجع المئذنة إلى العمارة التى قام بها محمد سعيد باشا فى القرن التاسع عشر م .

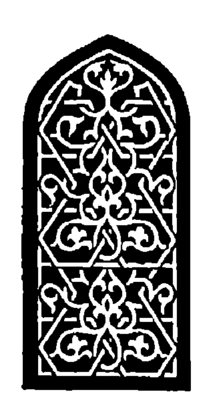
ويجاور المئذنة ضريح الشيخ القبارى الذى يقال أنه أقيم على الخلوة التى كانت بالبستان والتى دفن فيها الشيخ . والضريح يتكون من حجرة مربعة تغطيها قبة تقوم على رقبة بها ثمان نوافذ ، وترجع القبة إلى عمارة القرن التاسع عشر .

ونجد داخل الضريح قبر آخر عليه مقصورة خشبية مرتفعة عليها غطاء أخضر كتب عليه إسم (العز بن عبد السلام) ، ومن الثابت أن شيخ الإسلام العز بن عبد السلام توفى سنة ٦٦٠ هـ أى قبل القبارى بعامين وأنه دفن بسفح جبل المقطم وقبره ظاهر وتقوم مصلحة الآثار الآن بترميمه . ولعله من أضرحة الرؤيا التى كثر انتشارها فى العصور الوسطى .

وكانت ساقية بستان القبارى باقية إلى ما يقرب من ستين[1] سنة ماضية وأقيمت مكانها الآن مدرسة القبارى الإبتدائية للبنات .

---

(١) محمد زيتون : القبارى زاهد الإسكندرية ص ٦٥



مسجد السيد البدوى

بطنطا

بمحافظة الغربية

هو أحمد بن على بن إبراهيم بن محمد بن أبى بكر ينتهى نسبه إلى على زين العابدين ابن الحسين بن على بن أبى طالب . رحل أجداده من الحجاز إلى المغرب سنة ٧٣ هـ فى عصر الدولة الأموية . عندما زاد اضطهاد الحجاج بن يوسف الثقفى للعلويين . وقد استقروا بمدينة فاس حاضرة المغرب الأقصى فى القرن السادس الهجرى . وفى المغرب تزوج الشريف ابراهيم جد أحمد البدوى بابنة أخى السلطان فولدت له عليا الذى تزوج بدوره فتاة عالية القدر هى فاطمة بنت محمد بن أحمد بن عبد الله بن مدين بن شعيب المزنية فولدت ستة أبناء كان أحمد آخرهم ، الذى لقب فيما بعد بالبدوى . وهكذا نرى أن أحمد البدوى ولد فى مدينة فاس سنة ٥٩٦ هـ من أب عربى ينتهى نسبه إلى الحسين ابن على بن أبى طالب وأم مغربية .

ولما اضطربت الأحوال فى بلاد المغرب إثر قيام دولة الموحدين واضطهادها لاتباع دولة المرابطين هاجر على بن ابراهيم رب أسرة أحمد البدوى إلى مكة بحجة تأدية فريضة الحج . وقد استقرت الأسرة خمس سنوات فى مصر فى طريقها إلى مكة ، فقد خرجت من المغرب سنة ٦٠٣ هـ ووصلت مكة سنة ٦٠٩ هـ . وكان مرور أسرة البدوى بمصر فى عهد الملك العادل أخى صلاح الدين الأيوبى .

واستقرت أسرة أحمد البدوى بالحجاز ولما يتم الثالثة عشر عاما وبقى هناك حتى توفى والده ودفن (بالمعلاه) مقبرة مكة كما توفى أخوه محمد ودفن بجوار والده . وقد كانت

وفاة والد أحمد البدوى نقطة تحول واضحة فى حياته . فقد عكف على العبادة وامتنع عن الزواج واعتزل الناس وعاش فى صمت لايفصح عما يجول فى نفسه وأصبح فى حالة وله دائم وكان لنشأته الأولى فى بلاد المغرب بين المرابطين الملثمين أثر فى وضعه اللثام على وجهه .

وقد عكف البدوى فى عزلته على دراسة تعاليم إمامى الصوفية فى العراق وهما أحمد الرفاعى وعبد القادر الجيلانى فشغف بهما وقرر الرحيل إلى العراق . وفى سنة ٦٣٤ رحل أحمد وأخوه حسن إلى العراق حيث زارا بغداد ثم أم عبيدة بلدة الرفاعى بلواء البصرة ثم ذهب أحمد منفردا إلى الموصل حيث زار قبر (عدى بن سافر الهكارى) صاحب الطريقة العدوية ، وهناك التقى مع (فاطمة بنت برى) صاحبة القصة المشهورة مع السيد البدوى وملخصها أنها أرادت إغراء البدوى بجمالها فلم تستطع فآمنت هى وعشيرتها بولايته وصلاحه . وأخيرا عاد البدوى إلى الحجاز بعد أن عظم ميله إلى الزهد والعبادة ، فقد مال إلى الصمت وكان يصوم النهار ويقوم الليل ويكثر من قراءة القرآن بالقراءات السبع . على أن البدوى لم يستقر به المقام طويلا فى مكة بل أخذ يفكر فى الارتحال فوقع اختياره هذه المرة على مصر حيث الاستقرار والسلام وحيث ينشر التصوف السنى . فقد أقامت الدولة الأيوبية للصوفية الخوانق والربط والمدارس والزاويا ووقفت عليها كثيرا من الأراضى والعقارات لتقوم برسالتها على أكمل وجه .

وصل البدوى مصر سنة ٦٣٧ هـ على الرأى الراجح ويمم وجهه شطر طنطا التى كانت تعرف فى ذلك الوقت باسم طندتا ، نتيجة لرؤيا رآها فى منامه ثلاث مرات أمر فى أثنائها ، أن سر إلى طندتا فإنك تقيم بها وتربى رجالا وأبطالا . ونزل البدوى فى طنطا فى دار الشيخ ركن الدين (ركين) التاجر وبقى عنده اثنتى عشرة سنة نال الشيخ ركين فى أثنائها خيرا عميا . ولما مات ركين انتقل البدوى إلى دار أخرى مجاورة وهى دار ابن شحيط شيخ الناحيه التى بقى بها نحو ست وعشرين ستة حتى مات ، وكان السيد البدوى يتعبد بمسجد (البوصة) الذى عرف باسم مسجد البهى فى القرن الثالث عشر الهجرى بعد أن دفن فيه الشيخ محمد أحمد يوسف البهى . ويقع مسجد البوصة على مقربة من دار ابن ركين . وهو الآن فى الجهة الجنوبية الغربية بالنسبة للمسجد الأحمدى .

وكان من عادة البدوى أن يجلس على سطح منزله على عادة الرفاعية بالعراق حيث كان يجلس الامام الرفاعى على السطح ليسمعه سكان القرى المجاورة إذا ماتكلم ولذلك فقد عرف أتباع السيد البدوى بالسطوحية . ومن أشهر أتباع البدوى ومريديه عبد العال وأخوه عبد المجيد الأنصارى وعبد الوهاب الجوهرى وقمر الدولة وحسن الصائغ وغيرهم كثير .

ويعتبر القرن السابع الهجرى فى مصر عصر ازدهار صوفى فقد ظهر فيه أحمد البدوى والحسن الشاذلى وأبو القاسم القبارى . وأبو عبد الله الشاطبي وابراهيم الدسوقى وأبو العباس المرسى . وقد ترك لنا السيد البدوى بعض المؤلفات أشهرها (صلوات) و(وصايا) و(الحزب) .

* * *

وصف الجامع

توفى السيد البدوى فى الثانى عشر من ربيع الأول سنة ٦٧٥ هـ ودفن فى داخل منزل ابن شحيط ، فأقام تلميذه عبد العال بجوار القبر خلوة تحولت فيما بعد إلى زاوية عرفت بالأحمدية بقيت على حالها حتى عصر السلطان الأشرف قايتباى . وفى ذلك العصر أقيمت قبة على ضريح السيد كما أقيمت للزاوية مئذنة . ويقول ابن اياس فى حوادث سنة ٩٠١ هـ « وأما ما أنشأه الأشرف قايتباى من البنيان فهو تجديد مقام سيدى أحمد البدوى ، وبناه حافلا ووسعه » .

وفى القرن الثانى عشر الهجرى بنى على بك الكبير مسجدا بجوار ضريح السيد كما أقيمت ثلاث قباب أكبرها على ضريح السيد البدوى والغربية منها لتلميذه وتابعه عبد العال والشرقية للشيخ مجاهد شيخ الجامع ، كما صنعت مقصورة من النحاس لضريح السيد البدوى مازالت موجودة حتى الآن ، نقش عليها اسمه ونسبه . كذلك أنشأ على بك فى مواجهة المسجد سبيلا فوقه كتاب لتعليم اليتامى القراءة والكتابة .

وقد أوقف على بك الكبير بعض الأوقاف سجلها فى وقفيتين جاء فيهما . أنه أوقف أراضى زراعية من قرى القوصية بولاية الاشمونين تغل سنويا (٧١٨٩٧٥) أردبا من القمح. كما أوقف (١٧) فدانا من أجود الأراضى الزراعية بنواحى طنطا وبلتاج هذا بالإضافة إلى العمائر والوكايل والقياسر وغيرها من العقارات التى تغل ريعا سنويا قدر (٨٤٨٥٢٥) نصف فضة أى مايعادل (٢٦٢٦٤) جنيها مصريا إذ كان الجنيه يساوى (٣٠) نصف فضة . وجعل على بك المستفيد من هذه الأوقاف هم خلفاء السيد وخدم الضريح والقائمين به من العلماء والمجاورين بالمسجد ، والفقراء والمساكين والعجزة والأيتام وأرباب الأشاير المنسوبين للطريقة الأحمدية .

ونصت الوقفية على أن يكون عدد المجاورين سبعمائة ، يأخذون جرايه يومية مكونة من ستة أرغفة خبز قرصة للمجاور الواحد ، وفول نابت بعد صلاة الصبح وشربه وبُر .

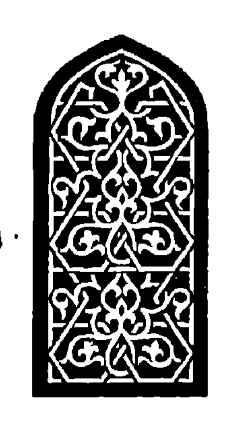
وفى شهر رمضان المبارك تزاد الجراية فتشتمل على الأرز واللحم والمسلى والبصل والحمص والمصلح.
كما خصص للمجاور مبلغ (٨٥) نصف فضة يصرف سنويا للكسوة يشترى بها بفتة وزعابيط وقماش أبيض كل شخص بما يليق ».

وفى القرن الثانى عشر للهجرة كذلك تحول المسجد الأحمدى إلى معهد علمى دينى على غرار الجامعة الأزهرية ، وفى ذلك يقول على مبارك « له فى تدريس العلوم به شبه الجامع الأزهر ففيه نحو ألفى طالب غير المدرسين ولهم شيخ كشيخ الأزهر وقد تداول مشيخة العلماء بالجامع الأحمدى قديما وحديثا جملة وافرة من أجلاء العلماء وفضلائهم ». وقد تطورت الدراسة فى المسجد حتى استدعى الأمر قيام معهد كبير ملحق بالجامع وذلك فى القرن الرابع عشر الهجرى سنة ١٣٣٢ هـ .

وتبلغ مساحة المسجد الذى أعيد بناؤه فى القرن الرابع عشر الهجرى بما فى ذلك الأضرحة والملحقات فدانا ونصف فدان. ويتكون تخطيط المسجد من مربع يتوسطه صحن تحيط به الأروقة من جميع الجهات . ويبلغ عدد الأروقة بايوان القبلة فى الجهة الجنوبية أربعة أما الأيوانات الثلاث الباقية ففيها رواقان ويغطى الصحن قبة مرتفعة تقوم على رقبة بها مجموعة من النوافذ . وفى الجهة الغربية من المسجد توجد ثلاث أضرحة الأوسط منها وهو أكبرها ضريح السيد البدوى . وقد غطيت جميعها بقباب تقوم على مقرنصات وقد زالت القبتان الجنوبية والشمالية ولم تبق غير قبة السيد البدوى .

وللمسجد سبعة أبواب أربعة بالجهة الغربية الرئيسية وباب بكل جهة من الجهات الثلاث الباقية ، وقد نقش على الباب القبلى تاريخ هذه العمارة سنة ١٣٢٠ هـ .

* * *



مسجد إبراهيم الدسوقى
بمدينة دسوق
بمحافظة
كفر الشيخ

كفر الشيخ من القرى القديمة اسمها الأصلى دمينقون ، ثم عرفت باسم كفر الشيخ نسبة إلى الشيخ طلحة الشاذلى صاحب المقام الموجود بها . ويقول محمد رمزى : أنه لاحظ أن الكثير من القرى المصرية القديمة قد تغيرت أسماؤها فى العصر العثمانى وسميت بأسماء المشايخ أصحاب المقامات الموجودة بها ، مثال ذلك (الطا) التى سميت أبو العز بمركز كفر الزيات نسبة إلى الشيخ أبو العز المدفون بها (وديروط بلهاسة) التى سميت الشيخ زياد بمركز مغاغة نسبة إلى الشيخ زياد بن مغيرة المدفون بها ، و (أهريت) التى سميت الشيخ فضل بمركز بنى مزار نسبة إلى الشيخ فضل المدفون بها وغيرها كثير فى أنحاء الجمهورية . والسبب فى ذلك هو رغبة أهالى هذه البلاد فى احياء ذكرى هذه المقامات ولفت نظر الناس إليهم لزيارتهم والتبرك بهم فى الموالد التى تقام سنويا . ولا يخفى ما يعود على خدمة هذه المقامات من فائدة وما يكسبه أهل البلد من رواج لمحاصيلهم وتجارتهم . هذا بالاضافة إلى رغبة الأهالى فى التخلص من الأسماء المستهجنة التى لا يعرفون لها معنى .

أما دسوق فقد وردت فى قوانين ابن مماتى أنها قرية كبيرة عامرة من أعمال مصر وإليها ينسب سيدى ابراهيم الدسوقى صاحب المقام الكائن بها . وفى سنة ١٨٤١ أنشئ بمديرية الغربية قسم إدارى باسم قسم المندورة وجعل مقره بلدة دسوق لأنها أكبر بلاده وفى سنة ١٨٩٦ سمى مركز دسوق بدلا من المندورة ، وجاء فى الخطط التوفيقية أنه كان فى دسوق فى القرن الثالث الهجرى ثلاثة قصور أحداها للسيد عبد العال والثانى للامام القصبى شيخ جامع سيدى أحمد البدوى وثالث لبسيونى الفار ، وكلها معدة لاستضافة الوافدين على دسوق

أيام مولد سيدى ابراهيم الدسوق كما أنها تعد الطعام للفقراء والمساكين والوافدين للاحتفال بالمولد .

ومن أشهر شخصيات دسوق سيدى ابراهيم الدسوق بن عبد العزيز أبو المجد الذى ينتهى نسبه إلى الحسين بن علىّ بن أبى طالب . أما أمه فهى السيدة فاطمة بنت عبد الله ابن عبد الجبار أخت الصوفى المعروف أبى الحسن الشاذلى . كما يتصل نسبه بمعاصره قطب طنطا السيد أحمد البدوى عند الجد العاشر جعفر التركى بن على الهادى . ولد ابراهيم الدسوق بمصر سنة ٦٢٣هـ فى قرية دسوق فنسب إليها وتربى فى بيئة مصرية بين جماعة من أهل الورع والتقوى فشب محبا للعبادة والتدين مثل الشيخ محمد بن هارون العالم المتصوف ، كما أنه كان يترسم خطى خاله أبى الحسن الشاذلى صاحب الطريقة الشاذلية . ودرس علوم اللغة والدين وحفظ القرآن والحديث وأصول الفقه على مذهب الامام الشافعى وهو ما يزال طفلا صغيرا . ويقال أنه دخل الخلوة وهو فى الخامسة من عمره . ولما شب عن الطوق واشتد عوده بدأ يفد عليه فى خلوته قلة من المريدين وأصحابه وكان من أبرزهم السيد أبو النصر صاحب الضريح المعروف باسمه فى دسوق . وظل الدسوق معتكفا فى خلوته حتى مات أبوه سنة ٦٤٦ هـ فغادر الخلوة لأول مرة وكان عمره إذ اك ثلاثة وعشرين عاما . وقد رجاه وألح عليه اصحابه ومريدون على ترك الخلوة حتى يتفرغ لتلاميذه وأنصاره فنزل عند رغبتهم وتركها واتخذ له مكانا بجوار خلوته .

وقد عرفت طريقته بالطريقة البرهانية نسبة إلى اسمه أو الطريقة الدسوقية نسبة إلى بلده . وكان يرتدى ابراهيم الدسوق مع أنصاره العمامة الخضراء ، كما كان السيد البدوى يرتدى وأنصاره العمامة الحمراء ، بينما يرتدى أصحاب الرفاعى العمامة السوداء .

ولما سمع السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى بعلم الدسوق وتفقهه وكثرة أتباعه والتفاف الكثيرين حوله أصدر قرارا بتعيينه شيخا للإسلام ، فقبل المنصب وقام بمهمته دون أن يتقاضى أجرا ، بل وهب راتبه من هذه الوظيفة لفقراء المسلمين .كما قرر السلطان بناء زاوية يلتقى فيها الشيخ بمريديه يعلمهم ويفقههم فى أصول دينهم ، وظل الدسوق يشغل منصب شيخ الإسلام حتى توفى السلطان بيبرس ثم اعتذر عنه ليتفرغ لتلاميذه ومريديه .

وكان الدسوقى شجاعا لا يهاب الحكام ولا يخشى فى الله لومة لائم . ويحدثنا الشيخ جلال الدين الكركى ، أن الدسوقى أرسل للسلطان الأشرف خليل بن قلاوون رسالة شديدة اللهجة بسبب ظلم اقترفه مع الشعب . فغضب السلطان وأرسل فى استدعاء الشيخ ، ولكن الدسوقى رفض الذهاب إليه وقال « إنى هنا ومن يريدنى فعليه الحضور للقائى » . ولم يجد السلطان مفرا من النزول على إرادة الشيخ لما عرفه عن قدره ومكانته عند الناس فقدم إليه واعتذر له . وقد أحسن الشيخ استقباله وبشره بانتصاره على الصليبيين وفعلا انتصر عليهم السلطان خليل بن قلاوون وقضى على آخر معاقلهم فى عكا .

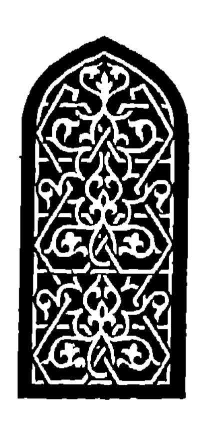
وكان الدسوقى أعزبا لم يتزوج . وهب كل وقته للتصوف والتعبد والتأمل ، ومما يجدر ذكره فى هذا المجال ، أن الشيخ العتريس المدفون بجوار مسجد السيدة زينب بالقاهرة ، هو أخو الشيخ إبراهيم الدسوقى . وكان الدسوقى يجيد عدة لغات إلى جانب العربية مثل السريانية والعبرية ، إذ كتب العديد من الكتب والرسائل بالسريانية كما أدخل الكثير من رسائله الألفاظ السريانية . وقد خلف لنا الدسوقى ذخيرة من المؤلفات فى الفقه والتوحيد والتفسير ، أشهرها كتابه المعروف باسم (الجواهر) أو (الحقائق) وهو مخطوط قيم موجود جزء واحد منه فى دار الكتب المصرية ، وجزء آخر موجود فى جامعة ليدن بهولندا . وقد نقل المستشرقون بعض مؤلفاته إلى ألمانيا . كما أن له قصيدة محفوظة فى المتحف البريطانى بلندن ، كذلك نشرت له جامعة ليدن الكثير من المواعظ والأقوال المأثورة فى سجل صدر عنها ، وتوفى إبراهيم الدسوقى سنة ٦٧٦ هـ وهو فى الثالثة والأربعين من عمره فى مدينة دسوق ، ودفن بزاويته التى بنيت له حول الخلوة فى نفس الحجرة التى يتعبد فيها ، ودفن معه أخوه وخليفته السيد موسى ودفنت بينهما أمهما السيدة فاطمة .

* * *

وقد أقيم على مقبرة الدسوقى بعد وفاته ضريح فوقه قبة وألحق به مسجد حبس عليه كثير من الأملاك والعقارات يصرف ريعها على المسجد والعاملين فيه وطلاب العلم . وقد أدخلت على المسجد والضريح كثير من الترميمات والتجديدات والإضافات وبخاصة فى عهد السلطان قايتباى ، أما المسجد الذى نراه اليوم فيرجع إلى القرن التاسع عشر ، وتبلغ

مساحته ٢٠ ألف متر مربع . ويتكون المسجد من صحن مكشوف يتوسط المسجد تحيط به الأروقة من جميع الجهات . ومما يسترعى الانتباه فى هذا المسجد أن الإيوانين الشرقى والغربى بكل منهما عدد من الأروقة يزيد عما بإيوان القبلة الذى يقع فى الجهة الجنوبية . كما نلاحظ وجود مجازات فى منتصف الإيوانات الأربعة وتقطع الأروقة المستعرضة إلى قسمين أما فى إيوان القبلة فتكون عمودية على المحراب . ويبلغ عدد أعمدة المسجد سبعين عمودا من الرخام الأبيض ، وقد كسيت أرضية المسجد كله بالرخام . وسقف المسجد خشبى محمول على كوابيل خشبية جميلة ، وللمسجد ستة أبواب خصص اثنان منهما للسيدات .

وفى أوائل القرن التاسع عشر ضم المسجد الدسوقى للجامع الأزهر ، وأصبحت الدراسة فيه تسير على نهج الدراسة الأزهرية نفسها . ويضم المسجد مكتبة قيمة تحتوى على خمسة آلاف كتاب فى مختلف العلوم الدينية والمدنية على السواء .



مسجد وضريح الشيخ مرزوق اليمانى

بحى الجـــمالـيـــة

هو القطب الربانى والعابد الصمدانى مرزوق اليمانى الشافعى مذهبا والأحمدى طريقة والحسينى نسبا ، وهو الخليفة الأول لسيدى أحمد البدوى رضى الله عنه . ولد الشيخ مرزوق باليمن سنة ٦٠٢ هـ أى بعد مولد سيدى أحمد البدوى بثلاث سنوات . وقد نشأ الطفل مرزوق وترعرع فى كنف والديه الفقيرين ولكنه لم يكد يشب عن الطوق ويبلغ الحادية عشرة من عمره حتى اختار الله والديه إلى جواره ، ودفنا فى اليمن سنة٦١٣ هـ .

لقد كانت حادثة وفاة والدى الشيخ مرزوق فى سنة واحدة نقطة تحول فى حياته ، إذ لم يعد يطق العيش باليمن ، فأخذت تلح عليه الأفكار نهارا والرؤى ليلا محسنة له الرحيل من اليمن والانتقال إلى الخارج . وقد تصادف أن الوقت الذى ولد فيه الشيخ مرزوق كان العالم العربى خاصة والإسلامى عامة واقع تحت وطأة محنة الحروب الصليبيه ، ومن ثم فقد كانت فكرة الجهاد فى سبيل الله دفاعا عن دينه تراود قلوب المؤمنين وخاصة الشباب منهم . لذلك فإننا لا نشك فى أن الرؤيا التى أخذت تلح على الشيخ المرزوق وتكررت له ثلاث ليال متتالية . ولم يجد بدا من أن يقص رؤياه التى اقضت مضجعه على جدته التى كفلته بعد وفاة والديه ، وفحوى هذه الرؤيا ، أن شيخا عربيا تدل عليه أمارات الولاية ، يأمره بالإنتقال من اليمن إلى مصر حيث يكون له شأن عظيم بها[1] .

---

(١) ابن الدويدار . كنف الدرر وجامع الغرر ، النجوم الزاهرة جـ ٥
المقريزى : السلوك جـ ٢ ص

ولما أحست الجدة من حفيدها العزم والحزم على الرحيل ، حزنت كثيرا على فراقه لها ، إذ أنه البقية الباقية لها من أسرتها ، ولكنها رأت أن تؤمن مستقبله قبل رحيله . فاختارت له شريكة لحياته من إحدى القريبات فدخل بها وبقى فترة وجيزة باليمن . ثم عقد العزم على الرحيل ، فخرج هو وزوجه من اليمن وقصدا مكه المكرمة وكان ذلك فى عام ٦٢٢ هـ . وهناك إنكب الشيخ مرزوق على الدرس والتحصل والتحصيل فحفظ القرآن وحضر مجالس التفسير ودروس الحديث وتفقه فى علوم اللغة . وقد أمضى الشيخ مرزوق المدة التى قضاها فى بلاد الحجاز مرتحلا بين مكة والمدينة خاصة وأن زوجه لم تكن أنجبت له ولدا بعد .

وأثناء إقامته بالمدينة سمع أن الأحداث المؤلمة والمؤسفة التى قام بها الصليبيون بقيادة ريجنالد دى شانيلون[1] أمير الكوك ألد أعداء صلاح الدين من الصليبيين الذى أراد فتح بلاد الحجاز والإستيلاء على مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ونبش قبره حتى يساوموا بجسده الطاهر المسلمين كما يستولوا على الكعبة الشريفة . ولكى يحقق أغراضه اتصل ببدو سيناء بالرشوة ، فاستطاع بمعاونتهم أن ينقل قطع أسطوله عبر الصحراء من حصن الكرك إلى خليج العقبة . ومن ميناء إيله المصرى (إيلات الحالية) خرج بأسطوله فى البحر الأحمر فاستولى على ميناء عيذاب المصرى أمام جدة وجعلها مقر قرصنته البحرية .

ولما بلغ صلاح الدين الأيوبى خبر هذه الحملة اللعينة أسرع بأرسال رسول إلى أخيه العادل الذى خلفه فى مصر يطلب منه إرسال حملة لتأديب أمير الكوك ورده عن البلاد المقدسة . وبالقاهرة أعد العادل جيشا بقيادة الحاجب حسام الدين لؤلؤ الذى أسرع بالسفر إلى القلزم (السويس) حيث أعد أسطولا صنعت سفنه بالقاهرة والإسكندرية وصار به إلى إيله وظفر ببعض سفن الصليبيين وحرقها وأسر من فيها . ثم سار إلى عيذاب وتبع مراكب الفرنج ، وبعد أيام استولى عليها ، وأطلق من فيها من التجار المأسورين ، ورد عليهم ما أخذ منهم وصعد البر الحجازى، ثم أدرك من فر من الفرنج وأسرهم وساق منهم اثنين إلى منى نحرهما فيها وكان ذلك فى عيد الأضحى ، ثم عاد بالأسرى إلى القاهرة وضربت أعناقهم .

---

(١) ابن الدويدار : كنز الدرر وجامع الغرر ، النجوم الزاهرة جـ ٥

ومما لا شك فى أن هذه الحملة الدنسة التى قام بها الصليبيون بقصد نبش قبر الرسول صلى الله عليه وسلم والاستيلاء على الأراضى المقدسة ، قد أهاجت مشاعر المسلمين فى جميع أنحاء المعمورة ، بل كانت أقوى العوامل على إطلاقها فى إثارة الروح الدينية لدى المسلمين وجعلتهم يجتمعون تحت راية صلاح الدين الأيوبى يعملون يدا واحدة فى سبيل نصرة الإسلام والمسلمين ومن ثم فقد أخذت تنهال على مصر وبلاد الشام المتطوعة من شباب المسلمين يطلبون الفداء فى سبيل الله .

ولم يجد شيخنا مرزوق بدا من الإسراع إلى مصر ، حيث يجد الجهاد فى سبيل الله وتحقيقا للرؤيا التى تكررت له فى اليمن وكان ذلك سنة ٦٣٢[١] فى السنة السابعة عشر من حكم السلطان الكامل ابن السلطان العادل أخو صلاح الدين الأيوبى . وكان الملك الكامل معظما للسنة النبوية وأهلها راغبا فى نشرها والتمسك بها مؤثرا الاجتماع مع العلماء والكلام معهم حضرا وسفرا . لذلك فقد كان من أهم الأعمال العمرانية التى اهتم بها فى القاهرة إنشاؤه المدرسة الكاملية سنة ٦٢٢ هـ التى تعتبر ثانى مدرسة للحديث بعد الدار التى أقامها نور الدين زنكى بدمشق . ولا عجب أن نجد الشيخ مرزوق يأوى إلى المدرسة الكاملية بمجرد أن وطأت أقدامه أرض القاهرة حيث تفقه فى الحديث فقد كان السلطان الكامل قد وقفها على المشتغلين[٢] بالحديث النبوى ثم من بعدهم على فقهاء الشافعية .

وكان الشيخ مرزوق أثناء إقامته بالمدرسة الكاملية ، بالجمالية بالقاهرة يتردد كثيرا على الدلتا حيث كانت تدور رحى الحرب مع الصليبيين فى دمياط من حين إلى آخر ، فقد كانوا قد ملكوها ٦١٦ هـ ولم يستطع الملك الكامل إخراجهم إلا بعد مضى عامين أى سنة ٦١٨ هـ . وقد اتخذ الشيخ مرزوق له خلوة فى حى الجمالية قريبة من المدرسة الكاملية وعلى بعد خطوات من مسجد مولانا الإمام الحسين رضوان الله عليه وفى شهر رمضان من سنة ٦٣٦ التقى القطبان الكبيران السيد أحمد البدوى والشيخ مرزوق بمدينة القاهرة . فقد حدث أن جاء السيد البدوى لزيارة مشهد الإمام الحسين بالقاهرة وهناك التقى بالشيخ مرزوق الذى كان يعمل نساجا بسيطا ولكنه كان مشهورا بالورع والتقوى ودماثة الخلق ،

---

(١) النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٥٨٧

(٢) المقريزى الخطط جـ ٢ ص ٤٦٢

كما كان قد نفعه فى علم الحديث مما جعل مجلسه وحديثه محط الأنظار . فلما نظر السيد البدوى للشيخ مرزوق فى خلوته بالجمالية قص عليه مرزوق الرؤيا التى رآها باليمن على مسامع ضيفه العزيز ، كما كان السيد البدوى كما يقول المتصوفة من مشيخه السادة الأحمدية المرازقة يسمع هذه الرؤيا حتى قام من فوره ، وألبسه الشارة الحمراء وأعطاه العهد الوثيق يدا بيد تحقيقا للرؤيا فكان ذلك نقطة تحول فى حياة شيخنا مرزوق قد أصبح الخليفة الأول لسيدى أحمد البدوى .

وقد قام الشيخان بأعمال بطولية إبان الحملة الصليبية التى جاءت إلى دمياط بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا سنة ٦٤٨ هـ فى عهد الملك الصالح نجم الدين الأيوبى .

فقد كان كل منهما يقوم بحث الشباب على التطوع فى سبيل الجهاد بل أنهما ذهبا إلى ميدان المعركة واشتركا فيها بنفسهما ، فقد كانت مهمتهما الدخول ليلا فى معسكرات الفرنجة وإحضار الأسرى ، ومن هنا جاء المثل السائر (هلا هلا هلا يا بدوى جيب اليسرى (أى الأسرى)) .

ومما يروى عن كرامات الشيخ مرزوق ، تلك الحادثة التى وقعت له مع جمل (محمل بكسوة الكعبة الشريفة) فقد جرت العادة بعد الانتهاء من صناعة الكسوة الشريفة للكعبة والحرم النبوى ، أن تعرض بالمشهد الحسينى حتى يراها أكبر عدد من الناس . فلما تولت السلطانة شجر الدر زوجة الملك الصالح نجم الدين الأيوبى آخر سلاطين الدولة الأيوبية ، وأم ولده خليل ، كرسى السلطنة ، ابتدعت نظاما جديدا فى عرض الكسوة بالإضافة إلى عرضه فى المشهد الحسينى فقد أمرت أن توضع الكسوة فى صناديق على ظهر جمل عليه هودج ويسير الجمل فى موكب من القاهرة حتى ينتهى فى القلزم (السويس) حيث ينقل بحرا إلى الأراضى الحجازية . وحدث عندما برك الجمل أمام المشهد الحسينى وحضر أمير الحاج يتسلم مقوده ليقف ، لم يحرك الجمل ساكنا وتبادل عليه جميع الأمراء وعلية القوم يحاولون تحريك الجمل وإيقافه ولكن دون فائدة ، وكان بين الواقفين بالمشهد الحسينى الشيخ مرزوق ، فإذا به يتقدم الصفوف بدون استئذان ويتناول مقود الجمل من أمير الحاج ، فما أن رآه الجمل حتى هب واقفا وأخذ يسرع الخطى والشيخ مرزوق يتقدمه

ويقوده حتى أوصله إلى القلزم وكان ذلك سنة ٦٤٨ هـ. ومنذ ذلك التاريخ أصبح الشيخ مرزوق قائد جمل المحمل حتى توفى سنة ٦٧٧ هـ، وقد بقى هذا التقليد فى ذريته يتوارثه جيلا بعد جيل حتى بطل موكب المحمل فى أوائل الثورة .

ومن دعوات الشيخ مرزوق المأثورة : «اللهم افضل صله صلواتك وسلامة تسليماتك على أول التعينات المفاضة من السماء الربانى وآخر التنزيلات المضافة إلى النوع الإنسانى ، اللهم صلى وسلم على سيدنا محمد أكمل مخلوقاتك وسيد أهل أرضك وأهل سمواتك . النور الأعظم والكنز المطلسم والجوهر الفرد والسر الممتد . الذى ليس له مثل منطوق ولا شبه مخلوق» .

ولم ينجب الشيخ مرزوق غير ولد واحد فى مصر من زوجته التى دخل بها فى اليمن هو السيد عمر مرزوق ، ومعه تكاثرت ذرية الشيخ مرزوق ، التى منها السيد أحمد داده المدفون مع جده مرزوق . وأخذت ذريته تتوارث مشيخة السادة الأحمدية المرازقة جيلا بعد جيل حتى انتهت إلى شيخها الحالى السيد أحمد شمس الدين المحامى وعضو جماعة مشيخة الطرق الصوفية .

وصف المسجد

توفى الشيخ مرزوق سنة ٦٧٧ هـ وكان عمره وقتئذ خمسة وستين عاما ، ودفن بخلوته بالجمالية حيث أقيمت عليه زاوية صغيرة إلى أن بنى عليه المسجد الأثرى الحالى فى العصر العثمانى .

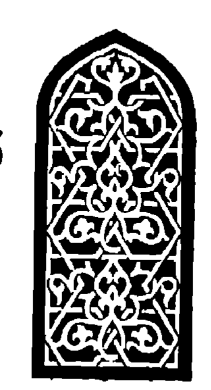
ويتكون المسجد من مستطيل يحتوى على صفين من البوائك تتكون كلها من ثلاث عقود مدببة ترتكز على عمودين . والأعمدة وكذا البوائك مبنية من الحجر المصقول . وتقسم البوائك المسجد إلى ثلاثة أروقة موازية لحائط القبلة . ويتوسط المسجد وفى الرواق الأوسط توجد فتحة مربعة (شخشيخة) ملئت أركانها بالمقرنصات ، وهى الفتحة الوحيدة التى تضئ المسجد . وفى الضلع الغربى للمسجد يوجد المدخل الرئيسى ويعلوه من الداخل دكة المبلغ . وفى مواجهة الباب تماما يوجد المحراب وعلى يساره يوجد المنبر الخشبى .

وسقف المسجد مغطى بألواح وأعمدة خشبية كانت عليها نقوش زيتية جميلة بأسلوب العصر العثمانى ، كما أحيط المسجد بوزره خشبية عليها كتابات قرآنية وفى وسطها كتابة تبين اسم الشيخ مرزوق وتاريخ إنشاء المسجد الموجود حاليا .

وفى الضلع الجنوبى للمسجد توجد فتحة معقودة تؤدى إلى غرفتين الشرقية منها بها باب فى ركنها يؤدى إلى مئذنة المسجد ، أما الغرفة الغربية فيها ضريح الشيخ مرزوق الذى أقيم فوق الخلوة التى كان يشغلها فى حياته .

وقد أقيم فوق الضريح مقصورة خشبية يعلوها قبة خشبية كذلك ، وتتقدم المقصورة عمود من الرخام عليه آيات قرآنية بالخط الثلث الجميل وكذا اسم الشيخ مرزوق . وللضريح باب صغير يقع فى الركن الجنوبى الغربى للمسجد يؤدى إلى الشارع مباشرة .

وفى الضلع الشمالى للمسجد يوجد ضريح ثانى دفن فيه الشيخ محمد حسن شمس الدين أحد ذرية الشيخ مرزوق وشيخ الطريقة الأحمدية المرازقة السابق ووالد الشيخ الحالى . وإلى جانب هذا الضريح من جهته الشرقية توجد مصطبة متسعة يصعد إليها بدرج واحد لعلها كانت معدة للنساء خاصة وأن لها باب خاص فى الركن الشمالى الشرقى .



زاوية زين الدين أبي المحاسن يوسف أو جامع القادرية

بقسم الخليفة بالقرافة الصغرى بالقاهرة

ينسب هذا الجامع إلى الشيخ الصالح المحقق الربانى شيخ مشايخ الإسلام زين الدين أبي المحاسن يوسف بن الشيخ شرف الدين بن الحسن بن عدى بن صخر بن مسافر بن إسماعيل بن موسى بن الحسن بن مروان بن الحسن بن مروان بن الحكم ابن أبي العاص ابن أمية وينتهى نسبه إلى معد بن عدنان .

ويعتبر الشيخ عدى بن صخر بن مسافر جد الشيخ زين الدين أبي المحاسن يوسف (فى بعض الروايات) من المؤسسين الأوائل لعقيدة اليزيدية[1]. واليزيدية طائفة من الأكراد يسكن أكثرهم الموصل وولاية أروان الروسية ومنهم من يسكن نواحى دمشق وبغداد وحلب ويقول أحمد تيمور فى وصف عقيدتهم «وهم من أغرب طوائف المبتدعة يدينون بعبادة الشيطان ويقولون بالتناسخ ، ولهم فى كتم نحلهم والاحتفاظ بأسرارهم مبالغة شديدة طوت أمرهم عن الناس زمنا ثم أتيح لبعض من خالطهم كشف القناع عن كثير من دخائلهم[2]

ويقول الشهرستانى[3]: اليزيدية أصحاب يزيد بن أنيسة ، فرقة من الأباضية ويعتبرهم

---

(١) أحمد تيمور : الرسالة اليزيدية ص ٢٣ (الطبعة الثانية القاهرة سنة ١٣٥٢) .

(٢) ملخص عقيدة اليزيدية كما جاءت فى الرسالة اليزيدية ص ٢٤ : القوم كتابان أحدهما اسمه الجلوة وهو يتضمن ما خاطب به البارى سبحانه وتعالى عباده والمقصود بهم اليزيدية وكلامه فى قدمه تعالى وبقائه وقدرته ووعده ووعيده . وذكر القول بتناسخ الأرواح وفيه أن الكتب التى بأيدى الخارجين أى أهل الأديان المعروفة ليست كما أنزلت بل بدلوافيها وحرفوا ء فما وافق منها سنن اليزيدية فهو المقبول وما غايرها فمن تبديلهم . والكتاب الثانى اسمه مصحف رش أى الكتاب الأسود وفيه حديث خلق السموات والأرض وفيها إرسال الشيخ عادى (أو عدى) بن مسافر من الشام إلى (لالش) وفى هذا الكتاب أيضاً شرائعهم وما أحل لهم وما حرم عليهم . وشرح أمر الطؤاف بسناجقهم (أى أعلامهم) فى البلدان والقرى لجمع الصدقات وزيارتهم لقبر الشيخ (عدى) .

(٣) الشهرستانى ج ١ ص ١٣٦ (تحقيق عبد العزيز محمد الوكيل) (مطبعة الحلبى سنة ١٣٨٧ هـ) .

الشهرستانى من طائفة الخوارج الوعيدية وهم القائلون بتكفير صاحب الكبيرة وتخليده فى النار . ويشرح الشهرستانى عقيدة اليزيدية فيقول : زعم يزيد أن الله تعالى سيبعث رسولا من العجم وينزل عليه كتابا قد كتب فى السماء ، وينزل عليه جملة واحدة ويترك شريعة المصطفى محمد عليه السلام ، ويكون على ملة الصائبة المذكورة فى القرآن ، وليست هى الصائبة الموجودة فى حران وواسط . وتولى يزيد من شهد لمحمد المصطفى عليه السلام من أهل الكتاب بالنبوة وإن لم يدخل فى دينه . وقال أصحاب الحدود من موافقيه وغيرهم كفار مشركون وكل ذنب صغير أو كبير فهو شرك . وقد تبرأ منه جل الأباضية .

أما عن تاريخ أسرة صاحب جامع القادرية الشيخ زين الدين يوسف بن عدى فيحدثنا المقريزى[1] وكذا السخاوى[2] وابن الزيات عنها بقولهم أن جامع القادرية كان يعرف فى الأصل باسم الزاوية العدوية بالقرافة الصغرى التى تنسب إلى العارف بالله عدى بن مسافر الهكارى العدوى المعروف فى الافاق . صحب عدة من المشايخ ثم انقطع فى جبل الهكارية من أعمال الموصل وبنى له هناك زاوية فمال إليه أهل تلك النواحى وظهر له مناقب ومآثر . فكثر أصحابه وتلاميذه ومريدوه وبقى هناك معززا مكرما محوطا بكثير من الجلال والمهابة من الحكام والولاة والأمراء حتى توفى هناك سنة سبع وخمسين وخمسمائة ، أى فى نهاية حكم الدولة الفاطمية فى مصروالشام .

ويكمل السخاوى[4] تاريخ ذرية الشيخ عدى بن مسافر فيقول : وتخلف من بعده (أى الشيخ عدى) أخوه صخر وتفرق أولاده فى البلاد وأقبل عليهم العباد فنزل منهم بالموصل الشيخ شمس الدين الحسن بن صخر بن مسافر ، الملقب بتاج العارفين أبى محمد شيخ الأكراد . وكان أبو محمد هذا من رجال العلم والأدب وصاحب فضل ورأى وكان واسع الحيلة والدهاء ، كثير الاتباع والمريدين الذين بالغوا فى احترامه وإطاعة أوامره

---

(١) الخطط ج ٢ ص ٤٣٥ (طبعة الحلبى (أوفست بولاق) .
(٢) تحفة الأحباب ص ١٩٠ .
(٣) الكواكب السيارة فى ترتيب الزيارة ص ١٨٦ .
(٤) تحفة الأحباب ص ١٩١ .

مما أوغر صدر صاحب الموصل بدر الدين لؤلؤ عليه فأمر بقتله سنة أربع وأربعين وستمائة ، أى فى نهاية عصر الدولة الأيوبية فى مصر والشام .

وكان الشيخ زين الدين أبو المحاسن يوسف ، صاحب الجامع والترجمة ، يقيم عنده عمه أبو البركات أبو محمد شيخ الأكراد ، بالمكان المعروف باسم (بلالش[1]) فى جبل الهكارية من أعمال الموصل ، فلما قتل بدر الدين لؤلؤ أبا البركات أبا هذه الذرية ، رحل زين الدين أبو المحاسن يوسف إلى بلاد الشام حيث أكرم أهل الشام وفادته وأحاطوه بمظاهر الإجلال والتعظيم وأنعم عليه واليها (بأمره) .

ويستطرد المقريزى فى سرد قصة زين الدين فى الشام فيقول : وترك زين الدين الأمرة وانقطع فى قرية فى الشام تعرف (ببيت فاز) وعاش على هيئة الملوك من اقتناء الخيول المسومة والمماليك والجوارى والملابس والغلمان وعمل الأسمطة الفاخرة . ولكن الشيخ زين الدين[2] خاف على نفسه مغبة هذا الترف والتفاف الناس حوله وكثرة مريديه حتى لايحدث له ما حدث لعمه بالموصل ، فترك ولده عز الدين هناك ورحل إلى القاهرة وأقام بها معززا مكرما وانقطع للعبادة فى زاويته التى عرفت فى وقته باسم الزاوية العدوية نسبة إلى جده عدى ولما توفى فى سنة سبع وتسعين وستمائة ودفن بها .

ويصف ابن الزيات[3] الشيخ زين الدين فيقول : تربة الشيخ زين الدين بن مسافر عظيمة حسنة البناء ذات قبة ، وكان هذا الشيخ من كبار السالكين المجتهدين له عبادات وسياحات حكى عنه أنه بينما هو مسافر ذات يوم فى بعض الطرقات وقد لحقه عطش شديد ، إذ رأى كوزا مملوءا ماء معلقا فى طاق والهواء يضربه ، فتاقت نفسه للشرب منه ، فجلس تحت

---

(١) تعتقد طائفة اليزيدية أن معبد (اللالش) أفضل من الكعبة وأنه لا فائدة من زيارتها لمن يقدر على زيارة اللالش . كما أنهم يسجدون للالش ولكل مكان شريف بزعمهم ، وخصوصا لمقام الشيخ عدى بن مسافر ، كما أنهم يعتبرون من لا يسجد له كافر (الرسالة اليزيدية ص ٢٧ لأحمد تيمور) .

(٢) هناك خلاف بين المقريزى والسخاوى ، فبينما يذكر المقريزى أن زين الدين بقى فى بلاد الشام وتمرد على السلطان الأشرف خليل ، نجد أن السخاوى يقول بمجئ زين الدين إلى القاهرة خوفا على نفسه وأن ابنه عز الدين هو الذى بقى ببلاد الشام وأنه هو الذى تمرد على السلطان الأشرف خليل .

(٣) ترتيب الزيارة ص ١٨٦ .

الطاق لعل أحدا من أهل المنزل يخرج فيطلب منه الكوز . فبينما هو جالس إذ أخذته سنة من نوم فرأى جورية عظيمة فقال لها ياسيدتى أنت لمن قالت لمن يخالف نفسه ويترك شهوة الماء المبرد فى الكوز ، فقال لها ما بقى لى حاجة فى ذلك فضربت الكوز بكمها فانكسر ، فاستيقظ على حس وقعة على الأرض . فحمد الله الذى عوضه عن تلك الشربة بتلك الحوراء ولهذا عرف بصاحب الحورية[1] .

على أن الشيخ زين الدين أبا المحاسن يوسف عند مغادرته بلاد الشام إلى القاهرة ترك ولده الشيخ عز الدين[2] بقرية (بيت فار) فتزعم الطائفة هناك . واتسعت عليه النعمة ، وافتتنت به زعيمة نساء الطائفة القيمرية وبالغت فى تعظيمه وبذلت له الأموال الكثيرة وصارت حاشيتها تلومها فيه فلا تصغى إلى قولهم بل تزداد فيه اعتقادا ، فاحتالوا حتى أوقفوها عليه وهو عاكف على المنكرات فما زادها ذلك إلا ضلالا ، وقالت أنتم تنكرون هذا عليه إنما الشيخ يتدلل على ربه .

وقد ذاع صيت الشيخ عز الدين وقويت شوكته لكثرة أتباعه ومريديه وازدياد ثروته التى كان يشترى بها أهل الجاه والسلطان والنفوذ ، الأمر الذى جعل كل من يتولى سلطنة مصر يرسل له رسولا لتحليفه على إطاعته وعدم الخروج عليه ، فقد حدث عندما تولى السلطان الأشرف خليل ابن قلاوون ، أن أتاه الأمير الكبير علم الدين سنجر الدوادار ومعه الشهاب محمود لتحليفه فى أول دولة الأشرف خليل ، فى قريته (بيت فار) ، فإذا هو كالملك فى قلعته للتجمل الظاهر والحشمة الزائدة والفرش الأطلس وآنية الذهب والفضة والنضار (الخزف) الصينى وأشياء تفوت العد ، إلى غير ذلك من الأشربة المختلفة الألوان والأطعمة المنوعة .

ويضيف المقريزى[3] فيقول : فلما دخلا عليه لم يحتفل بهما وقبّل الأمير سنجر يده وهو جالس لم يقم بل بقى قائما قدامه يحدثه وعز الدين يسأله ساعة ثم أمره أن يجلس

(١) ومن المرجح أن يكون الشيخ زين الدين يوسف قد تاب وعاد إلى الملة الإسلامية وشريعة محمد عندما حضر إلى القاهرة ومن ثم ظهرت كراماته التى استوجبت بناء هذه القبة العظيمة له .

(٢) تحفة الأحباب ص ١٩٢ .

(٣) الخطط ج ص ٤٣٥ ، ٤٣٦ .

فجلس على ركبتيه متأدبا بين يديه . فلما حلفاه أنعم عليهما بما يقارب الخمسة عشر ألف درهم .

وقد أنعم السلطان بعد ذلك على الشيخ عز الدين بإمرة دمشق ، ثم انتقل إلى إمرة بصفد ثم أعيد إلى دمشق . ثم ترك الإمرة وانقطع لمشيخة طائفته وتردد عليه جماعة الأكراد من كل قطر وحملوا إليه الأموال ثم أنه أراد الخروج على السلطان بمن معه من الأكراد واشتروا العدد والسلاح والخيول . ووعد رجاله بنيابات البلاد ونزل بأرض اللجون ، فبلغ ذلك السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون ، فكتب إلى الأمير (تنكز) نائب الشام فكشف أخبارهم وقبض عليهم وسجن عز الدين وذلك سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة ، وبقى فى سجنه إلى أن مات وتفرقت الأكراد . وقد أمر السلطان الناصر محمد بالقبض على من بالزاوية العدوية بالقاهرة من فقراء العدوية من الأكراد وغيرهم وبذا انتهت سيرتهم بمصر .

ويذكر المقريزى[1] السبب فى خروج عز الدين على السلطان فيقول : ولو لم يتدارك أمر عز الدين واتباعه لأوشك أن يكون لهم نوبة . ويفصل السخاوى[2] هذه الأسباب فيقول : واختلفت الأخبار فى خروجهم فقيل يريدون سلطنة مصر وقيل يريدون اليمن وحصل للسلطان من ذلك قلق عظيم حتى جاءه الخبر بأن الأمير (تنكز) نائب الشام قبض على عز الدين المذكور وسجنه . ويضيف السخاوى فيقول : وتفرقت الأكراد بعد هذه الوقعة التى حدثت بعد موت الشيخ زين الدين يوسف المدفون بهذه التربة بأربعين سنة .

* * *

(١) الخطط ج ٢ ص ٤٣٦ .
(٢) تحفة الأحباب ص ١٩٢ .

وصف الجامع

يقع هذا الجامع بشارع القادرية بالقرافة الصغرى ، وقد أسماه المقريزى الزاوية العدوية ويسميه العامة جامع سيد على بالتصغير وأصله عدى فابدلت الدال لاما . أما على مبارك فيسميه بجامع القادرية وهو اسمه الحالى نسبة لسكنى جماعة من ذرية سيدى عبد القادر الجيلانى بها وتوليهم شئونها والنظر على أوقافها .

ولم تزل زاوية أو قبة الشيخ زين الدين يوسف التى عرفت فيما بعد بجامع القادرية باقية إلى الآن خارج باب القرافة عن يمين السالك فى شارع القادرية المسمى الجامع باسمه والموصل إلى قرافة الامام الشافعى (القرافة الصغرى) رضى الله عنه .

والمبنى الموجود حاليا والذى يحوى قبر الشيخ زين الدين يوسف ، من الناحية المعمارية ليس بزاوية ولا جامع بل هو فى الحقيقة تخطيط مدرسة ذات أربعة ايوانات ولعله قد أطلق عليها اسم الزاوية تجاوزا . ذلك أن الشيخ زين الدين كان قد انزوى فيها منذ حضوره إلى القاهرة فلما مات بنيت المدرسة مجاورة للقبة التى دفن بها ثم أطلق الجزء على الكل ، فعرفت بالزاوية .

وتتكون المدرسة من مستطيل تبلغ مساحته ٢٦٫٠٥ مترا طولا فى ١٦٫٥٢ مترا عرضا ، يتوسطه صحن مكشوف تبلغ مساحته ١٠ متر فى ٥٫٥٣ متراً تحيط به أربعة ايوانات من جهاته الأربع ويحيط بالمدرسة سور قصير الارتفاع كان يضم مجموعة من المبانى كانت تقع فى الجهة الشرقية مثل المصلى والمئذنة وغرف وخلاو ملحقة بها ، زالت الآن ولم يبق منها غير باب قديم بقى منفصلا عن البناء مطلا على شارع القادرية[1]. وبأعلى هذا الباب يوجد لوح من الرخام حفر عليه نسب الشيخ زين الدين يوسف صاحب الزاوية ، وإن كان به بعض اختلاف فى الأسماء القديمة ، إذ يرجع نسبه إلى مروان ثم إلى يزيد بن معاوية . كما يوجد به اختلاف فى تاريخ الوفاة بيوم واحد ، إذ كتب على اللوح أنه توفى يوم الاثنين رابع عشر

---

(١) الرسالة اليزيدية ص ٤٥ .

بدلا من ثالث عشر من شهر ربيع الأول سنة ٦٩٧ هـ . كما جاء فى هذه الكتابة ، أن هذا الباب وما كان متصلا به من الأماكن زيادات حديثة أضيفت إلى الزاوية بعد بنائها وهى الميضأة والبئر وبيوت الخلاء والمصلى والمئذنة حدثت سنة ٧٣٦ هـ .

ويقع المدخل الرئيسى للمدرسة فى النهاية الشمالية للضلع الشرقى يبلغ اتساعه (١ر٣٠) متر ويعلوه عقد عميق ينتهى بطاقية مخوضة تقوم على دلايات غاية فى الدقة والإبداع . وعلى جانبى المدخل توجد مكسلتان ، ثم يتأتى باب يؤدى إلى الدرقاعة مربعة طول ضلعها ٢ر٨٥ متراً فى صدرها جلسة مرتفعة للمقرئ أو للحارس . وفى أعلى الباب الداخلى للمدخل الرئيسى يوجد لوح من الرخام كتب عليه بالحفر الغائر ما نصه[1] :

أنشأ هذه القبة المباركة على ضريح السيد الإمام ، العالم العارف المحقق ، إمام الموحدين تاج العارفين زين العابدين أبى الشمائل الشيخ زين الدين يوسف ابن السيد الإمام العالم العارف القدوة شرف الإسلام غوث الأنام الشيخ شرف الدين محمد بن السيد الامام العارف شيخ الحقيقة ناصر السنة قامع البدعة أبى محمد شمس الدين الشيخ حسن بن السيد الامام العالم العارف علم الأبرار غوث العباد تاج الزهاد شيخ شيوخ الاسلام أبى الحسن شرف الدين عدى بن السيد الامام العالم العارف الشيخ أبى البركات بن صخر بن مسافر بن اسماعيل ابن موسى بن مروان بن الحكم الأموى القرشى قدس الله روحه ونور ضريحه . وكان انتقاله إلى دار الخلود وجوار الملك الودود فى ثانى ساعة من نهار يوم الاثنين ثالث عشر ربيع الأول سنة سبع وتسعين وستمائة . ومما أنشده فى حال عبوره :

ذنوبى غـزار لا أطيق لحصرها وعفوك يامولاى أوفى وأزيـد

وما هى ذنوبى أن أخاف وأنت لى إلـه ولى يوم الشفاعـة أحمد

وكان فراغ القبة فى شهر شوال سنة سبع وتسعين وستمائة .

ويلى الدر قاعة ، حجرة مربعة تقريبا تبلغ مساحتها ٢ر٤٣ × ٢ر٦٠ متراً تؤدى إلى الايوان الشمالى للمدرسة وإلى الصحن. وفى الضلع الجنوبى للصحن يوجد ايوان القبلة وهو أكبر الايوانات وأوسعها ، ويشغل الجزء الشرقى منه قبر يقال إنه قبر السيد محمد الواقف ،

---

(١) قرأ النص يوسف أحمد .

لقب بذلك لوقفه أوقافا على الزاوية[1]. أما السخاوى[2] فيقول إن صاحب هذا القبر هو الشيخ بهاء الدين أبو الفتح محمد بن أحمد العدوى أحد خلفاء الشيخ زين الدين يوسف توفى فى الثالث عشر من ربيع الأول سنة سبع وثلاثين وسبعمائة .

ويشغل الجانب الغربى من ايوان القبلة ضريح الشيخ زين الدين يوسف وهو عبارة عن حجرة مربعة يبلغ طول ضلعها (١٩ر٥) متراً يعلوه قبة مفصصة تقوم على رقبة مرتفعة بها ست عشرة نافذة للإضاءة وفوق النوافذ شريط عريض به كتابات قرآنية بالخط الثلث المملوكى من الداخل والخارج . ويحيط بباب هذه القبة من الخارج فى وجهته وعضادتيه إطار من الرخام محفور عليه كتابات قرآنية وفى جانبيه تحت العتب عن يمين الداخل كتب « لا إله إلا الله محمد رسول الله » « لا إله إلا الله سيدى عدوى ولى الله » وعن يساره « سيدى عدى الوسيلة إلى الله وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم) . وفوق هذا الباب لوح حفر فيه « بسم الله الرحمن الرحيم والسابقون السابقون أولئك المقربون فى جنات النعيم » هذا مقام السيد الإمام القدوة شيخ شيوخ الإسلام شيخ الطريقة ومقدمة الحقيقة فريد عصره شرفت بأقدامه مصر أوحد شيوخ المسلمين . زين الدين يوسف بن الشيخ محمد بن الحسن ابن الشيخ عدى بن أبو البركات بن صخر بن مسافر الأموى نفع الله ببركاته المسلمين وذلك فى ربيع الأول سنة خمس وعشرين وسبعمائة[3] .

وبوسط الحجرة تابوت خشبى مطعم بالصدف والعاج نقش عليه كتابات تبين نسب الشيخ زين الدين وتاريخ وفاته ، احترق فى الحريق الذى وقع بالقبة سنة ١٣٢٥ هـ

وفى الضلع الغربى للصحن يوجد الايوان الغربى وبه قبران قيل إن أحدهما قبر الشيخ حسنين الغمرى والثانى قديم عليه تابوت خشبى نقش عليه اسم صاحبه وهو أحد القادرية ونص الكتابة كما يلى :

توفا (توفى) العبد الفقير إلى الله تعالى السيد محمد بن الشيخ على بن حسين بن شمس الدين محمد بن الشيخ حسام الدين شرشيق بن الشيخ عبد العزيز بن السيد الحسيب النسيب

(١) أحمد تيمور ص ٤٨ .
(٢) تحفة الأحباب ص ١٩٣ .
(٣) هو تاريخ عمارة القبة .

الفرد الحاج محي الدين عبد القادر الكيلانى الحسنى توفا (توفى) ليلة السبت سنة أربع وأربعين وثمانمائة .

ويحتوى الايوان الشرقى على قبرين ، أحدهما قبر الشيخ على القشلان ، أما الايوان الشمالى فليس به دفن ، ويحيط بالايوانات الأربعة على ارتفاع قامة الانسان شريط من الكتابة الجصية البارزة على أرضية مورقة غاية فى الإبداع . وتحتوى الكتابة على سورة يس ، غير أنها ليست تامة .

* * *

وصف الزاوية

أما نسبة الزاوية إلى جماعة القادرية فيرجع إلى أن جماعة القادرية الذين نزحوا إلى مصر ونزلوا بهذه الزاوية وتولوا شئونها والنظر على أوقافها كان من عاداتهم دفن موتاهم فيها . ويعتقد أحمد تيمور أن القبور الكثيرة الموجودة بالايوانات ليست إلا من بقايا قبورهم ، ولكنها جهلت بذهاب ما كان مكتوبا عليها أو باشتهارها بمن دفن من غيرهم فيها .

ولم يبق من قبورهم معروفا إلا قبر واحد ، وهو أحد القبرين اللذين بالايوان الغربى السابق الإشارة إليه . وقد ورد تراجم القادرية ممن دفنوا فى زاوية الشيخ زين الدين يوسف فى الضوء اللامع وهم :

أولا — محمد بن على بن حسين بن محمد بن الأكحل بن شرشيق القادرى ، قال إنه توفى بالطاعون سنة ٨٤٠ هـ ودفن بزاوية عدى بن مسافر بالقرب من باب القرافة .

ويعلق أحمد تيمور على ذلك فيقول : ويظهر من اسمه ونسبه أنه صاحب القبر الباقى معروفا من قبورهم بالايوان الغربى لولا الاختلاف فى سنة الوفاة بين سنة ٨٤٠ ، ٨٤٤ .

وقد جاء فى الدرر الكامنة للحافظ ابن حجر ترجمة جده محمد بن شرشيق ، أنه ولد سنة إحدى وخمسين وستمائة ، وحدث بدمشق وبغدادو (بالجاء المهملة والياء آخر الحروف بلدة بسنجار) توفى سنة تسع وثلاثين وسبعمائة . ويعلق أحمد تيمور على ابن حجر فيقول : ولم يذكر أنه قدم إلى مصر فالظاهر أن أول القادمين إليها أحد أولاده أو حفدته . ثم يضيف الحافظ فيقول : وأولاده الحسام عبد العزيز والبدر حسن والعز حسين والظهير أحمد ولكنه لم يترجم لأحد منهم . كذلك قال ابن تغرى بردى فى كتابه المنهل الصافى أن له أولادا آخرين .

ثانيا — ابنه موسى بن محمد بن على بن حسين بن محمد بن شرشيق ، قال إنه توفى بالطاعون سنة إحدى وأربعين وثمانمائة بعد أبيه بيسير جداً) ودفن بزاوية عدى بن مسافر بالقرب من باب القرافة .

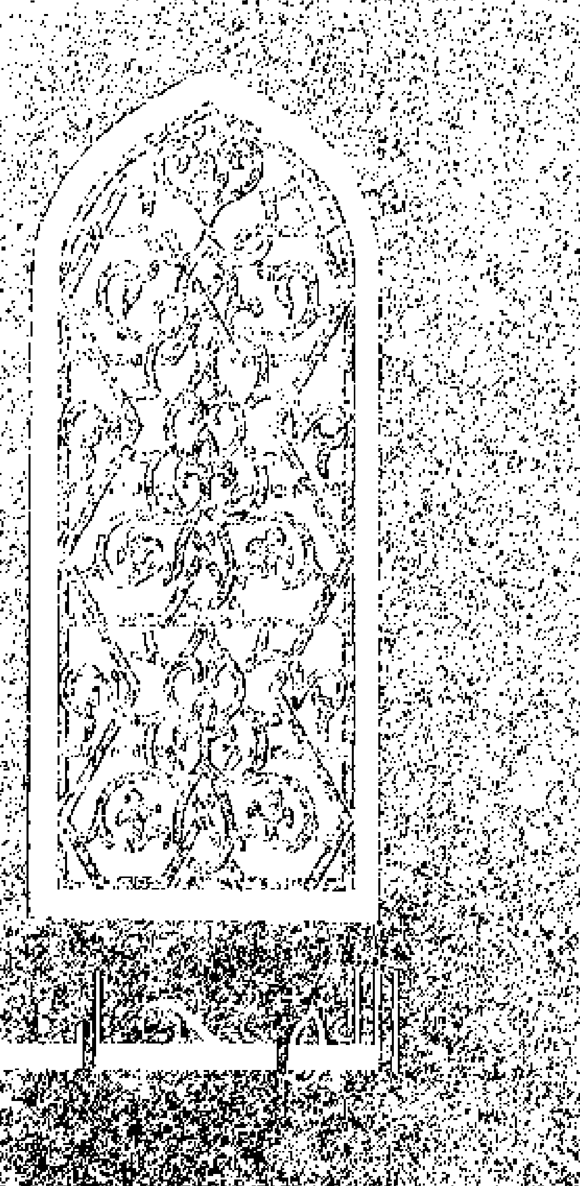
ثالثا – ابن الأخير زين العابدين محمد بن موسى بن محمد بن على شيخ الطائفة القادرية قال إنه مات سنة خمس وخمسين وثمانمائة بعد تعلل مدة طويلة وصلى عليه بمصلى المؤمنين فى محفل شهده أمير المؤمنين لصداقة كانت بينهما ، ثم رجعوا به إلى زاوية عدى ابن مسافر محل سكناه من باب القرافة فدفن عند أبيه وجده . وذكر بعده أخاه شمس الدين محمد بن موسى بن محمد ، وقال إنه استقر بعده شيخا شركة لابن عمهما ومات سنة ثمان وثمانين وثمانمائة ، ولكنه لم يذكر أنه دفن معهم بهذه الزاوية .

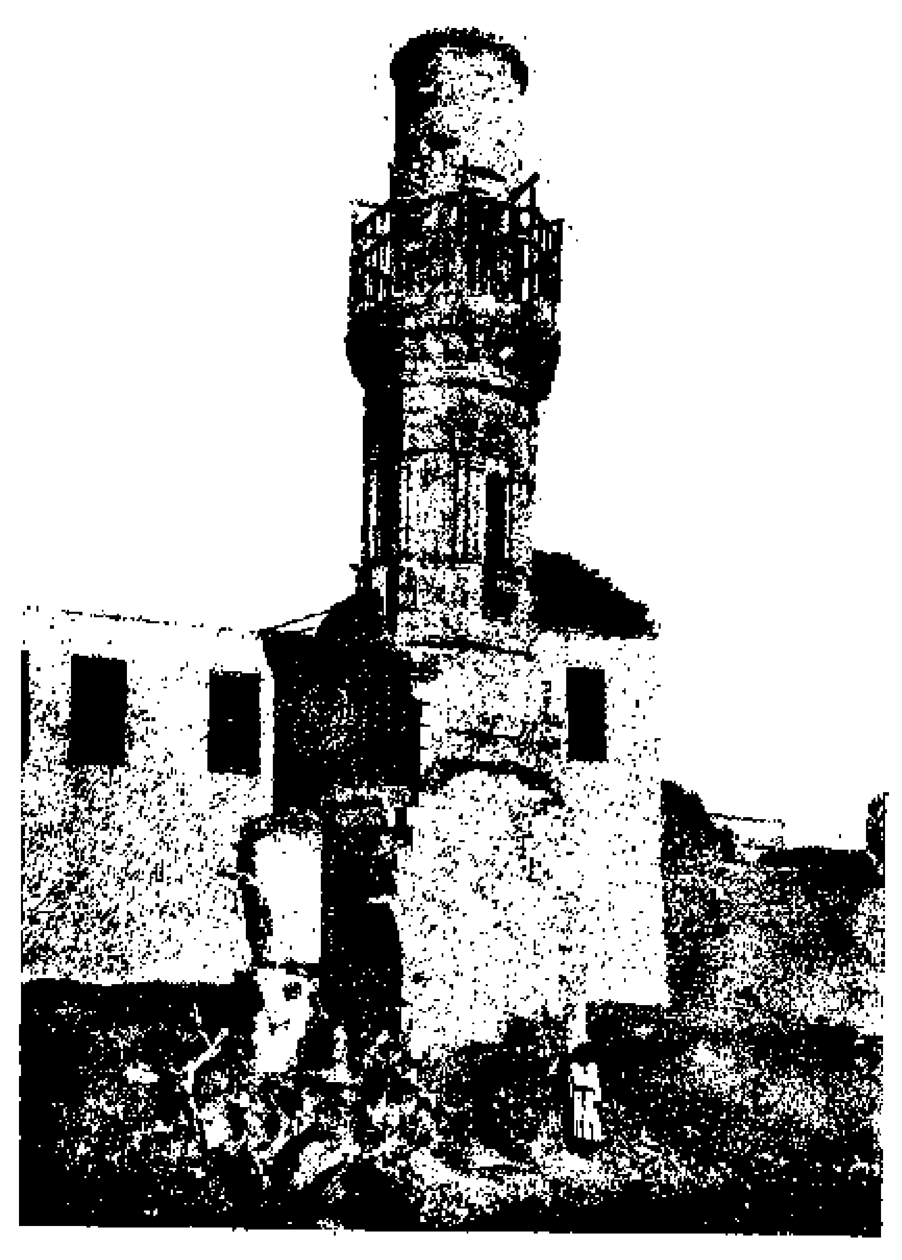
رابعا – حسن بن محمد بن عبد القادر بن على بن محمد الأكحل بن شرشيق القادرى الذى جاء فى ترجمته : كان أسن الجماعة المقيمين بهذهالزاوية توفى سنة سبع وستين وثمانمائة ودفن بها .

خامسا – أخوه على بن محمد بن عبد القادر شيخ القادرية ، قال إنه توفى سنة ثلاث وخمسين وثمانمائة ودفن بمحل سكنه بالتربة المعروفة بعدى بن مسافر من القرافة الصغرى .

سادسا – ابن منذر عبد القادر بن على بن محمد بن عبد القادر بن على بن محمد ابن شرشيق محل سكن ابن عمه من القرافة .

وقد بقى نظر هذه الزاوية بين أفراد هذه السلالة إلى عهد قريب حتى شرعت لجنة حفظ الآثار العربية فى ترميمها بعد الحريق الذى وقع بالقبة ، فتحولت نظارتها إلى ديوان الأوقاف. أما الآن فإنه يوجد بالزاوية عجوز من الصالحات تزعم أنها من بقايا هؤلاء القادرين. وهى تقوم بخدمتها وتنظيفها هى وابنها ، وهو المقيد بهذه الخدمة فى ديوان الأوقاف ويسكنان فى دويثرة ملحقة بالزاوية .

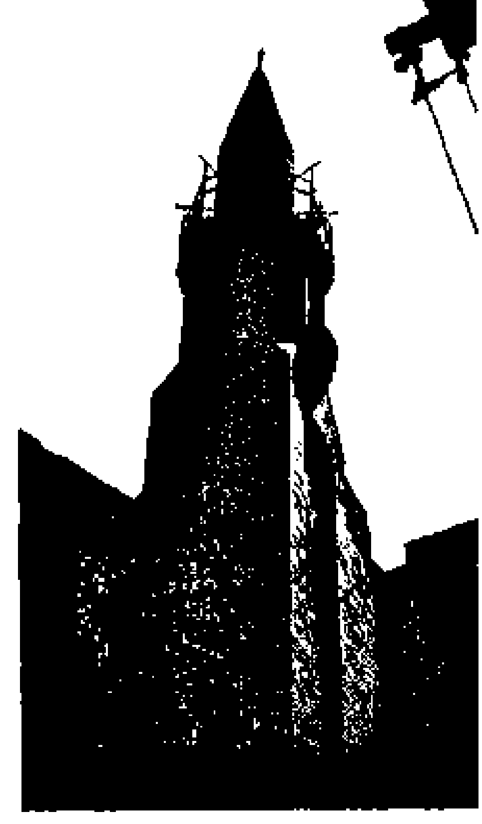




لوحة (١) جامع السادات مدينة بلبيس بالشرقية



لوحة (٢) الواجهة الغربية لجامع « محمد بن أبي بكر الصديق » عصر الخدمة



لوحة (٢) المدخل الرئيسي لجامع « محمد بن أبي بكر الصديق »

لوحة (٤) محراب « محمد بن أبي بكر الصديق » .





لوحة (٥) المقصورة الخشبية حول مقام « محمد بن أبي بكر الصديق » .

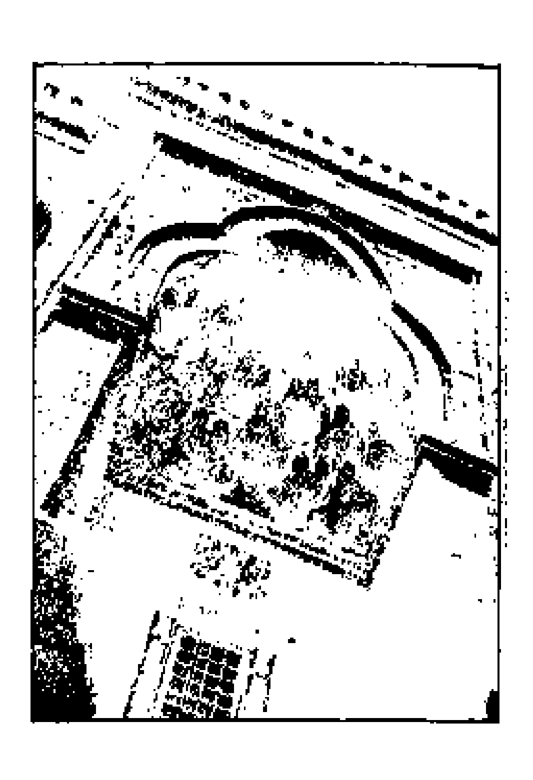


لوحة (٦) الواجهة الغربية التي يتخللها الحنايا والنوافذ المعقودة بمسجد « محمد بن أبي بكر الصديق »



لوحة (٧) المدخل الرئيسي لجامع « محمد بن أبي بكر » الذي يعلوه عقد ذو ثلاثة فصوص مليء بالمقرنصات الذكوية

لوحة (٨) مدخل المقرنصات الى تعلو المدخل الرئيسى لجامع « محمد بن أبي بكر الصديق »

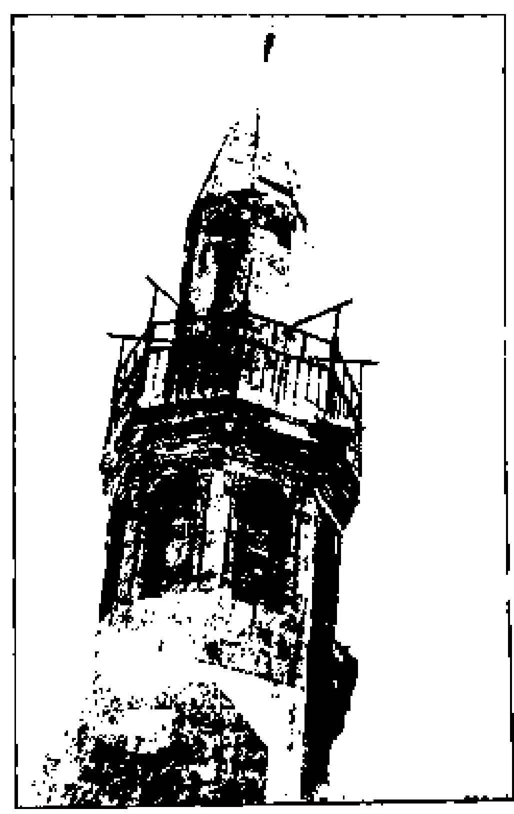




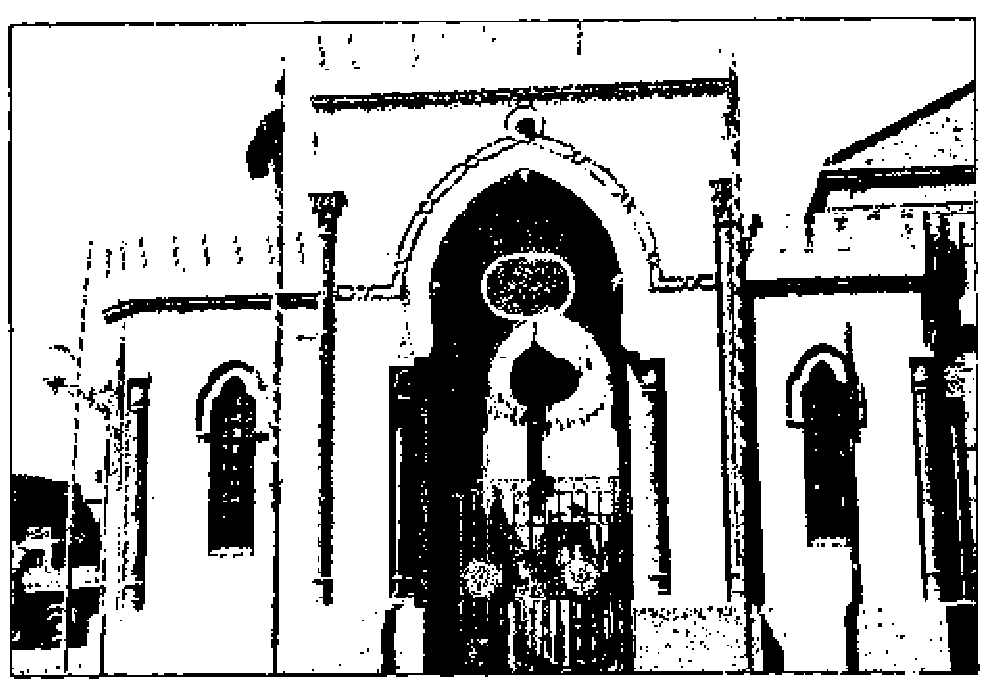
لوحة (٩) الواجهة الرئيسية لجامع « محمد بن أبي بكر » وقد ظهر فى الجزء الشرقى منها الكتاب الملحق بها



لوحة (١٠) مئذنة جامع « محمد بن أبي بكر » المجاور المدخل الرئيسي



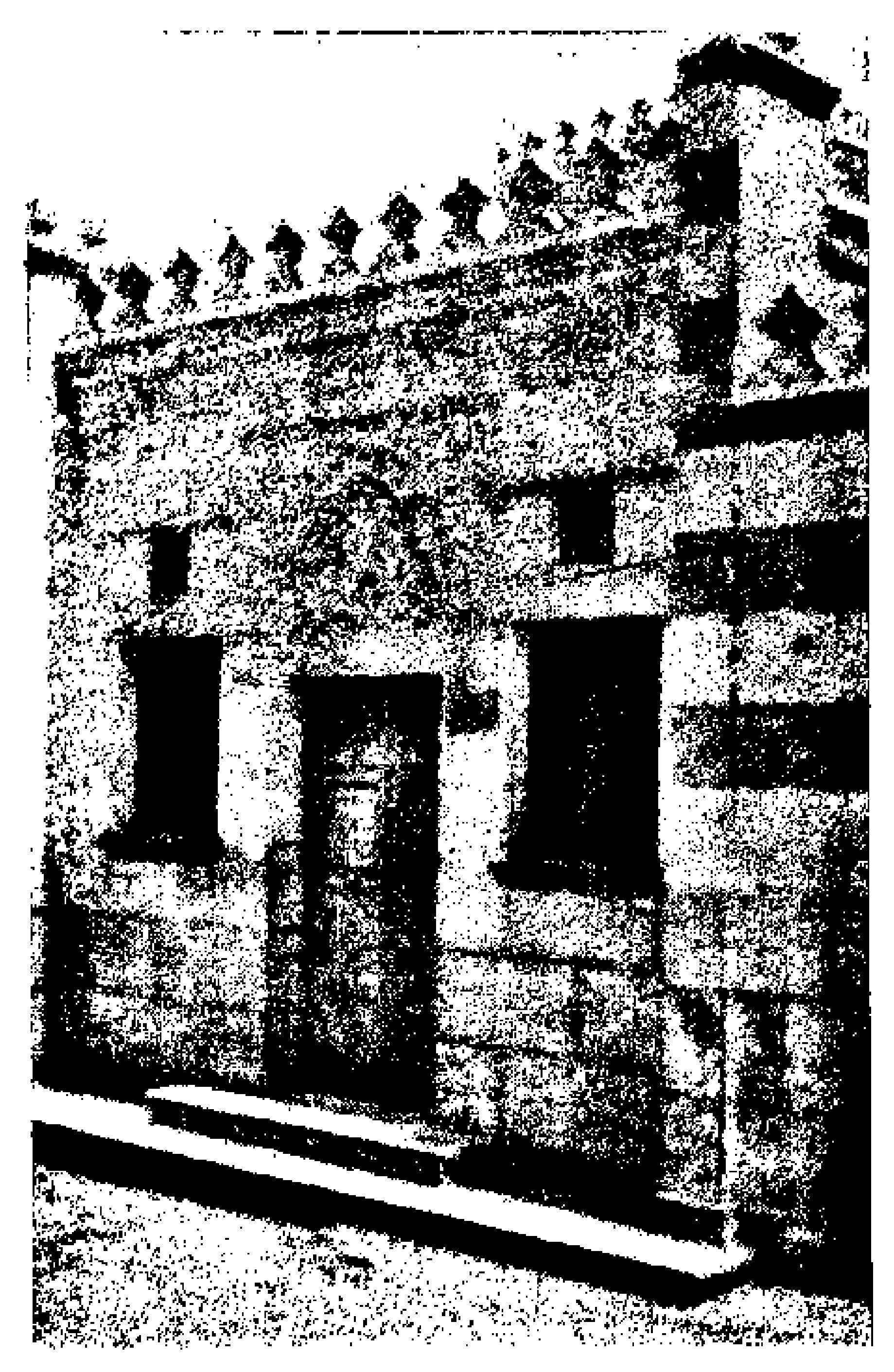
لوحة (١١) تفصيل لمئذنة جامع « محمد بن أبي بكر » ويظهر منها الطابق الثالث الذي أضيف في العصر العثماني



لوحة (١٢) الواجهة الغربية لضريح أبي الدرداء بالإسكندرية

لوحة (١٣) الواجهة الغربية لمسجد مسلمة بن مخلد بمصر القديمة

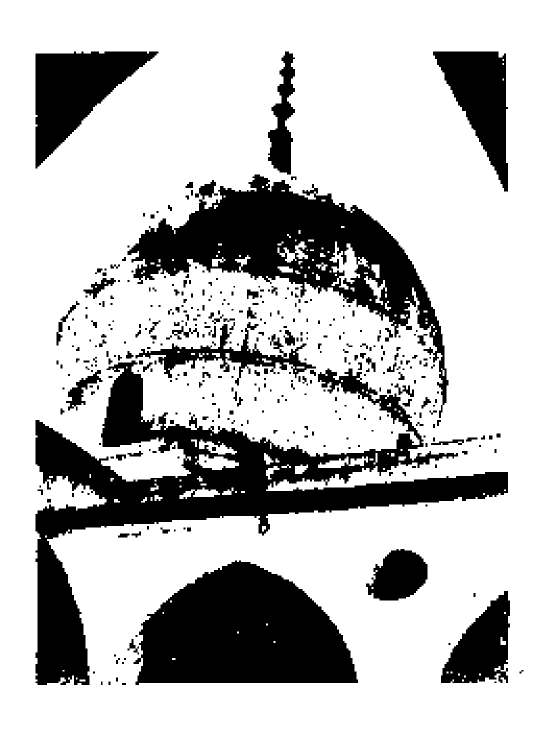




لوحة (١٤) المدخل الرئيسي لمسجد مسلمة بن عبد ويكتنفه نافذتان

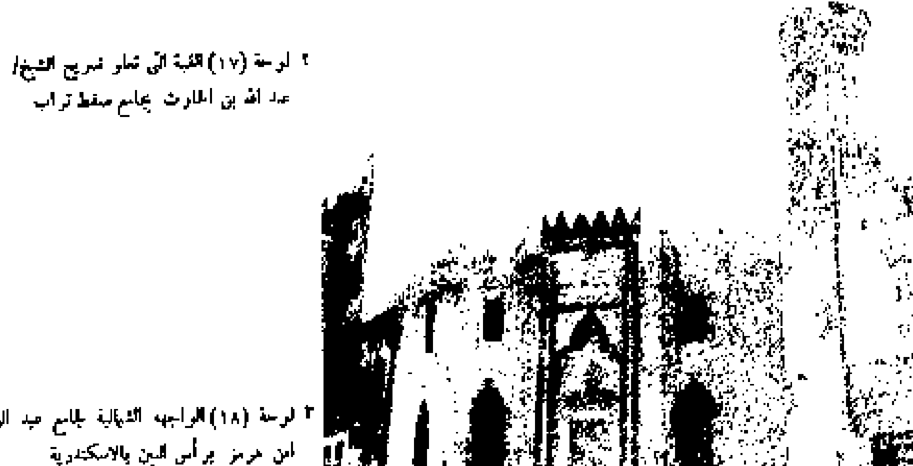


لوحة (١٥) الواجهة الرئيسية لجامع سنقر تراب بالمحلة الكبرى



١ لوحة (١٦) مئذنة جامع صفط تراب بالمحلة الكبرى

٢ لوحة (١٧) القبة التي تعلو ضريح الشيخ/ عبد الله بن الحارث بجامع صفط تراب



٣ لوحة (١٨) الواجهة الشمالية لجامع عبد الرحمن ابن هرمز برأس التين بالاسكندرية



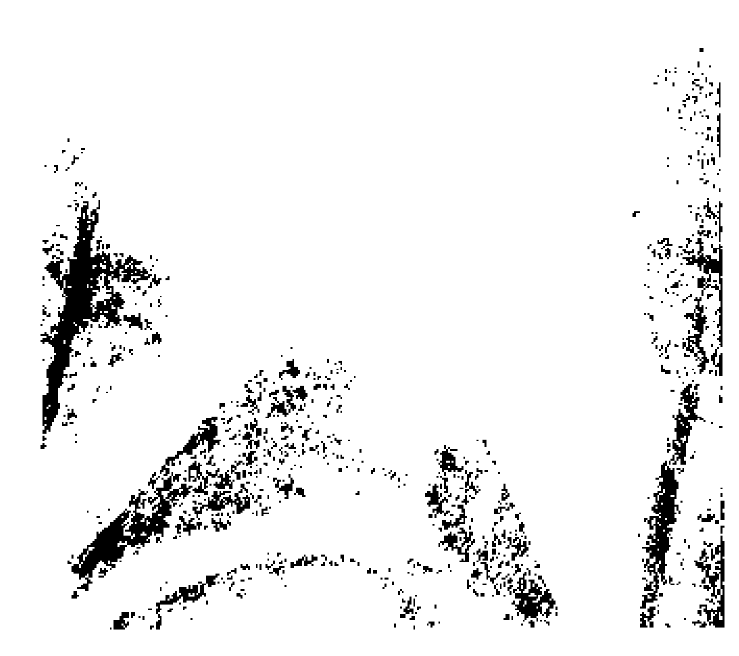
لوحة (١٩) مسجد السادات المالكية بقرافة السيدة نفيسة



لوحة (٢٠) المدخل الرئيسي لمسجد السادات المالكية



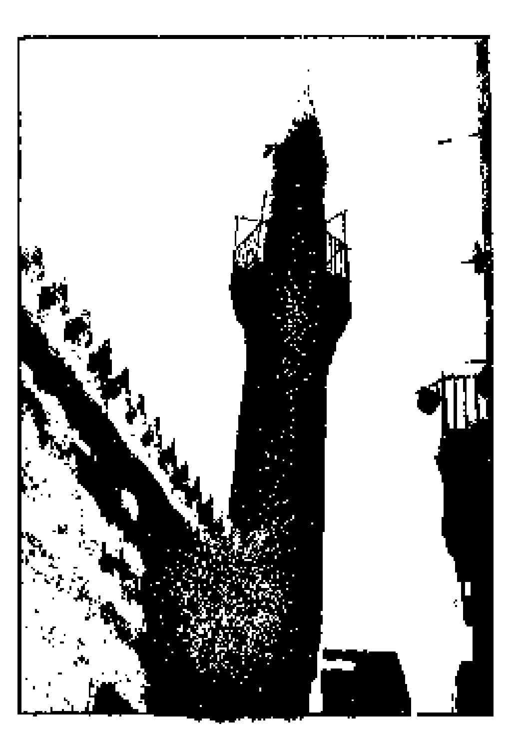
لوحة (٢١) تفصيل العقد ذي الفتحة
تعلوه التي يسار المدخل الرئيسي
لمسجد السادات المالكية



لوحة (٢٢) سقف ايوان مسجد السادات
المالكية وهو مكون من أقباء متقاطعة



الرسم (٢٣): مئذنة مسجد السادات المالكية

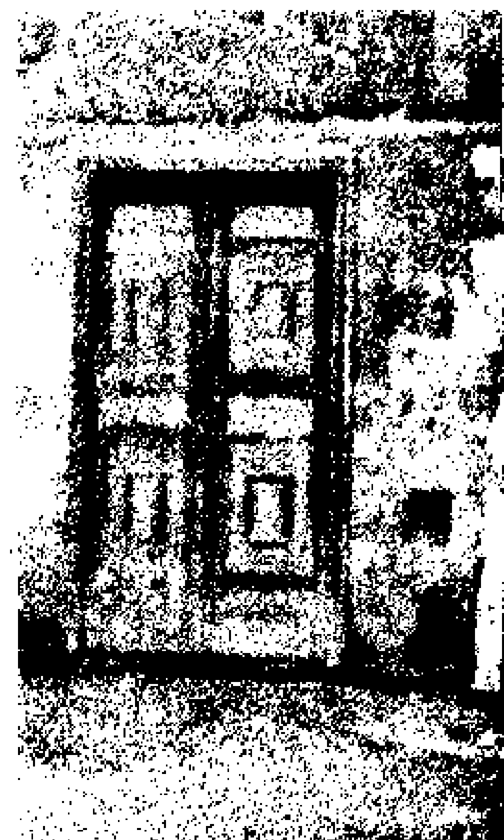


لوحة (٢٤) مسجد سابي البحر بمصر القديمة



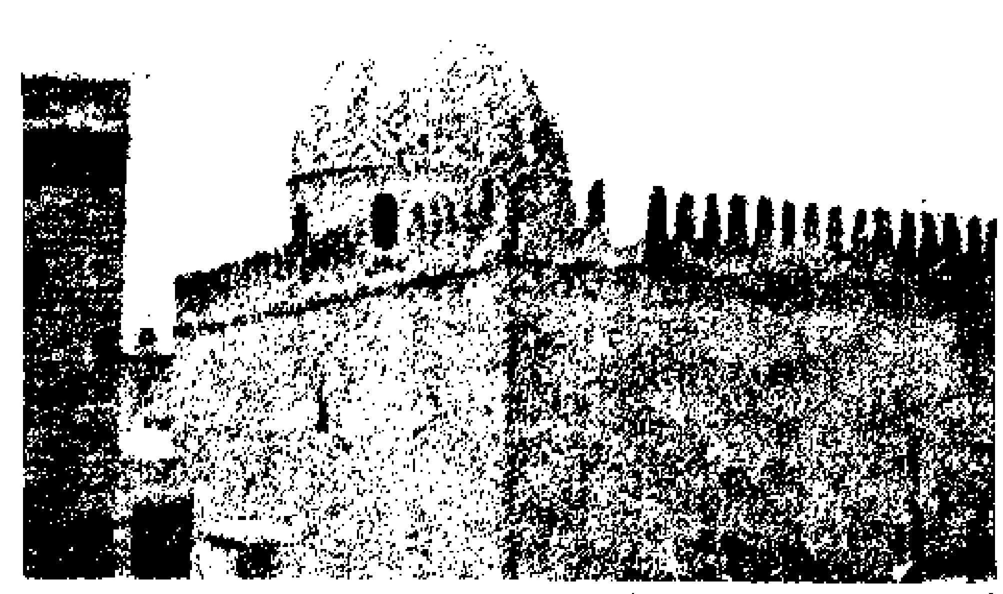
لوحة (٢٥) مسجد وضريح سيدي مدارجي الأزهر

لوحة (٢٦) المدخل الرئيسي لضريح سيدي معاذ

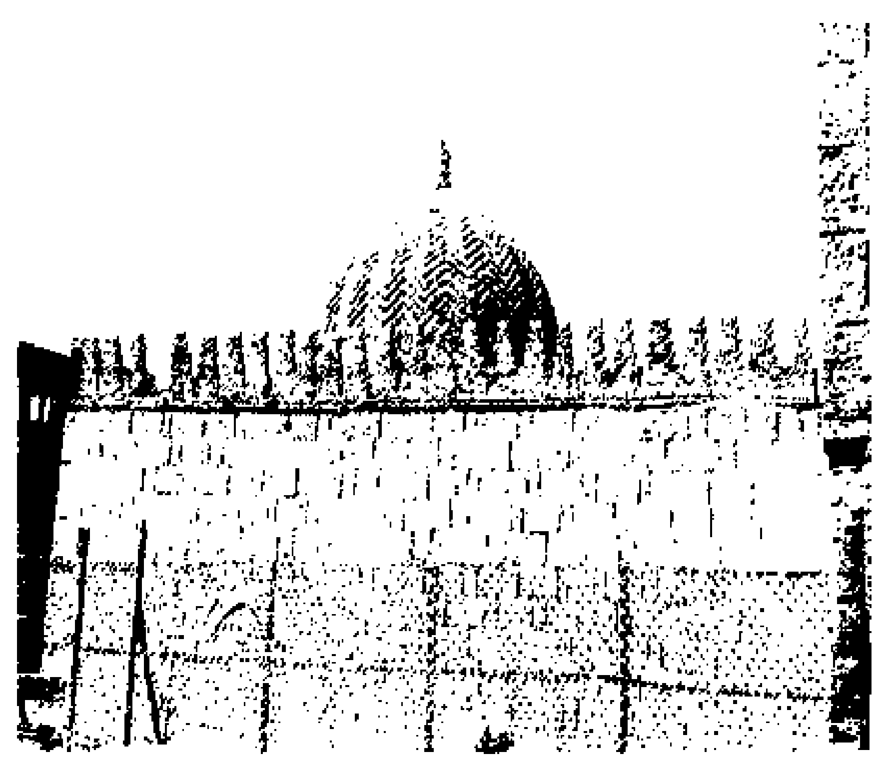




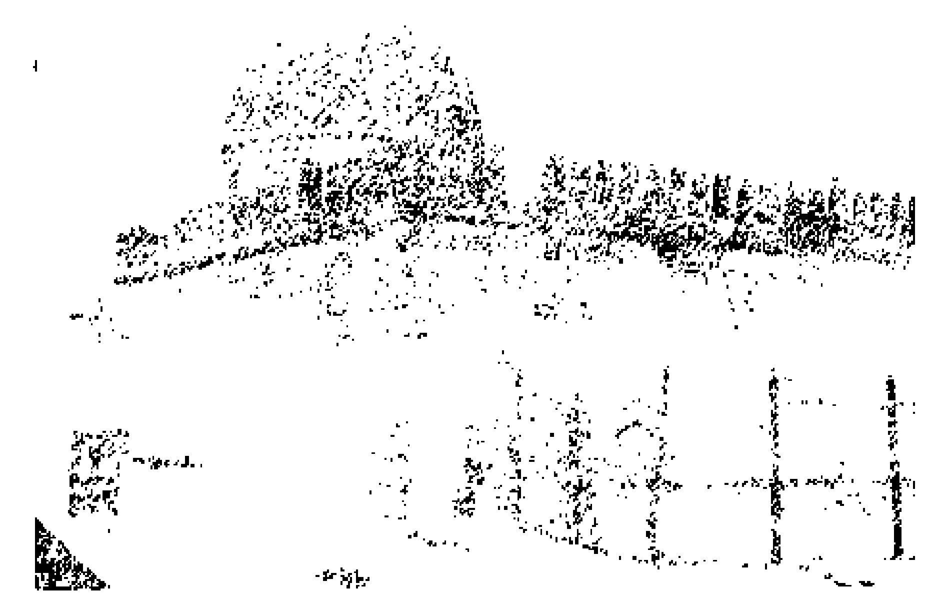
لوحة (٢٧) قبة ومئذنة سيدي معاذ



لوحة (٢٨) ضريح الشيخ الطحاوى بقرافة الامام الشافعي



لوحة (٢٩) الواجهة الشمالية بضريح الشيخ الطحاوى



لوحة (٢٠) الدعامات الممتدة التي
تظهر سور ضريح الشيخ الطماوي.



لوحة (٢١) قبة الشيخ الطماوي.

لوحة (٣٢) المدخل الرئيسى بضريح الشيخ الطحاوى



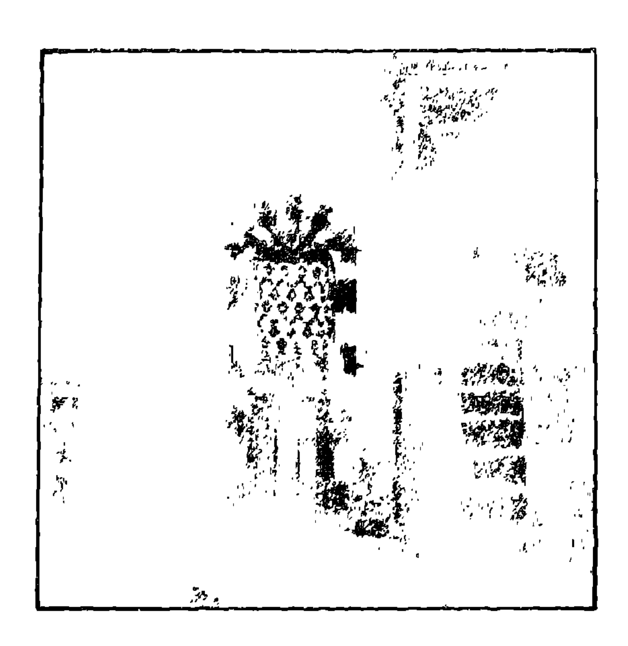
لوحة (٣٣) منطقة الانتقال لقبة الشيخ الطحاوى من الداخل



لوحة (٢٤) سقف المسجد الطحاوي من الداخل



لوحة (٢٥) مئذنة ضريح المسجد الطحاوي



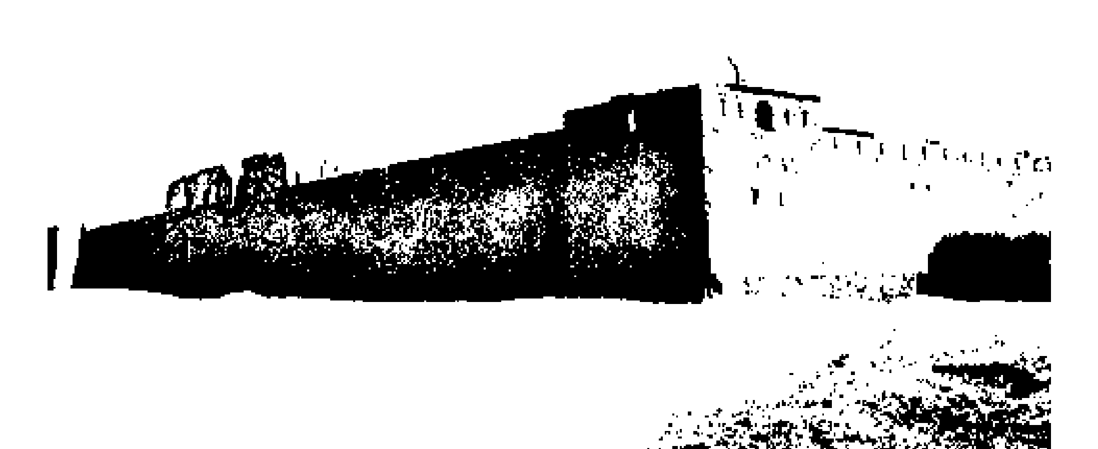
لوحه (٣٦) مسجد علي الخودري من الداخل

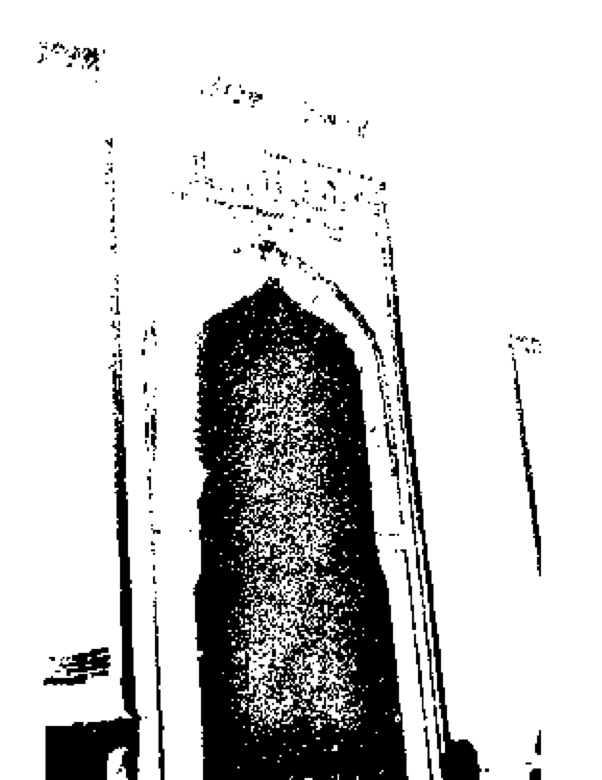


لوحة (٣٧) مسجد العجمي بدير الطين بمصر القديمة

لوحة (٢٨) جامع الأباريق بجبل الروضة

لوحة (٢٩) جامع الرصد على جبل اسطبل عنتر بمصر القديمة



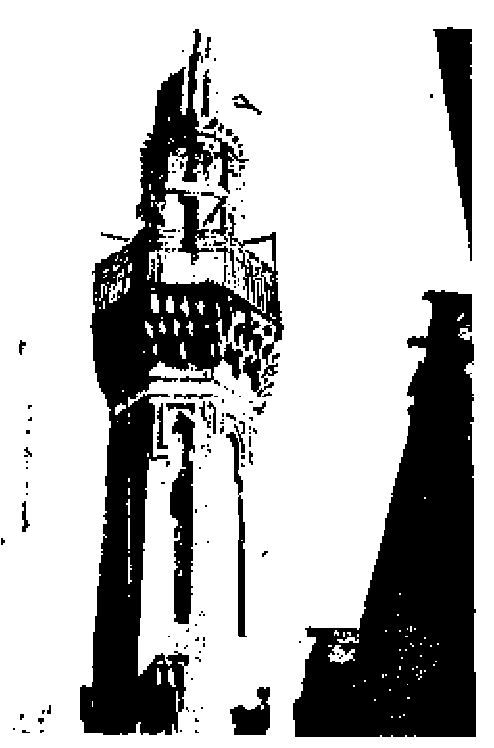


لوحة (٤٠) جامع المتولي بالمحلة الكبرى

لوحة (٤١) صحن جامع المتولي من الداخل

لوحة (٤٢) أروقة جامع المتول





لوحة (٤٣) مئذنة جامع المتول

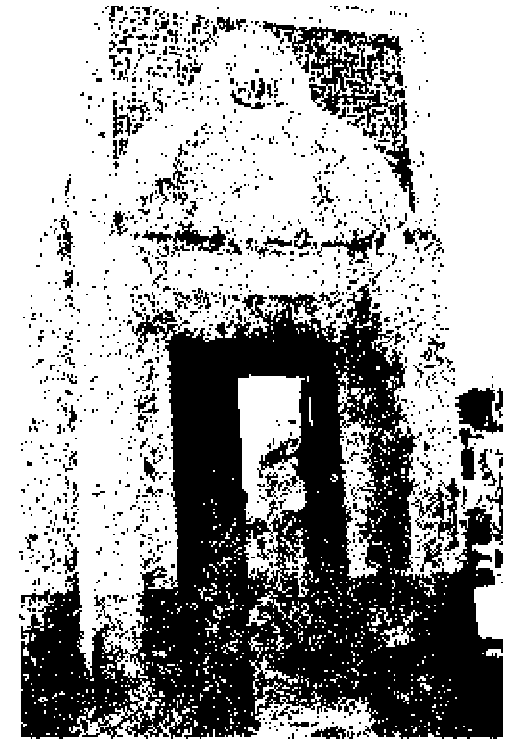


لوحة ([illegible]) المدخل الرئيسي [illegible] بالقرية الأثرية



لوحة ([illegible]) [illegible]

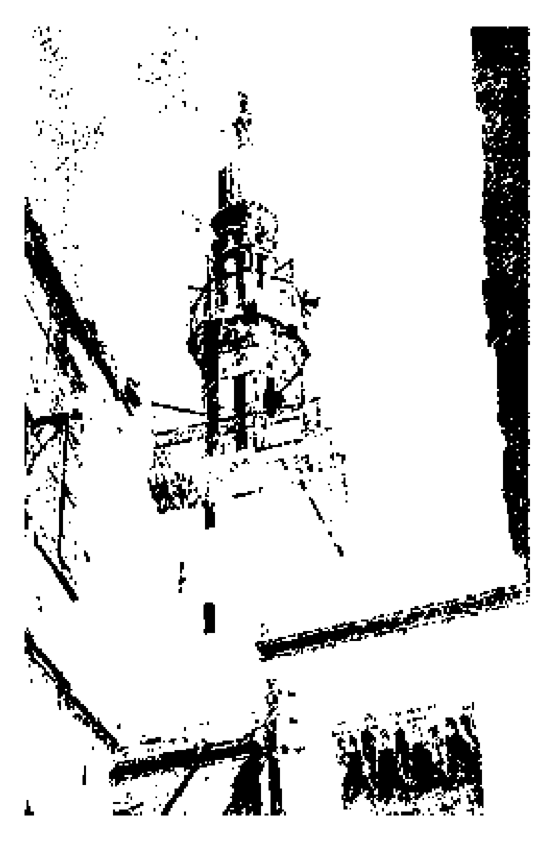
لوحة (١٦) صحن جامع العمري بالمحلة الكبرى



لوحة (١٧) المدخل الشمالي لجامع العمري بالمحلة الكبرى



لوحة (٤٨) مئذنة الجامع العمري بالمحلة الكبرى





لوحة (٤٩) قبتا السيدة عاتكة وسيدى جعفر بمشهد السيدة رقية

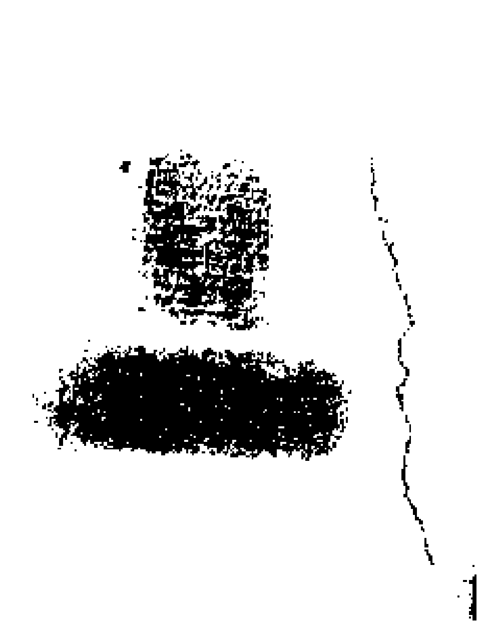


لوحة (٥٠) تفصيل لقبتي السيدة عاتكة وسيدي جعفر

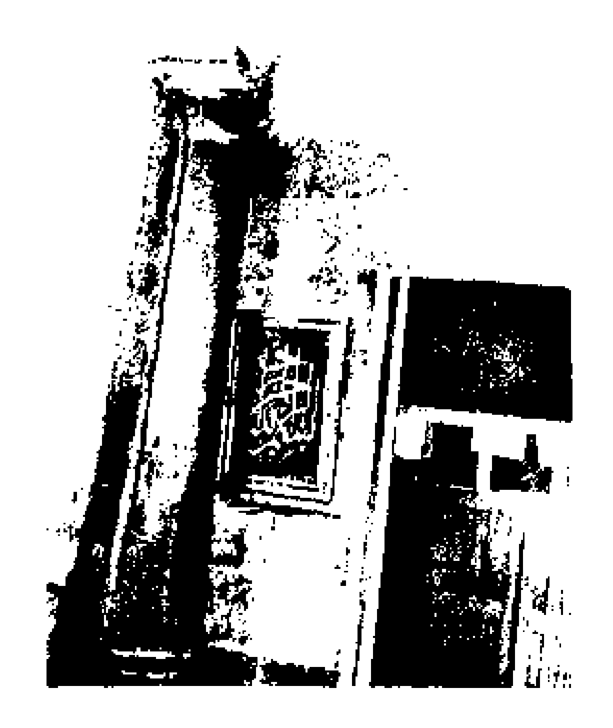
لوحة (٥١) مدخل ضريح السيدة كلثوم



لوحة (٥٢) اللوحة التذكارية لضريح السيدة كلثوم



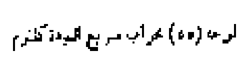




لوحة (٥٣) المقصورة الخشبية لضريح السيدة كلثوم



لوحة (٥٤) تابوت السيدة كلثوم


لوحة (٥٥) محراب ضريح السيدة كلثوم





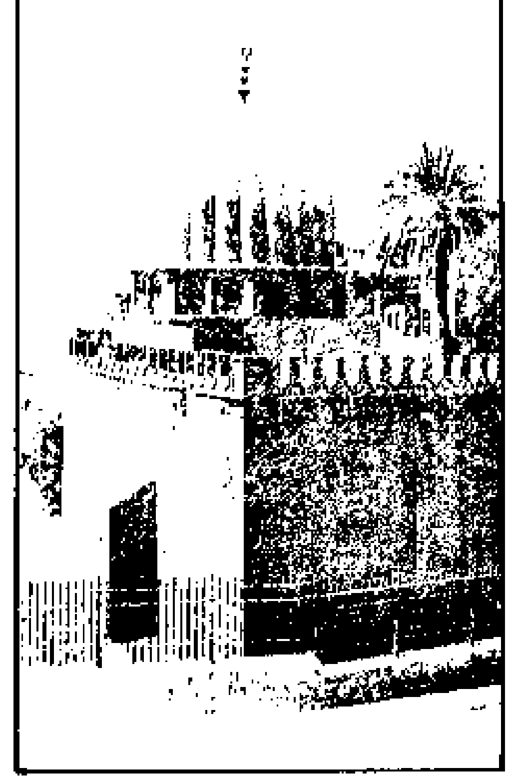
لوحة (٥٦) مشهد السيدة رقية



لوحة (٥٧) قبة مشهد السيدة رقية



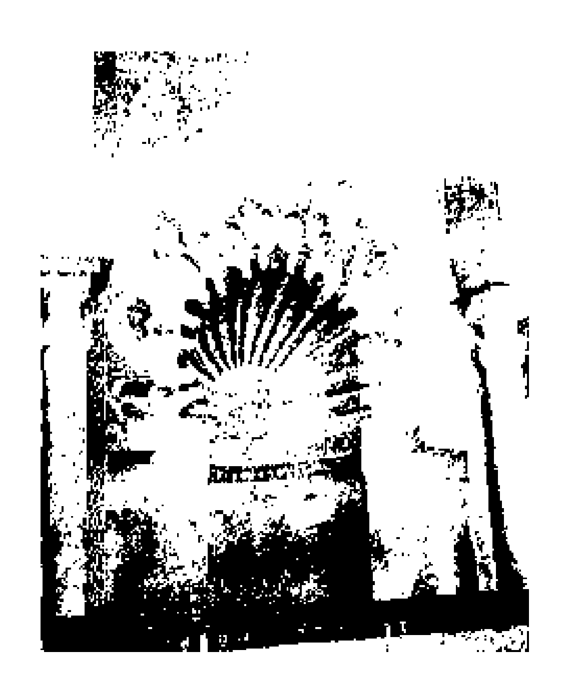
لوحة (٥٨) الواجهة الغربية لضريح السيدة رقية تتقدمها ظلة ذات ثلاثة عقود



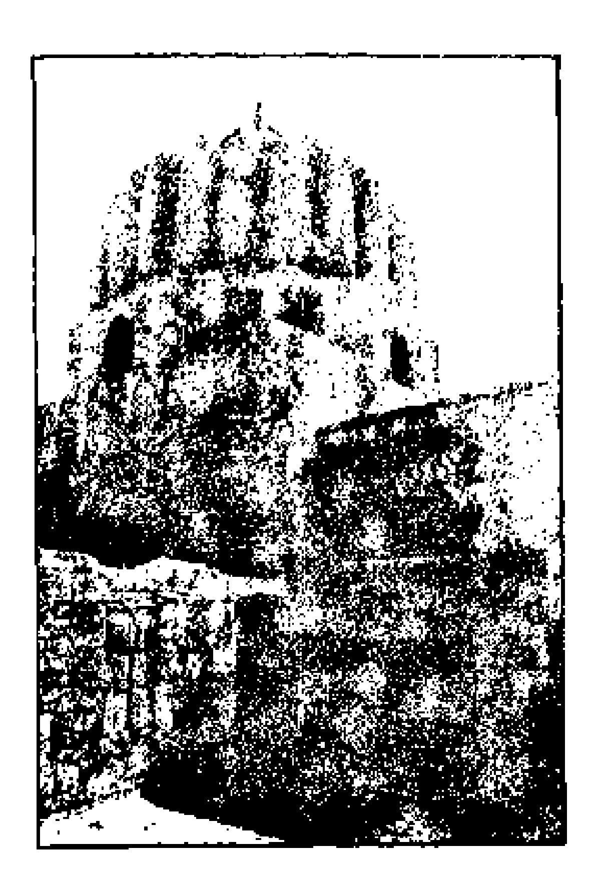
لوحة (٥٩) الواجهة الشرقية لضريح السيدة رقية



لوحة (٦٠) المقصورة الخشبية التي تحيط بمقام السيدة رقية



لوحة (٦١) محراب ضريح السيدة رقية



لوحة (٦٢) المدخل الرئيسي لمدرسة علي النجيبي

لوحة (٦٣) قبة مسجد علي النجيبي





▲ لوحة (٦٤) الواجهة الشمالية لمشهد يحيى الشبيهي



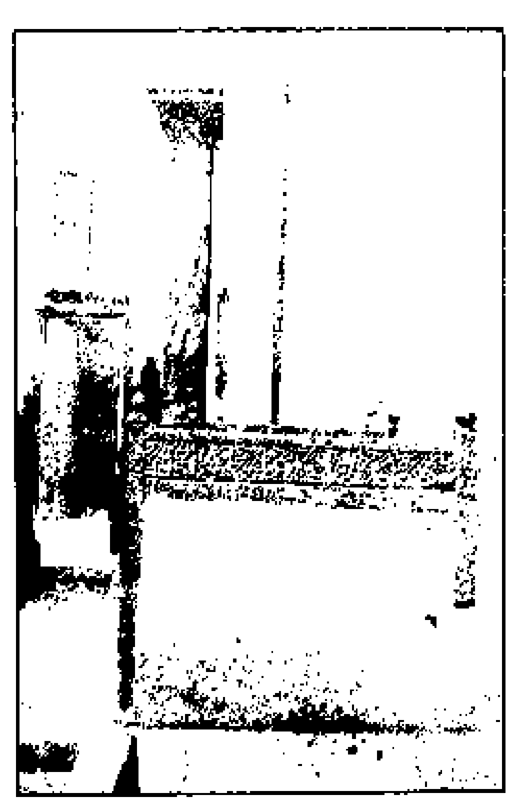
◀ لوحة (٦٥) أروقة مشهد يحيى الشبيهي



▼ لوحة (٦٦) قبة مشهد يحيى الشبيهي من الداخل

لوحة (١٧) مقبرة بمشهد يحيى الشبيهي

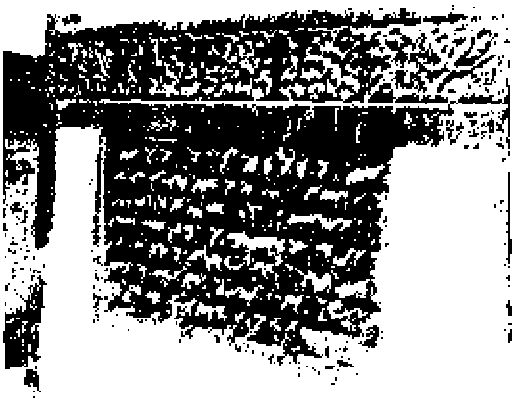




لوحة (١٨) مقبرة ثانية بمشهد يحيى الشبيهي

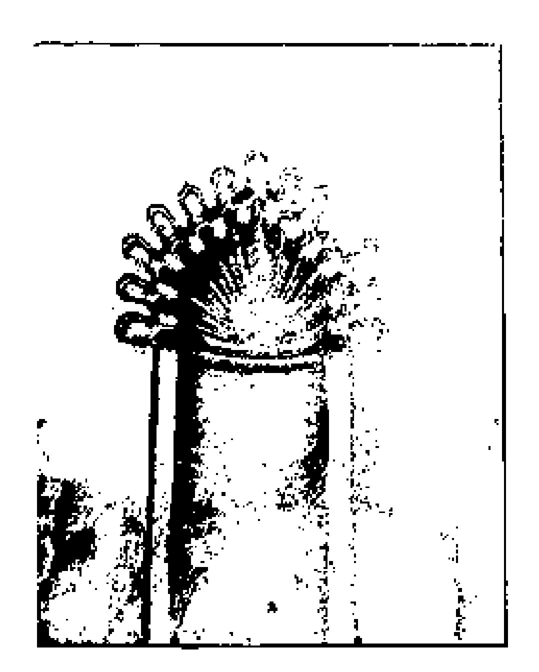
لوحة (٦٩) كتابات كوفية على مقبرة بمشهد يحيى الشبيه

لوحة (٧٠) كتابات كوفية على إحدى المقابر الموجودة بمشهد يحيى الشبيه

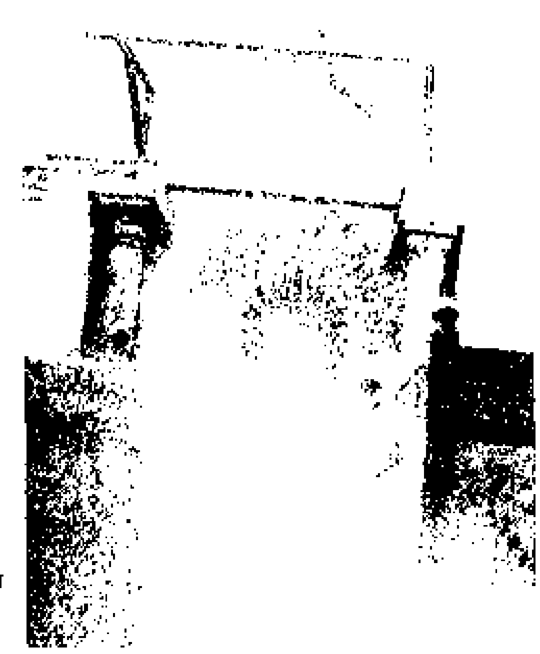




لوحة (٧١) أحد المحاريب الثلاثة بمشهد يحيى الشبيه



لوحة (٧٢) محراب ثان يشبه يحيى الشبيه



لوحة (٧٢) محراب ثالث يشبه يحيى الشبيه

لوحة (٧٤) مشهد أبي القاسم الطيب

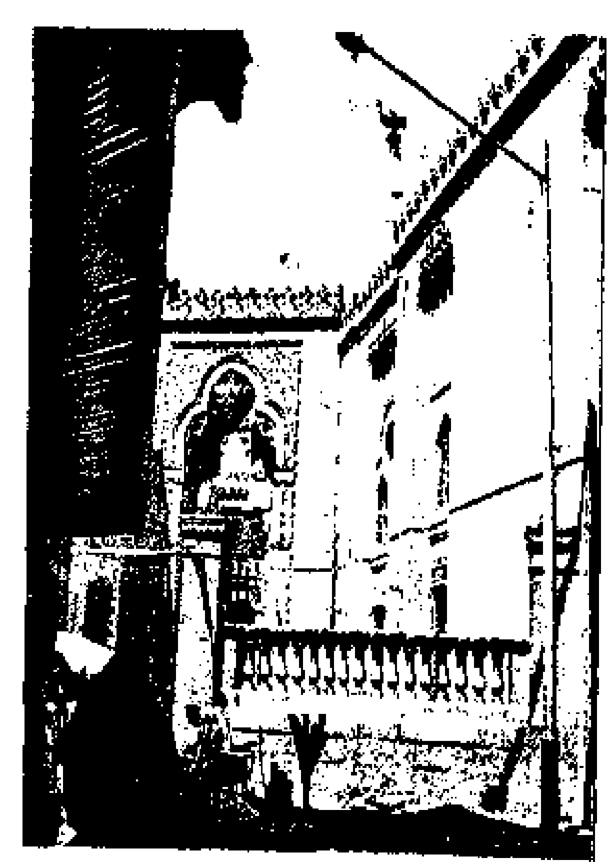




لوحة (٧٥) رسوم مائية (فريسكو) بمشهد أبي القاسم الطيب

لوحة (٧٦) شارع الامام الشافعي
التي ينتهي بقبته

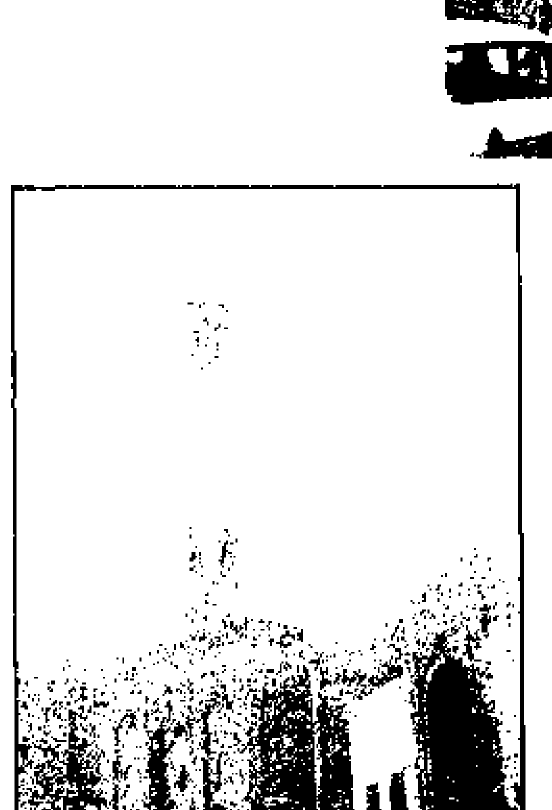




لوحة (٧٧) مسجد رئية الامام الشافعي



لوحة (٧٨) جامع الإمام الشافعي



لوحة (٧٩) مئذنة جامع الامام الشافعي



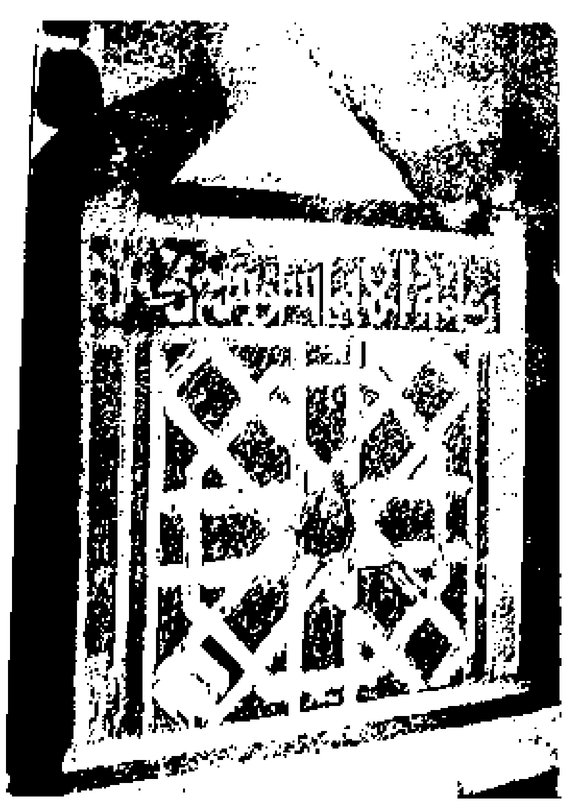
لوحة (٨٠) الواجهة الشمالية لمدخل قبة الإمام الشافعي



لوحة (٨١) قبة الإمام الشافعي من الداخل

لوحة (٨٢) المقصورة الخشبية التي تحيط
بمقبرة الامام الشافعي





لوحة (٨٣) التابوت الخشبي الذي يحيط بمقبرة
صلاح الدين بدمشق

لوحة (٨٤) المدخل الرئيسي لضريح ومدرسة السادات الثعالبة



لوحة (٨٥) إيوان القبة بالسادات الثعالبة

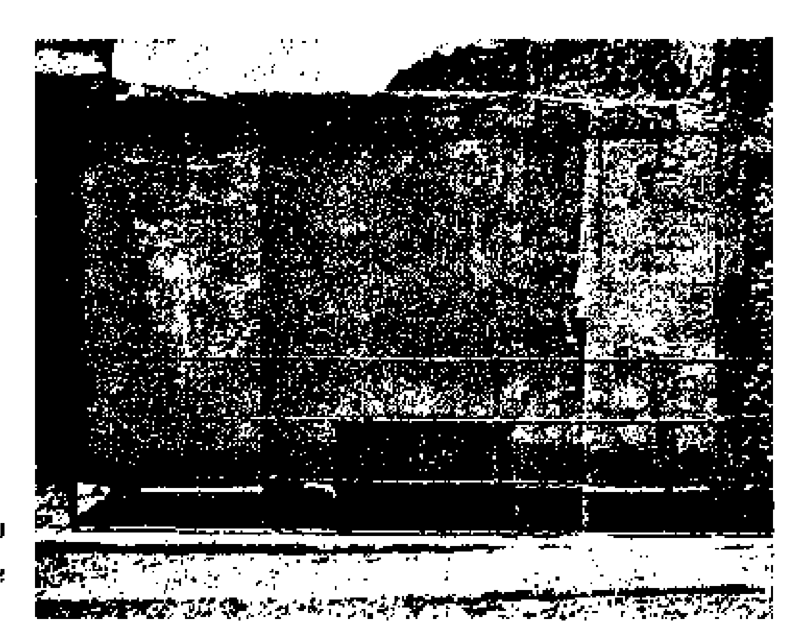
لوحة (٨٦) محراب قبادات الثالثة

لوحة (٨٧) الواجهة الشمالية لقبادات
الثالثة ويظهر بها إيوان القبلة





لوحة (٨٨) الإيوان القبلي تتصدره المحراب بمدرسة السادات الثعالبة



لوحة (٨٩) المدخل الفاق الجديد بالسادات الثعالبة

لوحة (٩٠) الايوان الرئيسي بمدرسة الخفس





لوحة (٩١) الايوان الجنوبي بمدرسة حنفي



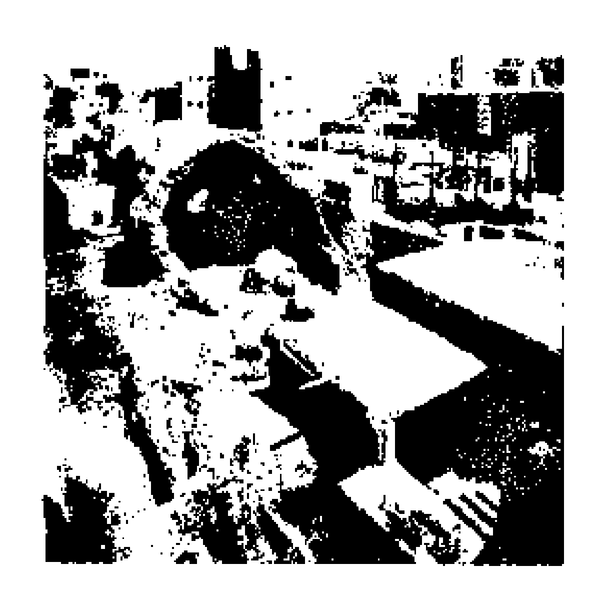
لوحة (٩٢) الإيوان الجنوبي لمدرسة صنقر



لوحة (٩٣) الإيوان الشمالي لمدرسة صنقر

لوحة (٩٤) واجهة المدرسة الكاملية بالجمالية





لوحة (٩٥) الإيوان الغربي للمدرسة الكاملية



لوحة (٩٦) احدى نوافذ الطابق الثاني بالمدرسة الكاملية



لوحة (٩٧) ضريح سيدي عمر بن الفارض

لوحة (٩٨) مسجد الامام الليث بن سعد



لوحة (٩٩) المدخل الرئيسي بالواجهة الغربية لمسجد الامام الليث بن سعد



لوحة (١٠٠)
ضريح الخلفاء العباسيين

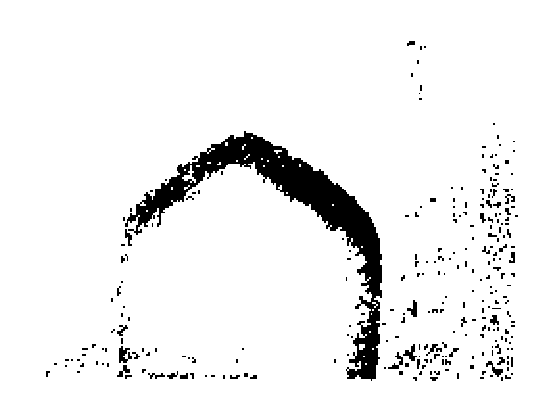


لوحة (١٠١) المدخل الرئيسي لقبة الخلفاء العباسيين



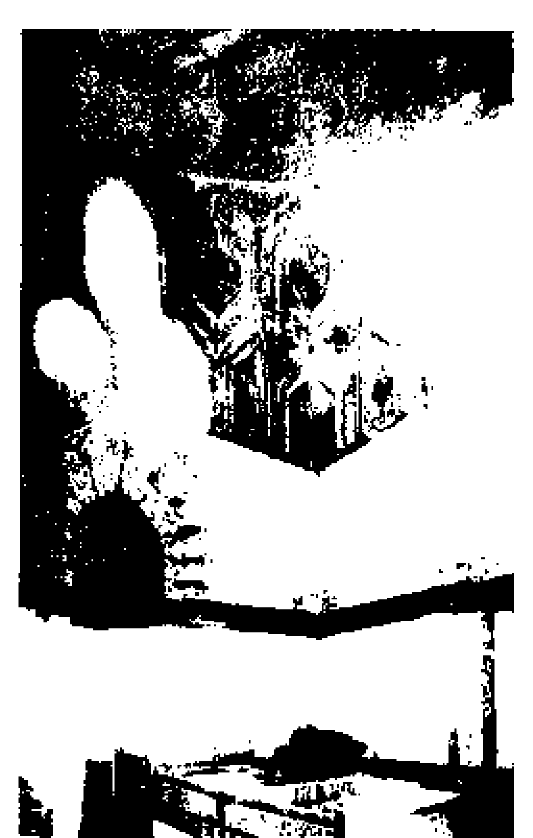
لوحة (١٠٤) الزخارف الجصية التي تعلو فتحات قبة الخلفاء العباسيين

لوحة (١٠٣) محراب قبة الخلفاء العباسيين





لوحة (١٠٤) فتحات قبة الخلفاء العباسيين



لوحة (١٠٥) منطقة الانتقال بقبة الخلفاء العباسيين



لوحة (١٠٦) الزاوية المقطوعة بقبة الصالح نجم الدين أيوب



لوحة (١٠٧) المدرسة الصالحية بالصاغة



لوحة (١٠٨) مئذنة المدرسة الصالحية

لوحة (١٠٩) الجزء الشمالي من الواجهة
الغربية المدرسة الصالحية



لوحة (١١٠) قبة الصالح نجم الدين أيوب
المجاورة المدرسة الصالحية

لوحة ([illegible]) [illegible] الصالح نجم الدين



لوحة (١١٢) تفاصيل الزخارف التي تعلو المدخل الرئيسي
المدرسة الصالحية



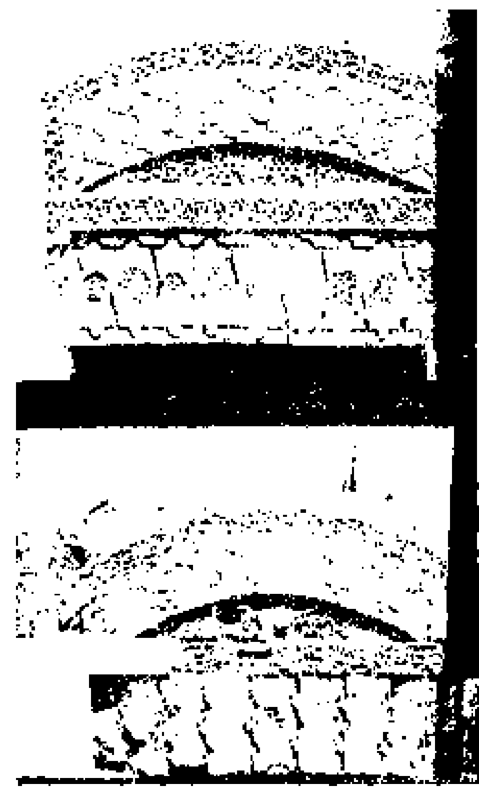
لوحة (١١٣) ايوان القبلة بالمدرسة الصالحية

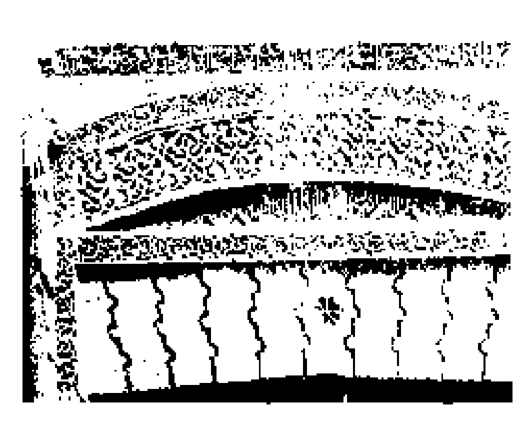


لوحة (١١٤) بوابة المدرسة الصالحية



لوحة (١١٥) الزخارف التي تحيط بنوافذ المدرسة الصالحية

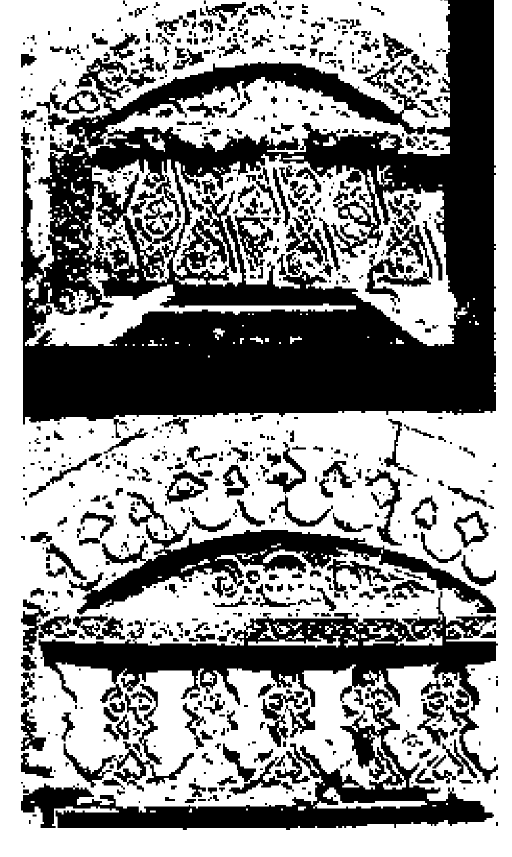


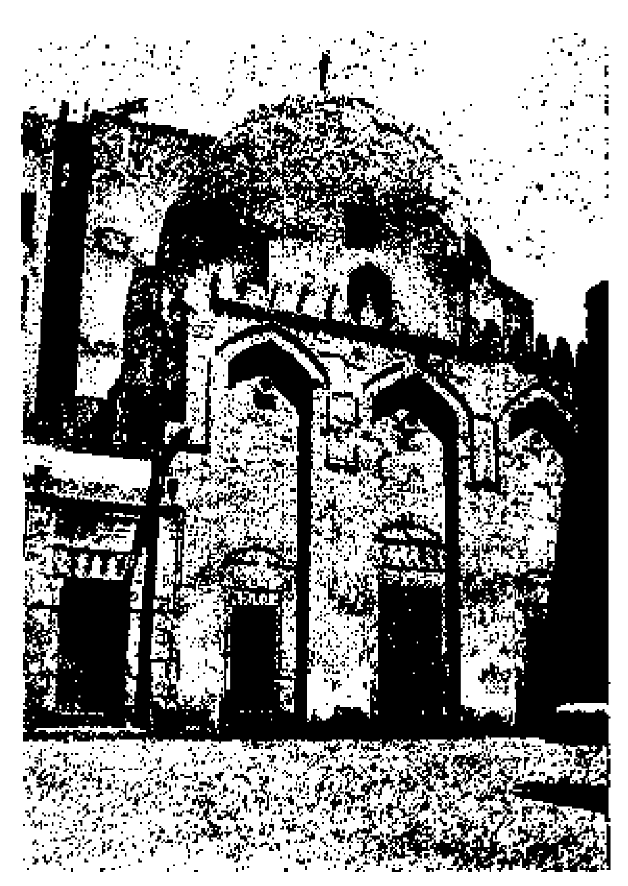


لوحة (١١٦) تفاصيل الزخارف المنقوشة على أعتاب وعقود نوافذ المدرسة الصالحية



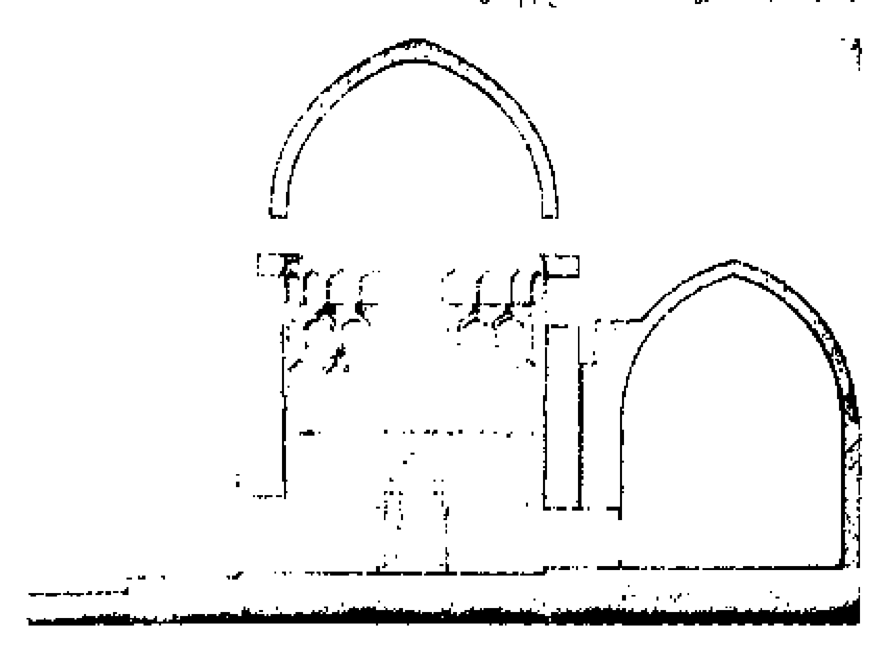
لوحة (١١٧) زخارف نوافذ المدرسة الصالحية





لوحة (١١٨) الواجهة الغربية قبة الصالح نجم الدين

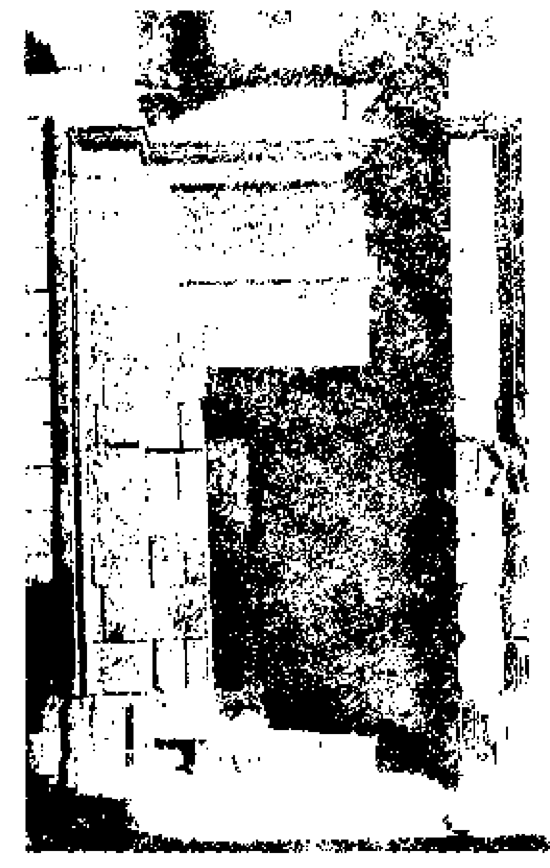
لوحة (١١٩) التفاصيل الداخلية لقبة الصالح نجم الدين

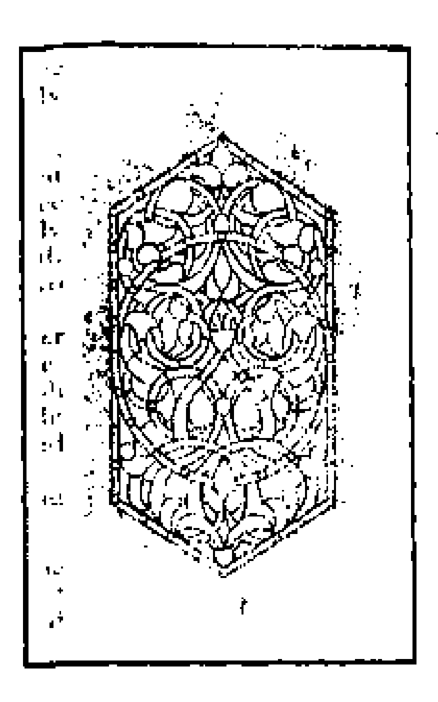




لوحة (١٢١) المدخل الرئيسي لقبة ضريح الصالح نجم الدين

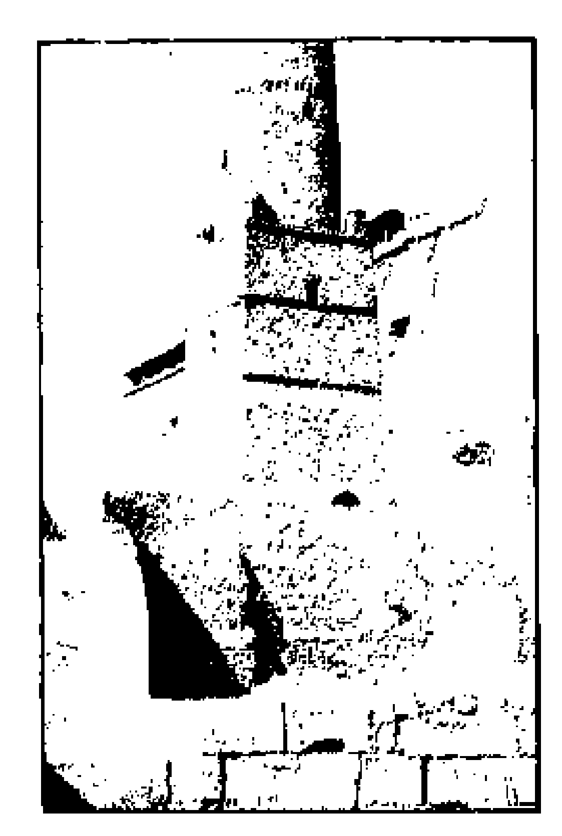
لوحة (١٢٢) الباب الرئيسي لضريح الصالح نجم الدين



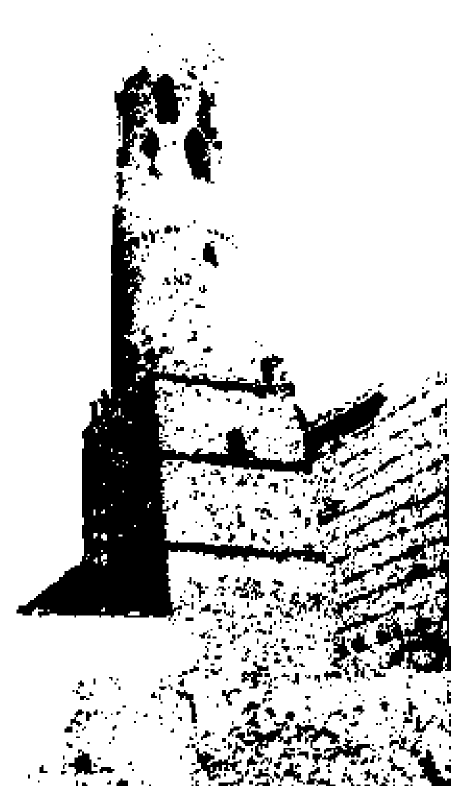


لوحة (٢٢١) تفصيل الزخارف الخشبية التي تعلو نوافذ ضريح الشيخ نجم الدين

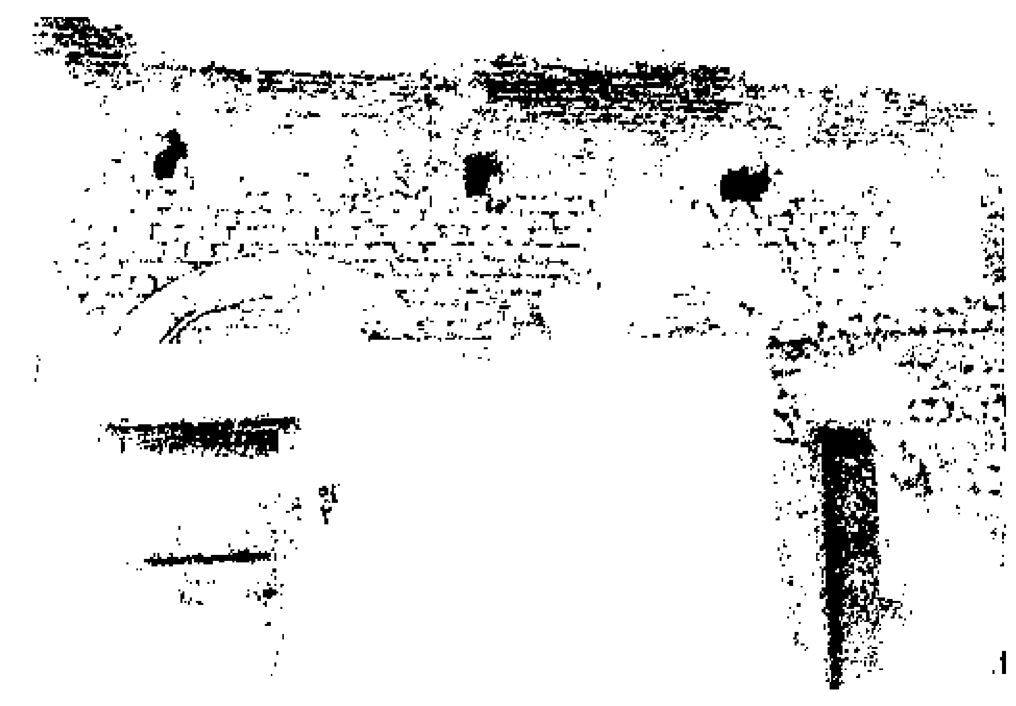
لوحة (٢٢٢) جامع وضريح أبي الحجاج بالأقصر



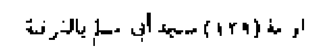
لوحة (١٢٤) جامع أبي الحجاج وخلفه معبد مصري



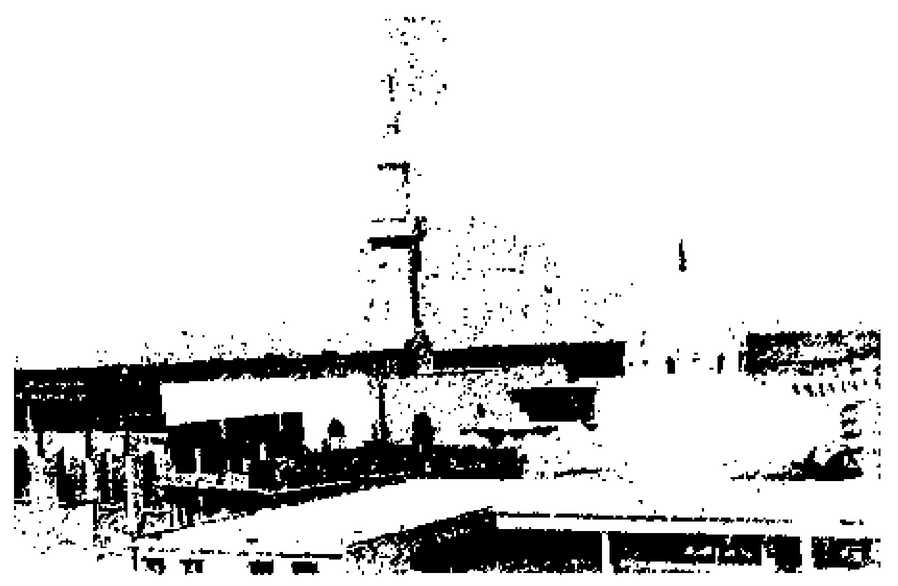
لوحة (١٢٥) مئذنة أبي الحجاج



لوحة (١٢٨) عقود ايوان ضريح أبي السعود الجارحي

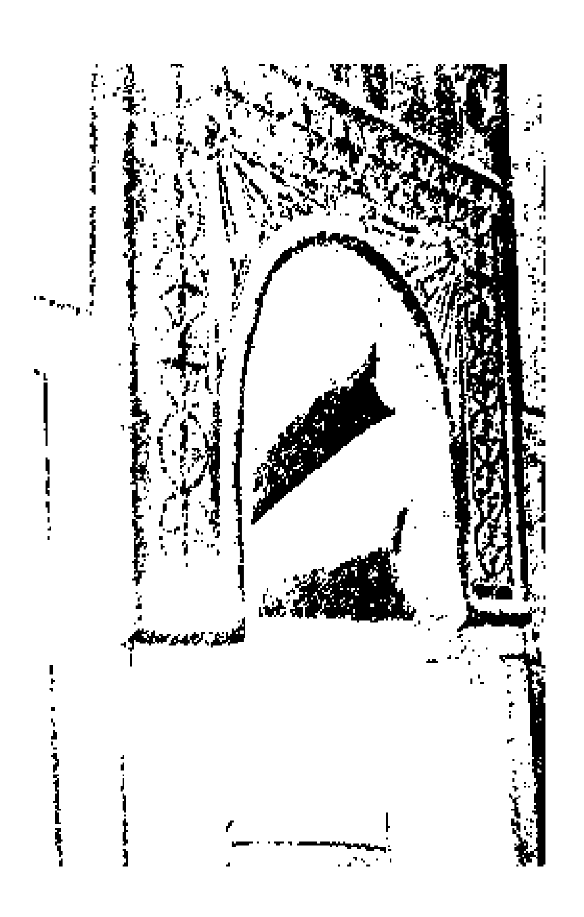


لوحة (١٢٩) مسجد أبي مسلم بالزرقة

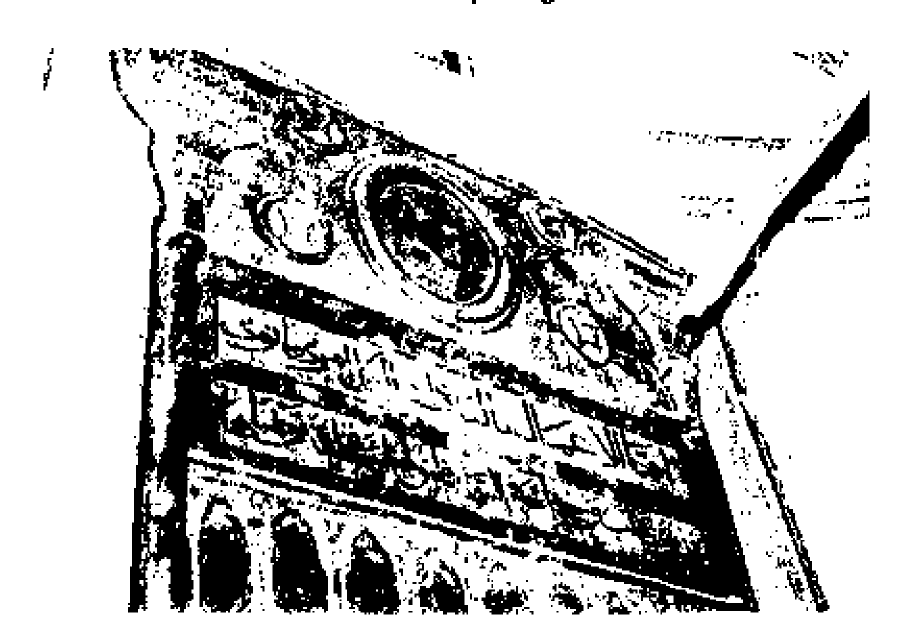




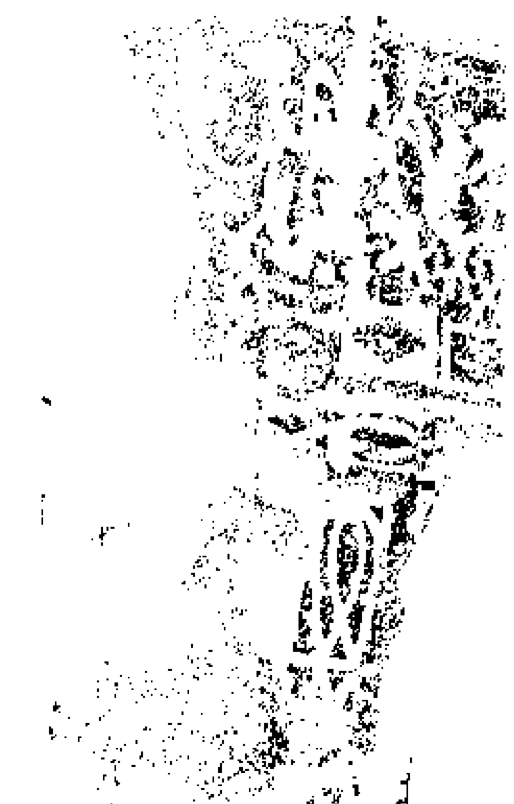
لوحة (١٣٠) محراب أبي مسلم بالشرقية

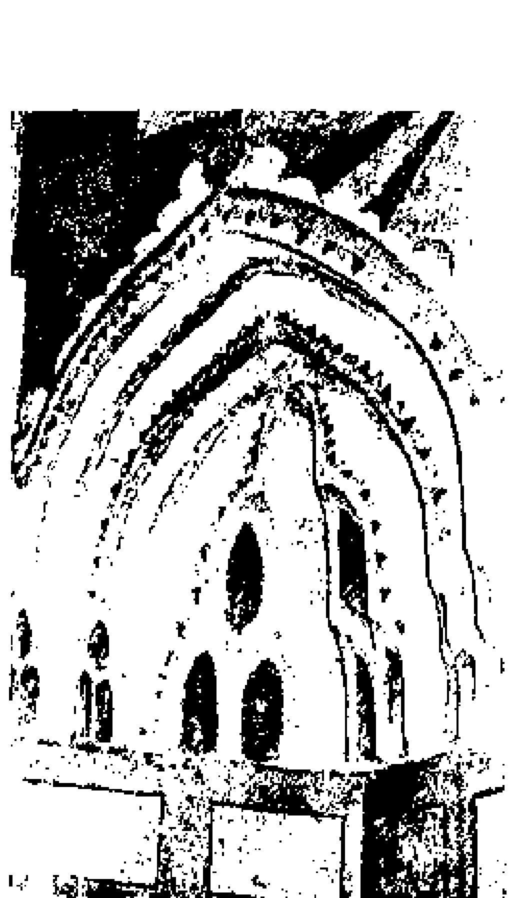


لوحة (١٣١) كتابة تعلو محراب ضريح أبي مسلم



لوحة (١٣٢) مقبرة أبي مسلم





لوحة (١٣٣) أحد أركان قبة أبي مسلم



لوحة (١٢٤) صحن قبة أبي مسلم من الداخل

لوحة (١٢٥) مئذنة أبي مسلم



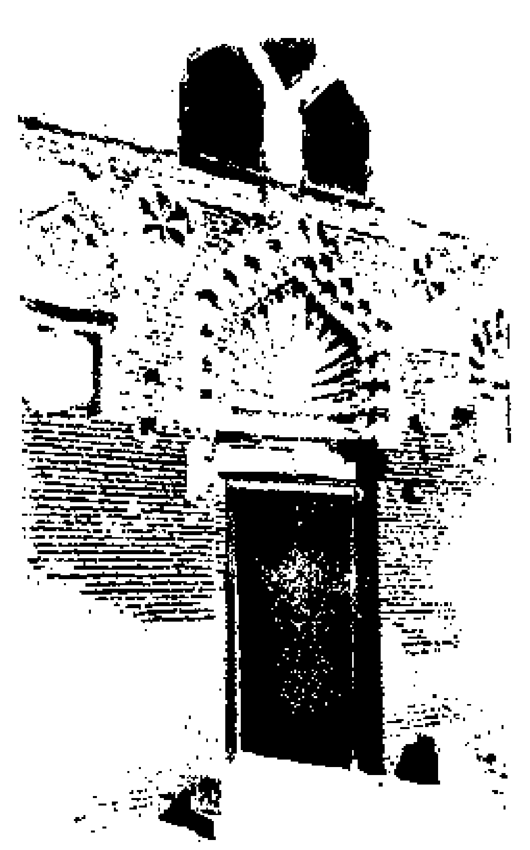
لوحة (١٢٦) ضريح شيخ الغار





لوحة (١٢٧) مربع شجر الدر وتدوير رقبة القبة





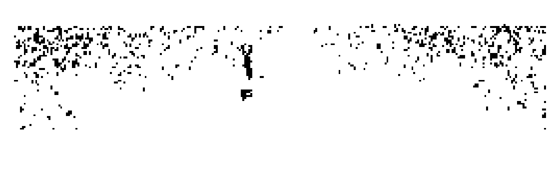
لوحة (١٢٨) المدخل الرئيسي لقبة شجر الدر



لوحة (١٣٩) الزخارف التي تعلو أبواب ضريح شجر الدر

لوحة (١٤٠) البئر الموجودة بجوار ضريح أبي الشاذلي بحميثرى



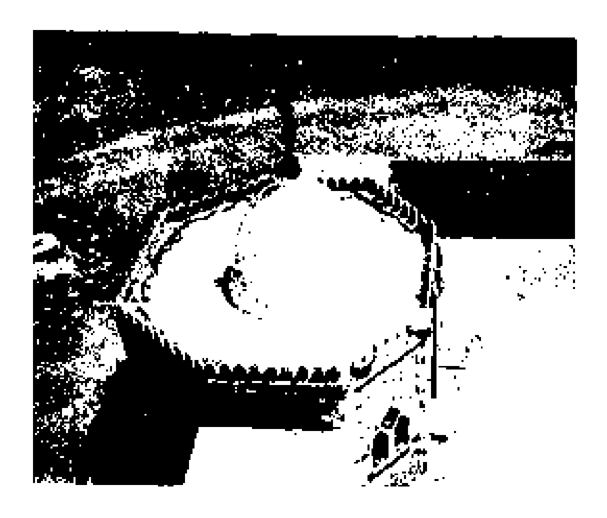




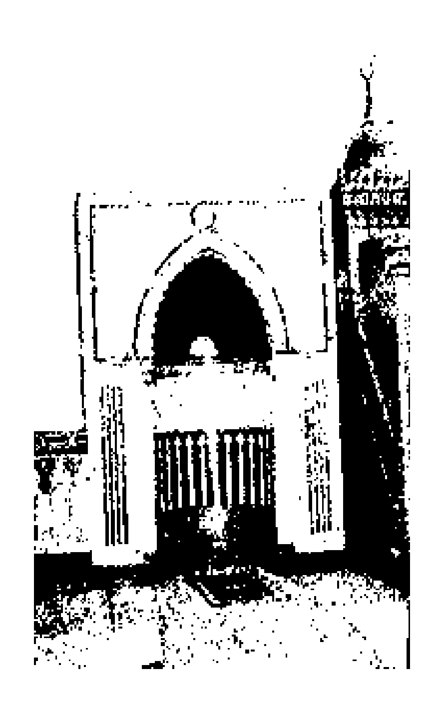
لوحة (١٤١) مسجد سيدي أبي الحسن الشاذلي



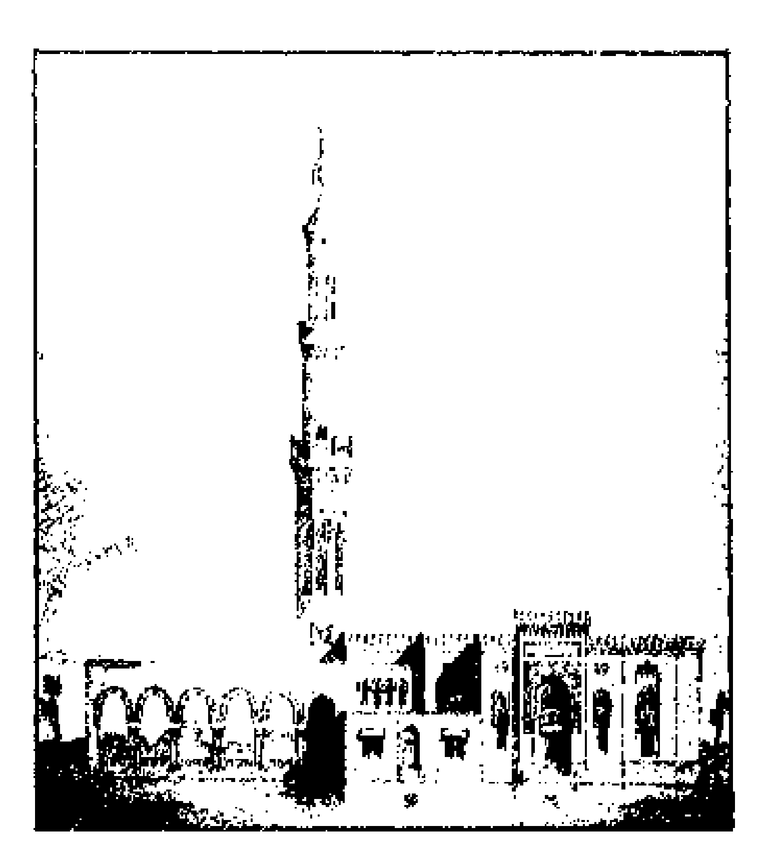
لوحة (١٤٢) ضريح سيدى أبي الحسن القديم بحميثرا قرب عيذاب



لوحة (١٤٣) قبة ضريح سيدى أبي الحسن الشاذلي القديمة



لوحة (١٤٤) محراب مسجد سيدى أبي الحسن الشاذلي الجديد



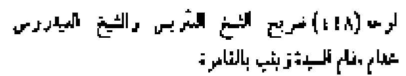
لوحة (١٤٥) جامع قاهر التتار قطز بجسر [illegible]



لوحة (١٤٦) ضريح القاضي العز بن عبد السلام بالقرافة



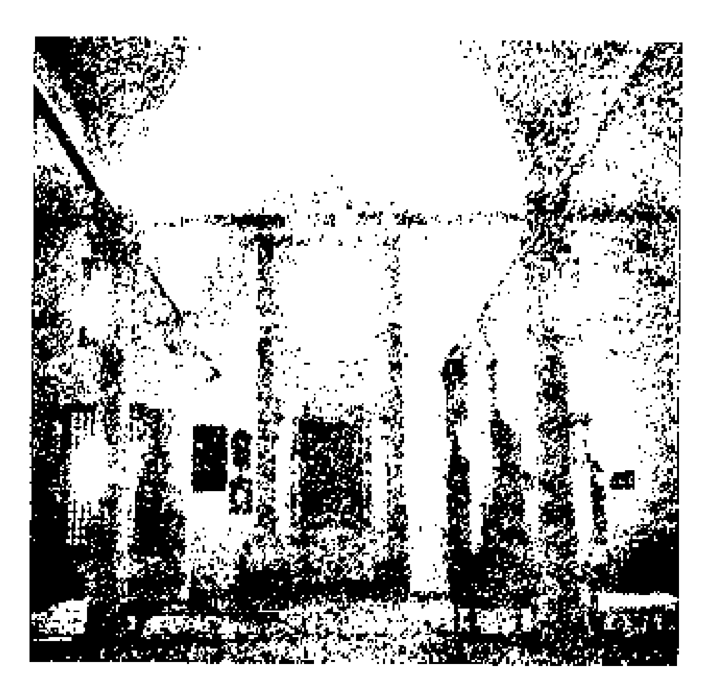
لوحة (١٤٧) محراب ضريح القاضي العز بن عبد السلام



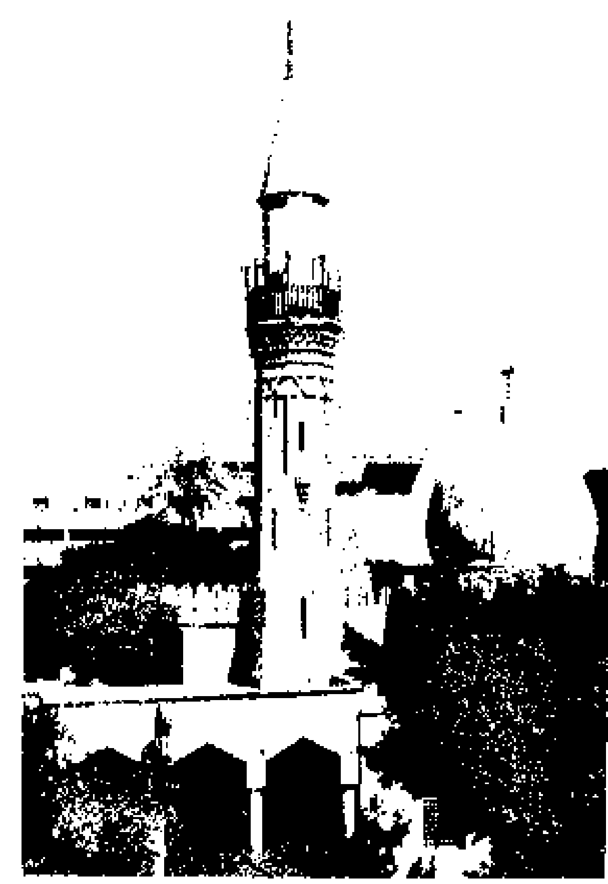
لوحة (١٤٨) ضريح الشيخ الشربيني والشيخ البيدرسي
أمام مقام السيدة زينب بالقاهرة



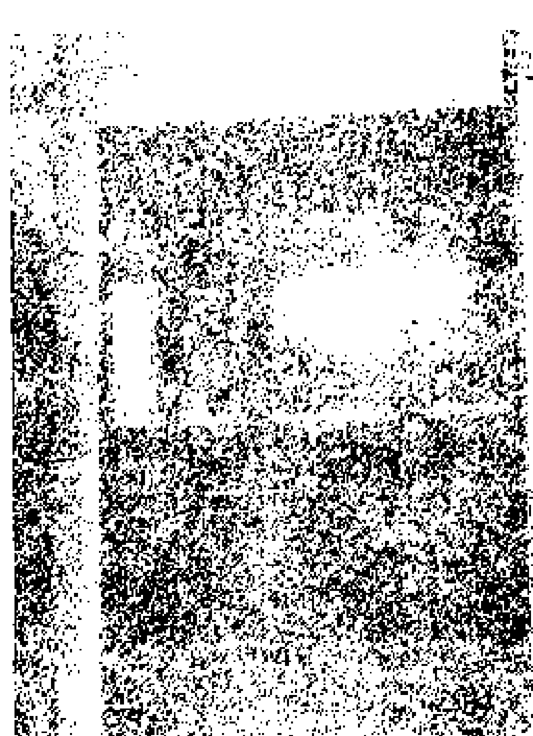
لوحة (١٤٩) مدخل جامع القباري بالاسكندرية



لوحة (١٥٠) ايوان القبلة بجامع العبارى



لوحه (١٥١) صحن جامع الغبارى تحيط به الأروقة

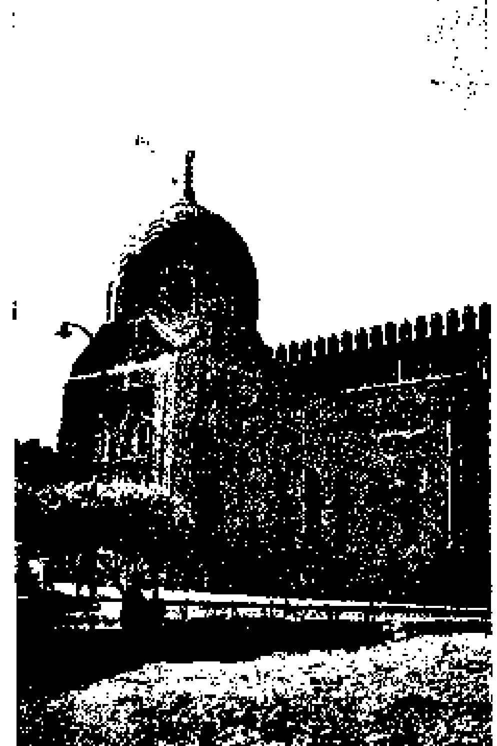


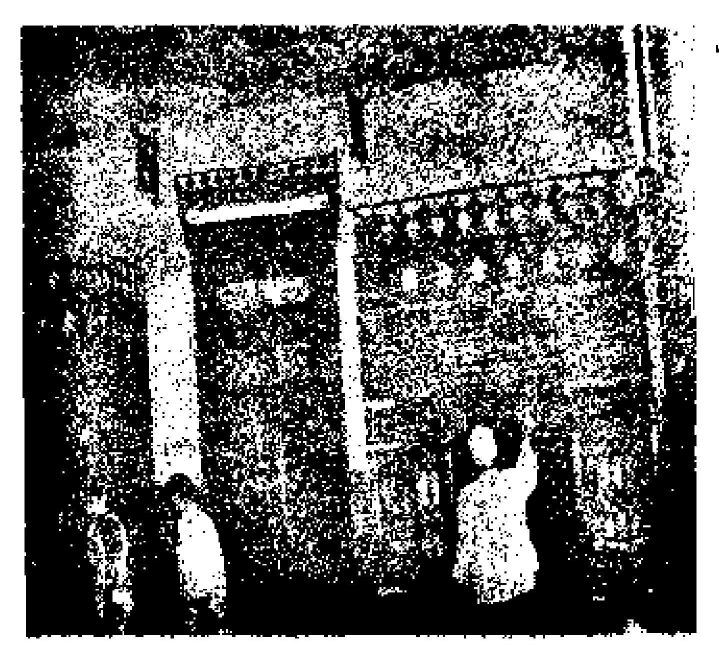
لوحة (١٥٢) الأعمدة المتصلة الى الحائط بقبر القباري

لوحة (١٥٣) القبة التي تعلو ضريح القباري

لوحة (١٥٤) مئذنة القباري



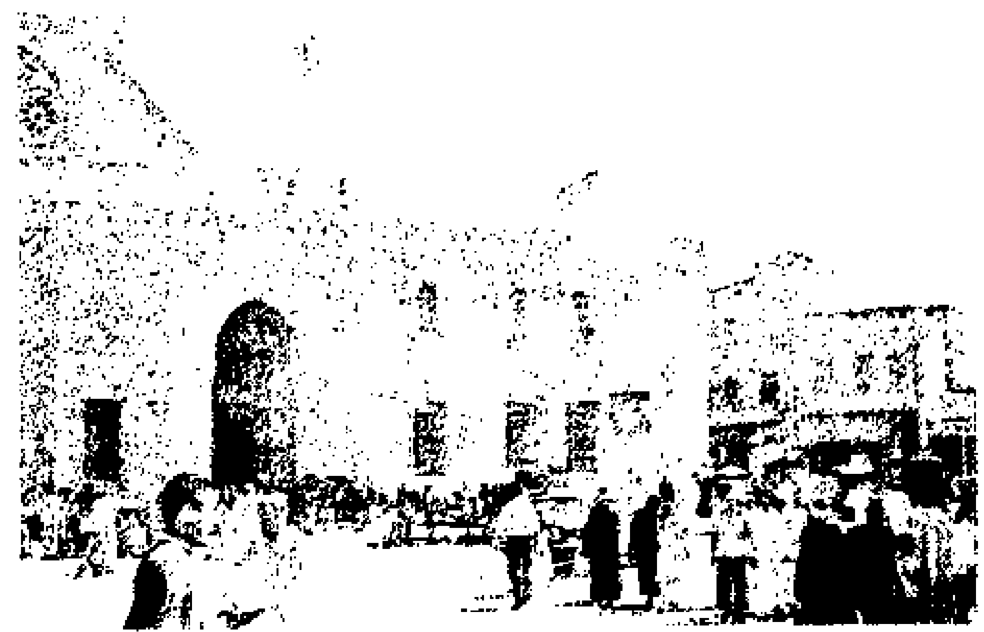




لوحة (١٥٥) المدخل الرئيسي لضريح العباري



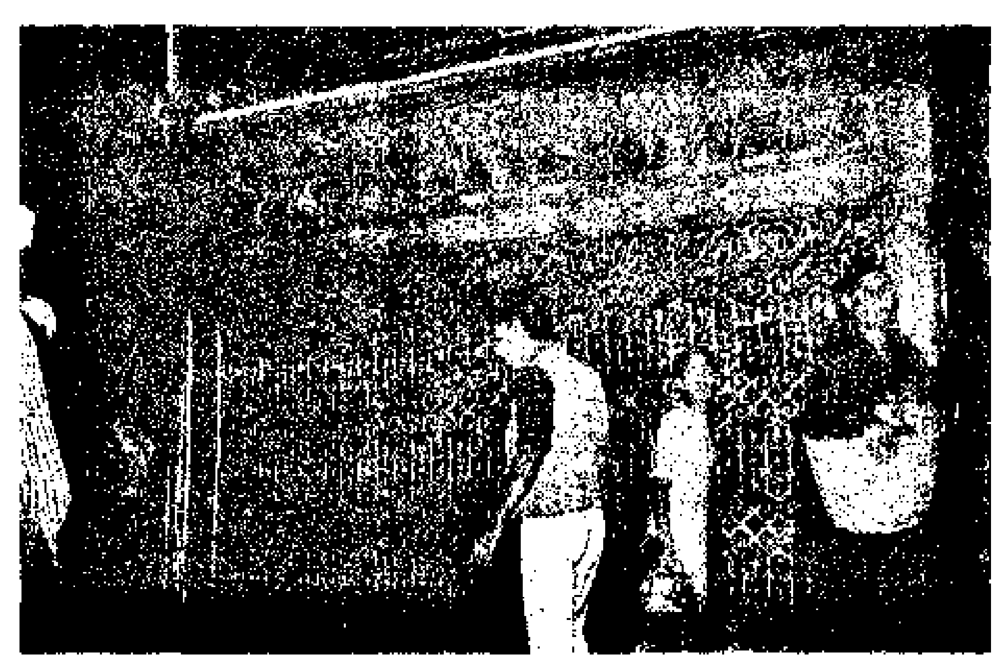
لوحة (١٥٦) مقبرة القرارى



لوحة (١٥٧) جامع سيدى أحمد البدوى بطنطا

لوحة (١٥٨) المدخل الرئيسى لجامع سيدى أحمد البدوى





لوحة (١٥٩) مقصورة سيدي أحمد البدوي

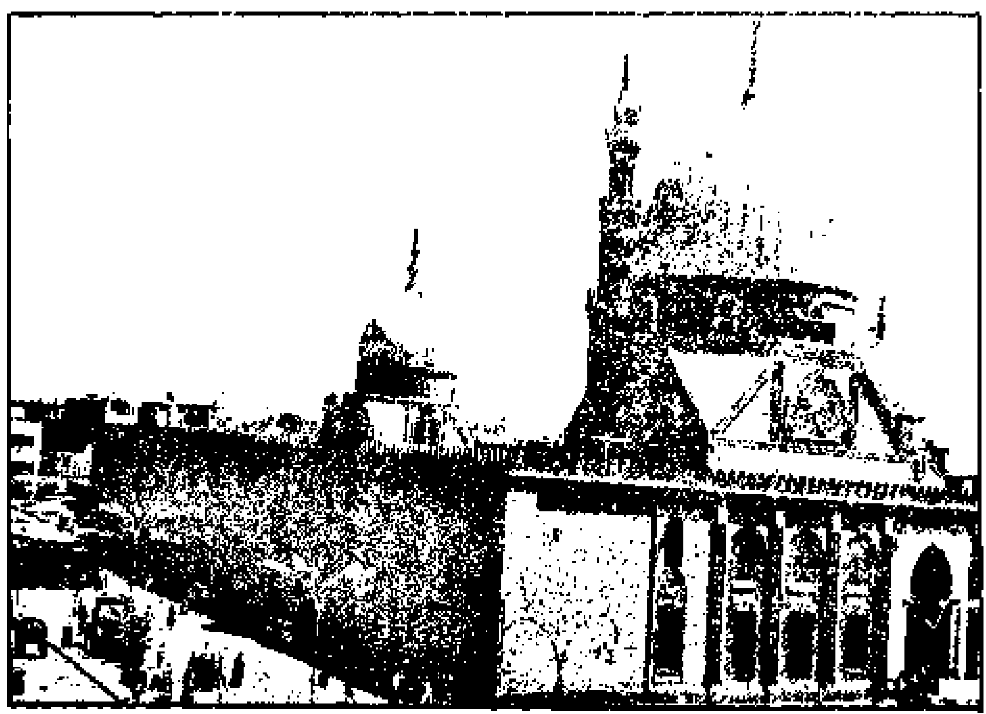


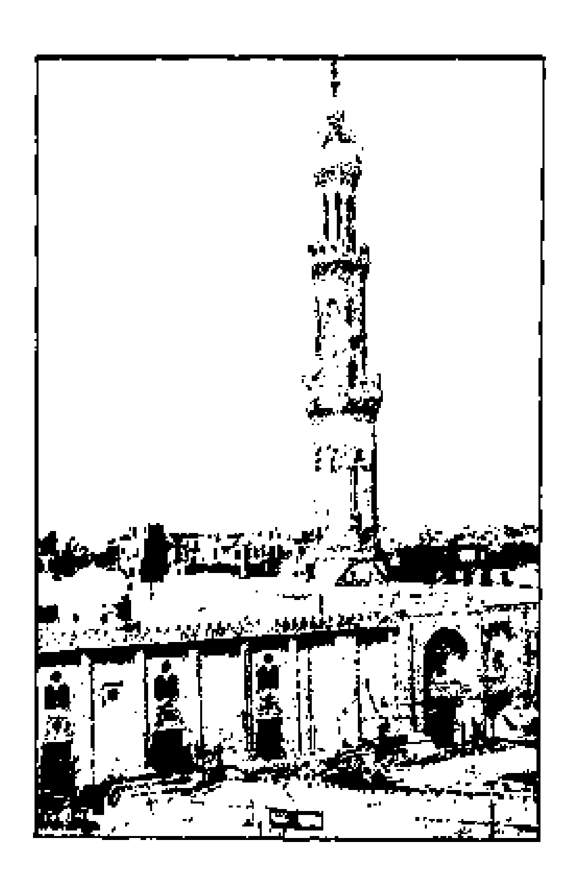
لوحة (١٦٠) المدخل إلى حجرة سيدي أحمد البدوي

لوحة (١٦٣) الواجهة الطولية لمسجد سيدي أحمد البدوي



لوحة (١٦٤) القبة التي تعلو مقام سيدي أحمد البدوي

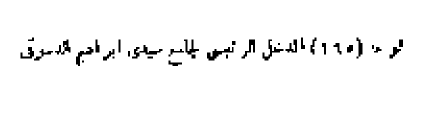




لوحة (١٦٣) مئذنة جامع سيدى أحمد البدوى



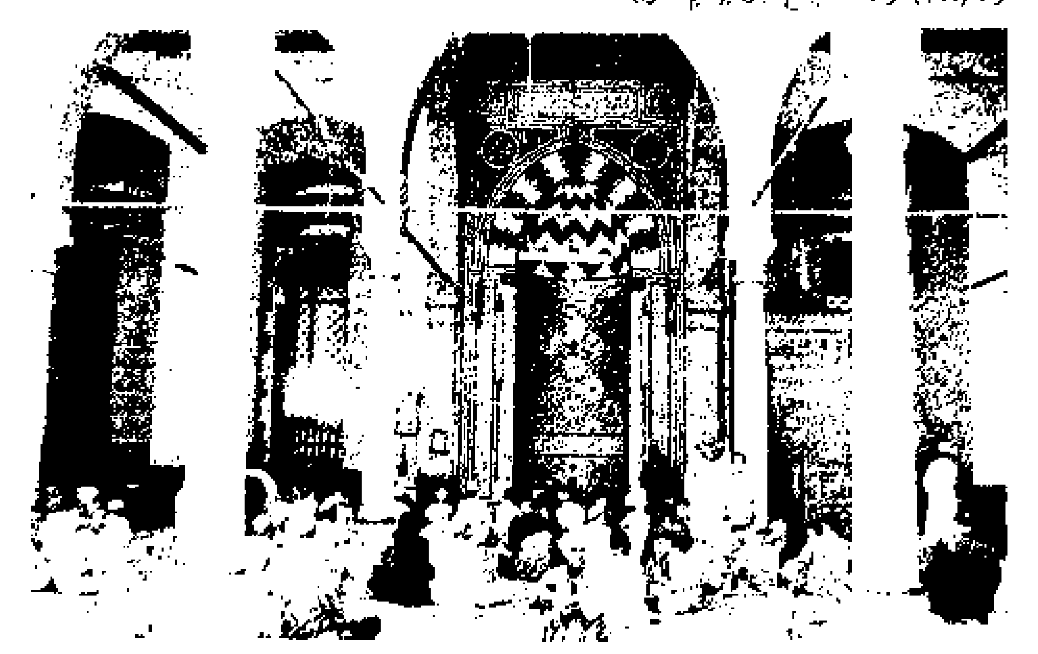
لوحة (١٦٤) الزخارف التى تحيط بنوافذ جامع سيدى أحمد البدوى

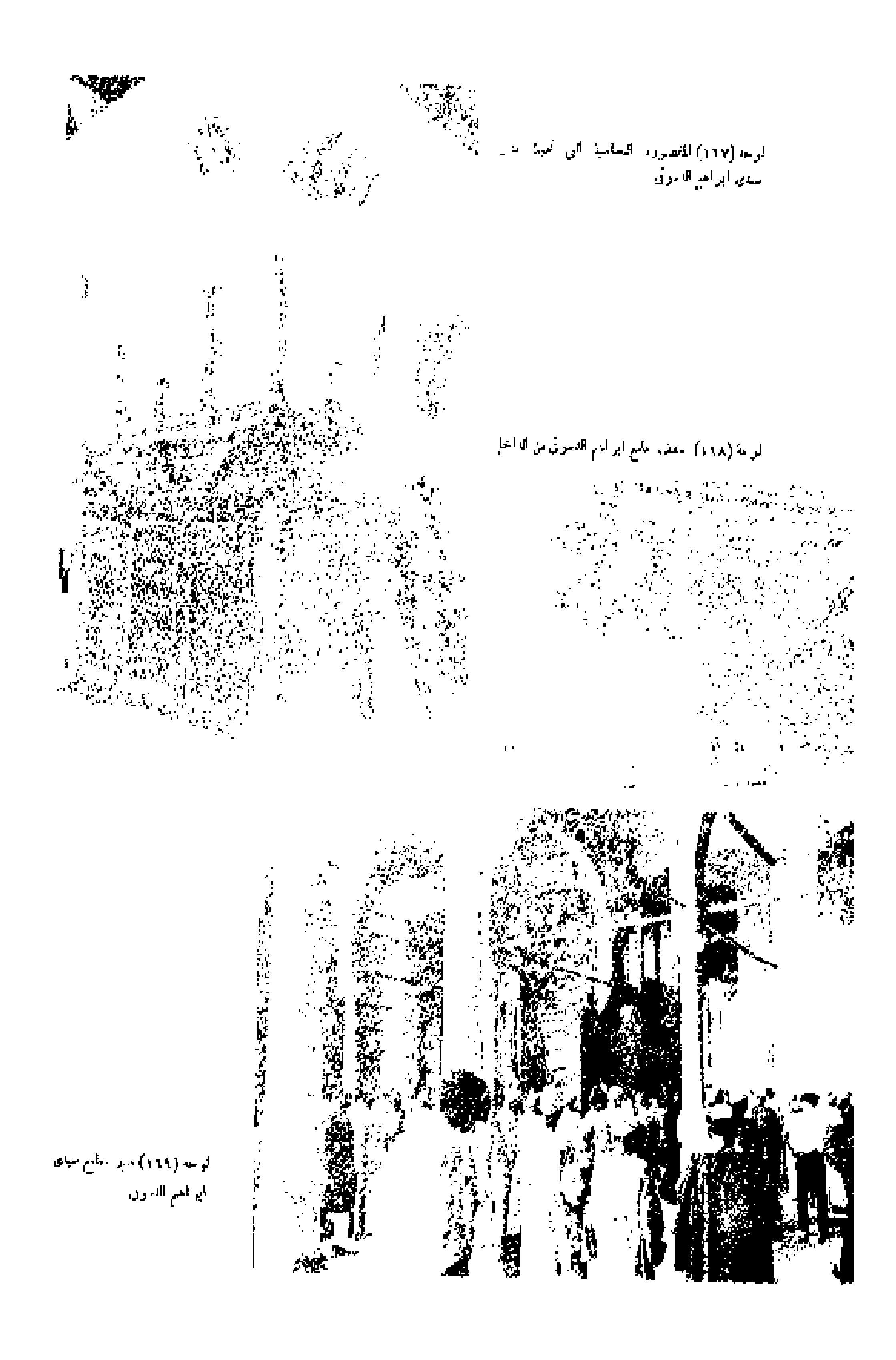


لوحة (١٦٥) المدخل الرئيسي لجامع سيدي ابراهيم الدسوقي



لوحة (١٦٦) ايوان القبلة بجامع سيدي ابراهيم الدسوقي

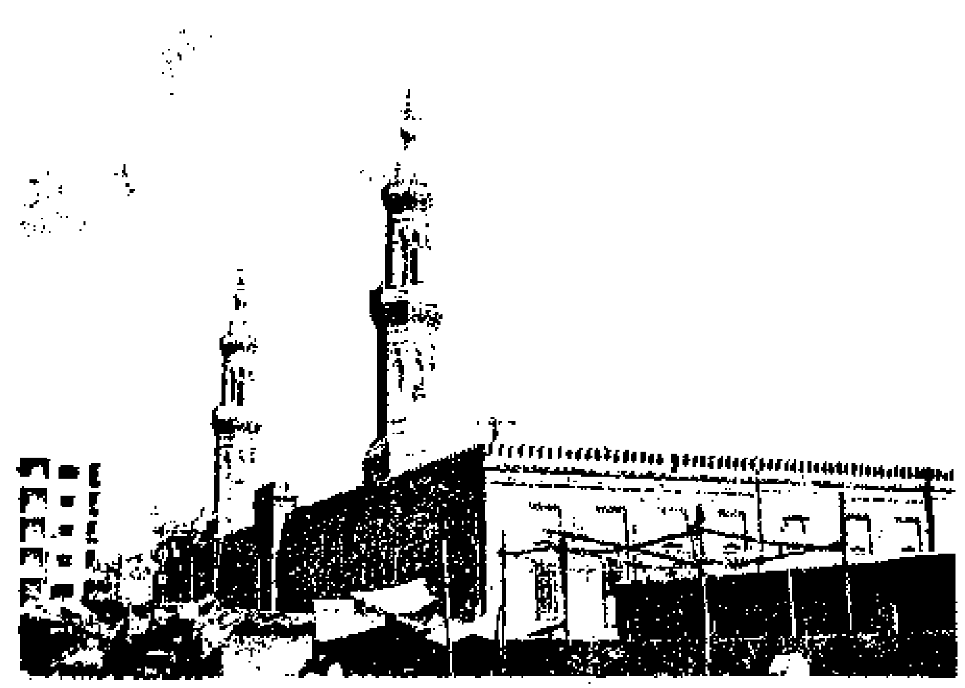




لوحة (١٦٧) المقصورة النحاسية التي تحيط بضريح سيدي ابراهيم الدسوقي

لوحة (١٦٨) سقف جامع ابراهيم الدسوقي من الداخل

لوحة (١٦٩) مدخل جامع سيدي ابراهيم الدسوقي

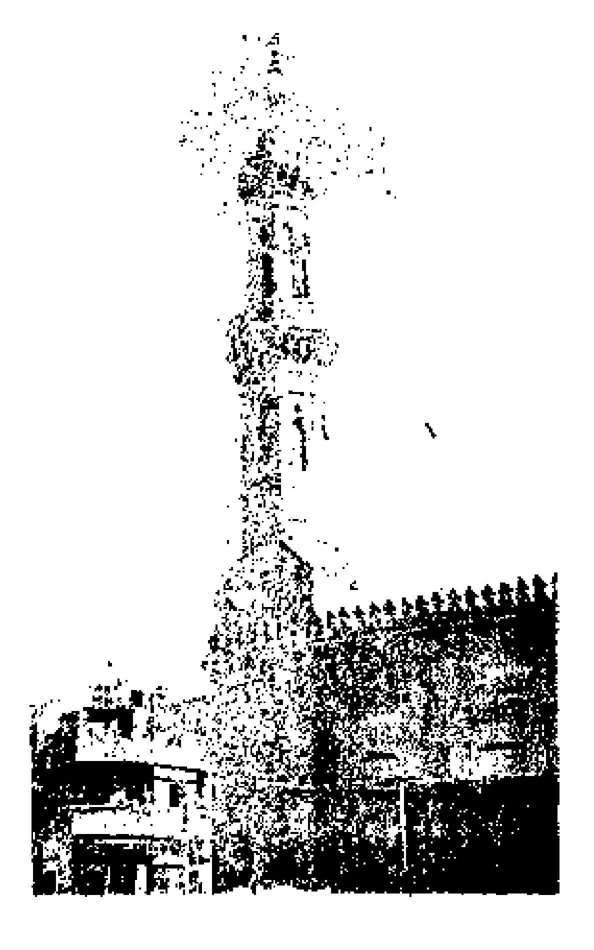


لوحة (١٧٠) مئذنتا جامع سيدي ابراهيم الدسوقي

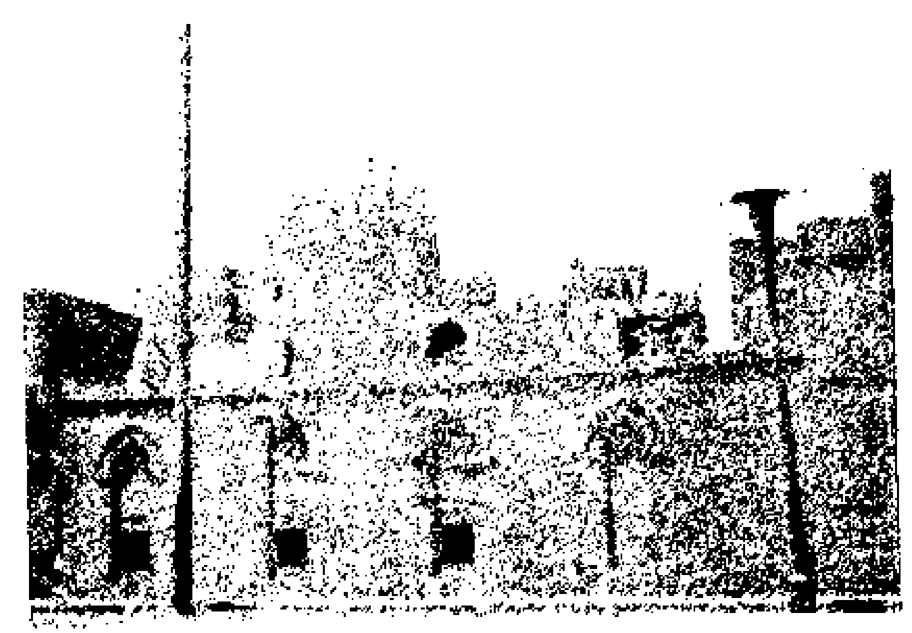
لوحة (١٧١) المدخل الرئيسي لجامع سيدي ابراهيم الدسوقي



لوحة (١٧٢) منظر عام لمسجد سيدى ابراهم الدسوق بتوسط مدينة دسوق



لوحة (١٧٣) الواجهة الشمالية لجامع سيدى ابراهم الدسوق



لوحة (١٧٤) المدرسة الناصرية



لوحة (١٧٥) المدخل الرئيسي للمدرسة الناصرية

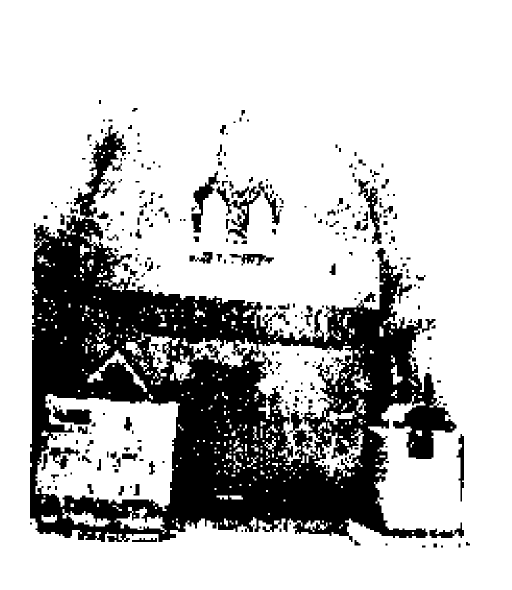




لوحة (١٧٦) الواجهة الشمالية للمدرسة العادرية

لوحة (١٧٧) الزخرفة التي تتقدم المدخل الرئيسي للمدرسة القادرية

لوحة (١٧٨) الإيوان الجنوبي للمدرسة القادرية





لوحة (١٧٩) الدكة التي تتقدم المدخل الرئيسي للمدرسة القادرية



لوحة (١٨٠) الايوان الشرقي للمدرسة القادرية

لوحة (١٨١) الايوان الشمالي للمدرسة القادرية



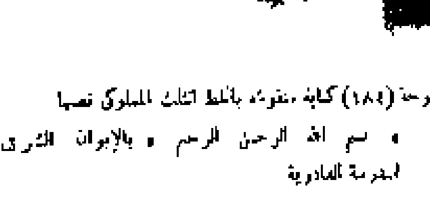
لوحة (١٨٢) باب قبة زين الدين يوسف الملحقة بالمدرسة القادرية

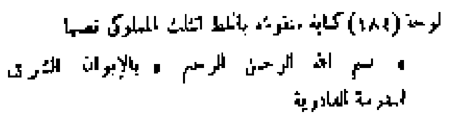




لوحة (١٨٣) محراب المدرسة القادرية







لوحة (١٨٤) كتابة منقوشة بالخط الثلث المملوكي نصها

« بسم الله الرحمن الرحيم » بالإيوان الشرقي

المدرسة القادرية

لوحة (١٨٥) كتابة منقوشة بالإيوان الجنوبي بالمدرسة

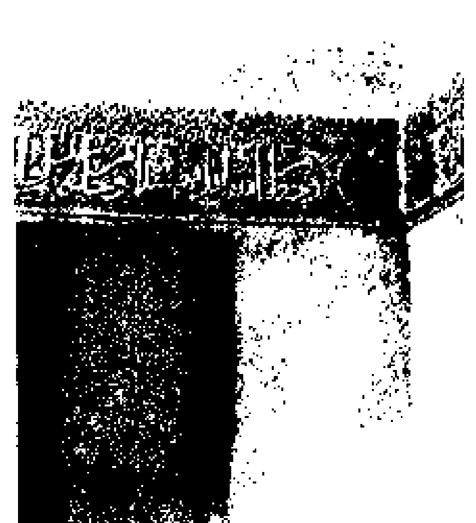
القادرية نصها:

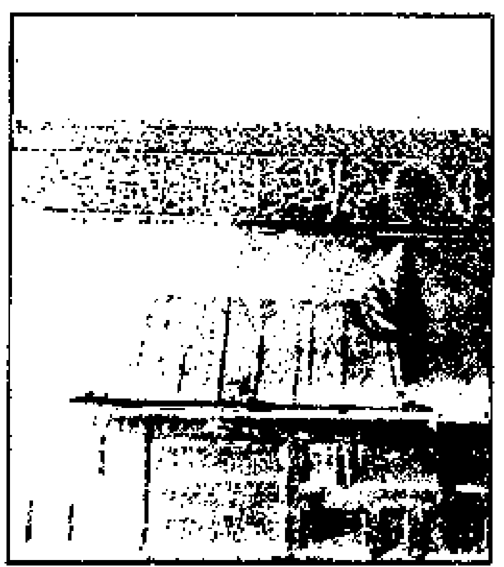
« والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين على صراط مستقيم »

لوحة (١٨٦) كتابة منقوشة بالإيوان الجنوبي نصها :

« وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم »







لوحة (١٨٧) كتابة بالإيوان الجنوبي نصها :

« فهم لا يبصرون ، وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون »



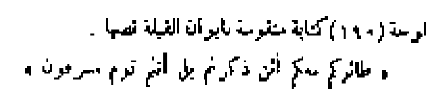
لوحة (١٨٨) كتابة منقوشة على جدران صحن المدرسة ونصها :

« إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن »

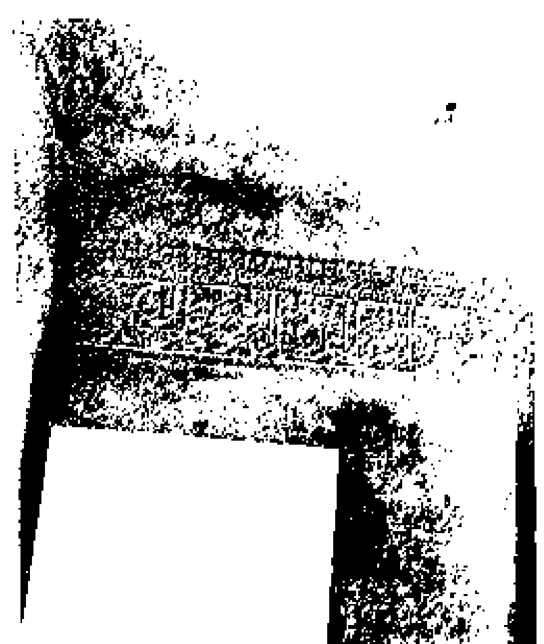
لوحة (١٨٩) كتابة منقوشة بإيوان القبلة نصها :

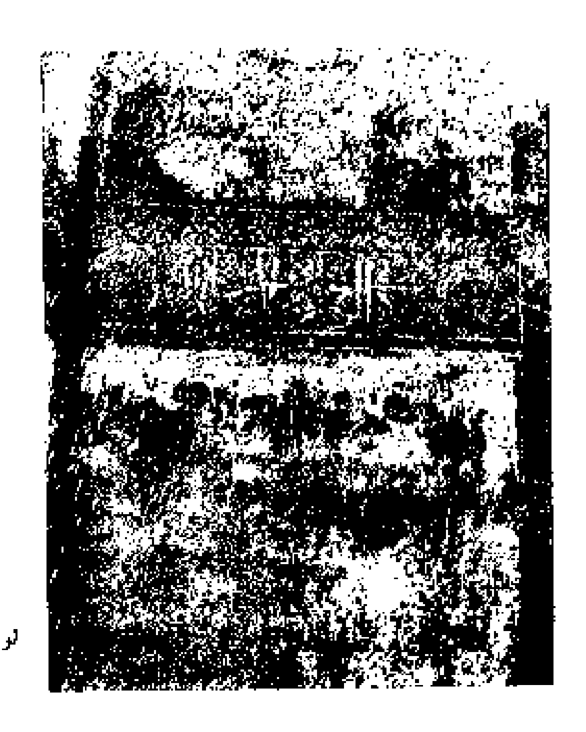
« إنا نحن نحي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه في إمام مبين »





لوحة (١٩٠) كتابة منقوشة بإيوان القبلة نصها .
« طائركم معكم أئن ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون »





لوحة (١٩١) كتابة منقوشة فى جنبة إيوان القبلة نصها :
« إن يردن الرحمن بضر لا تغن عنى شفاعتهم شيئا ولا »

لوحة (١٩٢) كتابة منقوشة في مجنبة أيوان القبلة نصها « وقال : يا ليت قومي يعلمون »





لوحة (١٩٣) كتابة منقوشة في مجنبة أيوان القبلة نصها « القرآن العظيم » أمر بإنشاء هذا المقام

فهـــرس المراجـع العربيــة

(أ)

المؤلف	المرجع	الطبعة
آدم مز	الحضارة الاسلامية (مترجم)	(١٩٥٧ م)
ابن الاثير	اسد الغابة فى معرفة الصحابة	
ابن الاثير	تاريخ الكامل	بولاق (سنة ١٢٩٠ هـ)
ابن أبى أصيبعه	عيون الأنبياء فى طبقات الأطباء	(سنة ١٣٠٠ هـ)
ابن اياس	بدائع الزهور فى وقائع الدهور	(بولاق سنة ١٣١٣ هـ)
ابن تغرى بردى	النجوم الزاهرة فى اخبار مصر والقاهرة	دار الكتب
ابن تغرى بردى	المنهل الصافى فى المستوفى بعبر الوافى	دار الكتب
ابن جبير	رحلة ابن جبير	(طبع مصر)
ابن بطوطة	رحلة ابن بطوطه	(١٢٨٧ هـ)
ابن جرير الطبرى	تاريخ الرسل والملوك	(سنة ١٣٢٦ هـ)
ابن جرير الطبرى	القرى لقاصد ام القرى	(سنة ١٩٤٨ م)
ابن الجيعان	التحفة السنية	(سنة ١٨٨٩ م)
ابن حزم	الفصل فى الملل الأهواء والنحل	(سنة ١٣١٧ هـ)
ابن الحاج	المـــدخل	(سنة ١٩٢٩ م)
ابن الجوزى	المنتظم فى أخبار الملوك والأمم	(سنة ١٣٥٩ هـ)
ابن حوقل	الممالك والمسالك	(سنة ١٨٣٣ م)
ابن حجر العسقلانى	الدرر الكامنة فى اعيان المائة الثامنة	(سنة ١٣٤٩ هـ)
ابن حجر العسقلانى	الاصابة فى تمييز الصحابة	
ابن حجر العسقلانى	أنباء الغمر فى أنباء العمر	(المجلس الأعلى ١٣٩٠)
ابن خرواذبه	الممالك والمسالك	(سنة ١٣٠٩ هـ)
ابن الاخوه	معالم القربة فى أحكام الحسبة	(سنة ١٩٣٧ م)
ابن خلدون	العبر وديوان المبتدأ والخبر	(سنة ١٢٨٤ هـ)
ابن خلكان	وفيات الأعيان وأنباء الزمان	(بولاق سنة ١٢٧٥ هـ)
ابن الزيات	الكواكب السيارة فى ترتيب الزيارة	طبعة بغداد
ابن زولاق	العيون الدعج فى أخبار دولة بنى طغج	(سنة ١٨٩٩ م)
ابن زولاق	فضائل مصر وأخبارها	
ابن رسته	الاعلاق النفسية	
ابن سعد	الطبقــات	
ابن شاكر الكتبى	فوات الوفيات	(سنة ١٣٤٦ هـ)
ابن الدويدار	كشف الدرر وجامع الغرر	
ابن شاهنشاه	تقويم البلدان	(١٨٩٠ م)
ابن الشيخ	ألف بـــاء	سنة (١٢٨٧ هـ)
ابن عبد الحكم	فتوح مصر وأخبارها	
ابن ظهيره	الفضائل الباهرة	(دار الكتب سنة ١٩٦٩م)
ابن دقماق	الانتصار لواسطة عقد الامصار	(بولاق سنة ١٣٠٩ هـ)
ابن العماد	شذرات الذهب فى أخبار من ذهب	(سنة ١٣٥١ هـ)
ابن عبد البر	الانتقاء	
ابن عبد البر	العقد الفريد	(بولاق سنة ١٢٩٣ هـ)
ابن عساكر	تاريخ دمشق	(دمشق سنة ١٩٥١)

ابن العميد	تاريخ المسلمين	سنة ١٩٢٥ م
ابن قتيبه	عيون الاخبار	سنة ١٣٤٨ هـ
ابن القاضى شهبه	الطبقات الشافعية (مخطوطة بدار الكتب المصرية) نشر محمد أبو الفضل ابراهيم	
ابراهيم بن على بن فرحون	الديباج المذهب فى معرفة أعيان مذهب طبقات المالكية	
ابن كثير	البداية والنهاية	(طبع مصر)
ابن محمود السخاوى الحنفى	تحفة الأحباب وبغية الطلاب	(سنة ١٣٥٦ هـ)
ابن مماتى	قوانين الدواوين	
ابن المظفر بن قزا وعلى	مرآة الزمان	
ابن ميسر	أخبار مصر	(سنة ١٩١٩ م)
ابن واصل	مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب	
ابن النديم	الفهرست	(سنة ١٣٤٨ هـ)
ابن النجار	الدرة الثمينة فى أخبار المدينة	(سنة ١٩٥٦ م)
ابن فضل الله العمرى	مسالك الابصار فى ممالك الامصار	(سنة ١٣٤٢ هـ)
ابن الوردى	تاريخ ابن الوردى	(سنة ١٢٥٨ هـ)
أحمد سعيد العسكرى	(ت سنة ٣٨٢ هـ) التصحيف	
أبو حنيفة الدنيورى	الأخبار الطوال	(سنة ١٣٣٠ هـ)
أبو الحسن النونجتى .	فرق الشيعة	
أبو محمد المقدسى	الروضتين فى أخبار الدولتين	(سنة ١٢٨٨ هـ)
أبو محمد يوسف الكندى	الولاة والقضاة	(سنة ١٩٠٨ م)
أبو محمد عبدالله البلوى	سيرة أحمد بن طولون	(سنة ١٣٥٨ هـ)
أبو شامة	الذيل على الروضتين	(القاهرة سنة ١٩٤٧)
أبو الفداء	المختصر فى أخبار البشر	(سنة ١٣٢٥ هـ)
أبو الفرج الاصفهانى	الأغانى	دار الكتب
أبو يحيى زكريا القزوينى	آثار البلاد وأخبار العباد	(سنة ١٨٤٨ م)
أبو نعيم	الحلية البهية	
أحمد تيمور باشا	الآثار النبوية	(سنة ١٣٤٨ هـ)
أحمد تيمور باشا	الرسالة اليزيدية	
أحمد فكرى	المدخل للعمارة الاسلامية	دار المعارف
أحمد فكرى	العمارة الفاطمية	دار المعارف
أحمد فكرى	العمارة الايوبية	
ابراهيم رفعت	مرآة الحرمين	
أحمدى بدوى	الحياة العقلية فى عصر الحروب الصليبية فى مصر والشام	

(ب)

بدر الدين الحسينى	عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان	(سنة ١٨٦٦ م)
البلاذرى	فتوح البلدان	(سنة ١٣١٦ هـ)
البيهقى	المحاسن والمساوىء	(سنة ١٣١٦ هـ)
البيهقى	السنن الكبرى	(الهندسة ١٣١٦ هـ)
بيبرس الداودار	زبدة الفكره	

(ت)

تقى الدين المقريزى	اغاثة الامة بكشف الغمة	(نشر زيادة والشيال)
تقى الدين المقريزى	البيان والاعراب	(سنة ١٩١٦ م)

المؤلف	الكتاب	النشر
تقى الدين المقريزى	الخطط والآثار	(بولاق سنة ١٢٧٠ هـ)
تقى الدين المقريزى	اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الخلفا	(سنة ١٩٠٩)
تقى الدين المقريزى	السلوك لمعرفة دول الملوك	(نشر زيادة)
تاج الدين عبد الوهاب السبكي	طبقات الشافعية	(سنة ١٣٢٤ هـ)
	(ج)	
جمال الدين الشيال	اعلام الاسكندرية	
	(ح)	
حاجى خليفه	كشف الظنون	
حسن ابراهيم حسن	تاريخ الاسلام السياسي ٤ أجزاء	
حسن عبد الوهاب	تاريخ الدولة الفاطمية	(سنة ١٩٦٤ م)
الحافظ الذهبى	تاريخ المساجد الأثرية	(دار الكتب سنة ٦٤)
الحافظ الذهبى	تاريخ الاسلام طبقات القراء	
الحسن عبد الله	آثار الدول فى ترتيب الدول	(بولاق سنة ١٢٩٥ هـ)
	« خ »	
خليل بن ايبك الصفدى	نكت الهميان فى نكت العميان	
	« ز »	
زكى محمد حسن	فنون الاسلام	(سنة ١٩٤٨ م)
الزبيرى	طبقات النحويين واللغويين	(نشر محمد ابو الفضل ابراهيم)
	« س »	
سعاد ماهر	مجرى عيون فم الخليج (مجلة الجمعية التاريخية)	(سنة ١٩٥٩)
سعاد ماهر (ا.د)	مخلفات الرسول فى المسجد الحسينى	(سنة ١٣٨٥ هـ)
سعاد ماهر	مشهد الامام على النجف وما به من التحف والآثار	سنة ١٩٦٩
سعاد ماهر (ا.د)	الحصير فى الفن الاسلامى	(سنة ١٩٦٠)
سعاد ماهر	البحرية فى مصر الاسلامية	سنة ١٩٦٧
سعاد ماهر	محافظات الجمهورية العربية	(سنة ١٣٨٦ هـ)
سعاد ماهر (ا.د)	عقود الزواج على المنسوجات الأثرية	سنة ١٩٦٠
	شواهد القبور بجبانة اسوان (تحت الطبع)	مع آخرين
سعاد ماهر	مساجد مصر واولياؤها الصالحون الجزء الأول	سنة ١٩٧١ (المجلس الأعلى)
سعاد ماهر	الخزف التركى	سنة ١٩٦٠ م
سعاد ماهر	القاهرة واحياؤها القديمة	سنة ١٩٦٥
سعاد ماهر	شجرة الحياة فى الفن الاسلامى	سنة ١٩٦٠
سبط الجوزى	مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان	(سنة ١٩٠٧ م)
السمنهودى	وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى	(سنة ١٣٢٦ هـ)
السيوطى	حسن المحاضرة فى أخبار مصر القاهرة	(دار المعارف سنة ٧٠)

سعيد عبد الفتاح عاشور	الايوبيون والصليبيون فى مصر والشام	
سعيد عبد الفتاح عاشور	الحركة الصليبية (جزءان)	

« ش »

الشبشتى	الديارات	(نشر كوركيس عواد)
شهاب الدين أحمد النويرى	نهاية الارب فى فنون الادب	دار الكتب
شمس الدين السنحاوى	الضوء اللامع لاهل القرن التاسع	(سنة ١٣٥٤ هـ)
الشهرستانى	الملل والنحل	(طبعة الانجلو)

« ط »

الطقطقى	فى الآداب السلطانية	(سنة ١٣١٧ هـ)

« ع »

عبد الوهاب الشعرانى	الطبقات الكبرى	(سنة ١٢٧٦ هـ)
عبد الوهاب الشعرانى	الطبقات الصغرى	
عبد الرحمن الجبرتى	عجائب الآثار فى التراجم والأخبار	(بولاق ١٢٩٧ هـ)
عبد الرؤوف المناوى	الكواكب الدرية فى تراجم السادة الصوفية	(١٣٥٧ هـ ـ ١٩٣٨م)
عبد الرحمن السخاوى	التبر المسبوك فى ذيل السلوك	(سنة ١٨٩٦ م)
عبد الله أحمد الاسوانى	النوبة	
عمر بن محمد الكندى	فضائل مصر المحروسة	
العمدة	بحر أنساب الازروقانى	
على مبارك	الخطط التوفيقية	(بولاق سنة ١٣٠٥هـ)
عبد الغنى البابلسى	الحقيقة والمجاز	مخطوطة
العقاد	عمرو بن العاص	(مطبعة دار العروبة)
العقاد	عبقرية الصديق	(مطبعة دار العروبة)
عمارة اليمنى	تاريخ اليمن	

« غ »

غرس الدين خليل بن شاهين	زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك	(سنة ١٨٩٤ م)

« ق »

القزوينى	آثار البلاد واخبار العباد	
القضاعى	عيون المعارف وفنون أخبار الخلايف	
القلقشندى	صبح الأعشى	(بولاق سنة ١٩١٤)
القفطى	أبناء الرواة	
القاضى عياض	ترتيب المدارك	

« ك »

كمال الدين الأدفوى	الطالع السعيد	سنة ١٩١٤ م

« م »

محيى الدين الخطيب	الأزهر	(سنة ١٣٤٥ هـ)
محمد الصبان	اسعاف الراغبين فى سيرة المصطفى وفضائل اهل بيته الطاهرين	(سنة ١٢٩٠ هـ)
محمد توفيق البكرى	بيت السادات الوفائية	(سنة ١٣٣٦ هـ)
محمد كامل حسين	ادب مصر الفاطمية	(ألف كتاب)
محمد بن عبد الله الزركشى	اعلام الساجد بأحكام المساجد	(المجلس الأعلى سنة ١٢٨٥)
محمد أحمد	جامع عمرو بن العاص	بولاق ١٩٣٨
محمد عبد الحى الكنوى	الفوائد البهية فى تراجم الحنفية	سنة ١٣٢٤ هـ
محمود عكوش	تاريخ الجامع الطولونى	سنة ١٩٢٧ م
محمود الببلاوى	التاريخ الحسينى	سنة ١٣٢٤ هـ
المقدسى	احسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم	١٩٠٩ م
المسعودى	التنبيه والاشراف	١٨٩٣ م
المسعودى	مروج الذهب	بولاق ١٢٨٣ هـ
محمد أبو زهره	الامام مالك حياته وعصره ، آراؤه وفقهه	(الانجلو سنة ١٩٤٦)
محمد بن الحسن الطوسى	فهرست كتب الشيعة	(كلكتا سنة ١٨٥٥)
المناوى	الكواكب الدرية فى تراجم السادة الصوفية	
محمد بن محمد الجزرى	غاية النهاية فى طبقات القراء	
محمد زيتون	القبارى زاهر الاسكندرية	
المسعودى	مروج الذهب	(بولاق ١٢٨٣ هـ)

« ن »

ناصر خسرو	سفرنامه (تعريب يحيى الخشاب)	
نعوم شقير	تاريخ سيناء	(سنة ١٩١٦ م)
النويرى	الالمام بالاعلام بما جرت به الأحكام المقضية فى واقعة الاسكندرية	(مخطوط بدار الكتب المصرية)
النعيمى	بغية الطالب وارشاد الدارس فيما دمشق من الجوامع والمدارس	مخطوطة بالمكتبة التيمورية

« ى »

ياقوت الحموى	مراصد الاطلاع فى أسماء الأمكنة والبقاع	(سنة ١٨٧٩ م)
اليعقوبى	تاريخ اليعقوبى	(سنة ١٣٥٨ هـ)
اليعقوبى	البلدان	(سنة ١٨٩٢ م)
يعقوب بن ابراهيم	كتاب الخراج	(سنة ١٩٠٢ م)
يحيى بن الحسين	تاريخ الأئمة السادة على مذهب الزيدية	(العراق)
ياسين بن خير الله العمرى	مهذب الروضة الفيحاء فى تواريخ النساء	

فهـرس المراجع الأجنبية

1. **Abu Saleh** : Churches and Monasteries of Egypt (Oxford 1895).
2. **Ahmed Fakhry** : The Oasis of Siwa (Cairo).
3. **Ahmed Fakhry** : The Necropolis of El-Bagawat in Kharaga Oasis (Cairo).
4. **Butler** : Churches of Egypt.
5. **Butler** : Ancient Coptic churches (1884).
6. **Creswell** : Early Muslim Architecture vol. I & II (Oxford).
7. **Creswell** : Muslim Architecture of Egypt (Oxford).
8. **Cost Pascal** : Architecture Arabe ou Monuments du Caire (Paris 1839).
9. **David Weill** : Bois à épigraphes jusqu'à l'époque Mamlouk.
10. **Devonshire** : La Mosquée de d'Amru (B.I.F. Tome XXXII 1931).
11. **Devonshire** : L'Egypte Musulmane et les founelateurs de ses monuments (Paris 1926).
12. **Dimand** : A Handbook of Muhammedan Art (Second edit. 1946).
13. **Dimand** : Studies in Islamic Ornaments. (Art Islamica vol. IV).
14. **Hautecour et Wiet** : Les Mosquées du Caire (Vol. I & II 1932).
15. **G. Wiet** : Répertoire chronologique de l'Epigraphie Arabe.
16. **G. Wiet** : Deux inscriptions cofigues de Qous (Bulletin I.E. Vol. XVII 1935 & 36).
17. **G. Wiet** : L'Egypt Arab (Paris 1937).
18. **Gnohman A.** : Arabic Papri in the Egyptian Library (Cairo 1932).
19. **Gouthier Henri** : Les noms d'Egypte depuis Hérodote jusqu'à la Conquête Arabe (Cairo 1935).
20. **Lane-Poole** : Egypt in the Middle Ages.
21. **Lavoix** : Catalogue des Monniaes Musulmanes.
22. **Loumme** : Fatimid wood Work (B.I.E. XVIII 1935 - 36).
23. **Mayer** : Islamic Wood Carver and their work (Albert, Geneva 1930).
24. **Monneret de Villard** : La Necropoli Musulman di Aswan. (Le Caire 1930).
25. **Pauty** : Le minbar de Qous (1940).
26. **Patricolo A.** : Comité de Consavation (1915 - 1916).
27. **Prisse D'Avennes** : L'art. Arabe Atlas.
28. **Van Bercham** : Matériaux pour un corpus. Inscriptionum Arabicarum (M.M. A.F. du Caire).
29. Répertoire chronologique d'épigraphie Arabe.
30. Encyclopaedia of Islam.

فهـــرس الأشــــكال

فهـــرس الأعـــلام

(أ)

(ب)

(ت)

(ص)

(ض)

(ط ، ظ)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

(و)

(ى)

فهرس الأماكن والبقاع

(ا)

(ب)

(ت)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ض)

(ط)

(ظ)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(م)

(ن)

(هـ)

(و)

(ى)

فهرس لوحات الجزء الثانى
من مساجد مصر وأوليائها الصالحين

لوحة ١٠٦ ــ الزاوية المشطوفة بقبة الصالح نجم الدين أيوب .
لوحة ١٠٧ ــ المدرسة الصالحية بالصاغة .
لوحة ١٠٨ ــ مئذنة المدرسة الصالحية .
لوحة ١٠٩ ــ الجزء الشمالى من الواجهة الغربية للمدرسة الصالحية .
لوحة ١١٠ ــ قبة الصالح نجم الدين أيوب المجاورة للمدرسة الصالحية .
لوحة ١١١ ــ محراب قبة الصالح نجم الدين .
لوحة ١١٢ ــ تفاصيل الزخارف التى تعلو المدخل الرئيسى للمدرسة الصالحية .
لوحة ١١٣ ــ ايوان القبلة بالمدرسة الصالحية .
لوحة ١١٤ ــ نوافذ المدرسة الصالحية .
لوحة ١١٥ ــ الزخارف التى تحيط بنوافذ المدرسة الصالحية .
لوحة ١١٦ ــ تفاصيل الزخارف المنقوشة على أعتاب وعقود نوافذ المدرسة الصالحية .
لوحة ١١٧ ــ زخارف نوافذ المدرسة الصالحية .
لوحة ١١٨ ــ الواجهة الغربية بقبة الصالح نجم الدين .
لوحة ١١٩ ــ التفاصيل الداخلية لقبة الصالح نجم الدين .
لوحة ١٢٠ ــ القبة التى تعلو ضريح الصالح نجم الدين .
لوحة ١٢١ ــ المدخل الرئيسى لقبة ضريح الصالح نجم الدين .
لوحة ١٢٢ ــ تفاصيل الزخارف الجصية التى تملأ نوافذ قبة الصالح نجم الدين .
لوحة ١٢٣ ــ جامع وقبة ابو الحجاج بالأقصر .
لوحة ١٢٤ ــ جامع ابو الحجاج وخلفه معبد مصرى .
لوحة ١٢٥ ــ مئذنة ابو الحجاج .
لوحة ١٢٦ ــ مدخل ضريح ابو السعود العشائرى بقرافة السادات الوفائية .
لوحة ١٢٧ ــ أحد عقود ضريح ابو السعود العشائرى .
لوحة ١٢٨ ــ عقود ايوان ضريح أبى السعود العشائرى .
لوحة ١٢٩ ــ مسجد أبو مسلم بالشرقية .
لوحة ١٣٠ ــ محراب أبو مسلم بالشرقية .
لوحة ١٣١ ــ كتابة تعلو محراب ضريح أبو مسلم .
لوحة ١٣٢ ــ مقبرة أبو مسلم .
لوحة ١٣٣ . أحد اركان قبة أبو مسلم .
لوحة ١٣٤ ــ سمت قبة أبو مسلم من الداخل .
لوحة ١٣٥ ــ مئذنة أبو مسلم .
لوحة ١٣٦ ــ ضريح شجر الدر .
لوحة ١٣٧ ــ ضريح شجر الدر وتبدو فوقه القبة .
لوحة ١٣٨ ــ المدخل الرئيسى لقبة شجر الدر .
لوحة ١٣٩ ــ الزخارف التى تعلو أبواب ضريح شجر الدر .
لوحة ١٤٠ ــ البئر الموجودة بجوار ضريح أبى الحسن الشاذلى بحميثرى .
لوحة ١٤١ ــ مسجد سيدى أبو الحسن الشاذلى .
لوحة ١٤٢ ــ ضريح سيدى أبو الحسن القديم بحميثرى قرب عيذاب .
لوحة ١٤٣ ــ قبة ضريح سيدى أبو الحسن الشاذلى القديمة .

لوحة ١٨٣ — محراب المدرسة القادرية .
لوحة ١٨٤ — كتابة منقوشة بالخط الثلث المملوكي نصها :
« بسم الله الرحمن الرحيم يس » بالايوان الشرقى للمدرسة القادرية .
لوحة ١٨٥ — كتابة منقوشة بالايوان الجنوبى للمدرسة القادرية نصها :
« والقرآن الحكيم انك لمن المرسلين على صراط مستقيم »
لوحة ١٨٦ — كتابة منقوشة بالايوان الجنوبى نصها :
« وجعلنــا من بين ايديهم سدا ومن خلفهم سدا فاغشيناهم » .
لوحة ١٨٧ — كتابة بالايوان الجنوبى نصها :
« فهم لا يبصرون وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون » .
لوحة ١٨٨ — كتابة منقوشة على جدران صحن المدرسة ونصها :
« انما تنذر من اتبع الذكر وخشى الرحمن »
لوحة ١٨٩ — كتابة منقوشة بايوان القبلة نصها :
« انا نحن نحى الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم وكل شىء أحصيناه فى إمام مبين »
لوحة ١٩٠ — كتابة منقوشة بايوان القبلة نصها :
« طائركم معكم ائن ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون »
لوحة ١٩١ — كتابة منقوشة بحنية ايوان القبلة نصها :
« ان يردن الرحمن بضر لا تغن عنى شفاعتهم شيئا ولا »
لوحة ١٩٢ — كتابة منقوشة فى صينية ايوان القبلة نصها :
« قال : ياليت قومى يعلمون »
لوحة ١٩٣ — كتابة منقوشة فى صينية ايوان القبلة نصها :
« القرآن العظيم » « أمر بانشاء هذا المقام » .

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

مطابع الأهرام التجارية

رقم الايداع ٣٠٠٥ / ١٩٧٦
الترقيم الدولى ٩٧٧–٧٠٤٩–٠٦–٤ ISBN